يحكى أن

عن الذات والحرب والثورة

أسعد طه



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

يُحكى أَنّ

عن الذات والحرب والثورة

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت ـ المكتب الرئيسي:
رأس بيروت، المنارة،
شارع نجيب العرداتي
ص.ب: ٥٢٨٥ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت
١١٠٣٢٠٣٠ ـ لبنان
هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧
محمول: ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧
E-mail: info@arabiyanetwork.com

بيروت ـ مكتبة
السوليدير، مقابل برج الغزال،
بناية المركز العربي
هاتف: ٠٠٩٦١١٩٩١٨٤١

القاهرة ـ مكتبة
وسط البلد، ٢٢ شارع عبد الخالق ثروت
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٣٥

الاسكندرية ـ مكتبة
عمارة الفرات،
٢٤ شارع عبد السلام عارف
هاتف: ٠٠٢٠١٢٠٥٢٨٩٦٨٥

الدار البيضاء ـ مكتبة
٢٨ زنقة روما، تقاطع شارع
مولاي إدريس الأول
هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧

تونس ـ مكتبة
١٠ نهج تانيت، نوتردام،
قبالة وزارة الخارجية
هاتف: ٠٠٢١٦٥٠٨٣٠٥٥٤

اسطنبول ـ مكتبة
حي الفاتح، شارع الخرقة الشريفة،
المتفرع من شارع فوزي باشا
هاتف: ٠٠٩٠٥٥٣٦٩٥٣٤٧٧

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر

طه، أسعد
يُحكى أنّ: عن الذات والحرب والثورة/ أسعد طه.
٤٤٧ص.
ISBN 978-614-431-163-9
١. طه، أسعد ـ مذكرات. أ. العنوان.
320

تصميم الغلاف: عمرو الجنتيري

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٨

يُحكى أَنّ
عن الذات والحرب والثورة

أسعد طه



أسـافر إلـى المناطـق الرماديـة
فـي التاريـخ والجغرافيـا ثـم
أعود فأحكيها حكايات .

إهـــــداء

إلى من علماني مقاومة الأذى..

والحب والإيمان والحكاية..

اللهم ارحمهما كما ربياني صغيرًا..

المحتويات

توطئة

المجد للحكاية

وعدتني أمي أن موعدي بعد العصر، تعرف هي أن ذلك أجمل المفاجآت لي، قبل أن تصفرَّ شمس السويس الحامية بقليل، كانت تكْوِي ملابسي وتهيئني للخروج، سبع سنوات ربما أو ثماني كان عمري حينها، أخرج ممسكًا بيد والدي، يدلف بي إلى شارع جانبي حيث نشرب كوبَيْن من عصير القصب وسط احتفاء البائع ثم نكمل المسير.

نصل إلى الهدف، يجلس والدي خارج المكتبة مع صديقه صاحبها الخواجة اليوناني، يحتسيان القهوة ويتسامران، فيما أنا أستمتع وحدي بوجودي داخلها بين عشرات الكتب التي لا أستطيع فك طلاسمها، إلا الصور ربما، غير أنّي سعيد في خلوتي، لا يزعجني إلا دخول مشترٍ.

وعندما يحين وقت الانصراف يصرُّ والدي على أن يشتري لي قصة أختارها، ما زلت أذكر جيدًا قصة الحمار الذي كان يتمرد على صاحبه، فيتمرغ في التراب ويتناثر ما يحمله من بضاعة، فيقرر صاحبه تأديبه، يحمِّله أكياس الإسفنج، وعند المكان المعتاد ينزل

الحمار في الماء فيزداد وزن حمولته، كل شيء أذكره حتى رسومات هذه القصة، ليتها معي الآن.

والدي شخص مدهش، وأنت لن تعرف ذلك من مظهره، سيحتاج الأمر أن تتعامل معه مرات ومرات لتعرف مثلًا حبَّه للغته العربية التي درسها وتخرج في كليتها «دار العلوم»، لكنه لا يتعامل معها من منطق الوظيفة أو المهنة، ولكن من منطق العشق.

ستأخذك الدهشة أكثر عندما تسمعه يحكي حكاية، كان أصدقاؤه يزورونه في بيتنا، يدخلون إلى الصالون يجلسون يثرثرون ويملؤون الدنيا صخبًا وضجيجًا، ثم فجأة لا تسمع همسًا، فنعرف نحن أهل الدار أن والدنا يحكي، وما أن ينتهي حتى ينفجروا في ضحك هستيري.

حتى في حكاياته الطريفة لا يبتذل، يحكي النكتة بوقار شديد، تأخذك جديته، تتخيل أن أمرًا مريبًا سوف يقصه عليك، لكنه يفاجئك بخاتمة مبهرة مضحكة.

في صغري أيضًا كنت أصغي لأختي وهي تحكي عن صديقتها، التي تشاهد فيلمًا سينمائيًا فتقصه في ضِعْف مدته الزمنية، إنها تحكي كل شاردة وواردة، تصف بدقة متناهية تفاصيل المشهد، الملابس والخلفية والإضاءة والمؤثرات الصوتية، قدرة غير عادية على السرد.

ولما كبرت قليلًا كنت أسأل نفسي دومًا عن سر الحكاية في القرآن، إنه كتاب مقدس نزل من العليِّ القدير، لكن الحكاية نفسها تُذكَر مرة ومرة ومرة، أقرأ تفسيرات متعددة، لا تقنعني كثيرًا، أستغرب، أواصل القراءة وأستمتع.

لاحقًا أدركتُ أنَّ الحكاية أشبه بالسحر، بقدر ما يتقنها حاكيها بقدر ما يتسمَّر أمامها القارئ أو السامع أو المشاهد، فتفعل به الأفاعيل، ثم تمر الأيام لينقلها لمن هم بعده، وكأنها أمانة يجب حفظها وتسليمها للأجيال المتتالية.

الحكاية هي الأسلوبُ الأمثل والمحبب للنفوس، نسمعها صغارًا من آبائنا وأمهاتنا، ونسردها كبارًا على أطفالنا لينقلوها إلى أطفالهم، ويشترك الجميع في أنهم يدسُّون فيها ما شاء لهم من أفكار يريدون تمريرها.

من بوسعه أن ينسى مثلًا ألف ليلة وليلة، وسيرة عنترة بن شداد، وأبا زيد الهلالي، بل وعلي بابا والأربعين حرامي، والسندباد، والحكواتي وحكاياته التي يسردها في المقاهي وأماكن تجمع الناس في سهراتهم.

الحكاية لجأ إليها الفرد ولجأتْ إليها الشعوب، وفي ذلك استوى الجميع على وجه الأرض وعلى مرور الزمان، فكانت تسجيلًا للتاريخ، وتوثيقًا للأحداث الكبرى، ورسمًا لا يُمحَى لثقافات الشعوب وعاداتها وتقاليدها، ودعوة غير مباشرة لقيمة ما، فكانت القصة والرواية والموال الشعبي والشعر والزجل والأفلام السينمائية، أما الأفلام الوثائقية فإن هناك من يقول إنها شأن آخر، غير أني أعتقد أنها ليست سوى حكاية.

يقول القاص البرازيلي الشهير «باولو كويلو» إن إحدى أقدم الطرق التقليدية التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله كانت القصص والروايات، ويفيد الروائي الألماني «إلياس كانيتي» أن على الروح أحيانًا أن تستجمع قواها عن طريق قصّ حكاية طويلة، وإن كان الإذاعي الأمريكي «إيرا غلاس» يدّعي أن القصص العظيمة

تحدث لأولئك الذين يبرعون في قصها، أما حكمة الشاعرة «Pavana» فواضحة وإنما أعمارنا بالحكايات وليست بالأعوام.

في «الجزيرة» كانت لي تجربتان، بالأحرى سلسلتان: إحداهما «نقطة ساخنة»؛ أسميه أنا برنامجًا وثائقيًا، يتبع نفس الطريقة التقليدية المعروفة، فيما الآخر هو «يحكى أن» يعتمد على الحكاية وعلى مشاهد إعادة التمثيل، وعلى الأسلوب الأدبي الذي كنت أحاول أن يكون ممتعًا، فيأتي ذلك في ظني مطابقًا لتعريف الفيلم الوثائقي على لسان رائده «جون جريرسون» بأنه المعالجة الخلاقة للواقع.

في كتابه الشهير «القصة: مبادئ الكتابة للسينما» تحدث «روبرت مَكّي» عن تلك الحادثة التي وقعت قبل الميلاد بأقل من أربعمئة عام، حين كان «أفلاطون» يلحّ على آباء مدينة «أثينا» بأن ينفوا كل الشعراء والحكائين؛ لأنهم برأيه يخفون أفكارهم داخل عواطف الفن المُغوية، ولأن قصصهم مؤثرة تشع كل منها فكرة مشحونة للمتلقين، تدفعهم لكي يؤمنوا بها، ويصدقوا معناها حتى وإن وجدوها كريهة من الناحية الأخلاقية.

لقد كان عمنا «أفلاطون» مُصرًا على أن حكائي القصص أناس خطرون، ويبدو أنه كان على صواب في ذلك، حتى أولئك الذين يصنعون الأفلام الوثائقية!

الأولى

فإذا ما هزمته ظل عالقًا بك

ما أن تشتد المعارك حتى يتقاسم المصورون شوارع «سراييفو» بانتظام ووفق خطة محكمة تضمن تغطية كل المناطق والأحياء، يثبتون كاميراتهم في الزوايا المناسبة، ويديرونها بصفة مستمرة. على مدار الساعة يُخرجون شريطًا ويضعون آخر، على أمل اصطياد صورة مميزة، قذيفة أو قتيل، بيت ينهار أو طفل يصرخ.

شريط الصورة هنا يفيد أن امرأة كانت تسير بجوار البناية التي يعتلي سقفها المصور، وهي تدفع عربة رضيعها وبصحبتها طفلها الآخر، استهدفتها رصاصة قناص صربي فسقطت قتيلة في الحال فيما ظل الطفلان يصرخان، شريط الصوت المصاحب سجَّل صوت المصور البوسني وهو ينطق بعبارة استفزازية: «الرصاصة قتلت المرأة.. رائع.. ممتاز!»، الرجل لم يكن بالتأكيد فرحًا بالحدث وإنما سعيد بصيده، لقد وثَّق الجريمة، لكن كل من شاهد الصورة وسمع الصوت وفهم اللغة استنكر ردَّ فعله.

في حياتهم المهنية، كم من مرة يرى فيها هؤلاء التعساء من مصورين وصحفيين الموت وهو يأتي كطائر تنقشع السماء فجأة عنه ليخطف هذه الروح أو تلك؟ كم مرة سمعوا فيها صرخات الضحايا الأليمة، ونظرات عيونهم المفجوعة، وحشرجة أصواتهم الأخيرة؟

في «رواندا» كانت الحرب الأهلية قد وضعت أوزارها إلا قليلًا، قبيلتان تتصارعان بوحشية، وواحدة سمحت لنا بزيارة معسكر اعتقال للآلاف من أبناء القبيلة العدو، الحافلة التي ضمت صحافيين من كل أنحاء العالم قطعت ساعات تسير في غابات غاية في الجمال، وكأنها الجنة.

ما أن عبرنا بوابة المعسكر إلا وتحول المشهد فجأة إلى ما يشبه الأبيض والأسود؛ أرض جرداء، وهياكل آدمية تتحرك هنا وهناك، وقليل من العسكر المدجج بالسلاح، لا طعام ولا ماء، كل ما هو أخضر يُنتزع حتى عشب الأرض، ويُطهى في أشباه قدور على نار يمكن افتعالها بصورة أو بأخرى.

على جانبي الممر المؤدي إلى داخل المعسكر جثث أطفال رُضَّع ماتوا جراء سوء التغذية، وسيارة الصليب الأحمر تلملم جثثهم، الناس هنا تموت بالمجان، والتعليمات لنا كصحفيين واضحة، من يمنحهم كسرة خبزٍ يُقتل مهما كانت جنسيته، على الأرض إنسان ممدد، لا يتحرك منه إلا عيناه، يحتضر، نلتف نحن التعساء حوله بكاميراتنا، جنسياتنا مختلفة، عقائدنا مختلفة، ألواننا مختلفة، عجزنا واحد، ينظر إلينا ونحن نصوره في نزعه الأخير، يستجدينا، يستعطفنا، ونحن عاجزون، تدور عيناه بيننا، ولا نعرف ماذا يدور في خلده، قبل أن يغمضهما للأبد، ننصرف نحن لكن الألم لا ينصرف.

نساء يدخلن إلى قاعة ضخمة مهيبة، الرائحة النفاذة ستعلق بي لأيام عدة، دقات قلب الحضور تتسارع، الرهبة في كل الأنحاء، طاولات طويلة تبدو وكأن لا نهاية لها، عليها رصت عشرات الهياكل العظمية، وحول كل واحدة منها بعض المتعلقات؛ خاتم

زواج، فردة حذاء، قلم، بقايا نظارة طبية، تمر النساء البوسنيّات عليها، تمسك كل واحدة بالعظام، تديرها يمنة ويسرة، تبحث عن دليل يثبت أن هذا لولدها أو زوجها أو شقيقها، أي دليل على أن هذا هو ما تبقى من حبيب العمر.

تُرى أي كلمات عبقرية تلك التي بوسعها وصف الحال، تنفجر إحداهن بالبكاء فتعرف الأخريات أن زميلتهن تعرفت على جثة قريبها، تناقض غير عادي، إنهن يعزينها في فقيدها ويهنئنها في الوقت نفسه أنها أخيرًا وجدته، فيما هن ما زلن حائرات. ألمٌ لا حدَّ له، نسجل اللحظة ونغادر، لكن الألم يبقى.

شريط الذكريات لا يهدأ، طفلة «فلورا»، المدينة الألبانية الجميلة، وهي تحكي لي عند الشاطئ أن أباها قد خاض مغامرة الهروب إلى الناحية الأخرى حيث إيطاليا، وحيث وعدها باللعبة التي تشتهيها، ولا تعلم أن البحر الفاصل يشتهي الإنسان أحيانًا فيضمه للأبد.

أشد ما يؤلم دومًا هو مشهد الأطفال، هم من يدفعون ثمن غباء الكبار وتوحشهم وجشعهم، طفل «توزلا» البوسنية الراقد على السرير مصابًا في حالة ذهول بعد أن ذُبح أفراد أسرته بأكملهم أمام عينيه، الطفلة الصومالية في كوخ صغير كالقرطاس في أطراف «مقديشو» وفي طقس حارّ لاهب وقد بدا وجهها مثل عجوز في السبعينيات، الصبي في أطراف مدينة «شالي» الشيشانية ممدد على شبه سرير في شبه مستشفى بلا غطاء ولا مخدر، وقد أحرقت قنابل «بوتين» معظم جلده.

عندما تسافر كثيرًا تشعر أن هذه الأرض مهما امتدت هي بيتك، وأن ساكنيها مهما اختلفوا هم أهلك، يفرحك فرحهم

ويحزنك حزنهم، لكن هل يظل بوسعك إذن أن تتحمل كل هذا الألم؟

الدكتور «يوسف إدريس» هجر مهنة الطب إلى الأدب بعد أن شعر أن قلبه لم يعد يتألم إزاء آلام الناس، تمامًا كما فعل «محمد المنسي قنديل»، فهل أغنتهما الكلمة عن الألم؟ هل يمكن أن يتوقف الإنسان عن الألم؟

يومًا وفيما كنت أغطي أحداث حرب «البوسنة»، وجدتُ مراسلة لشبكة عالمية تسأل مترجمتها ماذا عن هذه الحالة؟ فترد المترجمة: اغتصاب، فتقول المراسلة: اصرفيها أريد حالة أشد، وهذه؟ فترد: ذبحوا زوجها، فتعاود المراسلة بوجه عبوس: لا لا، أريد أشد، وهذه العجوز؟ وتستمر هكذا في التعامل مع «الحالات» بدم بارد وأعصاب حجرية.

أسأل نفسي هل يجب أن أكون هكذا حتى أكون مهنيًا؟ هل عليّ أن أكتم ألمي وأكتفي بتوثيق اللحظة، وأتعامل مع «الحالات» ببرود، أو أن أبقى إنسانًا، أتألم لهذا وأبكي لذاك؟ هل يمكن أن تكون إنسانًا وأن تكون مهنيًا في الوقت ذاته؟ وهل في القلب متسعٌ لكل هذا الألم؟

أحيانًا يصيب العجز والشك والاكتئاب الذين ينقلون الصورة، إنهم يتشككون في جدوى ما يفعلون، وماذا تفعل الكلمة مكتوبة أو مسموعة أو مرئية لأناس في حاجة إلى شربة ماء أو دواء، أو ضمادة توقف الجرح النازف، لكن هل يتحرك العالم إلا على وقع الكلمة؟

مللتُ يومًا من إيقاع الحرب في «البوسنة والهرسك»، فقررت الذهاب إلى «الشيشان» في حربها الأولى بين عامي أربعة وتسعين

وستة وتسعين من القرن الفائت، في المرة الأولى بقيت هناك حوالي ثلاثة أسابيع، وفيها عشت أيامًا من أصعب أيام حياتي، حتى إنني شعرت بالأمان والسعادة وأنا عائد إلى «البوسنة» بكل مآسيها الجارية؛ ذلك لأن ما كان يحدث في «الشيشان» أشد فداحة من الحاصل في «البوسنة»، لكن الناس لا يعلمون؛ لأن الإعلام الدولي ـ لغرض في نفس يعقوب ـ قرر والحرب جارية أن يتوقف فجأة عن التغطية، وكأن الحرب انتهت، وكأن الناس لا يموتون كل يوم، وكانت حصيلة رحلتي مساهمة في أن يعلم الناس.

في «الشيشان» تملكني الخوف كثيرًا، لا بنية تحتية يمكن أن تحتمي بها، الطائرات الروسية تقذف من السماء عشرات القنابل، أطنان من الحديد تسقط فوق رأسك، لا مخبأ منها إلا بيوت خشبية ترقص مع دوي القنابل، كلمات المقاتل الشيشاني ترعبني: إذا ما أُصبتَ ليس لك إلا أن تتحامل على نفسك لتذهب إلى أقرب وحدة علاجية، أو أن تبقى في انتظار الموت. إذن لن يرى أطفالي حتى جثتي، لن يحتضونها وهم يقرأون الفاتحة.

المقاتل يعتقد أن البندقية قد تحميه من بعض الأذى، فماذا يحمي الصحفي؟ الصحفي يخاف الحرب وهو يخاف أيضًا الاعتقال، لا تعلم كيف سيُمثَّل بك، ولا كم ستبقى أسيرًا في قبضة من يعتقد أنك عدوه حتى وإن صدق أنك صحافي. في كل مرة أعود إلى بيتي أقرر ألا أعود إلى الحرب، لكن بعد حمام ساخن، وفنجان من القهوة، والتفاف الصغار وأمهم حولي أتراجع عما عزمت عليه وأقرر العودة.

تمر الأيام والسنون، وتعتقد أنك هزمت الخوف وهزمت الألم، لتكتشف أنك نجوت غير أن روحك امتلأت عن آخرها

بالندوب، يقولون إنه كرب ما بعد الصدمة، ويقول الدكتور «حمزة الشرجبي»: «لا تعود الحياة إلى ما كانت عليه بعدما يُطلَق عليك الرصاص، ولا بعدما تشهد جرائم ضد الإنسانية أو تتعرض للتعذيب، قد تكون هذه معلومة بديهية للبعض، لكن ما يغيب عنا أن التعرض لهذه الأخبار والعمل عليها بشكل مطوَّل يؤدي أيضًا إلى نتيجة مشابهة».

ويصف الدكتور «حمزة» أعراضها بالتوتر النفسي والجسدي العام الذي ينتج عنه الأرق، حدَّة الطباع، صعوبة التركيز، الفزع، «وأشد الأعراض خطورة هو فقدان الإيمان بما كان يحركنا سابقًا، والشعور بالعزلة، ليدخل الشخص في دوامة عميقة من الشعور بالذنب والعجز».

أستعيد شريط الذكريات، أحاول أن أثمِّن ما فعلت لعله يعزيني الآن، يسعدني شعور أنني فعلت شيئًا، شيئًا ما، أو حتى أسهمت في فعل شيء، حتى ولو كان مجرد إشارة في اتجاه الجناة، أو حتى شهادة أمام الله وأمام التاريخ.

تفرح أنك تغلبت على الخوف، أنك هزمت الألم، فضحته أمام عيون العالم، انتصرت عليه، لكن سرعان ما تكتشف بعد سنوات عمرك الطويل أنك وإن هزمته ظل عالقًا بك.

الثانية

جدوى الكلام

بدأ الأمر بخبر، وانتهى بخبر..

من زاوية في جريدتي اليومية انتزعت قصاصة، ضممتها إلى ملف يحوي ما يستحق يومًا أن تدب الحياة فيه عملًا وثائقيًا، بعد عدة أسابيع جاءني زميل ليقترح عليّ موضوعًا عن سفينة غرقت بركابها وهم يحاولون الهروب من «إندونيسيا» إلى «أستراليا» طلبًا للجوء السياسي، هو هو، الخبر ذاته، استبشرت بالمصادفة.

المسافة بعيدة جدًا بين خبر تطّلع عليه في صحيفتك اليومية وبين الواقع؛ في الأول تقرأ في لحظاتٍ غرق حوالي أربعمئة من البشر ونجاة حوالي أربعين، تقطب حاجبيك وتمضي إلى الخبر الذي يليه؛ وفي الآخر ترتبك حين تجد نفسك فجأة في مواجهة ناجين يعدون أنفسهم موتى، كالعادة سألت نفسي: هل أدع الناس في أحزانهم، أم أمضي إلى توثيق الكارثة وتسجيلها، فأنكأ بالحديث معهم جراحهم وأجدد أحزانهم؟ هل في الإعلان عن مأساتهم مساعدة، أم هو تذكير بأهم الأحزان؟ يا إلهي، ما فائدة هذا الأمر؟ ما جدوى الكلام؟ كنت حائرًا بين حاستي المهنية، وبين شعوري الإنساني.

بسطاء للغاية، طيبون للغاية، ضحايا للغاية، عائلات بكاملها،

بأطفالها ونسائها، تقرر الفرار من «العراق» في زمن «صدام»، فتهرب إلى «إيران»، ومنها تسافر إلى «ماليزيا»، ومن ثَمَّ تهرب مرة ثالثة إلى «إندونيسيا»، ومرة رابعة إلى «أستراليا»، رحلة طويلة مضنية، أخطر ما فيها مرحلتها الأخيرة. عندما يُقدم رجل وزوجته على اصطحاب أولادهم الخمسة في مغامرة الهروب عبر المحيط بقارب متواضع، فإنه لا معنى لذلك إلا أن الظلم الواقع عليهم في بلدهم أشد وأخطر من عبور المحيط بقارب.

كانوا زاهدين في الحديث، لعلهم كانوا يتساءلون هم الآخرون، وماذا يجدي الكلام؟ غير أن بعضهم كان يتحرق ليروي الحكاية، كأنه يريد أن يفضي بما لديه، كأن بودّه أن يصرخ ليسمعه الكون كله، راهنت على هؤلاء ليُقنعوا الآخرين، وعندما بدأوا لم يتوقفوا، تحدثوا وتحدثوا وتحدثوا.

فكرت وأنا أنصت لهم أن رحلة الهروب من «العراق» وحتى الوصول إلى «إندونيسيا» هي في حد ذاتها مأساة، فما بالك برحلة الموت في المحيط؟ تفاصيل، تفاصيل لا يمكن للمرء أن يتصورها، ويضيق بها الحيز الزمني المخصص للفيلم الوثائقي، بعضهم يرتبك أمام الكاميرا، بعضهم يبكي، بعضهم يهيم وينسى الكاميرات والإضاءات المسلطة عليه، بعضهم يتحدث ولسانه معقود، فإذا ما انقضت ساعات التصوير، انطلق بحكايات أشد قسوة من تلك التي ذكرها أمام الكاميرا.

مرات عديدة رغبوا في التوقف، آذتهم الذكرى، الأغرب أن بعضهم على رغم أنه هزم الموت لم يستطع أن يهزم الخوف، الخوف على الأقرباء في «العراق» الذين سيتعرف عليهم النظام بعد أن تخرج قصتهم إلى العلن فينكل بهم.

لم يكونوا يتألمون وحدهم، كل فريقنا كان يتألم معهم، لم نكن نشعر بأننا نؤدي عملًا مهنيًا نتكسب من ورائه، وإنما نؤدي مهمة، نفضح فيها فعل الظالمين في المظلومين، كيف يدفعونهم للموت جماعات؟ شكرت في سري تلك القناة التي منحتنا هذه الفرصة، نذهب إلى أقاصي الأرض لننقل لأقاصي الناس أوجاع الناس.

اثنتان وعشرون ساعة قضاها الناجون في البحر، وعندما بدأوا في سرد تفاصيلها تزاحمت أمام عيونهم المشاهد، من أين يبدأون وإلى أين ينتهون؟ خرج الكلام أحيانًا متلعثمًا، مرة قصة، ومرات عبارات كأنها موجز للأنباء، عائلات كاملة بعضها من اثني عشر فردًا قضوا في البحر، الغالبية كانت من النساء والأطفال. «بقيت على قيد الحياة في البحر بفضل جثة امرأة تشبثت بها»، «وجدت طفلي أخيرًا لكنه لفظ أنفاسه بين يدي»، «زوجة أخي ولدت في البحر ثم مات الإثنان؛ الأم والوليد»، «تملكنا الخوف من ثالوث الظلمة والصقيع والأسماك المفترسة».

أشد الحالات هو ذاك الرجل الذي كان شاردًا على الدوام، قال لنا جيرانه إنه يبقى الليل كله مستيقظًا، كأنه يناجي ربه فإذا ما حان الفجر صلى ثم نام، كان يرتدي قميصًا جيبه ممزق، سأله صديقه لماذا تصر على ارتداء هذا القميص؟ أجابه عندما كنا في البحر نصارع الموت، تعلقتْ بي طفلتي، غير أن الموج كان أقوى، حاولتْ أن تتشبث بي، فلم تتمكن إلا من الإمساك بجيب القميص الذي خذلها، فقُطع وابتلعها البحر.

كلهم هنا لكنهم ليسوا هنا، هم في عالم آخر، من فقد أخًا أو زوجة أو زوجًا أو طفلًا أو طفلين أو ثلاثة أو أربعة، وطفلة بقيت حية فيما غرق أهلها كلهم.

قالوا لي: عندما وصلت السفينة التي أنقذتنا طلبنا من ربانها أن نحمل معنا جثث ضحايانا، لكنه قال أن ليس بوسعه ذلك، هل يمكن أن تتخيل نفسك ناجيًا وشريك حياتك مثلًا جثة طافية على سطح البحر؟ عاجز أنت عن حملها لتواريها في التراب، ستهرب بنفسك وتدعها للأسماك.

انقضت أسابيع طويلة قبل أن يتم إلقاء القبض على صاحب السفينة الذي غامر بأرواحهم بعد أن سلبهم أموالهم، مرت أسابيع أخرى قبل أن تُبثَّ الحلقة، ثم أسابيع تالية قبل أن أقرأ خبرًا صغيرًا في الصحيفة، المحكمة تستعين بشريط وثائقي يضم شهادات الضحايا بثته «الجزيرة» كدليل اتهام ضد الجاني.

الثالثة

هجرتي الأولى

(١)

لطالما عبرت شريط السكك الحديدية الذي يمر بقلب مدينتي، لكنني لم أرَ هذا المشهد من قبل، انطلق والدي يبحث عن مكان بين الجموع المتراصة على جانبيه؛ الناس ترفع اللافتات، صوره ملء المشهد، الحناجر تردد اسمه، الميكروفونات الموزعة تلهب حماس الجموع، صاح أحدهم: «القطار يقترب»، حملني والدي بسرعة ليرفعني على كتفيه لأتمكن من رؤيته، ثم أشار: «ها هو، ها هو»، كان يقف وظهره إلى القطار يحتمي به ووجهه إلى الناس يرفع لهم يده بالتحية، ثم يتجه إلى الناحية الأخرى ليحيي الجماهير المتراصة في الجانب الآخر. كانت الناس قد وصلت إلى حالة هستيرية من الصياح، لم أفهم معظم الهتافات، ولم أفهم لماذا يصرخون، وبذل والدي جهدًا في شرح الموقف لي، وعمري لم يتعد بعد تسع سنوات، فهمت بعض المعاني، لكن لم أفهم ما تحدث به الكبار لاحقًا حولي، أنه ما أن مرَّ الزعيم حتى تخاطف الناس قماش اللافتات ليصنع به الفقراء ملابسهم.

(٢)

قرأت على واجهة إحدى المحلات «زوروا فرعنا الجديد قريبًا في «تل أبيب»»، سألت والدي، قال إننا سندخل الحرب لتحرير فلسطين، لم يكن في حاجة لأن يسهب في الشرح، الحرب حاضرة وإن لم تبدأ بعد، المدينة تمارس الوطنية ولا تتغنى بها، روح جماعية أشهد أنني لم أشهدها في بلد ما على مدى سنوات عمري لاحقًا، الكل يسأل عن الكل، الكل يطمئن على الكل، المقار الحكومية والمؤسسات والأندية تحولت إلى مراكز لتدريب الشباب، لاحظت أن (المكوجي) القريب من بيتنا بات يقف في محله وحيدًا بعد أن أرسل ابنه لينضم إلى قوافل المتطوعين.

كل شارع، كل زقاق، كل بيت في المدينة كان يستعد للحرب وبفخر. أما أنا فكنت أتسلل بين الكبار فأدخل هنا وهناك لأشاهد بعيني الشباب وهم يصطفون ينشدون لمصر: بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي، كنت حزينًا جدًا أن عمري لا يسمح بالمشاركة وهو بالكاد قارب على الحادية عشرة، لكن ما شاهدته أشعرني بالفخر الشديد لأنني من هذا الشعب.

الواجهات طُليت بالأزرق للتعتيم على طائرات العدو التي من المستحيل أن تعبر كل سيناء لتصل إلينا في السويس، أمي كانت في قلق، كل الكبار كانوا في قلق، لم أفهم سببه، فما هي إلا أيام وسوف تندلع الحرب. يا ترى كيف هو شكل «فلسطين»؟ وهل سيوافق والدي أن نسافر إليها بعد النصر؟ كنا نجلس معشر الأطفال ونتحدث عن هذا الجنون الذي أصاب «إسرائيل» لتتحدى كل الدول العربية.

في التاسعة من صباح الخامس من يونيو عام سبعة وستين، كنا نتجمع نحن الصغار نهتف ونغني لمصر ولفلسطين، وقد أدركنا أن الشرارة قد انطلقت وأن علينا الاستعداد لرحلة قريبة.

(٣)

كنا تقريبًا في العاشرة مساء وقد اجتمعت عائلتنا وعائلة الجيران حول كل أجهزة الراديو والتلفزيون المتاحة لنستمع إلى خطاب الزعيم، وعبثًا حاولت أن أفهم مرة أخرى ماذا تعني كلمة التنحي التي ما أن أطلقها الزعيم حتى انفجر الشباب بالبكاء والصيحات الهستيرية، لم تمر دقائق حتى كانت شوارع «السويس» تكتظ بالجماهير الثائرة الرافضة لقرار الاستقالة، رغم القذائف الصهيونية التي باتت تمطر المدينة، وربما كانت هذه هي المرة الأولى التي استطاع الشعب أن يقول فيها «لا» للزعيم.

(٤)

اتفقت مع أبناء الجيران أن نذهب خلسة إلى «بورتوفيق»، فالكبار قالوا إن العدو الصهيوني بات على الضفة الأخرى، مشينا ومشينا حتى وصلنا إلى هناك، أوقفنا بعض المواطنين، سألونا: «كيف استطعتم الوصول إلى هنا؟» أجبنا: «بصراحة لا نعرف، نحن مشينا ببساطة من «السويس» إلى هنا»، قالوا: «عليكم العودة سريعًا إلى دياركم قبل حلول الليل»، تظاهرنا بالطاعة، وأكملنا مسيرتنا إلى أن وصلنا إلى حافة القناة، ويا ليتنا ما وصلنا. وشاهدتُ للمرة الأولى العلم الإسرائيلي يرفرف على الناحية الأخرى فعدنا منكسي الرؤوس.

(٥)

كان الناس يتشاركون فيما بينهم، تطبخ النسوة الطعام، ويحمله الرجال في سيارات كبيرة ثم ينتقلون إلى الضفة الأخرى من القناة، يسيرون على غير هدى، ويبحثون عن الجنود المنكفئين، يضمدون جراحهم، ويمنحونهم ما يسدون به الرمق، ثم يعودون بهم إلى مدينتنا.

سمعت أنا ذلك، فعدت سريعًا إلى البيت، أخذت من مدخراتي بعض النقود ونزلت، قررت أن أساهم بأي شيء للتخفيف عن أبطالنا المغدور بهم، وجدت جنديين، اشتريت سريعًا «آيس كريم»، وذهبت أقدمه لهما، رفضا، أرغمهما المارة على قبول هديتي، قال أحدهم: «شاطر يا ابني»، تمنيت لو ابتلعتني الأرض، لا أريد شكرًا.

(٦)

قال أبي إن الناس قررت البقاء في المدينة مهما كان الثمن، لكنه عاد بعد عدة أيام وقال إن الدولة قررت إغلاق المدارس والمؤسسات والشركات واعتبار المدينة منطقة عسكرية يحظر البقاء فيها. تلى هذا التصريح الخطير اجتماعات على عدة مستويات في عائلتنا الصغيرة والكبيرة، ودخل الجيران في حوارات طويلة حول هذا الشأن الجلل.

ليلة الهجرة حملت قلمي الرصاص ونزلت شوارع «السويس» لأودعها، وكلما وجدت سيارة للجيش كتبت عليها «إن تنصروا الله ينصركم»، أحترم المكان وأعامله كما أعامل الإنسان؛ ولذا وجب

توديعه الوداع اللائق، وعند الرحيل كنت آخر من خرج من البيت، بعد أن انحنيت وقبلت الأرض وتواعدنا على العودة سريعًا من هذه الرحلة، وكانت تلك هي هجرتي الأولى.

الرابعة

حب الأمكنة

(١)

أدركت أن الغد هو الموعد المضروب للمغادرة، أمي اختصرت بيتنا في مجموعتين؛ الأولى حقائب صغيرة نسبيًا نحملها معنا، والأخرى صناديق كبيرة تقف شاحنة بالأسفل لنقلها. أبي ينتظرنا هناك في المهجر، جارتنا الست «فريدة» فعلت الأمر نفسه، وزوجها ينتظر مع أبي، نحن عائلتان متجاورتان وصديقتان.

انتهزت فرصة انشغال أمي بما تُعد وخرجت إلى شوارع «السويس»، قلت هو الوداع الأخير، مشيت هائمًا على غير هدى، لكن تعمدت أن أفتح عينيّ على آخرهما، كنت أريد أن أختزن في ذاكرتي أكبر قدر من مشاهد مدينتي التي ولدت بها وأحببتها، والتي بات علينا الآن فراقها.

كنت أصافح المدينة بعينيّ: شارع «الشهداء»، مسجد الشيخ «حافظ سلامة»، النافورة، مبنى المحافظة، الكورنيش، شارع «النمسا»، كل هؤلاء كانوا أصدقائي، يخدعك من يقول إن المكان جماد لا روح له، لقد ودعتهم كلهم بحرارة، والأهم أنهم بادلوني ذلك، ولم أكن مختلًا عقليًا، لكنني كنت طفلًا أقل قليلًا من الحادية

عشرة من العمر، وقبيل المغرب عدت إلى بيتي محملًا بألم الوداع.

في اليوم التالي كانت شقتنا فارغة تمامًا إلا من الذكريات، بعد أن حملنا آخر حقائبنا، كانت أمي تغلق الباب حين كذبت عليها بسذاجة وقلت نسيتُ شيئًا، وما من شيء كان موجودًا، لكنني دخلت إلى الشقة وخررت على الأرض ساجدًا أقبّلها، وعدت مسرعًا حتى لا يُكتشف أمري.

(٢)

بعد نحو ربع قرن كررت المشهد ذاته، لكن هذه المرة في «سراييفو» حين كانت على وشك السقوط، الوضع العسكري كان منهارًا إلى أقصى حد، والعالم كعادته رفع يديه عن الجاني في انتظار أن يفرغ من مهمته، كنت أجلس حزينًا في غرفتي البائسة بفندق «هوليداي إن»، وقد فقد نتيجة الحصار كل سمات نجومه.

كنت أعتقد أنها الأيام الأخيرة لسراييفو، وأن الميليشيا الصربية على وشك الاقتحام والولوج إليها، لكن وجدتني أتيمم وقد نفد ما بحوزتي من ماء وأصلي ركعتين وأجلس وكأني في حضرة شخص عزيز، أواسيه وأشدّ على يديه، وأقوّي عزيمته، وأتعهد له أني سأبقى مخلصًا مهما حدث.

خرجت لأكمل عملي الصحفي وكأني ألقي النظرة الأخيرة على شوارعها، لم يمضِ يوم أو يومان إلا وتصلنا أنباء عن انتصارات للقوات المدافعة عن المدينة تجهض محاولات محاصريها لاختراقها، ثمة أمل يتجدد بأن تبقى عصية على الهزيمة. اعتبرت أن ما جرى إنما رسالة لي، جزء من حوار متبادل بيني وبين المدينة، تلك التي يدّعون أن لا روح لها.

(٣)

إذا كنت بالغًا فإنك لا تقع في حب أحدهم لأنه يرتدي ملابس غالية الثمن، أو يضع عطرًا مميزًا، أو يحمل شهادة رفيعة؛ شيء غامض يجذبك إليه، وعندما تحار في التفسير تقول إنني أحبه لروحه، وهو نفس ما يقع مع الأمكنة، أنت تهيم بواحدة على رغم أنها تبدو لآخرين عادية، بل ربما أقل من ذلك كثيرًا، ولا تعرف سببًا لذلك.

لماذا يهجر بعضهم في أوروبا مدنهم ويتركون وظائفهم ويقررون الهجرة إلى بلد إفريقي أو آسيوي بسيط، يعيشون فيه حياة خشنة بعض الشيء متنازلين عن حياتهم التي يتمناها أهل العالم الثالث، أولئك الذين تبتلعهم البحار وهم يحاولون الوصول؟

(٤)

في المقابل، فإن الأماكن تفعل معك تمامًا الأمر نفسه، قد تقع في غرامك، وقد تكرهك، وقد تتعامل معك ببرود أو حيادية، بغض النظر عما إذا كنت ثريًا وسيمًا، أو فقيرًا محرومًا من الجمال. ألم تلاحظ أن بعض الأماكن قد تبتسم لك، قد تغازلك، وتقع في حبك، ولا تتردد في أن تخبرك به، تقول لك فجأة أحبك يا هذا، فترتبك وتتعثر في الطريق، فإذا ما غبت عنها في سفر طويل ثم عدت فإنها تعانقك، أو تلومك لغيابك؟ من قال إن المدن حجارة، لا روح لها؟

(٥)

عندما مرَّ عليّ «شادي الأيوبي» أبلغني أن وقتي لا يكفي

لاكتشاف بهاء المدينة، وأننا سنكتفي بحيٍّ واحد، تشبثت به وهو يقود دراجته النارية في شوارع «أثينا»، كنت أخاف السقوط وكان هو يكتم ضحكته، حتى وصلنا حيّ «موناستيراكي» في وسط العاصمة، حيث تتوسطه ساحة تحمل الاسم نفسه، ويحيط به عدد من الأحياء التاريخية التي لا تزال تضمّ بدورها أعدادًا كبيرة من البيوت القديمة.

«موناستيراكي»، تعني الدير الصغير، وقد وجدت كنيسة صغيرة بوسط الساحة كانت قديمًا جزءًا من الدير، فيما هناك أيضًا مسجد «جيستاراكي»، الذي بناه عام ١٧٥٩ «مصطفى آغا جيستاراكي» حاكم أثينا العثماني في تلك الفترة، والذي ظلت مئذنته قائمة حتى عام ١٨٢١ حين انطلقت الثورة اليونانية ضد الإدارة العثمانية، وتحول المسجد إلى مستودع ثم سجن حتى عام ١٩١٥ حيث تمّ ترميمه، قبل أن يستعمل متحفًا للخزفيات والمنحوتات اليونانية التقليدية. قرب الساحة هناك البازار، حيث تباع الكثير من الأغراض والكتب القديمة والجديدة والمنتجات السياحية.

من الساحة يمكن أن ترى من بعيد قلعة «الأكروبوليس»، أهم آثار اليونان القديمة، وترى الكنيسة البيزنطية في إحدى زواياها، فيما يظهر المسجد العثماني في وسطها. وحول الساحة تظهر المنازل المعروفة بالمنازل الكلاسيكية الجديدة.

قرب المسجد من ناحية «الأكروبوليس» هناك جدار لمكتبة «أثينا» التي بنيت عام ١٣٢ بعد الميلاد كهدية من الإمبراطور الروماني «أدريانوس» لمدينة أثينا. على بعد ١٥٠ مترًا من ساحة «موناستيراكي» هناك ساحة «أفيسينياس» التي تحتوي على سوق للأثاث والأدوات المستعملة منذ عام ١٩١٠.

قال لي «شادي» إن هذه المنطقة كان فيها العديد من الخانات التي تحولت لاحقًا إلى فنادق. وكانت تنطلق منها العربات التي تجرها الحيوانات الى مختلف المناطق. واحتوت على معظم الصناعات آنذاك، مثل الجلود والحديد والخشب والحصير والنحاس. وعُرف سوقها أو البازار باسم آخر هو «يوسوروم» وهو أول تاجر يهودي للأشياء المستعملة كان قد جاء من مدينة «إزمير» وأقام في المنطقة عام ١٨٦٣.

ولذا، وبعد أن تحولت «أثينا» إلى عاصمة لدولة اليونان الحديثة عام ١٨٣٤، اكتسبت هذه المنطقة والأحياء التي في جوارها أهمية كبيرة. حيث كانت أول نقطة ينزل فيها أهالي المناطق اليونانية الأخرى عند قدومهم للعاصمة.

بالله عليك كيف لا يفتن المرء ويقع في حب المكان المحمل بالتاريخ؟

(٦)

كنت مرة قبل سنوات في حي «تقسيم» الذي أحب التردد إليه، عبرته إلى شارع «الاستقلال»، ومن ثَمَّ واصلت السير حتى بلغت الحي القديم، لم أكن في حاجة إلى أكثر من بضع دقائق لأقرر ألا أسكن غير هذا الحي عندما أزور «إسطنبول».

حكى لي «عبد السلام فرح» الحكاية، قال إن «غَلَطَة» هو أحد أعرق أحياء المدينة، كان معقلًا للتجار الإيطاليين تحديدًا والأوروبيين عمومًا قبل وصول العثمانيين إلى «القسطنطينية»، حتى إن الإمبراطور البيزنطي «ميخائيل الثامن باليولوج» قد منحه إلى جمهورية «جِنوة» الإيطالية بعد دعمها له في أثناء الحملة الصليبية

الرابعة في القرن الثالث عشر، ليصبح الحي مركزًا للتجارة، وليُبنى فيه بعد نحو قرن برج «غَلَطة» الشهير بأيدي الطليان.

في القرن التاسع عشر، أصبح معظم سكان الحي من اليونانيين والأرمن، الذين تدفقوا إلى العاصمة بعد سيطرة الخلافة على اليونان وأرمينيا آنذاك؛ ولذا فالحي يزخر بكنائس من مختلف المذاهب المسيحية حتى اليوم، وتعود معظم المباني الموجودة به اليوم إلى أواخر القرن التاسع عشر، حيث بُنيت من جديد إثر الدمار الذي لحق بالمباني الخشبية القديمة عام ١٨٧٠ من جراء حريق كبير أدى لفقدان ثلاثة آلاف مبنى على الأقل، وقد بُنيت معظمها منذ ذلك الحين على النسق الأوروبي، لتملأ المحال التجارية والمطاعم والمقاهي الطوابق الأرضية والأولى فيها، في حين استحوذت السفارات والقنصليات والمراكز الثقافية على الأدوار الأخيرة.

«غَلَطة» باتت معقلًا للأتراك ذوي الثقافة الأوروبية، وبسهولة يمكن أن تشهد هذا التداخل بين القديم والجديد، بين الحداثة والأصالة، بين الهوية الإسلامية والغربية، بل إن هذا التداخل مصدر متعة لأمثالي الذين يدعون أننا يمكن أن نعيش مَعًا مهما اختلفت أطيافنا.

سِر في «غَلَطة» أينما شئت، ستحملك أزقتها صعودًا وهبوطًا، وسيخيل إليك أنها في حي فقير بسيط، غير أن وراء كل ركن أمرًا ما، أو حكاية ما، أو سرًّا ما، لكنها أبدًا ليست بسيطة كما يعتقد الرائي.

(٧)

كنت محشورًا في واحد من تلك المقاهي التي يتجاور الناس فيها على الأرائك نفسها، فيما حشود من الناس من جنسيات

متعددة تمر بصعوبة من الزقاق الذي يقع به المقهى، العجوز التي كانت تجلس بجانبي لم تأبه لانشغالي بالكتابة، وسألتني فجأة: «بالله عليك لماذا تأتون إلى هنا؟ ما الأمر غير العادي الذي يجعلكم تتركون بلادكم وتسافرون آلاف الأميال للتسكع في طرقات كهذه؟»، احترت طويلًا كيف أشرح لها أنها اعتادت الجمال حتى اعتبرته أمرًا مألوفًا عاديًا.

«باش تشارشيا» تُعد مركز المدينة التاريخي والثقافي. هذا المكان أسسه في القرن الخامس عشر «عيسى بك إسحاقوفيتش» عندما أسس «سراييفو»، والكلمة تعني بالتركية السوق الرئيسية. قطعة فنية ساحرة، منحوتة بإتقان، كأن «عيسى» جلب كل الفنانين المهرة، كأنه صنعها على عينه.

«باش تشارشيا»، حي العاصمة القديم، وحبي القديم، وقعت عيناي عليها أول مرة عام تسعين، ومنذ ذلك الحين وأنا مغرم.

السائحون طوافون في أزقتها ليل نهار، البهاء العثماني يغلب بهيئته المميزة. زينة الحي هي تلك المساجد المتناثرة هنا وهناك بمآذنها العالية الدقيقة وقببها الواسعة، ناهيك عن جامع «الغازي خسرو بك»، وبرج الساعة، وسوق الحرف، والسبيل، ومطاعم الأكلات البوسنية الشعبية.

كل زقاق هو عناق، تسير وكأنك تعيش في رواية حب جميلة، كأنك تقلب صفحة من تاريخ عريق جمع الكثير من فنون العمارة التركية القديمة، تلك الأرضية المبطنة بأحجار مستطيلة صغيرة، هذا الطوب الأحمر، هذه الأسقف المائلة، هذه الطيور التي تسكن السبيل بمائه المتدفق، هؤلاء الحرفيون الذين يصنعون بأصابعهم الذهبية تلك المشغولات التقليدية النادرة، وكثير من الشقراوات، وبين كل مقهى ومقهى.. مقهى.

(٨)

في الدنيا أمكنة كثيرة جميلة يمكن أن نحكي عنها فلا نملّ، لكن المشترك فيما ذكرت أنه كان «الحب من أول نظرة»، هذا القانون القائم حتى مع الأمكنة.

(٩)

أول مرة سمعت «محمد عبده» يشدو بأغنيته الشهيرة «الأماكن» كانت في سيارة «عمرو عبد الحميد» في أحد شوارع «موسكو»، كان مغرمًا بها، بالمدينة والسيارة والأغنية، منذ ذلك الحين وأنا أنصت للأغنية باهتمام، فكلماتها تؤكد نظريتي أن للأمكنة روحًا وأننا قد نقع في حبها فضلًا عن أن «الأماكن كلها مشتاقة لك»!

(١٠)

«أليس عجيبًا أن كل إنسان يرى في الأرض بعض الأمكنة كأنها أمكنة للروح خاصة؟ فهل يدل هذا على شيء إلا أن خيال الجنة منذ آدم وحواء، لا يزال يعمل في النفس الإنسانية؟» هذا ما خطه «مصطفى صادق الرافعي» في كتابه «من وحي القلم». أما «إبراهيم نصر الله» فيذكر أن هناك أسطورة فلسطينية تقول إن الله يخلق الإنسان من ترابين: تراب المكان الذي وُلِد فيه، وتراب المكان الذي سيموت فيه.

(١١)

قال «ابن عربي»: المكان الذي لا يؤنث لا يعول عليه.

الخامسة

في عشق المدن

هل يمكن أن تقع في غرام مدينة؟ وهل يمكن أن يكون ذلك من أول نظرة؟ هل يمكن أن تقضي وقتًا تفكر فيها وتحلم بها، تفتقدها وتشتاق إليها؟ وهل يمكن أن تواصل جنونك لتعتقد أن المدينة تبادلك حبًّا بحب، وأنها تستقبلك كما المحبين مرة بشوق ومرة بغضب، وأنها تضمك أحيانًا وتدفعك عنها أحيانًا أخرى؟ مهما كانت إجابتك، هذا ما حدث لي.

في اليوم الثاني لغزو «صدام» للكويت من شهر أغسطس لعام تسعين من القرن الماضي، وفي عربة القطار المتجه من مدينة «بياليستوك» البولندية إلى العاصمة «وارسو»، تعرفت إلى «محمد علي حاجيتش»، إمام بالمشيخة الإسلامية، قال بعربية فصحى لذيذة إنه من بلاد بعيدة عنا، أصغيت ومن معي من العرب له، حدثنا عن بلاده وشعبه، ماضيه العريق ومستقبله الغامض، تكلم بخوف وقلق وإثارة؛ أي تحدث بحب. طلب أن أزوره، عاهدته على ذلك، بعد أن تملكني شعور الباحث عن الكنز المخبوء.

أسابيع قليلة وكنت هناك، في مطار العاصمة استقبلني الرجل، وكان بصحبته صديقه «آفديا حضروفيتش»، والرجلان توليا لاحقًا مناصب حساسة داخل بلادهما وخارجها، أصرَّ الشيخ محمد أن

أقيم في بيته، جاءت زوجته وأولاده، ووجدتني في جلسة دافئة عائلية، وكأني فرد منهم عدت للتو من سفر طويل، ما لذَّ من طعام وشراب وحلوى وشاي وأحاديث، كل شيء رائع، سألوني بغتة هل يعلم قومك أننا هنا؟ هل يدركون ماذا في انتظارنا؟

أدوّن وأحفظ كل ما يقوله الشيخ محمد، جملته الأخيرة لم أسمعها، تملك الجمال عينيّ حين دلف بي ونحن نسير صبيحة اليوم التالي إلى «باش تشارشيا»، لاحقًا سأحفظ اسمها جيدًا، وستصبح مكاني المفضل في هذه المدينة الصغيرة.

مساجد عتيقة، وأزقة مرسومة بعناية، وسبيل ماء يتدفق للعطشى، وحمامات يزاحمن المارة وصغار يُطعمونهن، ورائحة شواء تملأ الأجواء، شباب وفتيات وكأن المدينة لا تلد سواهم، أما الحُسْن فهو بلا منازع سيد المكان، مشهد لم تنعم به نفسي من قبل وأنا الساكن في ذاك الحين في أوروبا، المسألة ليست في الجمال على رغم أنه أخّاذ، المسألة في الروح، ثمة شيء غريب لا أعرفه، لكنني وقعت في أَسْرِه، هل يحب المرء المدن التي تشبهه؟

مزيج غريب بين الشرق والغرب، الملامح أوروبية والروح شرقية، والناس من ثلاث طوائف: بوشناق مسلمون سنَّة، وكروات كاثوليك، وصرب أرثوذكس، وثمة يهود قليلون، إن رأيتها من هذه الناحية فهي إسلامية بمآذنها التي زادت عن الثمانين، وبمسابح العجائز، وبتحية الناس عند الوداع «الله إيمانت»، أي في أمان الله، وإذا رأيتها من ناحية أخرى فهي ليبرالية في السلوك والملبس إلى حد النخاع.

وإذا خرجت من «باش تشارشيا»، ستجد النهر يمر وسط

المدينة، وأول ترام في أوروبا، وجبال بهية تحيط بالمكان، وشوارع تصعد بك وتهبط، فهي ليست أرضًا سوية، وجداول ماء في ضواحيها، ولون أخضر جميل يغطيها صيفًا، وأبيض ناصع يغطيها شتاء، فيها شيء من وصف الجنة، وهأنذا قد وقعت في الحب ومن أول نظرة.

لم أكن أعرف أني أعيش التاريخ، حين حضرت استفتاءً قررت فيه «البوسنة» الانعتاق من «يوغسلافيا»، ومؤتمرًا أول لحزب العمل الديمقراطي الممثل للمسلمين، وانتخابات رئاسية يفوز بها مناضل خرج للتو من معتقله اسمه «علي عزت بيغوفيتش» سيصبح ملء الدنيا لاحقًا، والرصاصات الأولى التي انطلقت تعلن افتتاح الحرب، ثم سنوات عجاف منها.

حوصرت المدينة، وحُرمت من الماء والكهرباء والطعام والتدفئة في شتاء تصل برودته إلى عشرين درجة تحت الصفر، قطع الناس أشجار المدينة ليحتموا بنارها. تعرت «سراييفو»، جاع أهلها، وقف أعزة القوم بلباسهم الفاخر في صفوف المحتاجين أمام الهيئات الإغاثية يشحذون كسرة خبزٍ وحليبًا للأطفال، ووقف الناس في السوق يبيعون أثمن ما لديهم بثمن بخس، أغلقت البنوك وأفلست وطارت المدخرات، توقفت الأعمال، اغتُصبت الحرائر، جُرحت النفوس، ما من بيت إلا فيه مصيبة. باتت «سراييفو» نحيفة، شاب شعرها، وغطت التجاعيد وجهها، أصبحت كامرأة عجوز تحمل ملامح جمال قد ولّى، غير أني ما زلت مولعًا بها، وأتمنى لو أستطيع أن أضمها كلها بذراعي.

تجوع وتقاوم لحظات إعلان نهاية الحرب، ويخرج الناس إلى الشوارع، وفي كل واحد منها قصة شهيد، يعود المهجرون، تخضر

المدينة، تزهر، تبتسم، تزيل الركام، تبني البيوت، تكتم حزنها وألمها، تحفّظ أبناءها أسماء شهدائها وقصصهم، في الربيع والصيف تذهلك من فرحها، من سعادتها، من حبها للدنيا، شوارع مزدحمة مكدسة بالبشر، مقاهٍ في كل مكان، أزهار وموسيقى وفرح، ثم تسمع فجأة الأذان. يوم واحد في السنة تصوم فيه «سراييفو» عن الموسيقى والفرح، ذلك هو يوم الحادي عشر من يوليو، ذكرى مذبحة «سربرينيتسا» التي راح ضحيتها ما يزيد على أحد عشر ألفًا من أبنائها.

سيداتي سادتي، هل كنت محقًا عندما وقعت في غرامها؟ هل كنت محقًا عندما كتبت يومًا: «عليك أن تعمل الصالحات حتى تدخل الجنة في الآخرة، أما في الدنيا فيمكنك الذهاب إلى «سراييفو»»؟

السادسة

إنها لذيذة ومثيرة لكنها مجهدة

نظمت حياتي، أعمل يومين في الأسبوع لأتمكن بالكاد من تغطية نفقاتي، ثم أتفرغ باقي الأسبوع للكتابة التي تعود عليّ بما لا يغني ولا يسمن من جوع، لكنها على الأقل تسمح لي بأن أزاحم الآخرين وأقول أنا هنا، كنت أكتب وأراسل صحفًا ومجلات محدودة التوزيع، ورويدًا رويدًا بدأت أكتب لما هي أوسع انتشارًا.

لكن اللحظة الفارقة كانت عند اندلاع الحرب في «البوسنة»، وعلى رغم أنني بقدر الله كنت هناك في ساعتها الأولى إلا أن أحدًا لم يكترث لي، أخذتُ أرسل إلى صحف عربية شهيرة رسائل عن طريق الفاكس أخبرهم أن الحرب اندلعت هنا، وأنه يمكنني تزويدهم بالتقارير والأخبار، ولكن وفقًا للعادة العربية لم يرد أحد سلبًا أو إيجابًا.

لم تقرر وسائل الإعلام العربية الاهتمام بقضية «البوسنة والهرسك» إلا بعد أن بدأت وسائل الإعلام الغربية تهتم بها وتشير إلى غالبية سكانها المسلمين، حينها فقط تصلك رسالة مرحّبة بشدة بالتعاون معك، وما أن تبدأ في إرسال تقاريرك إلا وتفاجأ بأنها تتصدر الصفحة الأولى.

كنت أدرك أن قرارًا مثل هذا إنما هو قرار خطير وله تأثيرات

سلبية عديدة على حياتي، لكنني اتخذته ومضيت فيه، وهو ألا أعمل صحافيًا موظفًا في مؤسسة ما، كنت أعتقد أنني حرٌّ، يحق لي أن أختار ما أريد أن أكتب عنه، فلا يلزمني أحد بعمل لست على قناعة به، ولا أُضطر أن أسير في قوافل المنافقين والكاذبين تحت سيف الوظيفة ومتطلباتها، وبالتأكيد هناك صحافيون شرفاء كثر استطاعوا أن يحافظوا على مبادئهم وأفكارهم على رغم اضطرارهم للعمل موظفين في مؤسسات قد يختلفون فكريًا حتى مع ملّاكها، لكن ربما ليس هذا في وسعي ولا أجيده.

أمضيت شهورًا في العمل بجريدة «الشرق الأوسط» السعودية الصادرة من «لندن»، ثم زارني في «ألمانيا» الصديق «جمال خاشقجي» ليعرض عليّ العمل في جريدة «الحياة» اللندنية، وكان ذلك بالنسبة إليّ نقلة نوعية وحلمًا لطالما تمنيت تحقيقه، فقد كنت أشتري «الحياة» وأجلس في مقهى محطة القطارات بفرانكفورت أدرسها صفحة صفحة ومقالًا مقالًا وسطرًا سطرًا لأعلم نفسي بنفسي.

إلا أن زميلًا من «الشرق الأوسط» اتصل بي من «لندن» وكنت حينها في العاصمة الكرواتية «زغرب» ليثنيني عن الرحيل منها إلى «الحياة»، ويغريني بتأشيرة زيارة في الحال إلى «بريطانيا»، ثم لقاء مع رئيس التحرير آنذاك الأستاذ «عثمان العمير»، ثم عقد دائم، لكنني اعتذرت له بلطف شديد مقدرًا وساطته ومحاولاته، فحلمي بالعمل في «الحياة» كان أكبر.

وبالتوازي مع ذلك، بدأت العمل مع إذاعة «الشرق» العربية من «باريس»، ثم مع «وكالة الأنباء الأمريكية» (WTN)، التي كانت تزود التلفزيون السعودي بتقارير عربية، إلى أن انتقلت إلى «MBC»

بالصفة نفسها مستقلًا، ثم لاحقًا مع «الجزيرة» أيضًا مستقلًا ـ والغريب أن زملاء كثرًا من «الجزيرة» نفسها يعتقدون أنني بدأت العمل في هذه المؤسسة موظفًا ثم قدمت استقالتي لأعمل حرًّا مستقلًا ـ واستمر ذلك حتى أبريل من عام ألفين وثلاثة عشر، حين توقفت عن تقديم برنامج «نقطة ساخنة»، فيما «يحكى أن» كان قد توقف بقرار غير معروفة أسبابه من قبل الإدارة.

أهم لحظتين يمكن أن تفرض فيها شروطك هي لحظة اندلاع الحرب، ولا يوجد في المنطقة مراسل عربي سواك، واللحظة الثانية عندما تنتهي الحرب وتكون قد أنجزت ما أنجزت، حينها يتعين على المؤسسة التي عملت معها أن تكافئك وأن تعرض عليك الانتقال إلى مقرها الرئيسي والتعاقد معك، وقد أضعت باختياري اللحظتين.

كنت أتفهم المساوئ التي يمكن أن يتحملها الصحفي المستقل، الذي يتعامل بنظام القطعة مع المؤسسات، فهو لا يتقاضى أجرًا إلا على ما يُنجَز، فما بالك إذا كان الإنجاز المطلوب إنما هو في مناطق أزمات وحروب؟ فأنت قد تقضي يومًا أو يومين وربما أكثر بحثًا عن مسألة ما ثم تفشل في تحقيقها لظروف خارجة عن إرادتك بفعل معطيات الحرب أو الأزمة، إلا أن كل التكاليف تتحملها وحدك، ومن ثَمَّ فلا استقرار مادي أبدًا يمكن أن يتحقق في ظل هذه الظروف، إلا أنني كنت راضيًا عن اختياري سعيدًا به، ولم أتخيل أن هناك ضريبة أخرى يجب أن تُدفع.

لاحقًا اكتشفت أن ضريبة إضافية ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ تدفعها حين تختار أن تكون مستقلًا في فكرك بالتمام والكمال، لا

تنتمي إلى حزب أو جماعة أو تيار أو مؤسسة، لك أفكارك الخاصة التي تدافع عنها، وبغض النظر عن صلاحيتها، وبغض النظر أهي جيدة أم سيئة، إنما هي ما اخترته لنفسك، ثم تنصرف إلى ممارسة مهنتك في صمت، لتكتشف أنك في هذه الحالة إنما أنت في مهب الريح، بل في صدارة عواصف قوية قادرة على اقتلاعك والإطاحة بك.

عندما عدت إلى «مصر» بعد الثورة وبدأت الاحتكاك بالوسط الإعلامي هناك، اكتشفت أنني لن أستطيع أن أندمج وأمارس عملًا ما ما لم أكن منخرطًا في مجموعة ما، ليس بالضرورة مجموعة ذات توجه فكري، المهم مجموعة، ترتبط بها وترتبط بك، تأكل وتشرب وتسهر معها، وتتبادل النميمة، مجموعة تدافع عن مصالح بعضها البعض عن حق أو باطل.

وحين تفقد هذه المجموعة فأنت لا تخسر فقط من يدافع عنك أو يجلب لك المنفعة، ولكنك تتعرض لما هو أسوأ، فتصبح متهمًا من كل الأطراف، فلا أحد يصدق أنك حرٌّ مستقل، لا ترتبط بجهة ما ذات أفكار أو ذات مصالح، كل طرف يعتبرك أشبه بخلية نائمة تابعة لطرف آخر، ويبدأ التشكيك فيك وفي نواياك وفي سلوكك، وهكذا تجد نفسك في الفراغ، لا كَتِف تستند إليه، وليس في مواجهتك إلا عيون مشككة.

«أنا اليوم حزين قليلًا، طارت طيوري، كتبتُ لك إن لم تكوني قد نسيتِ، أنه يوجد هنا أسراب من طيور السنونو، رسمت لك إحداها مع صغارها، من المكان الذي أعمل فيه يمكنني أن أرى بعض الأعشاش، وقبل شهرين خرج الصغار من البيض، في العش الأقرب كان هناك أربعة منهم، أولًا كانوا صغارًا جدًّا، أربعة

رؤوس صغيرة كانت تترقب من العش طوال اليوم، كانت صامتة لا تتحرك، أراهن أنها كانت تفكر دائمًا في شيء واحد فقط، متى ستأتي العصفورة الأم بالطعام؟ كثيرًا ما كانت الأم تحط، تقف للحظة على حافة العش، تضع الفتات في مناقيرهم وتطير ثانية، كنت أنظر إلى كل ذلك طوال اليوم وقلبي كان مفعمًا بالأمل».

قرأت لي «ليلى» هذه الرسالة التي كتبها والدها «علي عزت بيغوفيتش»، وأرسل بها من سجنه إلى حفيدته «سلمى» في الثاني من ديسمبر عام ثلاثة وثمانين، السنونو وأي طائر آخر إنما يرمز إلى الحرية، حرية أن يختار المخلوق إلى أي اتجاه ينطلق؛ ولذا كان يرقبها «علي» بشغف من زنزانته، وهو الذي خطَّ في كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» بأنه إذا قبلنا فكرة أن الإنسان لا حرية له، وأن جميع أفعاله محددة سابقًا، فإن الألوهية لا تكون ضرورية في هذه الحالة لتفسير الكون وفهمه. ولكننا إذا سلمنا بحرية الإنسان ومسئوليته عن أفعاله، فإننا بذلك نعترف بوجود الله إما ضمنًا وإما صراحة. فالله وحده هو القادر على أن يخلق مخلوقًا حرًا، فالحرية لا يمكن أن توجد إلا بفعل الخلق. الحرية ليست نتيجة ولا نتاجًا للتطور، فالحرية والإنتاج فكرتان متعارضتان. فالله لا ينتج ولا يشيد ..الله يخلق!

ولذا فإن الدكتور «عبد الوهاب المسيري» وهو يتحدث عن فكرة «علي» يقول: «إن الإنسان قد ينجح آجلًا أو عاجلًا في تشييد صورة مقلدة من نفسه، نوع من الإنسان الآلي أو مسخ، شيء قريب الشبه بصانعه. وهذا المسخ الشبيه بالإنسان لن تكون له حرية، سيكون قادرًا فقط على أن يتحرك في إطار ما بُرمج عليه. وهنا تتجلى عظمة الخلق الإلهي، الذي لا يمكن تكراره أو مقارنته بأي شيء حدث من قبل أو سيحدث من بعد في هذا الكون».

هي الحرية إذن التي ناضل «علي» وغيره كثر من أجلها، والتي من أهم تجلياتها «الاختيار»، أن تكون لك الحرية المطلقة في أن تختار ما ترغب فيه، وينسى الناس وهم يتغنون للحرية، وحقهم في الاختيار أنهم سيدفعون ثمن خياراتهم في كل الأحوال.

قرّر أن تكون مستقلًا أو تابعًا، قرّر أن تكون مع هذه المجموعة أو تلك، مع هذا التيار أو ذاك، أو مستقلًا عنهم جميعًا، تتلقى حجارة الجميع، ولا أحد يدافع عنك، قرّر كيفما تريد أن تقرّر، لكن كُنْ مستعدًا لتدفع ثمن هذه الخيارات، ألم تسعَ للحرية؟ ها هي الحرية إذن.. لذيذة ومثيرة لكنها مجهدة!

السابعة

رُبَّ صُدفة

كانت تتحدث العربية بطلاقة، ذهبت معي كمترجمة إلى «موستار» حيث مسقط رأسها، لتساعدني في إعداد تقرير صحافي عن الوضع في هذه المدينة بجنوب «البوسنة»، وهي تتهيأ لحرب بين المسلمين والكروات، تقريبًا كان ذلك عام ألف وتسعمئة واثنين وتسعين، حينها كنت أعمل مع جريدة «الحياة» اللندنية، وفي منتصف النهار سألتني: «ألا ترغب في العمل في التلفزيون؟»، أجبتُ: «لا أعلم، ولم أجرب، ولا خبرة لي»، قالت إن القسم العربي بالوكالة الأمريكية (WTN) يبحث عن مراسلين في المنطقة، سألتها: «عربيتك جيدة لمَ لا تجربين أنت؟»، أجابت: «لقد حصلت وعائلتي على تأشيرة هجرة إلى «كندا» وهذه فرصة لا تعوض في هذه الأيام الصعبة».

لم تمضِ ساعتان إلا وكانت «جابي» تتصل بي من مكتبها في «لندن» ترحب بالتعاون بيننا، قلت لهذه السيدة المصرية: لا خبرة لي مطلقًا بالعمل التلفزيوني، قالت: «لا تقلق، سأعلمك»، وعبر الهاتف تلقيت أول درس لي في هذا التخصص: قف هكذا ولا تقف هكذا، افعل كذا ولا تفعل كذا، ثم بدأت العمل. كان العمل بسيطًا إلى حد كبير وغير احترافي، بمعنى كان كل ما عليّ هو

تسجيل كلمة الختام صوتًا وصورة، وتسجيل كامل التقرير صوتًا فقط، ثم الإرسال عبر الستالايت لتكمل هي العمل بوضع الصور المناسبة فوق صوتي، لم تكن هناك ميزانية تكفي لأن يكون معي فريق حتى نصنع التقرير بأنفسنا كاملًا صوتًا وصورة.

وهكذا عملت مع «جابي» لصالح التلفزيون السعودي، ثم عشقت هذا العمل، وبدأ طموحي لأن أصنع بنفسي التقرير بكامله، أن يكون برفقتي فريق كامل، لكنها اعتذرت مرارًا بأن الميزانية لا تسمح، «جابي» كانت أول مَن علمني كيف أقف في مواجهة الكاميرا، وكانت أكثر من غضب عندما تركتها والتحقت بتلفزيون «MBC» كأول فضائية عربية من «لندن».

الفتاة البوسنيّة التي عملت معي وأوصلتني بجابي ومن ثَمَّ بالعمل التلفزيوني عملت معي بالصدفة، بعد أن قدمها لي صديق، اشتغلت معي لمرة واحدة، أوصلتني بجابي ثم هاجرت ودخلت أنا هذا العالم.

غريب.. لو خططت لهذا الأمر ربما ما وقع، لكنهم يقولون إنها الصدفة!

اعتدت عندما أنهي عملي مساء كل يوم وأرسل تقريري إلى تلفزيون «MBC» أن أصعد إلى الطابق العلوي من بناية تلفزيون «البوسنة» في «سراييفو» حيث أعمل، وحيث يتوفر هاتف ستالايت أتمكن عبره من الاطمئنان على عائلتي في «لندن» وأطمئنهم عليّ في بلد محاصر لا شيء يعمل فيه.

لكن في هذا اليوم بالذات، وفي حوالي التاسعة صباحًا اجتاحتني رغبة عارمة في الاتصال بالعائلة، فاستأذنت الزملاء في مكتبنا وتوجهت لأصعد إلى الطابق العلوي لإجراء المكالمة مع

العائلة، لكن فجأة اهتز المبنى كله وأنا على درجات السلم بين الطابقين، لقد تعرضت البناية التي يحتشد فيها الصحفيون القادمون من كل أنحاء العالم لقصف صاروخي، وفي لحظات عمَّ الهرج والمرج، أصيب من أصيب، ومات من مات، ولما عدت إلى مكتبي للاطمئنان وجدت المترجم يحاول إيقاف الدم المتدفق من رأسه من جرح بليغ، فيما السائق يمسك رقبته التي تسيل منها الدماء، أما الطاولة بجانب النافذة حيث أجلس فقد تحولت إلى تراب، بالأحرى الغرفة كلها راحت عن آخرها.

دقائق فصلتني عن هذه الحادثة، لو ظللت أعمل كما هو المعتاد في الصباح لربما كنت في عداد الأموات، أي مصادفة تلك، وأي نداء غريب هذا الذي أنقذني مما جرى؟ إنه مثل نداء هذه السيدة الواقفة في مطار «برازافيل».

كانت الحرب دائرة رحاها في «الكونغو»، زائير سابقًا، وكنت قد انتهيت بالفعل من تغطيتي في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة، ويتعيّن عليّ الذهاب إلى المناطق التي تسيطر عليها الحكومة، ولن يكون هذا بالطبع عن طريق خطوط القتال الفاصلة، وإنما التنقل بالطائرات المدنية عبر ست دول تحيط بالكونغو لدخولها من الناحية الأخرى، أي من الدولة المجاورة لها والمسماة «الكونغو برازفيل»، لنعبر النهر الفاصل بينهما فنصل إلى العاصمة «كينشاسا». على كل حال وصلنا إلى العاصمة المجاورة «برازافيل»، وعبر ستة انتقالات لم يسألنا أحد فيها عن تأشيراتنا للوجهة النهائية، هبطت الطائرة في المطار، ونزلنا، أنا والمصور التونسي و«البروديوسر» الفرنسية.

سرنا باتجاه بناية المطار ونحن في قلق شديد، فليس لدينا أي

تأشيرات تمنحنا حق الدخول، كنت في حالة إعياء شديدة، لم أتناول طعامًا منذ ما يقرب من يوم، فضلًا عن الاضطرابات المعوية التي أعاني منها، تحت مظلة وعلى يميننا وجدت مجموعة من الناس تقف فلم أعرهم اهتمامًا، سيدة من بينهم تمسك بحقيبة يد اختارتني دون كل ركاب الطائرة لتسألني: «أنت.. هل معك تأشيرة؟»، تلعثمت للحظات، ثم أجبت: لا، قالت: «هل من أحد معك؟»، ناديت على رفيقيَّ وسرنا وراءها، وقد أمسكت هي بجوازات سفرنا، ولا نعلم من هي، وهل هي موظفة رسمية؟ وأدركنا أنه سيتم ترحيلنا.

أجلستنا في غرفة دون الركاب المتزاحمين في صالة الوصول الضيقة المظلمة، فاجأتنا: «سأجهز كل تأشيراتكم وأعود إليكم، أعطوني من فضلكم بطاقات حقائبكم حتى أكلف أحدًا بجلبها لكم»، تشاورنا، أكيد أن هذه السيدة تسعى إلى بعض المال، إنها إفريقيا، أنهت التأشيرات وأحضرت الحقائب وسألت: «أين ستبيتون ليلتّكم؟»، قلنا لها إننا سنبحث عن فندق، قالت إن الحرب الجارية في الدول المجاورة دفعت بكل الأجانب ورجال الأعمال إلى القدوم هنا، ومن ثَمَّ فكل الفنادق مليئة عن آخرها، والبقاء في الشارع أو الأماكن العَتِمَة خطر شديد، فالسرقة والنهب ينتشران مساء في كل مكان، دخلت غرفتها تجري بعض الاتصالات، ثم عادت لتبلغنا: «ليس هناك في كل فنادق العاصمة إلا غرفة واحدة لليلة واحدة»، أشارت إليّ وقالت: «أنت وزميلك ستقضيان ليلتكما بها، وزميلتكما سوف أصحبها معي إلى بيتي».

زميلتنا سألتها بلطف عن المبلغ المطلوب، غضبت جدًا، قادتنا إلى الفندق واصطحبت زميلتنا التي عادت بها صباحًا أمام

السفارة لنتحصل على التأشيرة اللازمة لدخول «الكونغو»، وحتى هذه اللحظة لم أفهم سرَّ هذه المرأة وسرَّ حماسها الشديد لمساعدتنا، وسرَّ صدفة وجودها.

الأمر في «كوسوفو» كان شيئًا آخر، ولأن الصحفي يتحرك معتقدًا دائمًا أن لا شيء هنالك مستحيل؛ فقد تقدمنا بطلب لزيارة القاعدة العسكرية الأمريكية التي تعد أكبر قاعدة عسكرية في البلقان، عند البوابة وبعد التفتيش الدقيق شرحنا أمرنا، كانت «الجزيرة» لم تلق الشهرة التي حظيت بها لاحقًا، فشرحنا لهم أن «الجزيرة» بالنسبة إلى العالم العربي هي بمثابة «CNN» بالنسبة إلى العالم، عندما اصطحبتنا المجندة إلى قائدها قالت له إنهم قناة «CNN» العربية، لاقينا ترحيبًا وفُتحت الأبواب أمامنا، واندهشت من هذه الهفوات التي يمكن أن يقع فيها أقوى جيش في العالم، أو لعلها الصدفة.

عام ألف وتسعمئة وثمانية وتسعين تقدمنا في «نيروبي» إلى سفارة «إندونيسيا» بطلب للحصول على تأشيرة صحافية لتغطية الثورة المشتعلة هناك ضد نظام «سوهارتو»، لم نعتقد ولو للحظة أننا سنطول مرادنا، والنظام يكمم الأفواه في بلاده، لكن الموظف رفيع المنصب خرج من غرفته ليقول لي: «إننا نعرف أنكم قادمون من دولة صديقة لدعمنا؛ ولذلك سنتعاون معكم لمنحكم التأشيرات في أقرب وقت»، صمتُّ، ولم أعرف ماذا عساي أن أرد سوى أن أرسم ابتسامة باهتة على شفتيَّ، وحصلنا على التأشيرات وسافرنا إلى «إندونيسيا» لنشهد الفترة الأخيرة من سقوط الديكتاتور والعسكر.

الصدفة هي ما تفسر به الأشياء التي تقع دون تخطيط منك،

لكن عندما تقوم بتتبع مسار حياتك، والأحداث التي تسميها صدفة، تجدها كلها إنما كانت تدفع بك في اتجاه ما، إلى طريق محدد، ومسار معلوم، ليصل بك إلى نقطة معينة؛ ذلك أنها في الحقيقة ليست إلا قدرًا مقدورًا.

الثامنة

إنها حقًّا بلاد الدهشة

في الشارع الضيق المتواضع سكنت سيارتنا. «زيجينشتور» مدينة صغيرة، وإن كانت عاصمة لإقليم مشاكس. نزلت متعبًا وأنا الآتي من العاصمة «دكار» بطائرة تتسع لستة أشخاص. على مقربةٍ وجدت مجموعة من الناس تصطف على جانبي الشارع وتهتف بالفرنسية، لغة البلاد الرسمية، ظننت أن زعيمًا سياسيًا سيمر.

استقبلني رجل بترحاب وقال إن «كازامانس» كلها ترحب بي، شكرته، قادني باتجاه المتجمعين، أردت أن أتخذ جانبًا لا يزعج مصورنا الذي بادر إلى تسجيل هذا المشهد، فاجأني الرجل بقوله: عليك أن تمر بينهم، إنهم في انتظارك منذ الصباح الباكر، ليتك تفعل وترفع يدك تحية لهم، دهشت لكني تقمصت لدقائق دور الزعيم، قدرت للقذافي ولعه بهتافات الناس، لا يمر عليك يوم في «السنغال» إلا ويكون هناك ما يدهشك، حتى في هذا الإقليم الجنوبي المطالب بالاستقلال.

دخلت مقر الحركة الانفصالية، قدموني إلى زعيمها الأب «دياماكون سنغور»، رجل في نهاية عقده السابع، نُصّب قسيسًا قبل أكثر من خمسين عامًا، وظل لفترة طويلة تحت الإقامة الجبرية بين بيته والكنيسة، شرح لي المسألة، تحدث طويلًا عن نضال شعبه

ضد البرتغاليين والإنجليز والفرنسيين، واليوم «ضد هؤلاء الذين يعيشون معنا ويرفضون إرادة الحياة المشتركة ويتصرفون باستعمارية أكثر من المستعمر الأبيض».

قبل عام من زيارتي، أي عام ألفين وأربعة، وُقع اتفاق للسلام، لكن الأب «سنغور» يقول: «ليس هناك سلام من دون عدالة، وليس هناك عدالة من دون الحقيقة، وليس هناك حقيقة من دون معرفة وتطبيق صحيح لقوانين الله وقيمه الأساسية».

عندما انتهيت من لقاء القس وبدأنا الاستعداد للرحيل أتى مساعده مع مساعدنا ليبلغوني أمرًا مهمًا، قالا لي إن لديهم عادات يجب احترامها، قلت: على العين والرأس، ما المطلوب؟ قالا: من عاداتنا أنك تأتي بهدية عند الزيارة، ارتبكت، وتصببت عرقًا وأنا أعتذر لهم عن أنني لم آتِ بشيء، قالا: لا عليك، يمكن أن تدفع مبلغًا نقديًا، فغرت فمي! كيف لي أن أدفع إلى حركة انفصالية مالًا، وقد أتيت في مسألة مهنية تمامًا، دخلنا حوارًا طويلًا أذعنت في نهايته، وإلا ما خرجت، دفعت خمسين دولارًا وانصرفت!

خرجت من عنده إلى حيث الخضرة، أكثر من ستين في المئة من مساحة «كازامانس» مغطاة بغابات تعبرها ممرات مائية، ويعيش بها نحو مليون وأربعمئة ألف نسمة، اثنان وستون في المئة منهم مسلمون، إلا أنهم نصبوا قسًا زعيمًا لهم، سألته فأجاب: «شعاري واختياري الرهباني هو أن أكون قسًا إلى الأبد حتى أزرع في العالم الحقيقة وعمل الخير والعدالة والسلام، وأغرس في قلوب الناس حكم الله».

كان أمامنا بعض الوقت قبل أن يحين موعد الطائرة التي ستعود بنا إلى العاصمة «دكار»، سار بنا مرافقنا بين واحدة من هذه

الغابات، وعندما كنا في منتصف الطريق قال مساعدنا الذي أوفدته الحكومة معنا إننا لا بدَّ من أن نحترم تقاليد المنطقة وإلا تسبب ذلك في أزمة بين الحكومة والحركة المعارضة، صحت بالعربية: «تاني؟»، سألني: ماذا تقصد؟ أجبت متسائلًا: ما المطلوب؟ قال: نذهب لزيارة زعيم القبيلة هنا.

في قلب الغابة، وعلى قارعة طريق، قيل لنا انتظروا هنا حتى نبلغ الرجل بقدومكم، مرَّ وقت طويل، قلت لمساعدنا: يبدو أن فخامته مشغول ولا بأس في أن نأتي مرة أخرى، رفض طلبي بشدة، جلست مع فريقي ننتظر، خرج علينا من الغابة شخص عاري القدمين، يرتدي زيًا غريبًا لونه أحمر، وتسير وراءه حاشية من شخصين.

كان مشهدًا كاريكاتيريًا بالدرجة الأولى، وكنا نبذل جهدًا في ألا نضحك حتى لا تسبب سخريتنا أزمة حقيقية، ألقى كلمته وترجمت لنا، ثم طلب مني إلقاء كلمة وترجموها له، وبعد أن أنهينا الحديث عن تعزيز العلاقات استأذنا في الانصراف بحجة ضيق الوقت، فقيل لنا: ليس قبل انتهاء المراسم. مال مساعدي عليّ وفهمت، وأنقذتنا خمسون دولارًا أخرى من الموقف وانصرفنا.

في العاصمة «دكار»، سرادق ضخم، أضواء مبهرة، إنشاد تُميّز منه كلمات «الله» و«النبي» و«القرآن»، الرجال يتوافدون تباعًا، النساء يرتدين ملابس زاهية، الحلي الذهبية براقة، وما أن انتصف الليل حتى هلَّ شيخ وقور، فهلّل الحضور، ثم استمر الإنشاد وشرع في جمع الهدايا والهبات حتى بزوغ الفجر.

سألت، قالوا إنه المولد، ولما كان الزمن غير الزمن، فسروا

لي أنه في عطل نهاية الأسبوع يتنافس الناس على إقامة الموالد، ولا علاقة للأمر بذكرى مولد النبي صلوات الله عليه.

هؤلاء السنغاليون صوفيون حتى النخاع، وحتى يكونوا مواطنين كاملي الأهلية لا بدَّ للفرد منهم أن يكون منتميًا لهذه الطريقة أو تلك، ودون ذلك لا يستطيع المرء أن يعيش حياة عادية، كأن يلتحق بوظيفة أو يلحق ابنه بالمدرسة أو ينهي أي مصالح شخصية له، حتى قيل إن ولاء السنغالي إلى الطريقة قبل الشريعة، وإذا كرهت واحدة فاتبع الأخرى: التيجانية والمريدية والقادرية واللاينية، وغيرها كثير، وكل واحدة منها لها طقوسها المميزة، واستحقاقاتها المالية التي تُلزم بها أتباعها.

أينما وليت وجهك ستجد صورة لمارابو، أي شيخ الطريقة، وقد أتت الكلمة من مرابط، ذلك المقاتل الذي يجاهد في سبيل الله، وهو في ثقافة الصوفيين هنا رجل مقدس، ممثل لله على الأرض، يتمتع بقدرة غير عادية، ولم لا وهو من حارب الوثنية، وحارب الاستعمار الذي كان باعتقادهم ينشر المسيحية؟ فلما نالت السنغال استقلالها، كان أول رئيس لها هو الشاعر المسيحي «ليوبولد سنغور»، فيما اثنان وتسعون في المئة من سكانها مسلمون.

الساسة هنا علمانيون، لكنهم أدركوا أن أقصر طريق إلى قصر الرئاسة هو التحالف مع شيوخ الصوفية، طمعًا في أصوات مريديهم، ففعلوا، على رغم إيمانهم بفصل الدين عن الدولة.

على طول الطريق من «دكار» حتى طوبة، آلاف المؤيدين يقفون على جانبي الطريق لتحية الرئيس؛ و«عبد الله واد» بسنواته الثمانين، وبشهاداته الجامعية التي يباهي بها أقرانه من رؤساء

إفريقيا، وبسنوات نفيه وسجنه، لا يتعب ولا يملّ من تحيتهم حتى إذا وصل إلى مبتغاه أوسعت له الجماهير طريقًا، فدخل إلى بيت متواضع، ثم إلى غرفة مزودة بإضاءة خضراء بها سرير، وشيخ وقور يجلس على كرسيه، دخلت مع فريقي الغرفة، فوجدت سيادة الرئيس يجلس على الأرض، عند أقدام هذا الرجل، الذي هو «صالح إمباكي»، شيخ الطريقة المريدية.

خلال الطريق الذي أوصلنا إلى هنا، أوقف الرئيس سيارته فجأة عند مجموعة من الفتية والفتيات الذين اصطفوا وهم يرتدون الشارات الحمراء معلنين غضبهم واحتجاجهم على سياسة الرئيس، وهي الطريقة التي ابتدعها الرئيس نفسه عندما كان معارضًا في عهد من سبقوه.

استمع الرئيس إلى مطالبهم، منح وعوده، ثم واصل سيره، وواصلت أنا التفكير، هذا البلد يعيش واحد وخمسون في المئة من سكانه تحت خط الفقر، ونحو ستين في المئة من نسائه أميَّات، لكنه أول بلاد إفريقيا تمردًا على نظام الحزب الواحد، بلد الإعلام الحر، ومظاهرات بلا شهداء، إنه يستمتع بالديمقراطية، فيما الانقلابات العسكرية في الأغلب هي التقليد السائد للوصول إلى السلطة في الدول المجاورة.

لن أنسى صباحي الأول في «دكار»، استدعاني الرئيس، دخلت غرفة صغيرة في قصر كبير، تبادلنا الحديث طويلًا، قال لي: سأخلد إلى النوم الآن، عُد في الرابعة بعد الظهر. في الموعد ركبت معه سيارته، صمتُّ، غادرنا القصر، وصلنا إلى قلب المدينة، طلب من السائق التوقف، ترجّل، سرت بجواره، دقائق وكان العشرات حولنا، دقائق أخرى وكان المئات، أُطيح بي، وظل

سيادة الرئيس وحده بين الناس، أتوا له بسيارة أخرى، على حافتها الخلفية وقف وأخذ في تحية الجماهير، ناضلنا حتى لحقنا به، دخلنا إلى سوق عامرة، ضاع الحرس والمرافقون، وبتُّ وحدي وفريقي مع الرئيس، وهو يسألنا إلى أين نذهب، والحشود والهتافات تزيد، ظل الأمر لساعتين حتى استطاع حرسه الوصول إلينا والعودة بنا إلى قصره. حقًا إنها بلاد الدهشة.

التاسعة

رحلة بلا عودة

وكيف لي أن أنسى؟

كنا زهاء مئتين، رجالًا ونساء وأطفالًا، مترين طولًا ومترين عرضًا كانت زنزانتي، عشرون رجلًا كانوا معي، نختنق، تمر الساعات بطيئة، ظهورنا إلى الحائط، السلاسل تكبل رقابنا والأقدام، الجنة هي ذلك الموعد اليومي الذي تفك فيه هذه الأغلال لدقائق، نُساق فيها كالبهائم خارج الزنزانة لقضاء حاجتنا.

في اليوم الأول لوصولنا، قاموا بوزن كل منا، من يزن أقل من ستين كيلوغرامًا كان يُحشَر في زنزانة منفصلة، وعلى مدى الأسابيع التالية يتم تسمينه باستخدام نظام غذائي خاص، يرتكز على البقول، وتحديدًا على نوع من الفاصولياء بها الكثير من الدقيق، يطلق عليه السنغاليون «نيابي»، وكانوا يضيفون إليه زيت النخيل.

الزنزانة التي في مواجهتي كانت مخصصة للفتيات الصغيرات بعد أن فُصلْنَ عن النساء؛ لأنهن أغلى سعرًا، لم أحتمل المشهد وهم «يعاينون البضاعة» بدقة، أما هناك أسفل السلم فزنزانة مخصصة للذين يتمردون على ذلك كله، زنزانة ليس بها نوافذ، على بابها حراس ليس بوسعهم حصر عدد مساجينهم، بل لا يتمكنون أحيانًا من إغلاق الباب خلفهم لكثرة عددهم، صدقوني كنا أقل

شأنًا من الحيوانات، حتى إن وباء الطاعون الذي أصيبت به البلاد بدأ من هنا، ذلك كان عام تسعة وسبعين من القرن الثامن عشر.

استمر المرشد يحكي لي، يسرد على لسان الضحايا بعضًا من القصص المنقولة عنهم، وكثيرًا من الألم، فسعر الرجل مثلًا يتوقف على وزنه وعضلاته، والذين اصطادوه يربحون برميلًا من خمر الروم أو المياه أو بندقية، أما المرأة فهي تباع أرخص سعرًا بأربع مرات، أما أنا فقد تسمرت قدماي في المكان من هول ما أسمع من «جوزيف أندياي» الذي واصل مهمته التي يؤديها عادة مع السياح ليشرح لي معالم الدار، حيث يحبس العبيد الذين يتم جلبهم من إفريقيا، ريثما تأتي السفن لتحملهم إلى أمريكا، كان ذلك كما يقول يستغرق أحيانًا شهورًا طويلة.

هل يمكن أن يجتمع القبح والجمال في مكان واحد؟ «جوري» جزيرة جميلة في «السنغال»، تختبئ في أقصى الغرب الإفريقي، توالى عليها الاحتلال الإنجليزي والفرنسي والهولندي والبرتغالي، اعتبرها منتهكو حقوق البشر أنها أنسب نقطة لتزويد السفن المتجهة إلى الأمريكتين بالإمدادات اللازمة، فبوسع تلك السفن أن ترسو مهما كانت ظروف الطقس سيئة؛ ولذلك تحولت «جوري» إلى مركز رئيسي لتصدير العبيد، وهذا هو القبح بعينه.

صدقًا كنت أشعر بأرواح الضحايا تحوم في هذه الزنازين الضيقة المظلمة، كنت أتخيل لحظة من الزمان تجري فيها كل أشكال التعذيب والاغتصاب في حق أبرياء انتُزعوا انتزاعًا من أملاكهم وأراضيهم وأوطانهم، شرح لي المرشد أن الناس تعارفت حينها على تسمية مثل هذه الأماكن بدار العبيد، وأن البرتغاليين هم أول من سنَّ هذه السنَّة وبنوا هذه الدور، كان ذلك عام ستة

وثلاثين من القرن السادس عشر، فهم أول من وصل هنا من الأوروبيين، لكن هذه الدار التي أنا بها تحديدًا، يقول المرشد، بناها الهولنديون عام سبعة وستين من القرن الثامن عشر، ويعد آخر بيت للعبيد في «جوري».

أشار المرشد إلى ممر يؤدي إلى منفذ على البحر وقال هنا كانت تنتهي إفريقيا بالنسبة إلى العبيد ليبدؤوا رحلة بلا عودة، لوح من خشب النخيل يسير عليه العبد يؤدي به إلى مركب صغير، تقله إلى مركب شراعي قد رسا أبعد بقليل بسبب وجود الصخور، وفي ساعة الرحيل كان البعض يحاول الفرار بالقفز إلى الماء، هؤلاء لم يكونوا يذهبون بعيدًا فإما أن يقتلهم الحراس وإما تلتهمهم أسماك القرش، تلك التي سكنت الشاطئ بعد أن اطمأنت إلى حصولها على وجبات يومية من جثث الموتى من العبيد.

العنف هو سيد الحال، منذ لحظة القبض على الحر، إلى نقله من وسط القارة إلى الساحل، إلى سجنه في دار العبيد، إلى الباخرة التي يبقى فيها شهورًا في المحيط، إلى أن يُسخَّر في المزارع لإنتاج القطن والتبغ وقصب السكر، إلى أن يموت.

ثلاثة قرون من حياة البشر شهدت هذا النوع من تجارة العبيد، يقدر أنه رُحِّل خلالها نحو عشرين مليون إنسان من «جوري» وحدها إلى أمريكا، فيما مات نحو ستة ملايين بسبب الجوع والعطش وسوء المعاملة، وكما يقول «جوزيف»، لو استطعنا أن نرصد الجثث التي تملأ أعماق البحر لرأينا جسرًا من العظام من إفريقيا إلى أمريكا.

من زنزانة إلى أخرى أتنقل مع «جوزيف»، يحاول أن يستحضر من ذاكرته أحداثًا مهمة، قال إن الرئيس «مانديلا» زارنا، وعندما

وصل إلى هنا وأمام هذا الباب الصغير انزلق إلى داخل الزنزانة وخرج منها وعيناه شديدتا الاحمرار، ربما تذكر ماضيه في سجون جنوب إفريقيا، وزارنا أيضًا البابا في فبراير من عام اثنين وتسعين من القرن الماضي، وعلى رغم أن بعض العبيد كانوا يتمتعون ببعض الامتيازات بعد اعتناقهم المسيحية، فإنه من هذا الباب طلب البابا الغفران من إفريقيا؛ لأن كثيرًا من الإرساليات الكاثوليكية كانت ضالعة في تجارة العبيد.

عند البوابة المؤدية للبحر واصل «جوزيف»، أنه بمجرد وصول العبد إلى المركب كانوا يضطرونه لنزع ملابسه، ثم يحلقون له شعره من كامل جسده، يستوي في ذلك الرجل والمرأة والطفل، لتفادي الإصابة بالقمل لغياب المياه الحلوة للاغتسال، رحلة طويلة وبطيئة، تستمر أحيانًا ثلاثة أشهر، يحرم العبد الإنسان فيها اسمه ويصبح رقمًا، ويعاني خلالها كل صنوف الألم والمهانة.

كان الزمان نهاية صيف ألفين وخمسة، وأنا أغادر المكان، أستقل السفينة التي ستعود بي إلى العاصمة السنغالية «دكار»، قالوا لي أسرع فهذه آخر سفينة وإلا قضيت ليلتك في أحد فنادق الجزيرة، قلت بيني وبين نفسي شتان بين سجن وسجن.

نسمات مغربية خفيفة تلاطفك كأن هناك من سرَّته الزيارة، سألت نفسي: هل تهنأ الأرواح قليلًا عندما تجد من ينتصر لها؟

العاشرة

هذا وما زال الجاني مجهول الهوية

بالطبع كانت تجربة فريدة، الرفاق كانوا كلهم حولنا من تجار المخدرات أو المدمنين عليها، لكن لا يبدو أن الجلسة ستكون مريحة، إنهم ينظرون إلينا نظرات حادة مستهجنة، فكرت أن علينا أولًا كسر حاجز الجليد بيننا وبينهم، فالرفقة قد تطول، نصحني «رشيد» بالصمت التام، وعدم التحرك في المكان، قلت له: إذا كان الحال هكذا بالنهار، فكيف سيكون في الليل؟ في الحقيقة فإن الحكاية لا تُحكى هكذا، الحكاية تسرد دومًا من البداية.

والبداية كانت عادية، ركبت الطائرة إلى العاصمة الكينية «نيروبي»، لم تكن المرة الأولى لي، فقد جئت إلى هنا من قبل وأعددت مجموعة من التقارير الإخبارية، لكن هذه المرة ليست «كينيا» هي الهدف وإنما المناطق الخاضعة للمعارضة في جنوب «السودان»، وليس من سبيل للعبور إليها سوى الأراضي الكينية.

لكن ما هو غير عادي أن زعيم حزب العمال الكردستاني «عبد الله أوجلان» اعتُقل في «نيروبي» في منتصف فبراير عام تسعة وتسعين، أي قبل حوالي أسبوع من وصولي، لم أعِر الأمر اهتمامًا كبيرًا باعتبار أنه خارج خطتي للعمل، ومن ثَمَّ بدأتُ في الاتصال ببعض قيادات المعارضة الجنوبية الذين يقيمون في «نيروبي».

التقانا شخصٌ لا أذكر اسمه الآن، أبدى استعداده لتقديم كافة التسهيلات، وحدثني عن رحلة جوية طويلة عليَّ أن أقوم بها، من العاصمة حتى منطقة ما من الشمال، ثم أسلك الطريق البري في رحلة أخرى طويلة، لاحقًا عرَّفني بشخص آخر هو من الشمال لكنه انضم إلى «الحركة الشعبية لتحرير السودان» بعد أن كان ضمن كوادر الحزب الشيوعي، وبعد أن برأته المحكمة من تهمة قتل اثنين من زملائه طلاب الحركة الإسلامية.

التقيتُ «ياسر عرمان» في مقهى الفندق، كان جادًّا جدًّا، رحَّب بالفكرة، وأبدى استعداده للتعاون، لكنه أضاف بطريقة شممت منها رائحة التهديد: نحن نتابعك جيدًا ونعرف كل كلمة قلتها وكل تقرير أنجزته، سألته: هل ستكون معي في هذا الطريق الطويل؟ ثم أضفت: «على الأقل نتونس بيك»، ضحك فجأة وكأنه يسخر من الأمر، سخريته أثارت قلقي.

قبل حوالي عامين كنتُ أيضًا في السودان، وتحديدًا في جنوبه الخاضع لحكومته، لم ترق لي الطريقة التي يحكم بها النظام البلاد، عندما يقمع نظامٌ حرية الناس في الاختيار وفي التعبير فإن ذلك دليل على ضعفه ويستدعي التشكك في أفكاره المعلنة، في المقابل فإن الطرف الآخر كان يكذب كثيرًا، كنت أذهب إلى هذه المناطق وأعود لأبث تقاريري التي تنفي ادعاءات هذا الطرف، ويبدو أن الرجل لم ينسَ لي ذلك، ويبدو أيضًا أنه كان يعتنق مقولة «من ليس معنا فهو ضدنا»، تمامًا كما هو الحال هذه الأيام.

اتصلت بصديق صحافي سوداني يعيش خارج «كينيا»، أبلغته بما يجري معي على سبيل الاستشارة، فحذرني من الرجل، وقال إنه لا يتورع عن القتل بيديه ـ إذا واتته الفرصة لذلك ـ لمن

يخالفه، في الحقيقة لا أستطيع أن أتهم الرجل بذلك، لقد رحب بي وأبدى استعداده للتعاون، وإن كان سخر مني عندما منيت نفسي بأن صحبته تجلب الونس!

كان علينا استخراج تصاريح رسمية تسمح لنا بعبور الأراضي الكينية إلى جنوب «السودان» للعمل ثم العودة مرة أخرى إلى «كينيا»، ولما كانت الإجراءات تسير ببطء شديد ارتأيت أن أعد تقريرًا عن خطف «عبد الله أوجلان» من شوارع «نيروبي» ونقله إلى «تركيا»، وبالفعل التقيت ببعض المحللين والناشطين، كان منهم من وجّه الاتهام بصورة مباشرة إلى «الموساد»، وأكّد على أن العملية تخطيطًا وتنفيذًا يتحمل مسؤوليتها هذا الجهاز.

كنت في غرفتي، حين اتصل بي زميلاي وهما في ذعر واضح، ثم قصا الحكاية، كانا في غرفتهما بالفندق مع مساعدنا الكيني حينما طرق الباب، ففتحاه ليدخل أربعة رجال، قالوا إنهم من جهاز الأمن، وإن لديهم بلاغًا بأننا نمارس نشاطًا لا يسمح به القانون، وأننا هنا لتنظيم مظاهرات للمعارضة، وبعد حديث طويل أبلغوهم أنهم سيعودون مساء لمقابلتنا جميعًا وعلينا تجهيز أوراقنا الثبوتية وجوازات سفرنا.

بالفعل في الموعد المحدد حضر حوالي خمسة أشخاص بلباسهم الأنيق، جلسنا جميعًا في زاوية من بهو الفندق، ثم وُجهت لنا أسئلة كثيرة، ثم أبدوا رغبتهم في مشاهدة الشرائط المصورة، واستمعوا إلى الرواية التي تتهم «الموساد» بتدبير خطف الزعيم الكردي، ثم أخذوها مع جوازاتنا ووعدوا أن يأتوا في اليوم التالي وطلبوا ألا نخرج للعمل.

وفي الموعد الذي ضربوه حضروا، وتكرر المشهد نفسه:

لماذا أتيتم، ومع من التقيتم، وماذا تريدون، واستمر الأمر حوالي خمسة أيام على المنوال نفسه، وأبلغونا رسميًا أننا رهن الإقامة الجبرية وعلينا عدم مغادرة الفندق بأي حال، فقضينا أيامًا كئيبة، لا نفهم ماذا يجري ولا ماذا يُراد بنا.

يسخر الأفارقة من الوضع في «كينيا» فيقولون إنه إذا أراد أحد الساسة في إفريقيا أن يقتل آخر فإن أنسب مكان هو «كينيا»، حيث لا مساءلة، فهي تستضيف كل المعارضين وكل التيارات من اتجاهات مختلفة، حتى شهدت شوارعها عمليات للتصفية بين حين وآخر، بين هذا التيار أو ذاك. كنا نأكل ونحن نخشى أن يُدس لنا السُّم أو ما شابه في الطعام، وأكثر ما كان يزعجنا أننا لم نفهم ما هي التهمة.

كان فندقنا أربعة نجوم، وكنت مندهشًا كيف أن إدارة الفندق تسمح بذلك، والفندق مكتظ عن آخره بالسياح، فكرنا أن ننام جميعًا في غرفة واحدة ولكن اكتشفنا أنه لا فائدة، فلو أرادوا شيئًا لفعلوه، اتصلت بالشخص الذي كان يرافقنا من أهل الجنوب فلم يرد، اتصلت بياسر عرمان عدة مرات فلم يرد.

لم تكن الهواتف الجوالة حينها متاحة كما هي الآن، أعطيت لمساعدنا نسخة من مفتاح غرفتي ورقم هاتف مكتب مدير الجزيرة حينها «محمد جاسم العلي»، ورقم هاتفه الشخصي، وقلت له إذا وقع لنا مكروه عليك إبلاغه في الحال. وفي اليوم الخامس أتى الضباط وطلبوا أن نرافقهم إلى مبناهم، وهناك جلسوا يكررون الأسئلة نفسها، لاحظت أن كبيرهم مضطرب ولا يعرف ماذا يقول إلى أن استجمع قوته وقال لنا: منذ هذه اللحظة أنتم موقوفون رسميًا، وسيتم ترحيلكم الآن إلى السجن بتهمة مخالفة قوانين

الدولة، وعبثًا حاولنا أن نفهم ما هي المخالفة التي ارتكبناها.

أتوا بسيارة صغيرة وحشرونا فيها ورافقتنا مجموعة من رجال الأمن بلباس مدني ولا نعرف رتبهم إلى حيث قسم الشرطة وزنازينه، هناك اخشوشنت المعاملة، وسلمنا إلى ضابط الشرطة هناك الذي أظن أنه لم يبتسم يومًا في حياته، وإلى ذلك الحين كنا نحاول أن نتماسك، إلى أن دُفع بنا إلى سلالم مظلمة قادتنا إلى عالم تحت الأرض، وزنازين، وكائن ضخم الجثة احترنا أهو رجل أم امرأة، لكن بالتأكيد لديه أو لديها قدرة على العنف غير معهودة كما تدل قسمات الوجه.

قادنا الأخير إلى زنزانة مكتوب عليها تهم المخدرات لأكثر من عشرة كيلوجرامات، الجو مظلم للغاية، وخانق للغاية، وتسود رائحة كريهة للغاية، ولا نعرف ما هي الخطوة المقبلة، وإلى متى نبقى في هذه الزنزانة، آثرنا أن نقف بجانب القضبان، إلى أن اكتشفنا وجود مجموعة من المساجين بدأت تتحرش بنا.

كان في جيبي حوالي عشرة آلاف دولار، ولو أدرك أحدهم ذلك، أو أدرك السجان نفسه ذلك ما أكملنا يومنا أحياء، قلت لزميلنا المخرج رشيد ضاحكًا وأنا مرعوب: هل نتودد إليهم أم نظهر لهم العين الحمرا؟ قال: لا تتحدث العربية، قلت له: إذن نتحرك داخل الزنزانة لنظهر لهم أننا لا نكترث بهم، أو على العكس نتقرب منهم، قال: لا تفعل شيئًا، علينا أن نصمت ونقف ساكنين إلى أن نرى ماذا سيجري.

في هذه الأثناء وكما أبلغني مساعدنا الكيني لاحقًا، وما أن تم تسليمنا لقسم الشرطة إلا وذهب هو مباشرة إلى غرفتي بالفندق، واتصل بمقر مكتب المدير، ولسبب أو لآخر كان هناك شخص لا

يجيد الإنجليزية، قال له صاحبنا الكيني: أنا أعمل مع «أسعد طه» في «نيروبي» وقد أُلقي عليه القبض حالًا هو وفريقه وأريد شرح الأمر للمدير، فقال له الرجل من «الدوحة»: ماذا تقول؟، فكرر صاحبنا من «نيروبي» الحديث: لقد قبضوا على «أسعد طه»، فأجابه ببرود شديد: «نو بروبلم»، «نو بروبلم»، ثم كرر مساعدنا الخبر، والآخر من «الدوحة» يكرر: «نو بروبلم»، «نو بروبلم».

أغلق صاحبنا الهاتف واتصل بالمدير مباشرة، الذي سارع للاتصال بالسفارة الكينية، وإن لم تخنّي الذاكرة كانت حينها في «أبوظبي»، حيث لم يكن لكينيا سفارة في قطر، ثم نشرت الجزيرة الخبر، وقبلها اتصل بعائلتي في «لندن» وقال لزوجتي إن «أسعد» في «كينيا» يتعرض لبعض المضايقات، وهو رهن الاعتقال وسننشر الخبر، لكن لا تقلقي، وأخذ يطمئنها ثم سألها إن كانت بحاجة إلى أي أمر أو أي مساعدة ليقوم بها أو يكلف بها أحدًا في «لندن» للقيام بها، شكرته، ولا أظن أن شخصًا يجد هذا الشعور من إدارة عمله إلا وشعر بالعرفان والولاء لها.

مضى بعض الوقت، إلى أن وجدناهم يفتحون الزنازين واحدة تلو الأخرى، وينادون على أصدقائي النزلاء تجار المخدرات ومدمنيها، كان كأنه مشهد تمثيلي في فيلم ما، ولو كان هناك مخرج ما استطاع أن يحبكه كما وقع بالفعل، كانوا يُخرجون المحتجزين واحدًا واحدًا، ينادون عليهم ليقفوا في صف واحد، تمهيدًا لنقلهم إلى المحكمة، وكلما خرج شخص نال صفعة مدوية على قفاه، نظرنا إلى بعضنا بعضًا، يا له من يوم!

وبعد أن أخرجوهم كلهم وجّه الضابط وعساكره نظراتهم النارية نحونا فالدور علينا، وتمامًا في هذه اللحظات التي كنا نسمع

فيها طرقعة آخر صفعة على آخر قفا، تعالتْ أصوات أقدام تتدافع على السلم آتية من أعلى، وما هي إلا لحظات ورأينا الرجال نفسهم الذين سلمونا إلى قسم الشرطة وهم يتصايحون: توقفوا توقفوا، تحدثوا قليلًا مع الضابط، وأبلغونا وهم يبتسمون أنه قد تقرر عدم إحالتنا إلى المحكمة والإفراج عنا.

لاحقًا ظهر الشخص الجنوب سوداني ولم يظهر «ياسر عرمان»، وقد حمل لنا الرجل اعتذارات الضابط الذي ألقى القبض علينا، وأكد له أنه يؤمن تمامًا أننا لم نرتكب أي مخالفة قانونية تستحق ما جرى، سألته: من المسؤول إذن، من الجاني؟ أضاف أن طرفًا ما طلب منه أن يضايقنا بأي صورة كانت وبأي شكل.

الحادية عشرة

باب ما وراء الشمس

(١)

تصبح على خير يا بحر، قلتها بعد حمام دافئ وأنا أغلق باب الشرفة في غرفتي بالدور الثاني في حي «الإبراهيمية»، ثم لجأت إلى سريري؛ كوب شاي على يساري، وكتاب على يميني، ومذياع صغير بين يدي أدير مؤشره بحثًا عن المحطة التي اقترب موعد نشرتها الإخبارية، وعند سماعي الخبر المقصود، عزمت على الهروب صباحًا من «الإسكندرية» إلى «أسوان» ثم «السودان»، أما كيف فلا أعرف، ولكن ما من سبيل سوى ذلك.

رغم حبي للقراءة إلا أنني أحسم أموري أحيانًا بالطريقة «البلدي»، بعيدًا عن فلسفات الأفكار وضجيجها، ولقد قلت بيني وبين نفسي وبعد أن ضقت ذرعًا بما يجري: إن الله ﷻ أرسل جبريل إلى النبي محمد ﷺ، وقد عانى النبي ما عانى قبل الرسالة تفكرًا وبحثًا، وبعد الرسالة جهادًا وتحملًا لأذى الذين حاربوه، ثم تحمل أصحابه ما تحملوا، ثم تحملت أجيال أخرى متعاقبة على مدى هذه القرون ما تحملت حتى يصل إلينا الإسلام بقيمه العليا، فهل تليق هذه القيم العليا بما يجري الآن من هجوم على الحفلات الطلابية في الجامعة، أو تخريب لسيارة عميد الكلية، أو ما شابه ذلك من أعمال صبيانية؟

وهكذا وكما تركت «منظمة الشباب الاشتراكي» وأفكارها، وتركت غيرها، تركت كذلك «الجماعة الإسلامية»، هذا الكيان الطلابي الفضفاض الذي كان يضم ألوانًا شتى من الشباب والشابات المتدينين، لا صفة تنظيمية، ولا فكر محدد سوى العودة إلى دين الله، وعشت لاحقًا أيامًا سعيدة وأنا أرى أنني كنت على حق تمامًا حين اتخذت قراري هذا قبل ما يزيد عن خمسة وثلاثين عامًا من الآن.

مرَّ الزمن ولأني أعلم أن الأمن لدينا لا يغفر الذنوب أبدًا، فقد قدرت أن الأذى سوف يصيبني إذا ما أصاب التيار الإسلامي إثر مقتل السادات يوم السادس من أكتوبر عام واحد وثمانين، وهكذا تحريت أن أسمع نشرة أخبار «الحادية عشرة» في هذا المساء من وقفة عيد الأضحى المبارك، السابع من أكتوبر، أي بعد يوم من مقتل السادات، فلما بدأت الإشارة بالفعل إلى تورط التيار الإسلامي في الاغتيال، أدركت أنه حان وقت الهرب، غير أن النوم - منه لله - كان يغالبني، فقررت أن أستجيب له في الحال على أن أستيقظ مبكرًا لأبدأ رحلة هروبي.

بالفعل استيقظتُ مبكرًا، حوالي الرابعة صباحًا، ولكن على رجال الأمن وهم يداهمون حجرتي التي أستأجرها من سيدة عجوز تؤجر غرف شقتها الثلاث وتعيش في الرابعة، دخل الغرفة شرطي عابس الوجه برفقة ضابطين من أمن الدولة، هما اثنان من أصل ثلاثة ضباط كانوا معنيين في «الإسكندرية» بالنشاط الديني حينها، وقد كانا مهذبين للغاية معي، جلستُ على سريري وقد تلبستني حالة من الطمأنينة غير عادية بعد ليلة سابقة كنت أستيقظ فيها رعبًا على صوت أي شخص خارج الشقة يصعد أو يهبط على السلم مخافة أن يكون من رجال الأمن.

أردت أن أدع الضابطين يقومان بمهمتهما في التفتيش بهدوء وأن أنصرف أنا إلى الحمام لأعد نفسي، لكن الضابط «عصام» قال لي حازمًا: لا تنصرف، ابق هنا حتى ننهي التفتيش، فيما ظل الشرطي خارج غرفتي، بحث الضابطان كثيرًا ولم يجدا في غرفتي شيئًا إلا فيلم «عمر المختار»، ثم سمحا لي بالتوجه إلى الحمام فانصرفت وسط دهشتهم لهدوئي الشديد، غسلت أسناني وتوضأت ولبست ملابس نظيفة ومكويَّة، ثم عدت إلى الغرفة ففتحت حقيبتي ووضعت فيها كل ما وقعت عليه يداي من الملابس، بادر الضابط «فرج» إلى القول: «لم كل ذلك؟ إنها خمس دقائق للتحقيق ثم تعود»، فضحكتُ فضحكا، ثم تعطرت ـ أي والله تعطرت ـ وشعرت حينها أن صبرهم قد نفد.

عند الباب كانت السيدة العجوز تقف لتقول لي وكأنها تبرئ نفسها أمامهم: «مش قلتلك بلاش»، وكأني بالفعل ارتكبت جرمًا، كظمتُ غيظي مرغمًا وانصرفت مع الموكب إلى السيارة الصغيرة التي كانت في انتظارنا، قال «عصام» مازحًا: «هل تعرف أن السائق على اسم والدك «طه» أيضًا، وهو الذي دلنا على بيتك؟»، قلت له: لا بأس، فلينتقم الله منه وإذا أصابني مكروه فليره في أولاده، ندمت لاحقًا على ما ذكرته بخصوص أولاده.

أدخلوني قسم شرطة «الإبراهيمية» بجانب مسجد «عمر بن الخطاب» الذي كنت أصلي فيه دائمًا، قال لي «عصام»: سوف نتركك لوقت قصير ونعود، كانوا في الحقيقة في طريقهم إلى صديقي «مصطفى» الذي لم يكن موجودًا في بيته حينها فلم يعتقلوه، لكنه لحق بنا بعد عدة أيام.

بعد قليل عادوا، ثم اصطحبوني إلى السيارة مرة أخرى التي

نقلتنا إلى مديرية أمن «الإسكندرية»، «عصام» واصل تعامله اللطيف والرقيق للغاية، سلمني إلى الشاويش أو الضابط هناك، في الحقيقة لا أستطيع أن أفرق بين الرتب، وأوصاه علي، ثم عاد وقال لي: «هل تحتاج شيئًا؟ هل تريد مالًا؟ هل ينقصك أي شيء؟ هل بوسعي مساعدتك في أي أمر؟»، قلت له: شكرًا جزيلًا غير أني نسيت مصحفي، فابتسم كأنه يعتذر عن تلبية طلبي وانصرف.

جلست على المقعد أمام الضابط الذي كان مشغولًا بالكتابة، ووضعت ساقًا على ساق باعتزاز، نعم فأنا سجين سياسي، انتهى الرجل من أوراقه ثم نظر لي وصرخ: «قوم يا واد»، أطعت الأمر وسرت وراءه وورائي جنديان، كان القسم يُغسل بالماء غسلًا، وكل شيء فيه يلمع ونظيف للغاية، لكنه فتح بابًا نقلني إلى عالم آخر تمامًا تحت الأرض.

نزلت السلم طويلًا متعثرًا في العتمة، حتى وصلت إلى المنتهى المظلم، كانت الزنزانة في مواجهتنا، ثم ممر على جانبه مجموعة من الزنازين، صرير الباب وهو يفتح كفيل بأن يبث في أوصالي كل الرعب، دفعوا بي إلى الداخل وأغلقوا الباب وانصرفوا، أعلى الزنزانة الضيقة طاقة صغيرة بقضبان حديدية تدرك بها كم أنت بعيد عن الأرض، رطوبة خانقة، ثم أربعة رجال ينامون على بطونهم، ولا يرتدون سوى ملابسهم الداخلية، وقفت مندهشًا وأنا ممسك بحقيبتي، قلت في نفسي: «ياااه الإخوة بسرعة تنازلوا كده وقلعوا بالطريقة دي بسبب شوية حر».

ظللت واقفًا لبرهة لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل، ولا أين يمكن أن أجلس، وقد هالتني الرائحة المنبعثة من الحمام الذي لا باب له، فيما طفحه ممتد إلى الزنزانة نفسها والفضلات تتناثر على

أرضيته، والحر والرطوبة لا يطاقان، بعد برهة تحرك أحدهم وأفسح لي مجالًا، وبتفرس وجهه أدركت أنني سجين مع مجموعة من المجرمين الجنائيين.

ما أن أشرقت الشمس حتى سمعت ضجيجًا بالخارج بما يوحي بوصول مساجين أو معتقلين جدد، فتح باب الزنزانة وأخرجوني ليُدخلوني أخرى لأجد أربعة منهم صديقي العزيز «أحمد النحاس»، تعرفنا وتصافحنا وضحكنا وكأننا نلتقي في نادٍ، كانت الزنزانة الجديدة كبيرة، مما أغرى بعض الفئران باللهو، فاتفقنا على أن ينام أربعتنا على الأرض ويهش خامسنا الفئران، غير أن الاتفاقية لم ترح السجان الواقف على بابنا، فصرخ فينا أن نقف جميعًا ولا نجلس مطلقًا، وذلك بصحبة ما لذَّ وطاب من الألفاظ التي يعاقب عليها القانون فيما تجاهل شركاؤنا الفئران.

مرت ساعتان تقريبًا، ثم فتح باب الزنزانة، وأُخرجنا جميعًا بصحبة أضعاف عددنا من المخبرين، ودفع بنا إلى الأعلى ومن ثَمَّ إلى باب مديرية الأمن، حيث رأينا حشودًا واضطرابًا وسيارات للترحيل فأدركنا أننا سننقل إلى السجن.

كان المخبر يعصر ذراعي عصرًا مخافة أن أهرب، وكيف لي وسط هذه الحشود، الحقيقة كنا جميعًا نبتسم، لقد شعرنا كما لو أننا نعيش مشهدًا في فيلم سينمائي، أو أننا لم نكن نقدر أنفسنا أننا بهذه الأهمية فيما هؤلاء يدركون ذلك، وإلا فانظر إلى كل ما يجري أمامك!

صُعد بنا إلى الشاحنة وفي الطريق توقفنا لتنضم إلينا نخبة أخرى، كانت من تيار اليسار، وفهمت أن الاعتقالات تشمل الجميع، ثم بدأت شاحنتنا تشق طريقها في شوارع «الإسكندرية»،

تلك المدينة الجميلة التي أحبها، لكنها اليوم لها شكل مختلف تمامًا، ظننا للوهلة الأولى أننا سننتقل إلى سجن «الحضرة» بالإسكندرية لكن السيارة شقت طريقها خارج المدينة.

لم نكن عددًا كبيرًا ولم تكن هناك أساور من حديد تطوق أيدينا، لكن السائق تعامل كما لو أنه يحمل شحنة من الأجولة، فكنا نتخبط في السيارة بشكل عشوائي ومؤلم عند المنحنيات أو عند اضطراره لاستخدام الفرامل، سرحت في عائلتي، أظن أنها ما زالت تنتظر قدومي، كما تعودنا في العيد، أصلي في استاد الجامعة بالإسكندرية الذي يتحول وكل الشوارع إلى مصلى ضخم، ثم أتوجه إلى عائلتي في «طنطا».

لاحقًا علمت أنه في الوقت نفسه الذي ألقي فيه القبض عليّ، كان رجال الأمن يتجهون إلى بيت عائلتي، طرقوا الباب ففتح لهم والدي رحمه الله، ويبدو أن عائلتي كانت أيضًا محظوظة مثلي في رجال الأمن، فقد سأل الضابط والدي بأدب شديد عني، فأخبرهم أنني لست موجودًا، فانصرف، لكنه عاد مسرعًا وبالأدب نفسه طلب من الوالد أن يسمح له بتفتيش البيت ففعل للتأكد من عدم وجودي، ثم انصرف معتذرًا وشاكرًا.

ما للقاهرة تبدو هكذا؟! الناس تعيش العيد، الأطفال والمراجيح والأغاني والزينة، كنا نرقب المشهد من خلف الكوات المغطاة بالأسلاك في السيارة ونحن نحاول أن نتماسك وسط الحركة العابثة للسائق، لم يتوقف الزمن إذن، لم تتجمد الحياة، وكأن ما من مصاب جلل وقع اليوم لنا.

توقفت سيارة الترحيلات أمام سجن «طرة»، كنا نرغب في الخروج من الشاحنة بأي طريقة، لكننا بقينا فترة طويلة، تابعنا

خلالها المشاحنات الدائرة بين الضابط الذي كان معنا والضباط الذين يقفون عند بوابة السجن، ثم عرفنا أن السجن كامل العدد لا يحتمل زيادة، تحركت شاحنتنا لاحقًا فيما لم يتوقف الزملاء عن إطلاق النكات، «كان يجب الاتصال والحجز قبل القدوم مباشرة» قال أحدهم.

وقفت مكتئبًا أمام السجن الذي توقفت قبالته شاحنتنا وأنزلونا في انتظار إدخالنا إليه، ويا لغرابتي! لم أكن حزينًا لما أصابني اليوم، ولا لما أصاب عائلتي، ولا للمصير المجهول الذي ينتظرني، بقدر ما كنت حزينًا وأنا أقرأ الاسم، كنت أنظر إلى البناية العتيقة وهي تحمل لافتتها وأقول: «كان الأمر سيكون نفسيًا مختلفًا تمامًا لو أدخلونا سجنًا آخر لا يحمل اسم.. «أبو زعبل»»!!

(٢)

الاعتقال هو مصل الاعتقال، عندما يمارس المعارضون للنظام معارضتهم، فإنهم ومهما أوتوا من شجاعة، يظلون في هيبة شديدة من الاعتقال، إنهم يسترجعون كل ما كُتب عنه، ويتخيلون ما يمكن أن يقع لهم، ينتصرون على هذا الخوف أحيانًا، وينهزمون أخرى، وفي كل الحالات يبقى الاعتقال هو العفريت الذي ينتظرون أن يخرج لهم يومًا ما.

ولذا فإنهم ما أن يقعوا فيه حتى يزول سحره، وتتبدد المخاوف منه؛ لذلك لم يكن غريبًا أن نقول جميعًا: «ياه هو ده بقى السجن.. هو ده بقى الاعتقال»، ولاحقًا ينقسم المعتقلون إلى نادمين لا يعودون أبدًا إلى معارضتهم، فيما الأغلبية تقوى بما حصلت عليه من خبرة، باعتبار أن الاعتقال الذي لا يقصم ظهرك

يقويك، ولذا فإن أفضل من يصنع المقاومة والمعارضة ـ وحتى الإرهاب ـ هم رجال الأمن في معامل الاعتقال.

كنا نسير وراء الشاويش الذي استلمنا من عند الباب الخارجي، سمين وقصير، يرسم على شفتيه عنوة ابتسامة النصر وكأنه خارج من المعركة لتوه، يتقدمنا ليعرفنا بالمكان كما لو أنه دليلنا السياحي، يشرح لنا أن «أبو زعبل» هو مجموعة من الزنازين الضخمة، التي تضم كل زنزانة منه زنازين أخرى داخلها، ولتصل إلى مبتغاك عليك أن تدخل من واحدة إلى أخرى، وعلى كل واحدة حراس غلاظ شداد.

كنا ننصت باهتمام ونحن نحاول أن نصلح من هيئتنا بعد الصفعات التي نالتنا على أيدي حماة الوطن، إلى أن وصلنا ـ وكنا قبيل المغرب ـ إلى مجموعة زنازين كُتب عليها قسم الأشغال الشاقة، فقال لنا الشاويش: «هذه نصيبكم، أنتم هنا إلى الأبد». دبت الرعشة فينا، «يا نهار أسود»، صحنا جميعًا.

دخلنا نحن الخمسة القادمون من «الإسكندرية» ـ وبعد استبعاد اليساريين من عند البوابة الرئيسية ـ لنجد سبعة من أبناء «القاهرة»، أدركنا لاحقًا أن بعضهم لديه خبرة سابقة في الاعتقال، الزنزانة تسع لحوالي خمسة عشر شخصًا، ونحن الآن اثنا عشر فلا بأس إذن، رائحة الطلاء تغطي الأنحاء، فقد كان هنا سجناء جنائيون تم ترحيلهم على عجل، وتجهيز الزنازين للسياسيين.

توضأنا وصلينا، ثم جلسنا نتعارف، كنا نغالب بالضحك مخاوفنا، صاح صديقي «أحمد النحاس» فجأة: «يا جماعة لا تقلقوا، إذا كان سجننا ضمن قضية وليس اعتقالًا فإني أعرف محاميًا يمكن أن يدافع عنا مجانًا»، فسأله قاهري «ما اسمه؟» فرد:

«مختار نوح»، فعاود القاهري: «هل تعرفه؟»، أجاب صديقي: «لا، ولكن أعرف من يعرفه»، فرد القاهري وهو يشير إلى أحدهم مبتسمًا: «متتعبش نفسك.. هو موجود معانا أهو».

لا أظن أنني ضحكت يومًا في حياتي مثل هذا اليوم، كنا نصمت ثم ننفجر ضاحكين على ما وقع، كنا نكتشف عالمًا جديدًا لطالما سمعنا عنه، وها هو السجان يطرق الباب بشدة معلنًا وصول الطعام الذي لم أذقه منذ الليلة الماضية، لم نترك صغيرة ولا كبيرة إلا كنا نضحك عليها، من يشاهدنا يظن أننا في رحلة كشفية، سمعت كثيرًا عن الفول الذي به سوس، ولم أسمع عن السوس الذي به فول، وها هي الفرصة تسنح للمشاهدة، صاح أحد ذوي الخبرة: «كلوا دون أن تنظروا».

مرة أخرى التفتنا جميعًا ناحية الباب، ثمة جلبة تقع عندما يضع الحارس مفتاحه فيه، دخلت مجموعة جديدة، لا بأس، استقبلناهم وأجلسناهم، ثم بعد قليل دخلت مجموعة أخرى، فأخرى، حتى وصل عددنا إلى اثنين وسبعين شخصًا، كدنا نختنق.

انتصف الليل حين دخل علينا ضيف بمفرده، رجل عجوز، التقط أحد ذوي الخبرة الاسم حين لفظه السجان، إنه والد «خالد الإسلامبولي» المتهم باغتيال «السادات» قبل يومين، انقسمنا، رأيٌ يقول إنه مخبر دس بيننا لينقل أخبارنا، فكيف لوالد قاتل «السادات» أن يزج به ضمن عامة المعتقلين من أمثالنا، حيث ليس بيننا لا قائد ولا زعيم ولا سياسي، وكلهم في قسم مختلف، ورأي آخر يقول إن هيئة الرجل لا تدل على أنه مخبر.

قال أحدهم دعوني أنفرد به، ثم توجه إليه، سأله إن كان قد أكل شيئًا، نفى لكن طلب أن يمهد له الطريق - بين جموع

المعتقلين المحشورين - إلى الحمام حتى يتوضأ ويصلي، ففعل، ثم جلس يأكل بعض اللقيمات التي جمعناها له، ثم سأله صاحبنا: كيف لابنك أن يرتكب ما ارتكب؟ فرد الرجل باقتضاب شديد: ابني مسلم يعي معنى لا إله إلا الله، عاد إلينا مبعوثنا ليقول: «لا مخبر بوسعه أن ينطق ذلك»، إدارة المعتقل أدركت فيما يبدو خطأها، فسحبته من بيننا قبيل الفجر.

كان الضجيج لا يحتمل، جلست مقرفصًا أفكر، اثنان وسبعون شخصًا في زنزانتنا وحدها، اثنان وسبعون عائلة لا تعرف أين ابنها أو عائلها، اثنان وسبعون من شتى أنحاء مصر: مثقفون وأميون، أساتذة جامعات وعمال وفلاحون، نماذج مختلفة ومتناقضة ومتباينة، مصر كلها كانت في زنزانتنا.

عجوز نحيف أُتي به من المستشفى وكان يجري عملية البواسير، كان يتألم بشدة، كنا نجمع قصاصات الورق وأي شيء على أرضية زنزانتنا الإسمنتية لنشعله لتسخين ما يوازي كوب ماء يمكن أن يستخدمه في الحمام بديلًا عن الماء البارد.

عجوز آخر، سمين جدًا، لا أظن أنه قرأ يومًا جريدة أو تابع خبرًا سياسيًا، تندهش كيف أُتي به إلى هنا، كان يصرخ فينا دائمًا ويتهمنا بأننا أولاد صغار نضحك فرحين بالسجن، لكنه أفضل حالًا من هذا الرجل الريفي الذي كان إمامًا لمسجد في قريته، وهو لا يعرف سبب اعتقاله، كان يقول: «ما من خطبة جمعة إلا وختمتها بالدعاء للسادات فكيف أنا هنا؟».

كان غريب الأطوار جدًا، بعد صلاة الفجر يخلع جلبابه ويبقى بهذه الملابس الداخلية التي يرتديها الفلاحون تحت الجلباب، ثم هو يتشاجر مع أي منا لأتفه الأسباب، حتى بتنا جميعًا نتجنبه،

فعلًا لو قلت له صباح الخير قد يصرخ فيك لماذا تلقي عليّ التحية هكذا؟ كنا نقضي اليوم في انتظار أي جديد، يُنادى على بعضنا فيخرج ولا نعلم إلى أين، ثمة أحداث أو معتقلون جدد يأتون بأخبار جديدة من العالم الخارجي؛ لذا يبقى الرجل في ارتباك وعصبية شديدين.

فإذا ما حل المغرب، وتوقفت الحركة خارج الزنازين، ويئسنا جميعًا أن يحمل اليوم خبرًا جديدًا سعيدًا، توضأ الرجل وارتدى كامل ملابسه وتحول إلى شخص آخر تمامًا في غاية التهذيب، ثم يطلب أن يخطب فينا عقب صلاة المغرب، فإذا هو يحدثنا عن الصبر وتحمل الأذى وجزاء الصابرين، بالفعل كانت خطبه مؤثرة جدًّا وبليغة جدًّا، ويبقى هكذا شيخًا عالمًا لطيفًا بين النصيحة والمزاح إلى أن يحل فجر يوم جديد فيعود إلى الشخصية الأولى.

ومن الريف أيضًا كان هذا الرجل الذي كان يضحك قائلًا: أنا مخبر، كنت أبلغ عن أمثالكم، لكني استقلت واهتممت بتجارتي في القرية، وقد أثار ذلك العمدة فبلغ عني بصفتي واحدًا من الإرهابيين.

أما «سيد» ابن البلد الجدع، فقد كان أشبه بماكينة إضحاك، وكان يجد لذته في السخرية من الشاويش عندما يحل المساء ويدخل زنزانتنا ليسلم زميله نوبة الحراسة المسائية، فيبدأ في عدنا، ولأننا كثر، اثنان وسبعون في زنزانة ضيقة، فإنه كان يتعثر دائمًا.

كان «سيد» يستغل الفرصة فيتحرك من جهة إلى أخرى فيكتشف الشاويش إما زيادة أو نقصانًا في العدد، فيبدأ العد من جديد، ويومًا اكتشف الشاويش ذلك، فقال لزميله: استلم مني ولا تخش شيئًا وإذا وجدت بعد ذلك نقصًا في العدد فإنني كفيل بسده،

وظللنا نسأل أنفسنا كيف يمكن له أن يسد نقصًا في العدد؟ هل يأتي بأحدهم من الشارع؟!

كان في الزنازين المجاورة طفلان، نعم طفلان، عمر كل منهما حوالي اثني عشر عامًا، تشعر أن كلًا منهما يعيش في سجن داخل سجن، إنهما مع أناس لا يعرفونهم، يكبرونهم بسنوات كثيرة، وثقافات مختلفة، وهما لا حول لهما ولا قوة ولا أي انتماء سياسي بالتأكيد، كان وجه كل منهما دائمًا شاحبًا، يعيشان حالة من الذعر يرقبان كل حركة على أمل أن يأتي المنادي ليقول ما هذا العبث؟ من أتى بكما إلى هنا؟ اخرجا فأنتما من الأحرار.

وكان أيضًا بين الزنازين التي يشملها قسمنا شابان لديهما اضطرابات عقلية، لا نعرف كيف زُج بهما معنا، كل الوقار على هيئتهما ما لم تنتبهما «الحالة»، كانت إدارة السجن تطلق أحدهما ليسير بين زنازين القسم لتهدئته، ثم تدفع به إلى زنزانته وتخرج الآخر.

أحدهما أصر يوم جمعة أن يؤم في زنزانته المعتقلين الذين كانوا يرون أنه لا جمعة للأسير، ولما هاجت حالته قال بعض الحكماء استديروا ناحية القبلة ومثّلوا أنكم تنصتون لخطبته، ثم بدأ الشاب خطبة بلغة عربية فصحى، الشاب المريض الآخر الذي كان مطلقًا بين الزنازين سمع صوت صاحبه، فأتى إلى باب الزنزانة المغلقة وأمسك بقضبانها ووقف يسمعه.

الشاب الأول احتد في خطبته إلى أن قال صارخًا: يا أيها الناس احذروا فتنة النساء، فما كان من الآخر الواقف على باب الزنزانة إلا أن صرخ فيه: «يا بني إزاي دول هما الخير والبركة»، ولا تسل عن بركان الضحك الذي انفجر من نزلاء الزنزانة.

كان معنا أيضًا «محمد»، شاب بسيط جدًا، وحيد والديه، عائلته ثرية، لم تكن له أي اهتمامات سياسية، ولم يكن يؤدي فرائض الدين بحسب ما قال لنا، يقضي حياته في المرح واللهو فلما ملّ، ولما كان يومًا مارًا بمصلى من هذه المصليات التي تتخذ أماكنها تحت البنايات، قرر أن يدخل ويكتشف هذا العالم الآخر، ولحظّه العاثر كانت هذه «الزاوية» ـ كما نسميها في مصر ـ تابعة لتنظيم «الجهاد الإسلامي».

رحب به المصلون الشباب والتفوا حوله يتعرفون إليه وإلى عائلته وعنوانه ويدعونه إلى أفكارهم، غادر «محمد» المصلى ونسي الموضوع، وما هي إلا أيام والأمن يداهم أعضاء التنظيم، وتحت صنوف التعذيب وسؤال الضحية عمن يعرف من أسماء، تذكر أحدهم أخانا «محمد» فأبلغ عنه، وما هي إلا ساعات وكان «محمد» سجينًا، وسط ذهول أهله، لكن لأنه كان سجنًا على ذمة قضية وليس اعتقالًا، فقد تولى أحد المحامين الدفاع عنه وإثبات أنه شخص بريء مسالم صالح بدليل أنه لا يصلي ولا يصوم، وبُرئ «محمد» وخرج إلى حياته وليدًا جديدًا وقرر ألا يمر من أمام هذه الزاوية حتى وهي مغلقة.

ولأن الأمن عندنا كما سبق وذكرت لا يغفر الذنوب ولا يسامح عن الماضي، ولأن اسم «محمد» نُقش من ذهب على صفحات الداخلية؛ فقد أُتي به ضمن حملات الاعتقال التي أعقبت قتل «السادات» ليشاركنا زنزانتنا وهو مريض القلب، كان أكثرنا هلعًا ونحن نسمع أصوات التعذيب تأتينا عن بعد، فيما الليل يزيدها خوفًا وترهيبًا. وفي أحد الأيام، وعندما وصلتنا أولى وجباتنا ظهرًا، دخلنا في نقاش طويل حول هويتها التي لم نتعرف عليها، نادينا على السجان فأكد أنها لحم، إلا أن «محمدًا» رفض

تناولها، وقال ببساطة شديدة وبنبرات صادقة: «وكيف أعرف أنها ليست لحم الإخوة الذين كانوا يعذبون بالأمس ونسمع صراخهم؟».

كان مصدرًا لسعادتنا ونكاتنا، وكنا بالنسبة إليه عالمًا غريبًا لم يعتده، كانت معنوياته تصعد وتهبط بشكل غريب ومفاجئ، لكنه كان محل حب واحترام الجميع لطيبته وبساطته وحسن معشره. بعد شهور عديدة خرج «محمد» إلى النور وسط فرح أهله فرحًا لا يوصف، لقد عاد إليهم أخيرًا ابنهم، فليطووا هذه الصفحة إلى الأبد.. شهران تقريبًا وتجزع أسرته بمصابها الجديد: محمد مات إثر نوبة قلبية.

(٣)

«أنا أول واحد في الصفيحة»، صاح «سيد» بصوت أجش حازم، حانقين نظرنا إليه جميعًا، لكن وفقًا للقواعد المتفق عليها لم يكن أمامنا إلا الموافقة، بل والمشاركة، وسريعًا صاح آخر: «وأنا اتنين»، وآخر: «وأنا تلاتة»، وهكذا حتى وصل عدد من في الصفيحة إلى حوالي عشرين.

ما أن يتطرق الحديث إلى السجن والاعتقال، إلا ويتبادر إلى الأذهان كل صنوف التعذيب والهوان التي يذوقها المعتقلون في عالمنا العربي ـ وأيًا ما كان انتماؤهم ـ على يد سجانيهم، لكن لا أحد يذكر الأمور الأخرى؛ إنها أشكال أخرى من الحرب النفسية.

جلست أحدث نفسي في زنزانتنا التي أشبه بعلبة السردين: «تخيل أنا مشفتنيش من تلات شهور»، ثمة أشياء صغيرة في حياتك اليومية لا تهتم بها أبدًا، تصبح بعد غيابها من الأمور العظيمة، للأسف لا يُعترف بقيمة الأشياء إلا بعد غيابها، منذ ثلاثة أشهر لم

أنظر إلى المرآة، لم أمشط شعري، لم أستخدم فرشاة الأسنان، لم أقلم أظفاري.

إدارة الزنزانة التي انتخبناها وعلى رأسها «مختار نوح» أرست قواعد التعاملات اليومية وأسسها منعًا للخلاف، فإذا مثلًا دخلت الزنزانة صفحتان من جريدة كان أحد المعتقلين الجدد يلف بها أشياءه، فإنه يتوجب على الراغبين في القراءة تسجيل رغبتهم عبر الأرقام، فيصيح واحد: «أنا أول واحد في الجرنان»، ثم آخر أنا الثاني وآخر أنا الثالث وهكذا...

بعد ثلاثة شهور سُمح لنا بشراء بعض المواد الغذائية وهي تحديدًا الجبن والحلاوة من «كانتين» السجن مستخدمين بعضًا من أموالنا التي صودرت عند دخولنا، وهكذا فما أن استلم «سيد» أول صفيحة جبن حتى نظر فيها وأدرك أنها تعكس صورته كالمرآة التي يفتقدها فصاح صيحته الشهيرة: «أنا أول واحد في الصفيحة»، وبدأت الصفيحة وهي مغلقة وممتلئة تمر على المعتقلين بحسب ترتيب حجوزاتهم، كل واحد يمسك بها وينظر فيها يتفحص وجهه، وكلنا نكاد نقول المقولة نفسها: «من هذا الأشعث الأغبر؟».

ومن أطرف هذه المواقف التي اعتُمِد فيها هذا النظام، هو ما حدث عندما تسللت قطة السيد الضابط إلى زنزانتنا، فاستُقبلت استقبال الأبطال، ونادى المنادي: «أنا أول واحد في القطة»، وتتابع المنادون، كل يتحسسها ويداعبها، إنها تذكرنا بالعالم الآخر، خارج هذه الأسوار العالية.

اثنان وسبعون شخصًا في زنزانة تَسَعُ خمسة عشر، اثنان وسبعون من الثقافات والعادات والطباع المختلفة، والمتناقضة جدًّا أحيانًا، عليهم جميعًا أن يتأقلموا. المأساة الكبرى كانت في

استخدام دورة المياه، مثلًا عند الاستيقاظ لصلاة الفجر، أو أي صلاة في نهار اليوم، فلو افترضنا أن كل شخص سيمكث دقيقتين فهذا يعني أن آخر واحد عليه الانتظار ١٤٤ دقيقة، أي ما يزيد على ساعتين وثلث.

ونظرًا لاختلاف عادات الناس وظروفهم الصحية، فإن البعض قد يستغرق أكثر من ذلك؛ لذا قامت السلطات في الزنزانة مشكورة بتعيين شخص يمسك بالساعة وينادي على أي شخص يدخل الحمام: لقد مرت دقيقة من وقتك، احترس متبق نصف دقيقة. وبالطبع لا يخضع الجميع للنظام، ويجتمع الحضور على ضرورة توقيع عقوبات على المخالفين، فيما هم يرفضون، وهكذا جدلية عبثية.

معضلة أخرى كانت تواجهنا عند النوم، كيف ينام هذا العدد، تم التنظيم بدقة، كان شريكي في المساحة المخصصة هو «مصطفى» الذي تركني الضابط «عصام» في قسم «الإبراهيمية» واتجه للقبض عليه فلم يجده حينها، اتفقت مع «مصطفى» لضيق المساحة المتاحة أن ينام أحدنا على ظهره، والآخر على جنبه، ثم نتبادل المواقع في منتصف الليل، كنت واثقًا في «مصطفى»، لكن المشكلة كانت في الجيران أحيانًا الذين يتعدون على مساحتنا، وفهمت حينها مسألة النزاعات الحدودية بين الدول.

لم نكف عن الضحك والحزن والشجار، مثل البورصة ترتفع معنوياتنا وتهبط من حين لآخر، وأحيانًا فجأة، بسبب خبر صغير يصلنا، أو موقف يقع لنا. وكم حمدنا الله كثيرًا أنه لم يتم قبولنا في سجن «طرة»، لقد تحول إلى سلخانة بشرية، نودي على بعضنا وتم ترحيله إلى هناك ولم نعد نراه، غير أن الأخبار تتداول بين السجون بتداول السجناء بينها.

لكن ثمة مرحلة أولية من التعذيب كانت تجري في معتقلنا، وكنا نسمع الصراخ مساء فيصيبنا الهلع، المنطق غائب، ولا يكفي أنك غير متورط في أي عمل عدائي بمفهوم الدولة، أنت في الأصل مُدان، ولا ثمن لك، أقنعت نفسي بحيلة طريفة، كانت ساذجة جدًّا، لكني تمسكت بها حتى لا أنهار، لقد كنت مريضًا لخمسة عشر عامًا، هكذا أحدِّث نفسي، إذن بنيتك التحتية ضعيفة، ومع أول ضربة ستنهار وتفقد وعيك ولن تشعر بما سيجري لك، كنت أضبط نفسي، أضحك من هذه الحيلة، ثم أتظاهر بتصديقها!

ويبدو أنه قد حان الموعد، فقد تأخر إفطارنا يومًا، ثم نودي علينا وأدركنا أن في الأمر جدًّا، أخرجونا من بيوتنا: الزنازين، وجلسنا القرفصاء في صفوف، حولنا الضباط والعساكر، لكن أيضًا مجموعة من المساجين الجنائيين وفي أيديهم أشياء لم تتضح بعد، ثم بصفارة من الشاويش انطلق الجنائيون إلى عملهم، قص شعورنا ولحانا، كانت أيديهم ترتجف، كانوا يعتذرون، إنهم يكنون لنا مشاعر عميقة من الاحترام، فنحن أعداء الدولة، ونحن المهندسون والأطباء والأساتذة والمحامون.

من حرمني شعري لم يقم بمهمته على أكمل وجه، ثمة منطقة منزوعة الشعر، ومنطقة أخرى ما زالت تعيش مجدها، وأصبح ذلك مثار ضحك الكثيرين، غير أننا ضحكنا أكثر على رفيقنا الذي ذكرنا بدور «محمود المليجي» في فيلم الأرض عندما حلقوا له شاربه، إنه يعتقد أن العار قد لحق به جراء حلق لحيته تحديدًا، ولف وجهه بغطاء الرأس ليخفي هذا العار الذي لحق به، كان يتشاجر معنا على أي أمر نراه ذا شأن صغير في الدين ويراه كبيرًا، وبعد أن مرت الأيام وأُفرج عنه، كانت صورته وهو يرتدي القميص

والبنطلون، حليق اللحية، تتصدر إحدى المجلات الأسبوعية وهو يتحدث عن توبته من هذا التيار.

تتغير نظرتك لأمور كثيرة وأنت في السجن، سواء عندما تستدعي ذاكرتك أحداثًا جرت معك، أو لما تشاهده في السجن، أحدنا كان قريبه يقضي عقوبته بقسم آخر في جريمة قتل ثأرًا، كنت أتخيل أن القتلة وجوههم قبيحة وسلوكهم فظّ، لكن هذا الرجل كان يأتي لزيارة زميلنا، مهندم الملبس مهذب الكلام، استغل فترة وجوده في التجنيد وتسلل خارجًا من معسكره ليرتكب جريمة الثأر، معتقدًا أن وجوده الرسمي في معسكر التجنيد سوف يبرئه، لكن لسوء حظه وقعت لسيارته حادثة وهو عائد وحُرر محضر بذلك وكان دليلًا عليه.

الطريف أن أحدنا وهو رجل عجوز متدين، أراد يومًا أن يدعو شخصًا آخر من الجنائيين المحكوم عليهم بالمؤبد إلى الصلاة، فرد الرجل سريعًا: «لا يا مولانا أنا مش عايز أروح في داهية»، كنا نضحك؛ أي داهية أكثر من حكم مؤبد عليه.

أعادونا إلى زنازيننا، ما زلنا دون طعام من الليلة الفائتة، ثم عصرًا نودي علينا مرة أخرى للخروج ومعنا أمتعتنا، انتابنا الهلع، فهل سيتم ترحيلنا إلى سلخانة «طرة»، وقفنا صفوفًا، وأبلغنا أننا سننتقل إلى القسم الآخر، تبدل خوفنا فرحًا، فالقسم الآخر هو أفضل حالًا من قسمنا، بناية من عدة طوابق، وبها علية القوم من المعتقلين الذين زجَّ بهم «السادات» من كل طيف في اعتقالات سبتمبر الشهيرة؛ والتي كانت مقدمة لاغتياله.

في هرج ومرج دخلنا الزنازين الجديدة، وبقينا حتى المساء إلى أن وصلتنا وجبة الطعام بعد انقطاع دام يومًا كاملًا، ثم اتجهنا

للنوم، خلعت عدساتي اللاصقة بحرصٍ شديدٍ ووضعتها في علبتها وأغلقتها بإحكام، ثم دسستها تحت ما صنعتُ به وسادةً في حرص شديد، فهي الآن أغلى ما أملك.

أطفأنا الأنوار، تبادلنا النكات عن هذا اليوم العجيب الذي ظننا أنه انتهى، ثم صدر مرسوم بأن علينا أن نصمت وننام، فانصعنا للأمر لمدة دقيقة، فقد ارتجت أنحاء السجن بصفير العساكر وصياحهم مع مقاطع من الشتائم المحظورة دوليًا، ومصحوبة بالأوامر بأن نجلب كل ما لدينا وننزل إلى الساحة حالًا.

كان هلعًا شديدًا، وداست الناس على بعضها وقد خشينا أن يصل الشاويش إلى طابقنا ولم نلمّ حاجتنا وقد حصل، ونزلنا جريًا على السلم، فيما اصطف على اليمين واليسار السجانون يوزعون علينا صفعاتهم وشتائمهم، شخصيًا أمسكت بحاجاتي في يدي اليسرى، أما اليمنى فقد أطبقتها بإحكام على علبة العدسات اللاصقة ريثما تسمح الفرصة بارتدائها.

لو كانت الساحة منارة لعانيت من الرؤية، فما بالكم وهي مظلمة وأنا لا أرتدي عدساتي، غير أنني وقفت مع الواقفين في صفوف، وبدأت أسمع ما تتحرك به شفاههم من دعاء، من كان بجانبي كان يرتعش: «هو فيه إيه يا جماعة»، وددت لو أستطيع أن أستفهم، لكني ظللت واقفًا منتصبًا.

في هذه الساحة نفسها من سجن «أبو زعبل» تُروى الحكايات التي ذكرها «الإخوان» في مذكراتهم، أن المعتقلين قد أُوقِفُوا كما أوقفونا الآن، ثم أخرجت صفوف العساكر أسلحتها فوق بنايات السجون، ثم أُطلِقَ النار ووقعت المذبحة؛ ولذا تصور الحضور أن هذا ما سوف يحدث لهم، وهو ما لم يحدث، وكل ما جرى أنهم

أعادونا مرة أخرى إلى القسم القديم، وبعد أن دخلنا زنازيننا قال لي جاري: «رأيتك تقف شجاعًا لم تتأثر بما جرى»، قلت له: «والله لو كنت شفت لتأثرت»!

(٤)

لا أحد يطهو السمك مثل أمي، لكني أعيش وحدي بالإسكندرية، أصدقائي يريدون أن نقضي ليلتنا عند «تِكا» المطل على الشاطئ، حيث المشاوي الفاخرة، لكنني أقنعتهم أن نتوجه إلى «قدورة»، نختار السمك الذي يحلو لنا، ويُطهى أمامنا، تناقشنا وتشاجرنا وغضبنا ومزحنا وفرحنا، لم نكتفِ بما أهدرنا من وقت، توجهنا إلى مقهى «ديليس» بالقرب من تمثال «سعد زغلول» ليذكرنا بأنه «مفيش فايدة»، استمتعنا بالحلوى، احتسينا القهوة، ثم انصرف الجميع، توجهت أنا إلى «محطة الرمل» على بعض أمتار قليلة من مكان افتراقنا، باعة الكتب والصحف والمجلات يفترشون بضاعتهم، أعرض عنهم جميعًا وأتوجه إلى «ممدوح»، ما أن يراني حتى يدخل إلى مخبئه ثم يخرج سريعًا محملًا بالكتب الممنوعة، أختار واحدًا ثم اثنين ثم ثلاثة، أشكره وأعود إلى بيتي.

«أنا آسف يا أخي»، عذرته فالمكان ضيق، وخبطته كانت هينة، لكنه أيقظني من حلمي، نحن نلجأ إلى ذكرياتنا عندما يضيق بنا الحال، نعمل على استردادها، وكأننا نعيش الحدث نفسه مرة أخرى، لكن الحدث الآن مختلف تمامًا، وقد أعادونا مساء من القسم الذي نُقلنا إليه إلى قسمنا القديم، وها نحن صباح اليوم التالي ننتظر، وقد أبلغونا أنهم سوف يعيدوننا مرة أخرى إلى القسم الجديد بعد أن يتم توزيعنا على زنازينه بطريقة منظمة.

مثل مشهد يوم القيامة، الصالحون إلى الجنة، والطالحون إلى جهنم، لكن هناك من تساوت حسناتهم مع سيئاتهم فإلى أين يذهبون؟ كنت ومجموعة أخرى على هذه الشاكلة، فقد تم الاتفاق بين السجن وقيادات الجماعات الإسلامية المختلفة على أن تقسم الزنازين بينهم للحد من المشاجرات، فتصبح كل زنزانة من لون واحد، البعض وأنا منهم لا انتماء له؛ ولذا قرر كبار القوم أن يتقاسمونا، وكان من نصيبي أن ذهبت مع مجموعة من هؤلاء إلى زنزانة «الإخوان».

قروي ساذج بهرته أضواء المدينة، هكذا اندهشت عندما دخلت الزنزانة الجديدة، في الطابق الثالث، يطلق عليها «حداشر على تلاتة»، أي الزنزانة رقم إحدى عشرة من الطابق الثالث، الأرض طبعًا مكسوة بالبلاط وليس الأحجار الإسمنتية، وكل شيء منظم، وهي أكثر اتساعًا، ثمة فارق بين ما كنت عليه وما أصبحت فيه، وجدت في الزنزانة الدكتور «عصام العريان»، والدكتور «إبراهيم الزعفراني».

الأخير انشق لاحقًا عن «الإخوان» دون أن ينالهم بأذى أو سباب، وبالمناسبة أعترف أنني كنت مأخوذًا بمختار نوح، أحب هؤلاء الذين تتطابق حركاتهم اليومية مع ما يعتقدون، وبغض النظر عما يعتقدون، فكرة أن تكون منسجمًا مع نفسك، و«مختار» في نظري كان هكذا، وقد خرج لاحقًا عن الإخوان ووقع ما وقع.

مسألة تقسيمنا بين الجماعات المتعددة أثارتني، كنت أعتقد أنني ملمٌّ بخارطة التيارات الإسلامية في مصر، إلى أن اكتشفت في السجن ـ وذلك كان عام واحد وثمانين ـ أن في بلدي عددًا كبيرًا منها عصيًا على الحصر، في الزنزانة التي كانت قبالتنا في القسم

القديم كانت هناك اثنتا عشرة جماعة في زنزانة واحدة، يتخاصمون، ولا يصلون معًا، ويقضون وقتهم في الخلافات الفقهية والمشاحنات التي تتطور إلى الصدام بالأيدي، وكأنهم وضعوا أنفسهم في سجن داخل السجن.

لكن أغرب تلك الجماعات في نظري على الإطلاق هي جماعة «الفرماوية»، إنهم لا يرتدون إلا الثياب الخضراء، ويصلون بطريقة مختلفة، وبعدد لا نهائي من الركعات، ولا أوقات محددة لصلواتهم، ويؤمنون بأفكار غريبة، منها النهي عن العلاج؛ لأن الله هو الشافي. في منتصف إحدى الليالي أيقظ أحدهم جاره، قال له: عندي صداع سيفتك برأسي، هل يمكن أن تعطيني حبة دواء على ألا تقول لشيخي، كان الشاب يعتقد أنه وقع بذلك في الخطيئة.

ومهما نسيت فلن أنسى هذا اليوم، كانوا قد فتحوا أبواب الزنازين لنقضي فترة كالمعتاد في أوقات الانفراجات، نمشي ونتجول بين الزنازين، شَقِيٌّ انتهز الفرصة وجرى ليخطف عمامة شيخهم الخضراء، هرع الرجل سريعًا إلى زنزانته، واستدعى كل أتباعه، وقرروا الاعتصام والإضراب، وأخذوا يطرقون باب زنزانتهم بالأواني ويرددون الهتافات، أي نفس ما كنا نفعل جميعًا بكل زنازيننا لنطالب بتحسين ظروفنا المعيشية وهم يرفضون المشاركة.

أخذنا الأمر في البداية ببساطة وغلبتنا أمواج الضحك، لكن مأمور السجن جاء إلينا، وهدد بأن يحول حياتنا جحيمًا، وأن يمنع زيارات عائلاتنا لنا، فاجتمع أهل الحكمة ليجدوا حلًا بعد أن أعياهم صاحبنا الذي خطف العمامة وخبأها في مكان ما، وأخذوا يفكرون في الحلول الممكنة لإنقاذ الأمة من المحنة التي تمر بها.

فجأة نظر أحدهم إلى الشاب الأنيق الجالس على مقربة منهم

بفضول ليعرف أي قرار سيتخذون، وقال له: «اقلع يا دكتور أحمد»، لم يفهم «أحمد» طالب السنة النهائية من الطب طلب الأخ، وبالمناسبة فنحن نقول في مصر للطالب من أول سنة دراسية له في كلية الطب يا دكتور، ودكتورنا اندهش من الطلب، لقد زارته عائلته قبل أيام وأحضرت له بيجامة خضراء جميلة كان يسير بها متباهيًا في أرجاء السجن.

بعد محادثات مطولة، وتبرُّع البعض بملابس بديلة لأحمد، أخذ أحدنا بيجامة الدكتور وبدأ في تفصيلها عمامة وأُهديت إلى كبيرهم، وتوقف الإضراب والهتافات.

كيف تعتقد الدولة أن مثل هؤلاء خطر على أمنها؟ هل هؤلاء يحتاجون سجنًا أم مدرسة؟ أستطيع أن أجزم أن الغالبية المطلقة ممن حولي لم ترتكب حماقة بمفهوم الدولة، عجائز في السبعين من أعمارهم، وأطفال دون الثالثة عشرة، وباعة جوالون بسطاء، ورجال أمن سابقون، ما الذي يجري فيكِ يا مصر؟

قال لي أحدهم وهو من «الإسكندرية»: «ذهبنا إلى عرس في «كفر الدوار»، كنا مجموعة، ولما عدنا أنزلتنا السيارة أمام مسجد صغير، فقلنا نصلي وننصرف، كان المصلون ينهون صلاة العشاء، فأقمنا صلاتنا، وما أن أتممناها حتى وجدنا المسجد مغلقًا علينا، اندهشنا، ظللنا نطرق الباب، لم يفتح أحد، كنا في حيرة إلى أن فُتح الباب فإذا بقوات الأمن تلقي القبض علينا، لقد شك إمام المسجد فينا عندما وجد بعضنا ملتحيًا، فأغلق الباب علينا وذهب للإبلاغ عنا». أيها السادة ما المطلوب منا الآن أن نضحك أم نبكي؟

نُودي على اسمي، أصابني الهلع، ثم أُبلغت بالنبأ السعيد:

زيارة. كان ذلك بعد أكثر من ثلاثة شهور من الاعتقال، دق قلبي، إذن عرف أهلي مكاني، ترى مَن أتى؟ حُشرت مع الجموع في حجرة ضيقة مغطاة بالقضبان والأسلاك، كالدجاج في قفص هو الشعور الذي يصيبك في هذه الحالة، ظللنا ننظر في اتجاه باب السجن، من هنا ستدخل عائلاتنا التي تقضي ساعات طويلة في الانتظار، وإجراءات التصاريح، وبعد كل صنوف الإهانات من العساكر والضباط، وبعد التفتيش الدقيق الذي يخلط الأطعمة ببعضها ويصادر ما يصادر.

فُتح الباب فجأة فاندفع الأهالي وسط صيحات العساكر وسبابهم، أدقق في الداخلين، آه إنه أخي، اندفع نحوي في جنون، أخذ يقبل ما يمكن أن يصل إليه من وجهي عبر هذه الأسلاك، راح يتفحصني بتلهف، يريد أن يطمئن أن جسمي ما زال مكتملًا، سألني وسألته، وكلانا كذب، لم أكن بخير، ولم تكن عائلتي بخير منذ أن جاءها الخبر.

أما زيارتي الأخيرة فقد كانت أفضل حالًا من حيث المكان، أجلسونا على الأرض مقتسمين الأنحاء، كالعادة أدقق في الداخلين لأعرف من القادم، اشتُهرت بين الزملاء أن عائلتي لا تتأخر يومًا عن موعد الزيارة المسموح مرة كل أسبوعين، يا إلهي، إنها أمي تأتي لأول مرة بصحبة أخي، تمشي بصعوبة، تملكني البكاء، كدت أصرخ محذرًا، لا أريد لأيدٍ آثمة أن تمتد إلى هذا الصرح.

جلست أمي مضطربة، كل المشاعر لديها، الحزن والغضب والتعب والقلق، «ماذا فعلوا بك؟» نطقناها في اللحظة نفسها، لم تدخل أمي قسم شرطة من قبل، لم تتعامل مطلقًا مع البوليس، كانت حكيمة عائلتنا الكبرى، أمي كانت بسيطة جدًّا، عظيمة جدًّا، إلى حد أن قبلة على قدميها تمنحني الحياة.

بعد كل زيارة تصبح الزنزانة أشبه بالمأتم، ثمة عواطف جياشة تجتاح العائدين من الزيارة واحدًا تلو الآخر، وثمة أخبار سيئة، هذا توفي والده، وهذا فارقته حبيبته، وهذا فَقَدَ فرصة العمل التي كانت معروضة عليه في إحدى الدول الخليجية، وذاك فُصل من وظيفته، وهذا ضاعت عليه منحته الدراسية، حتى خبر الفرح يصيب صاحبه بالحزن. قال «سعيد» وهو يدخل الزنزانة: «لقد وضعت زوجتي طفلنا الأول»، تقدمنا إليه نهنئه، زغرد أحدهم، نهاه آخر صارخًا: «لا يجوز شرعًا»، لكن صديقنا انفجر بالبكاء فجأة، «كنت أتمنى أن أكون هناك، أحتضن أول طفل لي».

(٥)

«هل كنتَ بطلًا؟»، باغتني «أحمد يونس» بسؤاله، وقد أجلسني قبالة الشمس وهي تغرب في البحر، ووضع أمامي ما لذَّ وطاب من الطعام، وزيَّنه بأكواب شاي بالنعناع. أعرف «أحمد» منذ سنوات، هو ـ رحمه الله ـ يكبرني قليلًا، لكن علاقتي به أكبر من زمن تعارفنا، ما أن علم بإطلاق سراحي حتى دعاني لزيارته في السويس؛ مسقط رأسينا.

اندهش من إجابتي، بالطبع خفت وحزنت وأصابني القلق والوهن، لكنني أيضًا صبرت وصمدت وزاد إيماني بما أؤمن به، قال إن كثرًا التقاهم خرجوا من المعتقل لتوهم، حدثوه طويلًا عن بطولاتهم وراء القضبان، ونضالهم من أجل الإسلام ومن أجل مصر، وأن هذا واجب لا بدَّ من أدائه، «كادوا يشعرونني بالتقصير؛ إذ لم يلق القبض عليّ»، ضحكنا واسترسلتُ في الوصف.

باستثناء قلة من المعتقلين المتمرسين في العمل السياسي، فإن

الغالبية في معتقلنا لا حول لها ولا قوة، والجميع شأنه شأن المخلوقات الطبيعية، يحزن ويفرح، تتبدل عليه مشاعر القوة والضعف، إنها محنة بكل ما تعني حروف الكلمة من معنى، فرن يعيد صهرك، إن كنت تجيد الطهي تخلصت من خبثك وبقي طيبك، السجن مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق، نعَم.. السجن مدرسة عافانا الله منها.

في الساعات الطويلة التي تمر بطيئة تجلس وحيدًا وسط الازدحام، تراجع حساباتك، يقفز أمامك الشيطان في كل خاطرة، هو لا يدعوك إلى خيانة مبادئك، هو يعلم جيدًا أنها في الأغلب دعوة خاسرة، لكنه يسميها بأسماء أخرى، يزينها ويزركشها ويطرحها بأغلفة مختلفة، هنيئًا لك إن اكتشفت فساد بضاعته، هنيئًا لك إن رفضت شراءها.

تصحو فتجد نفسك قويًا مستبشرًا غير آبهٍ بما يجري، وفي الليل تصاب نفسك بالوهن، أو العكس، هي هي النفس ذاتها، تتقلب يمنة ويسرة، تصعد إلى عنان السماء، ثم تسقط متدحرجة على صخر الجبال، كلنا هذا الرجل، لكن ليس كلنا من يقرر أن يمضي في دربه مهما كان الثمن.

أيام السجن طويلة ومملة ولياليه قاسية، بشكل لا يمكن أن يتصوره الحُر، وأسوأ ما فيها أنك لا تعلم ماذا يخبئ لك الغد، أنت لست محكومًا بحكم محدد الزمن فتعرف متى سيُطلَق سراحك، وإنما أنت هكذا في مهب عاصفة، قد يُفرج عنك الآن، وقد تُنقل إلى سلخانات التعذيب غدًا، وفي كل الأحوال تهزك الشائعات التي تنطلق في السجن بسرعة الصاروخ.

رمضان واحد هو الذي قضيته معتقلًا، فيه سَمَت النفوس،

وخمدت المشاحنات، وهدأ القلق، وجُلبت الحلل الضخمة، وتشكلت لجنة لإدارة المطبخ اليومي، فضلًا عن اللجان الأخرى الدائمة كلجنة النظافة، بعد الظهر يبدأ الاستعداد لوجبة الإفطار، تدفقت علينا هدايا أهالينا الزائرين، وتسامحت إدارة السجن قليلًا معهم، وفتحت أبواب الزنازين طيلة النهار إلى وقت متأخر من الليل، فإذا ما حان المغرب، أقيمت الصلاة، ورفع الدعاء، ثم وُزّع الطعام الوفير، أعقبه الشاي والقهوة، حتى تبدأ صلاة العشاء والتراويح.

ثم حل العيد، وقررت زنزانتنا الاحتفاء به، أغضب ذلك آخرين، بعضهم قال لا يجوز شرعًا، عبارة يراد بها الحق أحيانًا، والباطل أحيانًا أكثر، زينّا الساحة السفلى، ومزق بعضهم الزينة، وعند الموعد وقفتُ أقدّم فقرات الاحتفال، وبدأت بإلقاء شعر فكان نصيبي «صفيحة زبالة»، ألقيت عليّ من علٍ، نهيًا عن المنكر، لكنها أخطأتني، كان يتقدم الحضور والد «خالد الإسلامبولي» قاتل «السادات»، الذي عاب هذا البعض علينا كيف نحتفي بالعيد، والرجل حزين على ابنه.

أشعر بخجل شديد وأنا أستعيد تفاصيل هذا الاعتقال، هو بمثابة نزهة صيفية إذا ما قورن بما يجري اليوم للمعتقلين وزائريهم، منذ سقوط الملكية والطاحونة تدور، تدهس الكل، وبمساواة بين الجميع، مهما اختلف المعتقد.

أحلى ما في المعتقل أنه يكشف هذا الوجه الجميل الآخر في الحياة، هذا التضامن الإنساني الرفيع، كلٌ يتبرع بما لديه، وبما تأتي به زيارات أهله، كلٌ يعمل، يطبخ، ينظف، يحاضر، لا فرق بين غني ولا فقير، ولا متعلم ولا أميّ، كلنا متساوون، لا مكان

للكِبْر هنا، رحماء مع الصغار، لطفاء مع الكبار، خادمون للمريض، أو للقادم من سلخانات التعذيب.

ولأن الزنزانة تضم كل الأطياف فإن منا (الصنايعية)، يتدبرون الكثير من أمورنا بخبرتهم المهنية، ولما كانت الكهرباء تُفصل عن الزنازين نهارًا، ولما كان الشاويش يفصل طرفًا واحدًا من الخط المزدوج، فإن (الصنايعي) يعرف كيف يتحايل على الأمر باستبدال الخط المفصول بالخط الأرضي بطريقة ما، فتعود الكهرباء ونعمد إلى تسخين الماء لإعداد الشاي.

شاويشنا الطيب، يأتي وينظر من الخارج ويندهش لوجود الكهرباء، فيعود إلى مقره ليتأكد من فصلها، ثم يأتي إلينا مجددًا فيجدها تعمل، فيصيح «الله أكبر»، معتقدًا أن هذه من كرامات الناس الصالحين، تمامًا مثلما كان يحدث عندما يقوم بإدخالنا إلى زنازيننا بعد نصف ساعة راحة من المشي والتعرض للشمس، ويغلق باب الزنزانة بالمفتاح، لكن (الصنايعي) الماهر يعرف كيف يفتح الباب مرة أخرى، فيكرر هذا الشاويش الطيب العبارة نفسها: «الله أكبر أنتم أناس صالحون».

كنا نضحك كثيرًا، كما ضحكنا يوم وصل للمعتقلين من أهل «الإسكندرية» الضابط «فرج»، ليتحاور مع كل منا بما لا يزيد على دقيقتين، سألته: ««فرج» بيه، مش كل الأنشطة اللي كنا بنعملها في الجامعة كانت مرخصة، وحصلنا على موافقات رسمية بشأنها؟»، فأجاب سيادته: «وقتها كانت رسمية، دلوقتي إحنا شايفنها مش كده».

سيمر زمن، وسألتقي «فرج» بك صدفة أمام محطة «سيدي جابر» بالإسكندرية، فيما كان طلاب الجامعة يتظاهرون، كان

مشهدًا سينمائيًا بالدرجة الأولى، حين وجدته فجأة بجانبي، تبادلنا التحايا، وكلٌ منا يقف يرقب الموقف، وكلانا لا يعمل، أنا لا نشاط لي، وهو خارج الخدمة لأسباب لا أعلمها، أنا أقول له من المفترض أن يفعل المتظاهرون كذا وكذا، وهو يقول لي من المفروض أنّ رجال الأمن المركزي المنتشرين بكثافة أنْ يفعلوا كذا وكذا، وهكذا إلى أن انتهى المشهد.

عمَّ الملل أيامنا، ليس هناك من جديد، الحياة اليومية نفسها التي تسير ببطء شديد، نُودي على مجموعة من المعتقلين، فأصابنا القلق، غير أن ضباط السجن أبلغونا أنها كشوف المفرج عنهم، قفزت قلوبنا فرحًا، وودعنا أصحابنا.

«مع السلامة.. مع السلامة يا أبو عِمَّة مايلة» بات هو نشيد الوداع، يسمع المفرج عنه اسمه، فيسجد لله شاكرًا، ثم يجتمع حوله الحضور مهنئين، ثم يهرع إلى ترتيب حاجاته، ثم يوزع منها على أحبائه ما يعتقد أنه لم يعد بحاجة إليها، ثم نودعه، نحمِّله الرسائل والوصايا، ثم نعود إلى أماكننا، ينتابنا الضيق أن أسماءنا لم تشملها القائمة، لكننا نواسي أنفسنا أن الفرج هلت بشائره.

مرَّ أسبوعان فقائمة أخرى، فأسبوعان فقائمة تعقبها، وهكذا، ثم طال الغياب، وانقطعت القوائم، وعمَّ الضيق، وخفنا أن نكون من المغضوب عليهم، وفي الثامن من الشهر الثامن لعام اثنين وثمانين أُغلقت الزنازين، وسكن الناس، فلا همسة ولا همهمة، وعلى كل أبواب الزنازين عانق البعض القضبان ينتظرون زميلنا صاحب الصوت الجهوري وقد سلمته الإدارةُ القائمةَ الجديدة لينادي عليها.

أتى صوته قويًا جليًا فرحًا «اسمع اسمك في الإفراج»، ثم بدأ

ينادي على الأسماء بحسب الحروف الأبجدية، حتى وصل إلى اسم أسامة، لحظات فإنْ لمْ ينطق اسمي يصبح عليّ الانتظار لجولة جديدة.

كانت عائلتي على علم من الجرائد أن هناك دفعة جديدة من المفرج عنهم، وفي الرابعة صباحًا توجه أخي وأختي إلى محطة قطار «طنطا» لشراء الصحف التي تصل في مثل هذا الوقت لتوزع على الباعة، التهموا قائمة الأسماء بحثًا عن أخيهما.

أول مرة تقرأ اسمك فيها منشورًا في مطبوعة مذيّلًا في نهاية الخبر أو المقال تصيبك فرحة لا مثيل لها، أول مرة تسمع اسمك ينطق به المذيع في الراديو أو التلفزيون مقدمة أو نهاية لتقرير، تعم نفسك الفرحة نفسها. في حالتنا هذه، الأمر مختلف.

نطق صاحبنا اسمي رباعيًا كاملًا فكان أحلى مرة أسمع فيها اسمي، سجدت شكرًا لله صاحب القرار، تلقيت التهاني بصوت خفيض حتى لا نشوش على صاحب الصوت الذي ما زال يتلو الأسماء، ثم انطلقتُ إلى صندوقي المعلق على الحائط، وأخرجت بنطلوني الذي سأرتديه لأول مرة منذ عشرة شهور كاملة.

أتخيل ما سيقع، ستفتح أمي الباب، وستحيطني بدموعها، أنتم لا تعرفون أمي؛ ولذلك لا تعرفون معنى الجنة في عناقها، وستكون قد أعدت كل ما بوسعها من طيب الطعام لتعوضني ما جرى معي في الغياب، أما أبي النحيف العملاق فسوف ألقي بنفسي عليه، ثم أقبل يديه، وسأطلب منه أن يسامحني عما أصابه من مرض حزنًا عليّ.

تأخر خروجنا قليلًا، لكنني كنت أدور بنظري في أنحاء السجن، ياه! حتى تلك الأيام السيئة تمضي، لا شيء يستمر،

أوقفونا صفًا، أوصونا بالطاعة، ثم أبلغونا بضرورة مراجعة رجال الأمن في القسم الذي نتبعه عندما نصل مدننا، ومن الباب الضيق خرجت، الباب نفسه الذي استغل إيطالي متهم بالاتجار في المخدرات انشغال رجال السجن بمشاهدة مباراة الأهلي والزمالك المقدسة ليخرج منه قبل عدة شهور، بعد أن تم تهريب زي ضابط شرطة إليه، غير أني لم أصفع الحارس كما فعل ليخْبك فعلته.

سجدتُ على الأرض، ثم استويت واقفًا حاملًا حقيبتي التي رافقتني، فوجئتُ بأخي وأختي ينتظرونني وقد أحاطوني عناقًا وتقبيلًا، بعد أن انفجروا عناقًا وتقبيلًا عندما قرأوا اسمي في قوائم الإفراج صباحًا، فيما الذين يتحتم عليهم المزيد من الانتظار تسلقوا نوافذ زنازينهم ليغنوا لنا: «مع السلامة يا أبو عِمَّة مايلة»، أهاليهم ينظرون إلينا وهم يبكون، فرحًا لنا وحزنًا على ذويهم الماكثين داخل المعتقلات، تلك التي مثل معابد الفراعنة في بلدي.. خالدة.

الثانية عشرة

السؤال الصعب

حدث في نهايات الحرب الأمريكية على العراق عام ألفين وثلاثة أن رغبت في استكشاف أحد السجون السرية التي كان نظام «صدام» يحشر فيها معارضيه سنوات ربما إلى موتهم، شخص عن طريق شخص آخر عن طريق صديق قرر أن يساعدني في مهمتي، ذهبت في الموعد إلى مكان ما ـ لا أتذكره الآن ـ في أحد أطراف بغداد، هناك تعرفت إلى الرجل الذي قادني في طريق طويل عبر صحراء إلى حيث مصنع للمواد الكيميائية.

عند البوابة توقفنا، نزل الرجل لينادي على الحارس ليسمح لنا بالدخول، عدة بنايات ذات طابق واحد متناثرة كشأن أي مصنع آخر، أخبرني الرجل ونحن نسير إلى حيث لا أعلم أن بهذا المصنع قبوًا ضخمًا تحت الأرض، له أبواب حديدية مثل أبواب خزائن البنوك، لا تُفتح إلا بطريقة معينة، معزولًا عن العالم في قلب الصحراء، ولا يدري أحد عنه شيئًا سوى أنه مخزن في مصنع للمواد الكيميائية.

ظلام شديد يحيط بنا بعد أن بتنا تحت الأرض بأمتار، أكاد لا أستطيع التنفس في هذا المكان الموحش، أشعر وكأن أرواح الضحايا ما زالت تحوم هنا وهناك، ثمة مبررات للشيب منها

الوجود في هذا المكان ولو على سبيل العمل الصحفي.

القبو ضخم، وله عدة حجرات، كنت متحمسًا لأن أستطلع أنحاءه، قادني شغفي إلى سراديب وسراديب، ثم فجأة وردتني خاطرة،هذا الرجل الذي قادني إلى هنا ولا أعرفه إلا قبل ثلاث ساعات وها هو يقف هناك بالقرب من باب القبو، ماذا لو قرر فجأة أن يسلبنا مع حرس المصنع ما لدينا ويغلق علينا الباب ويصعد ويدعنا هنا؟ من يمكن أن يسمعنا ونحن تحت الأرض في قلب الصحراء إبان حرب؟ دقائق من الرعب حتى وصلت إلى الباب حيث يقف الرجل.

لا أعتقد أن هذه القصة تصلح لأن تكون إجابة عن السؤال التقليدي الذي طالما يُوجه إليّ: ما هو أصعب موقف واجهته في أثناء تغطية حروب أو أزمات؟ ربما من الأجدر أن أحكي للسائل ما جرى عندما كنت في فندق بصحبة عشرات الصحفيين الأجانب في «كينشاسا» عاصمة «الكونغو الديمقراطية»، وفي أتون حرب أهلية لا يعرف فيها الأفارقة أي لون من الرحمة فيما بينهم، ثم ينتشر خبر أن القوات الحكومية سوف تلجأ إلى ارتكاب مذبحة في حق بعض الأجانب الذين فروا جميعهم من البلاد باستثنائنا كصحفيين، حتى تجبر القوات الدولية المتواجدة على الحدود أن تتدخل فيتم تجميد الخطوط الفاصلة بين القوات الحكومية وقوات المعارضة التي تتقدم.

كنا نحاول أن نكذِّب الخبر وندّعي أنه في إطار مجرد حملة معنوية وأننا باقون، لكن هرع كل الصحفيين إلى سفاراتهم لتنسيق عملية إجلائهم في أي لحظة، فيما سفارتنا مغلقة لأن سفيرها تعرض للاختطاف في بلد إفريقي آخر ولا يريد تكرار مأساته، بضعة

أيام وليال من الرعب قضيناها هناك ونحن لا نستطيع تأمين سلامتنا، ولا نتمكن من مغادرة البلد إلى أن سقط النظام.

بعض المواقف قد تكون لحظة، رصاصة أو قذيفة تمر بجانبك فتسمع المحيطين يقولون لك حمدًا لله على سلامتك، فتندهش وتصيح: «أوَكدت أموت؟»، وبعض المواقف أيام تقضيها وأنت قيد الإقامة الجبرية في بلد أجنبي، أو في سجنها لا تعرف مصيرًا، أو حالة متكررة في عملك، تسلك طريقًا في الغابات لتصل من مدينة إلى أخرى هربًا من تحكم المليشيات الصربية في الطرق الرئيسية، وعند نقطة ما تجد مفترقًا للطريق، أحدهما يؤدي بك إلى الصرب ومن ثمَّ الهلاك والآخر إلى المسلمين، ثم يبدأ من أنت بصحبتهم من أهل البلاد في الاختلاف؛ الطريق من هنا، لا.. الطريق من هنا، ثم يُحسم الأمر دون ما يشير إلى أي تأكيد على سلامة الوجهة، ثم تسير، فإن أخطأت فإنك معذب حتى الموت أو في سجن حتى تضع الحرب أوزارها، لا علامات تدل على هؤلاء أو أولئك، والمشهد واحد، والوجوه متشابهة والحرب مستعرة، إلى أن تظهر لك علامة، لافتة مكتوبة أو لكنة في حديث أحدهم فتعرف أنك نجوت، فتجلس لتلتقط أنفاسك.

أو تلك المرة التي قضينا فيها ثلاثة أيام في أعلى الجبال وسط الجليد ونحن تائهون لا نعرف الطريق، وقد نفد غذاؤنا، ولا تستطيع سيارتنا تحمُّل أوزاننا والسير وسط الجليد، فتكتفي بأحمالنا، يقودها السائق ونحن نسير وراءه، فإذا غرست السيارة في الجليد قمنا بدفعها، وهكذا لثلاثة أيام، دون أن نعرف هل سننجو أم أنه حان وقت هلاكنا.

هل الخطر رصاصة وقذيفة، أو قطاع طرق، أو طائرة مهترئة

تتأرجح في الهواء ليس بها إلا «سائقها» وأنت، أو شربة ماء ملوث ليس لك سواها، أو حشرة تشتاق إلى دم لم تألفه، أو عيون مخبرين تحيط بك ولا تعرف كيف ستكون وشايتهم؟ الفزع ليس دومًا في المواقف الكبرى التي يتوقعها السائل.

لكن ما المقصود بالموقف الأصعب والأخطر والأشد؟ هل تلك التي تتعرض فيها حياتك للخطر أم تلك التي تصيب روحك فتترك ندبات لا تزول؟

أقسم أن المشهد ما زال أمام عيني، الطفل يجلس فوق سريره في مستشفاه، يداه وقدماه تلفها الأربطة وهو في حالة ذهول بعد أن فقد كامل عائلته في أثناء الحرب أمام عينيه وأُنقذ هو. الرجل يحتضر أمامك وأنت لا تجد سوى العدسة تسجل اللحظة، فتاة مجروحة مكلومة تحكي لك باكية كيف اغتُصبت من جارها في أثناء الحرب، ثكلى تُخرج من دولاب غرفتها قمصان زوجها وأولادها القتلى، تشم رائحتهم قبل أن تبدأ يومها وتتناول قهوة الصباح كل صباح، ناهيك عن المشاهد الجماعية، الأسرى واللاجئون والمصابون والأيتام والهاربون من نار الحروب والجوعى في البلاد المحاصرة.

هل تسلم روحك بعد هذه المشاهد؟ وهل تعتقد أنك نجوت؟ وهل يقتنع السائل أن هذه المواقف هي الأصعب عن تلك التي واجهت فيها الرصاصة والقذيفة؟ خاصة وهو يريد أن يسمع منك قصة تفاخر فيها ببطولتك.

حين كنت أعمل وأسافر وأصور لم أكن مهمومًا إلا بتوثيق اللحظة، وكنت أظن أن هذه اللحظة ستنتهي بنهاية العمل، ولم أعتقد أبدًا أنني سأحملها معي في حياتي، لحظة فوق لحظة فوق

لحظة، نثير ألف سؤال وسؤال عن الحياة وحكمتها، عن مراد الله منا، عن العلاقة بين الإنسان والشيطان، مَنْ يغوي مَنْ؟ من لديه تلك القدرة الهائلة على الظلم؟ كيف تستمتع بذبح رفيقك أو جارك في حرب أهلية ثم تعود لتغازل امرأتك، أو تداعب طفلك؟

عزيزي السائل هل ما زلت تعتقد أن الرصاصة هي أصعب ما يمكن أن يواجهه الصحفي؟

الثالثة عشرة

قل لي أي مطار أنت.. أقل لك من أنت!

كان مسرح «بلدية طنطا» مكتظًا على آخره، حتى إن ممراته الجانبية امتلأت بالحضور وقوفًا، خشبة المسرح ذاتها بدت وكأنها لا تسع أعضاء الفرقة الموسيقية التابعة للجيش، كان عددهم ضخمًا، وقد شغلوا مع معداتهم النحاسية المكان كله، لست متأكدًا لماذا كان الناس يصفقون بحرارة، أهو استحسان للطرب، أم لتلك الفتيات الروسيات اللائي ـ على رغم لباسهن العسكري ـ ملأن الأجواء بالبهجة في هذه المدينة الريفية؟

بالنسبة إليّ وبالإضافة إلى هذا السبب الوجيه، كان لدي سبب آخر للتصفيق، فقد كنت ممتنًا للاتحاد السوفياتي على هذا الموقف البطولي الداعم لمصر ضد العدوان الصهيوني، خاصة وأنني ابن «السويس» الذي هجّرته الصواريخ الصهيونية إلى «طنطا»، بعض الدهشة تملكتني حين نبهني بعض الأصدقاء لاحقًا أن «الاتحاد السوفياتي» كان أول من اعترف بالكيان الصهيوني.

كنا نصفق بحرارة، التعبير الوحيد المتاح حينذاك عن هذا الامتنان، فلما وصلت الفرقة ـ التي أرسلتها «موسكو» لتحتفي معنا بعيد قيام الثورة ـ إلى نشيد الختام، ولما بدأت تنشد بلغة عربية ركيكة: «بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي»، أصابت المسرح

هيستريا التصفيق والهتاف، غير أن الدهشة سادت وجوه أعضاء الفرقة، وكنت مندهشًا من دهشتهم الاحتجاجية إلى أن فهمت الأمر بعد زمن طويل، حين زرتُ مسرح «البولشوي» الشهير في العاصمة الروسية «موسكو»، وبعد أن دفعت ما يعادل مئة وخمسين دولارًا تقريبًا، معتقدًا أنني سأحظى بمكانة خاصة، فإذا بي أفاجأ أن مقعدي طبقًا لسعر التذكرة يقع في الطابق الثالث، وبقيت أتابع العرض ولا أكاد أرى إلا رؤوس الفريق من عَلٍ، أدت الفرقة أداءً رائعًا لكن لم يكن أحد ليجرؤ على التصفيق إلا بعد نهاية العرض، أما في «طنطا» فقد انتهى عرضها فيما ظل «الاتحاد السوفياتي» فكرة لامعة في ذهني وقد لامست منه شيئًا في هذه الليلة.

على كل حال، ها أنا في عام واحد وتسعين من القرن الماضي، على متن طائرة ألمانية متجهًا إلى زاوية من الاتحاد السوفياتي الذي ينهار ويتفكك، إنها «أذربيجان» التي مثل غيرها أفلتت بصعوبة وبثمن باهظ من قبضة نصير الشعوب، لكن شأنها شأن أربع عشرة دولة أخرى كان يشملها الاتحاد، لم يكن هناك بدٌّ من الوصول إلى عاصمتها في ذلك الحين إلا عبر المرور على عاصمة الإمبراطورية المتوفاة «موسكو».

حطت طائرتي القادمة من «فرانكفورت»، كان في انتظاري شخصان أرسلهما صديق ليكونا أشبه بقوات حماية خاصة، وظيفتهما تأمين انتقالي إلى المطار الآخر الذي سأستقل منه الطائرة إلى العاصمة الأذربيجانية «باكو». ساعتان في الطريق، لو قضيتهما وحدك لكنت عرضة أن يختطفك السائق، وربما ليقتلك كي يحظى منك ببعض الدولارات الأمريكية، أو حتى ببنطلونك الجينز، أو ربما حذائك بماركته الشهيرة.

كنت أدير عينيّ في كل الاتجاهات، أريد أن أرسم صورة

متكاملة لهذه الإمبراطورية المنهارة التي سمعت عنها كثيرًا وتفاعلت معها كثيرًا، أفكر كيف تقاسمت زعامة العالم مع الكاوبوي الأمريكي، ولماذا أصابتها السكتة القلبية؟

عند وصولي المطار الآخر وهو واحد من خمسة مطارات في موسكو، لم أصدق عينيّ حينها، الباعة المتجولون يفترشون الأرصفة حيث كل شيء يباع حتى الأسماك، صخب وازدحام يملآن المكان والكل ينظر لي نظرة فيها استهجان ما.

«إلى هنا لا نستطيع التقدم»، قالها أحدهما وهو يشير إلى باب خُصص للمسافرين الأجانب، اندفعت وحدي إلى حيث سيدة تجلس في مواجهة الباب مقطبة الوجه، لزوم التعامل مع الأجانب الذين هم بحسب العقيدة الشيوعية جواسيس لا محالة، ختمت بطاقة سفري وتبادلنا الحديث بلغة الإشارات وتوجهت حسب تعليماتها إلى باب يطل على فناء المطار الذي يتعيّن عليّ المرور فيه وصولًا إلى البنايةِ الأخرى المخصصة أيضًا لركوب الأجانب.

الطائرات السوفياتية تقف شامخة، وأرضية المطار اختلط جليدها بالوقود المتسرب من هنا وهناك ليجعل عملية السير بما تحمله من حقائب أمرًا يحتاج إلى مهارات لاعبي الأكروبات، توقفت أمامي فجأة حافلة للمطار يقودها شاب أرعن وقد جلست فتاته وراءه تتيه فخرًا به، قال لي: «ون دولار» فوافقت على الفور، وهممت أن أصعد لكنه صرخ في وجهي بما يعني أنه عليّ الدفع مقدمًا ففعلت، وأدركت أن «ون دولار» يحمل قيمة معنوية لهم بما يحمله من رائحة الغرب ورفاهيته أكبر من قيمته المادية ما جعل صاحبنا يحتد عليّ.

بصراحة حينها لم أكن أعمل لأي جهة، كنت أشق طريقي شقًا وأحفر الأرض بإبرة، صحافي مستقل جوال، يسافر ويكتب

ويرسل، ما جعل كل «ون دولار» بالنسبة إليّ أيضًا أمرًا ذا بال.

علت البشاشة وجهي، بعد أن دخلت القاعة الكئيبة للانتظار، وقد سمعت أصواتًا عربية فهمت لاحقًا أن أصحابها طلاب عرب يدرسون في المدينة التي أتوجه إليها، سألتني واحدة منهم بعد أن تعرفتُ إليهم: «ولكن هل هذه كل حقائبك؟»، رددت بثقة بالغة: «لقد سألتني الموظفة في مطار «فرانكفورت» وأجبتها بأنني أفضل أن أستلم الحقيبة الكبرى مباشرة في «باكو» وليس في «موسكو»». ضحك الجميع ولم أفهم.

ساعات طويلة قضيتها في مطار عاصمة «الاتحاد السوفياتي» في قسم الركاب الأجانب دون أن يعتذر لنا أحد عن تأخر الطائرة أو يبلغنا أحد بموعدها المحتمل، لقد أدركت أنهم مثلنا أيضًا قيمة الفرد لديهم مهملة، ثم حان أخيرًا موعد الرحيل.

مشينا سيرًا على الأقدام إلى الطائرة، قبل سُلمها لاحظت وجود مجموعة من نحو عشرة أشخاص يتصايحون، وبينهم رجل يبدو أنه قائد الطائرة بحسب ما يدل زيه عليه، سألت أحد الطلبة العرب الذين كنت في صحبتهم فأُبْلغت أن هؤلاء لا مكان لهم على الطائرة، وأنهم يتفاوضون مع قائدها للركوب مقابل أجر يدفعونه إليه مباشرة، فضحكت وصمت.

إلى باب الطائرة تدافعنا جميعًا، وهجم كل راكب على أقرب مقعد رآه مناسبًا، امتدحت ذكائي في أنني تركت حقيبتي الكبيرة تحت مسؤولية شركة الطيران لتنقلها من «فرانكفورت» إلى «باكو» مباشرة، فهؤلاء الركاب يجلسون على مقاعدهم الضيقة وقد وضعوا حقائبهم الكبيرة إما على أقدامهم وإما تحتها، ولا أحد يتأفف من ضيق المكان فالكل يفعل ذلك، أما الحقائب الضخمة التي لا

تسعها الطائرة حيث يجلس الركاب فقد شحنت في مخزنها.

بعد أن أخذ الجميع أماكنهم، أشارت الطالبة العربية لي أن أنظر خلفي، فشاهدت ما لم أشاهده من قبل أو من بعد: الركاب الإضافيون الذين كانوا يتفاوضون مع قائد الطائرة يجلسون على أرضية ممراتها، لم تكن نكتة إذن، لكن لم يكن لدي الوقت الكافي للتعبير عن اندهاشي، فقد بدأت الطائرة في الإقلاع دون أي تنبيه، وأدركت أن تعليمات السلامة وربط حزام الأمان إنما هي وساوس الحضارة الغربية.

كان الظلام قد حل، كما حل بي التعب عن آخره، والضوء الخافت في الطائرة يعينك على الأحلام، وأنا حلمي الآن وشغفي أن أرى وأتفحص هذه الجثة الهامدة المسماة بالاتحاد السوفياتي، لم تسنح لي الفرصة أن أرى «موسكو»، فقد انتقلت من مطار بها إلى آخر، لكن لا بأس فبعد قليل ستحط الطائرة في «أذربيجان»، فأمرها يعنيني: سوفياتية سابقة، مسلمة دائمة، تركية اللسان، شيعية المذهب، متمردة للتو، وبعض أرضها محتلة.

ميلادي الجديد تحقق عندما خرجت من باب الطائرة لأتنفس الهواء، ظلام حالك يلف بناية المطار، ازدحام وتدافع بين الركاب، معظمهم اتجه مع حقائبه التي كان يحملها في الطائرة إلى الخارج، قليلون جدًا الذين انتظروا الطائرة لتفرغ جعبتها، انصرف الجميع بعد أن استلموا صناديقهم المشحونة، وحدي انصرفت خاوي الوفاض. طمأنني أحدهم أن حقيبتي المفقودة ستصل يومًا، ولكن قد يأخذ الأمر أسابيع، ونصحني بالتواصل مع مسؤولين حكوميين للمساعدة في الأمر، وقال لي أن أطمئن فلن يستطيع أحد أن يلمس محتوياتها وإلا اتهم بالتعاون مع أجانب للتجسس، وهذه

ـ بحسب ناصحي ـ من حسنات «الاتحاد السوفياتي» ونظمه في المطارات.. ألا لعنة الله على مطارات كهذه.

الرابعة عشرة

«أذربيجان».. تلك البلاد العجيبة

استيقظت منحرفًا عن عادتي في العاشرة صباحًا، تناولت فَطوري في فندقي العتيق غير المسموح للأجانب بسكنى غيره، بناية شاهقة، ذات رائحة شيوعية نفاذة، نعم لبلاد الشيوعية رائحتها المميزة، يتحكم في كل طابق بالفندق سيدة مع مجموعة موظفين يمثلون إدارة الفندق لإحكام القبضة على النزلاء الأوغاد.

رغبت في احتساء الشاي، جاءت السيدة المشرفة على الطابق لتقدمه بنفسها ضمن أعمال تجارية تقوم بها لحسابها الخاص، صينية عليها إبريق صغير من الشاي المركز جدًّا، ثم إبريق ضخم يسع ربما خمسة أو ستة أكواب من الماء الساخن، ثم يخلط قدر من هذا مع قدر من هذا ليكون كوب الشاي كما ترغب في كثافته، ثم حوالي ربع كيلو سكر مكعبات، يطلق عليه «صخر»، وهذا كله مقابل صفقة تقدر قيمتها بحوالي «ون دولار» مرة أخرى.

أما طريقة الاستعمال فبعد أن تخلط ما في الإبريقين وتحصل على الكوب المطلوب، تضع قطعة سكر بين أسنانك، ثم ترتشف رشفة، ثم تضع قطعة أخرى وترتشف رشفة أخرى، وهكذا دواليك إلى أن تنتهي من كوب الشاي، وتنتهي أسنانك لاحقًا وتستبدلها بأسنان مذهبة كما يتفاخر بذلك علية القوم هنا.

بقيت في بهو الفندق منتظرًا شخصًا عربيًا سيتولى مرافقتي، من لحظته الأولى كان ودودًا للغاية، سار حديثنا ممتعًا وأنا أستنطقه عن الأوضاع هنا، قررنا أن نقوم بجولة في المدينة، سألني أن أحمل جواز سفري معي دائمًا وإلا تعرضت لمشاكل إذا ما استوقفتني الشرطة لأي سبب، طلبت منه أن يسأل موظف الاستقبال أن يرده لي وقد سلمته إلى زميلته عندما وصلتُ فجرًا، ردُّ الموظف بعد قليل كان صادمًا، جواز سفرك يا سيد غير موجود لدينا، بحثنا في كل مكان، ولم نجده.

أصابني الهلع، أنا في دولة تخرج من رحم دولة، فليس بها سفارات وما زالت في مرحلة جمع الاعترافات الدولية بها، وفي بلادنا فإن المواطن في نظر سفارته متهم حتى تثبت براءته، بعد عدة ساعات مرت بطيئة، عاد موظف الاستقبال مهللًا أنه نجح في الاتصال بزميلته وأنها أخبرته أنها خشيت أن تترك جواز سفري في مكتب الإدارة فجرًا فيُسرق أو يفقد لأي سبب فاصطحبته معها إلى بيتها.

كيف كان شكل «باكو» عام واحد وتسعين من القرن الماضي وهي عاصمة «أذربيجان» التي قررت الخروج ضمن الخارجين من «الاتحاد السوفياتي»؟ أحاول استدعاء ذاكرتي المشتتة، ضباب العمر يحول دون كثير من التفاصيل، لكن كأني كنت في ريف بلد عربي، فرغم البنايات العتيقة، فإن الحياة بدائية، والناس بسطاء، والفتيات يلطخن وجوههن بالأصباغ، يرتدين ملابس تعود تصاميمها إلى عهود مضت، بالكاد تجد مطعمًا صالحًا للاستخدام الآدمي، والكل متجهم، والجميع منصرف إلى أي مشروع يمكن أن يحقق له دخلًا ربما يؤمن له في ظل الدولة الحرة الجديدة حياة بمثل رفاهية حياة أهل الغرب.

انعقدت بيني وبين أهل مطار «باكو» صداقة بعد ترددي اليومي عليهم أسأل عن مصير حقيبتي. بعد أن زُفَّ إليَّ الخبر، فتح المفتش الحقيبة بعناية فائقة، ثم نظر إليَّ وسألني بلغة حازمة كما لو أنني في حضرة النيابة: «أهذه لك؟» فأجبته، فعاد ليسألني وهو يدقق النظر في عيني: «انظر إلى محتوياتها هل ينقصها شيء؟»، مددت يدي لأفتش فأوقفني، ثم بادر هو بالتفتيش بنفسه وإخراج محتوياتها واحدة واحدة، إلى أن اصطدمت يده بنسخة من المصحف الشريف فانفرجت أساريره، وتوقف عن المتابعة، سلمني حقيبتي بودٍّ ورحَّب بي بين إخواني، وذلك قبل حوالي ربع قرن من أن يصبح «الإخواني» تهمة رسمية.

عن هذا البلد العجيب وقبل زيارتي الأولى له صدر لي كتيب متواضع بعنوان «أذربيجان ورياح جورباتشوف التي عصفت بالمسلمين» عن دار «المختار الإسلامي»، يتحدث عما وقع فجر العشرين من يناير عام ألف وتسعمئة وتسعين عندما اقتحمت القوات الروسية العاصمة «باكو» ومارست كل أنواع العنف على أهلها وأطلقت الرصاص في كل الاتجاهات على المئات من الأهالي وذلك بحجة حماية الأرمن من المذابح التي يتعرضون لها في «أذربيجان»، لكن أحدًا لم يحمِ «أذربيجان» من احتلال أراضيها في «ناغورنو كاراباخ» من قبل الأرمن.

على كل حال، ليست هي المرة الأولى التي تقتحم القوات الروسية «أذربيجان»، فقد فعلتها من قبل وانتزعتها من الفُرس عام ألف وثمانمئة وثمانية عشر، لكنها استقلت بعد حوالي قرن من الزمان، ثم عاد الروس إلى اجتياحها عام ألف وتسعمئة وعشرين لتصبح جمهورية سوفياتية، وبعد يومين من تلك المذبحة الرهيبة الأخيرة خرج أهل «باكو» يشيعون ضحاياهم ويمزقون بطاقات

انتماءاتهم للحزب الشيوعي، ولتعلن «أذربيجان» استقلالها في شهر أكتوبر لعام ألف وتسعمئة وواحد وتسعين.

اصطحبني مرافقي إلى مقبرة الشهداء، لم تكن بعد على شكلها الحالي كما هي الآن يغطيها الرخام وشيء من الزينة وشيء من البرود، كانت كما لو أن دم الشهداء ما زال يجري على أرضها، زرت مقابر جماعية عديدة لاحقًا في حياتي، هذه واحدة من مقابر الشهداء التي تركت في نفسي أثرًا لا يزول، وليس لدي إجابة واضحة عن السبب.

كان بعض المكلومين يزورون ضحاياهم، يهدونهم الأزهار، على رغم علمهم أنهم في جنان أفضل، صور الضحايا تفيد أنهم صغار السن، سقطوا إما ليلة الغزو الروسي، وإما ليلة الغزو الأرمني لكاراباخ، وتضم المقبرة كذلك رفات بعض العرب والأتراك الذين حاربوا في أذربيجان خلال الحرب العالمية الأولى، فوجئت بقدوم عريس وعروسه بلباس الزفاف إلى المقبرة، سألت مرافقي، قال إنها أصبحت عادة لديهم، يأتون ليلة العرس إلى مقبرة الشهداء يلقون التحية ويمضون، وكأنهم يشكرون الذين ماتوا من أجل أن يعيشوا هم.

بدت لي «أذربيجان» وكأنها مضطربة الهوية، لا تعرف إلى أين تتجه، هل صوب العالم الإسلامي المحسوبة عليه، أم إلى أوروبا المتحضرة؟ ألى العالم الشيعي الذي تنتمي مذهبيًا إليه، أم إلى السني وهي تنطق تركيًا؟ في زيارة تالية، تحديدًا عام اثنين وتسعين التقيت بزعيم المعارضة حينها «أبو الفاز التشيباي» رحمه الله، استقبلني مرحبًا في غرفته الضخمة المظلمة، حاورته وحاورني ودار حديثنا سلسًا إلى أن سألته عن الهوية، فردَّ بتهكم صارخ: «ماذا بوسعنا أن

نأخذ مما عندكم، المتنبي أم الجاحظ؟ بالطبع سوف نتوجه إلى الغرب، الغرب هو الحضارة وهو المستقبل».

صديقنا أصبح بالفعل رئيسًا لأذربيجان عندما وقعت استثناءً انتخاباتٌ ديمقراطية وحصل فيها على أغلبية بنسبة أربعة وخمسين بالمئة، لكنه بعد ما يزيد قليلًا على عام وقع انقلاب عليه، نعم انقلاب وليس ثورة، لتعود نسب التصويت للرئيس من بعده إلى تسعة وتسعين بالمئة، النسب المتعارف عليها عندهم وعندنا.

أحب في «باكو» حيَّها القديم، أحب في المدن دائمًا أحياءها القديمة؛ ربما لأنها مثلي قديمة، إنها «باكو» التاريخية التي يعود تأسيسها إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ويضم الحي «قصر شروان» الذي سكنه الحكام على مر العصور.

الإسلام أيضًا قديم في «أذربيجان»، فقد فتحت في خلافة «عمر بن الخطاب» ﷺ في العام الثامن عشر للهجرة، ولم تكن حينها مقسمة كما هي اليوم بين شطر جنوبي يقع في «إيران» التي يسكنها حوالي ١٣ مليون أذربيجاني، وشطر شمالي يمثل جمهورية «أذربيجان» القائمة الآن بسكانها الذين يقتربون من عشرة ملايين نسمة.

رائحة اليود تنعشك إذا ما وقفت في «باكو» عند أعتاب بحر «قزوين»، الذي هو أكبر بحر مغلق في العالم، و«باكو» نفسها عرفت كعاصمة للذهب الأسود، فقد حُفر بها أول بئر سطحي في العالم لاستخراج النفط في القرن السادس عشر، وبعد ذلك بأربعة قرون كانت «باكو» تنتج أكثر من نصف كمية النفط الذي كان العالم كله حينها ينتجه يوميًا.

هل مللتم الحديث في السياسة؟ وأنا كذلك..

زرت «أذربيجان» لاحقًا مرات عديدة، وفي إحداها كنا في رمضان، وقد أزعجنا السائق بدخان سيجارته، دار حديث بينه وبين مرافقي، قال له السائق أنا مثلك صائم أيضًا، غير أني لا أستطيع التوقف عن التدخين، صَمت صاحبي ولم يشأ الدخول في جدال معه، لكن فجأة وجدته ينفعل بشدة ويتحدث بلهجة حادة مع السائق وأنا أحاول جاهدًا أن أستوقفه أو أستفسر منه عما يجري، وبعد أن هدأ قال لي إن الناس هنا لهم عادات في كرم الضيافة، ومن مظاهر هذا الكرم عند بعضهم أنه إذا أتى رجل من خارج المدينة فإن مستضيفه عليه أن يجلب له ما أمكن من أسباب السعادة، ومنها صديقة تبقى معه فترة بقائه، وسائقنا ـ بعد أن تحدث مع مرافقي عن رمضان والإسلام ـ سأله وكأنه يريد المساعدة: «هل أتيت لصاحبك بفتاة؟».

لكني ما زلت أذكر سائقي الأول في أول رحلة، لقد كان يعمل معي بجدّ طوال رحلتي، وبنهاية كل يوم أدفع له مقابل خدماته كسائق ونظير استخدام سيارته، قبل أن أغادر دعاني مع المترجم لزيارته في الجامعة التي قال إنه يشتغل بها، كنت مترددًا في قبول الدعوة لانشغالي، ولكن خفت أن يفهم أنني أتعالى عليه، في الموعد ركبنا أنا ومترجمي سيارة سائقنا السوفياتية القديمة وتوجهنا بصحبته إلى الجامعة، فوجئت منذ أن دخلنا حرم الجامعة بأن كل من نمر عليه يناديه بالبروفيسور، ظننت أن في الأمر دعابة، إلى أن أدخلنا حجرته الفارهة في تلك البنايات الإدارية السوفياتية الضخمة العريقة، جلس على مكتبه وجلسنا أمامه نشرب قهوته، لقد اكتشفت في يومي الأخير أن سائقنا بروفيسور جامعي وقد قبل أن يعمل معنا لأنه سيتقاضى منا في اليوم الواحد ما يتقاضاه كراتب من الجامعة في شهر: خمسة دولارات كاملة.

الخامسة عشرة

أَوتُفسد السياسة الدين؟

كانت الطائرة تقلع، وظللت أشعر أنها ما زالت تقلع إلى أن هبطت!

لم أهتم كثيرًا باختلاف المعتقد بيننا قدر اهتمامي بالإخلاص لفكرتي، حق الناس في تقرير مصيرهم، وفي التحرر من الاستعمار، أي ناس، وأي استعمار، لكن أعترف أنني معجب بمقولة معبودهم: «عليكم أن تبحثوا عن الحقيقة لا أن تعبدوا أولئك الذين اكتشفوها»، الله عليك يا «بوذا»!

أجلس في طائرتي الأنيقة محشورًا بين السائحين، أقول لنفسي ماذا تتوقع من طائرة تقلع وتريد أن تصل إلى سقف العالم؟ غادرنا العاصمة النيبالية «كاتماندو» التي ترتفع حوالي ألف وأربعمئة متر، لنصل إلى هدفنا الذي يعلو ثلاثة آلاف وستمئة وخمسين مترًا عن سطح البحر، «أين الأكسجين أيها المؤمنون؟» هو السؤال الأول الذي يجري في خاطرك ما أن تلامس قدماك أرض المطار، تجيبك أكياس الملح الجاهزة للراكب الذي يهبط إلى الأرض فيفقد وعيه.

كدت أنا كذلك أن أفقد الوعي، ولكن لسبب آخر قدمت إلى ضابط الهجرة جواز سفري داعيًا الله أن يمر الأمر على سلام، السلطات الصينية تمنع دخول الصحفيين إلى «التبت» التي تسيطر

عليها إلا بإذن خاص نادرًا ما يتحصل عليه أحد؛ ولذلك فإن شركة السياحة النيبالية التي ساعدتنا في الحصول على تأشيرة دخول التبت في «كاتماندو» منحتني أوراقًا تفيد أنني أعمل مدرسًا للمرحلة الابتدائية، فيما جواز سفري يدعي أنني صحافي، والحال نفسه مع الزملاء بمهن مختلفة، والشركة قالت إن صفة صحافي تمنعني وزملائي من الدخول إلى «التبت»، لكنها أكدت لي أن أحدًا لن يلحظ وجود هذه الصفة في جواز سفري لعدم إلمام ضباط الجوازات باللغة الإنجليزية.

التبت كلها دهشة، ومن الدهشة أن أبحث في مسألة الدين والسياسة في منطقة تبعد عن بلادي آلاف الأميال، وأن يكون الاشتباك هذه المرة بين الدين البوذي والسياسة الشيوعية، والحق أن بوذية أهل التبت تختلف عن البوذية في مناطق أخرى؛ ولذلك تسمى «لامية»، وهي فرع من مذهب «الماهايانا» الذي ينتشر أيضًا في أقسام من «الهيمالايا»، وفي شمال «نيبال» و«الهند»، كما أنه الديانة الرسمية في مملكة «بوتان».

تخلينا عن معداتنا المهنية الثقيلة، وحملنا كاميرات التصوير للهواة، واتفقت وزملائي أن نسلك سلوك السائحين، وانتهزوا ذلك سامحهم الله وتمادوا فيه، وكلما راجعتهم قالوا أتريد أن يكتشفوا أمرنا؟

«لاسا» هي العاصمة، يعتبرونها سقف العالم لارتفاعها الشديد، نخرج من المطار إلى المدينة التي تبعد عنه حوالي ساعة، وفي السيارة بَايعْنا مرشدنا، أقصد المرشد السياحي، على السمع والطاعة فهو مفروض علينا، وهو ذاته الذي طلبت منه على استحياء - بعد انقضاء أول ليلة - تغيير الفندق إلى آخر أفضل منه، فأجابني

أن ذلك مستحيل، فتغيير الفندق يستلزم الحصول على تصريح خاص من العاصمة الصينية، وأن ذلك يستغرق وقتًا قد يطول إلى أسابيع.

نقص الأكسجين يجعلك تشعر بإعياء شديد، لكن أرض الآلهة كما توصف لديها دائمًا ما يدهشك، شعب كامل من الرهبان، ومعابد في كل مكان، ومؤمنون يؤدون صلاتهم دون انقطاع وبطريقة غريبة، والإشكالية التي وقعت هنا هي أن المؤمنين كانوا يحكمون بلادهم لقرون، دولة دينية يعني، إلى أن سيطر الشيوعيون على «الصين» عام تسعة وأربعين من القرن الماضي، وبعدها بعام أرسلوا جيشهم إلى «التبت» بدعوى أن التاريخ يقول إنها صينية الهوية، ولكل بالطبع تاريخه.

الرهبان المسالمون لجأوا إلى السلاح، وشهدت البلاد انتفاضتهم المسلحة عام تسعة وخمسين، الشيوعيون الصينيون واجهوها بعنف شديد أودى بحياة آلاف المواطنين كما تقول الروايات، فضلًا عن تدمير معابد التبتيين وأديرتهم ورموزهم الثقافية والدينية، وهرب «الدالاي لاما» إلى «الهند» المجاورة.

إذا قررت أن تكتفي بالتعامل مع مهمتك كوظيفة تؤديها بكفاءة ثم تتلقى مقابلها مالًا، فلا بأس، وإن قررت أن تنتهز الفرصة فتسير في بلاد الله فترى خلقه وتشهد حكمته، وتتفكر في حياة الناس وما يعتقدون فهذا شأن آخر، وأنت قد فزت برأيي، لكنك ستدفع مقابل ذلك الكثير والكثير جدًّا من أعصابك ومشاعرك.

عندما تعيش في مكان ما بين أناس تشبههم ويشبهونك يُخيل إليك أن العالم كله هكذا، مثلك ومثلهم، وعندما تهجر كهفك وتسير في الدنيا تكتشف أن العالم ليس هو ما أنت عليه وحدك،

هناك آخرون ومختلفون، ومختلفون جدًّا بفارق يصل إلى سقف العالم.

معبد «جوكانغ» وشارع «باركور» الذي يحيط به هما من أكثر الأماكن المقدسة في «التبت»، والتي يؤمها الآلاف يوميًا للصلاة، صلاة تستمر أحيانًا لساعات طويلة، وقد بُني معبد «جوكانغ» في القرن السابع مع دخول البوذية إلى «التبت» ويعيش به اليوم حوالي مئة راهب، أما دير «دري بونغ» فيعتبر أكبر دير في العالم، وكان يضم سبعة آلاف وسبعمئة راهب قبل احتلال «الصين» للتبت، ولا يوجد به الآن سوى نحو ثلاثمئة راهب، وهو مختلف عن الأديرة المخصصة للراهبات والتي تُدعى «آني غومبا».

هذا هو الدين ورموزه، أما الحكم فهو على ارتفاع مئة وسبعين مترًا ارتفاع قصر «بوتالا»، الذي بدأ في تشييده «الدالاي لاما» الخامس كمقر له عام ألف وستمئة وخمسة وأربعين، وكان يعيش فيه حوالي ألف شخص، ويعد مقرًا للحكومة، والغريب أنه يضم عددًا من المدارس الدينية.

أقضي أيامي بين المعابد والرهبان، قرأت عن البوذية، وشاهدت البوذيين، أحترم من يخالفني، لكن حمدت الله على ما أنا عليه، هؤلاء البوذيون حياتهم صلوات وعبادة شبه متصلة، يعيشون معتمدين على عائلاتهم والمؤمنين المتبرعين لهم بسد حاجاتهم، ربما مسالمون، حملوا السلاح عام تسعة وخمسين ويحق لهم لاسترداد بلدهم، ثم توقفوا ورفعوا شعارات النضال السلمي، غير أن جيلًا جديدًا بدأ يرى أنه لا جدوى من السلام.

سارت أمورنا على خير، كل شيء يجري كما خطط له، عقبتان فقط؛ هذا الإعياء الشديد الذي تشعر به لنقصان الأكسجين

في هذه المنطقة المرتفعة عن العالم، والأمر الآخر أين يمكن أن نصور التعليق المعتاد الذي أصوره في مواجهة الكاميرا، إن ذلك من شأنه أن يفضح مهمتنا، وبعد أحاديث طويلة بيننا، رأينا أنه من الأنسب أن نسافر خارج العاصمة «لاسا»، حيث يؤمل أن تكون عيون رجال الأمن الذين يراقبون كل كائن حيّ حتى السياح في غفلة تسمح لي بأن أقف أمام الكاميرا وأسجل كلمتي.

سألنا مرشدنا عن معلم مهم خارج العاصمة، حدثنا عن بحيرة جميلة تبعد ست ساعات عن العاصمة، قلنا له إننا في شوق شديد لمشاهدتها، كان هذا يعني اثنتي عشرة ساعة ذهابًا وإيابًا في صحراء مثلجة وطرق وعرة مقابل أن نرى إمكانية تسجيل كلمتي هناك.

اندهش المرشد لإصرارنا بعد أن أوضح الصعاب، وفي الوقت المحدد انطلقنا في وقت مبكر لنمضي أربع ساعات في صحراء قاحلة وطقس بارد وطريق في أغلبه غير ممهد، ثم سألنا المرشد الذي سأل السائق بدوره الذي أجاب بأن البحيرة ما زالت على بعد ست ساعات من هنا، كانت مفاجأة غير لطيفة.

لاحظت وجود خيمة على مقربة من الطريق، طلبت أن نتوقف، عرفت لاحقًا أننا في قرية «ياك» وأن الخيمة تضم «ياغندا» مع ابنتيها «زونيم» البالغة سبعة عشر عامًا، و«بتسولاما» البالغة أربعة عشر عامًا، وعندما يحل الصيف ويذوب الثلج تنتقل العائلة إلى الجبل، أما عائلها فقد تركها قبل عام للسفر مشيًا إلى «لاسا» للحج ولم يعد، ومن تبقى من العائلة يعتمدون في حياتهم على الثور، الذي يؤمِّن كل شيء: فالخيمة مصنوعة من جلده، ويتدفؤون بواسطة برازه، ويشربون حليبه، أو يقايضونه مقابل أشياء أخرى،

وحول هذه العائلة يعيش خمسة وسبعون آخرون، وخيمة مدرسية للأطفال.

طلبنا من المرشد أن ندخل إلى الخيمة لتصوير المرأة وابنتيها وأن يقوم هو بالترجمة، دخلنا جميعًا، صورنا، ثم استبقت زميلتنا المرشد داخل الخيمة للترجمة، وانسحبنا نحن انسحابًا تكتيكيًا لنخرج خارج الخيمة ونصور على عجل الكلمة التي أريد تسجيلها، لقد ضحكنا يومها بعد أن أنهينا المهمة ضحكًا خفف علينا ساعات السفر الطويلة ذهابًا وإيابًا، وعشنا وقتًا هو أبعد ما يكون عن السياحة.

غادرنا الصحراء و«لاسا» و«التبت»، وعدنا إلى «كاتماندو» ومنها إلى «نيودلهي»، نستقل من المطار حافلة خاصة صغيرة، الحرارة مرتفعة، والتكييف لا يعمل، فإذا أغلقت النوافذ فأنت تقضي وقتًا في الساونا، وإذا فتحتها دخلت أسراب من حشرة الهاموش الذي يلتصق بك حد الإزعاج.

ست ساعات أخرى ونصل الهدف، مدينة «دارماسالا»، حيث يعيش التبتيون اللاجئون، وحكومة «التبت» في المنفى، و«الدالاي لاما»؛ هذا الذي في معتقدهم يتقمص شخص الإله الحامي للتبت، وهو التناسخ الرابع عشر، وقد جرى التحقق من هويته وهو طفل صغير، وتربى في معبد بوذي في قلب جبال «الهيمالايا»، ولم يعرف من وسائل اللهو سوى المخطوطات الحاوية لتراث يزيد عمره عن ألف سنة، وتسلم سلطته في اليوم الحادي عشر من الشهر العاشر من سنة النمر الحديدي، أي السابع عشر من نوفمبر عام ألف وتسعمئة وخمسين، وكان حينها في الخامسة عشرة من عمره.

طلبت لقاء «الدالاي لاما»، تخيلت أن الأمر سيكون

مستحيلًا، لكن الحق أعترف أن مساعديه نقلوا إلينا ترحيبه الشديد بلقاء صحافيين عرب، لم تتعود المنطقة على زيارتهم.

كنت شغوفًا جدًّا للقاء، متهيبًا منه في الوقت ذاته، فخارج المعبد عشرات من الشباب القادمين من الغرب يصطفون في انتظار أن يخرج عليهم ويصافحهم أو حتى يشير إليهم، فضلًا عن التبتيين أنفسهم الذين يعتبرونه نصف إله، وهذه هي المرة الأولى في عملي الذي ألتقي فيها بنصف إله!

في الموعد المحدد دخل الرجل بسيطًا للغاية، بشوشًا للغاية، بصحبة حوارييه الذين يستشيرهم في كل صغيرة وكبيرة، رجل دين ديمقراطي. بدأ الحديث، سؤال مباشر وإجابة سريعة تلقائية، إلى أن سألته: «وأنت المدافع عن وطنك ضد الاحتلال، كيف تزور وتدعم دولة محتلة لشعب يعاني مثل شعبك؟»؛ وكنت أقصد زيارته للكيان الصهيوني عقب مذبحة الحرم الإبراهيمي الشريف عام أربعة وتسعين.

هنا فقط طلب التوقف عن التصوير، ودخل في حديث مع مستشاريه، ثم طلب أن نكمل، وقال: «قد زرت «إسرائيل» مرة، فقد كان ذلك أمنيتي منذ زمن، وقد التقيت بيهود وفلسطينيين، ولدي أصدقاء يهود في عدد كبير من بلدان العالم، كما أنني ألتقي بالعرب في بعض البلاد، لكن كانت هذه فرصة للقاء مباشر، استمعت خلاله إلى قصص مؤثرة للغاية ومحزنة»، ثم استطرد: «زيارتي للقدس هي بمثابة زيارة دينية أو حج، ومن دون موافقة الحكومة الإسرائيلية ومباركتها لا يمكنني الذهاب إلى هناك، لقد كان هدف الزيارة دينيًا».

بعد أن أنهينا اللقاء جلسنا نلتقط الصور التذكارية، وما زلت

حتى اللحظة أذكر محاولته اللطيفة في الترحيب بي بصورة مبالغة بأن يربت على ظهري، غير أنها كانت بمثابة ضربة على الظهر سُمع صوتها وأضحكت الحضور وفُهمت أنها ربما عقابًا لي أن سألت كيف لأصحاب القيم العليا أن يتنازلوا عن بعضها لقاء السياسة.

السادسة عشرة

ما جرى لنرمينا.. في مثل هذا اليوم

ما أن أعلِن عن تأسيس الكلية عام سبعة وسبعين من القرن الماضي، إلا وكانت «نرمينا» تدق أبوابها في يومها الأول من عامها الأول، طالبة وحيدة من بين عشرة من الطلاب الذكور، وظلت هكذا لأربع سنوات متتالية حتى أنهت دراستها. عندما زرت كليتها أول مرة عام تسعين، وجدت بوابة بسيطة تحشر نفسها حشرًا في زقاق من أزقة «سراييفو» بمنطقة شهيرة معروفة باسم «باش تشارشيا»، وعليها ما يفيد بأنها كلية الدراسات الإسلامية.

لكنني لم ألتق «نرمينا» نفسها إلا عام ألفين وأحد عشر، عندما حكت لي حكايتها بأنها كانت تعمل بجد مع زملائها الطلاب طوال تلك السنوات الدراسية الأربع «حتى إن بعضنا كان يدرس في كليتين، فقد كنا ببساطة نرغب في التعلم والعمل بهدف خدمة ديننا»، وكأن الأمر لديهم قد تجاوز فكرة الدراسة الأكاديمية.

«نرمينا» كانت تلفت النظر إليها كلما مشت في شوارع «سراييفو»، فهي تكاد تكون الفتاة الوحيدة المحجبة في المدينة في ذلك الوقت، تذهب إلى الحلقات الدراسية في مسجد «تاباك» الشهير، لتخرج منه إلى كُتّاب المرحوم «الحاج موهانيمي»، أما في عطلة نهاية الأسبوع فإنها تولي اهتمامها لتعليم الصغار مبادئ

الدين، وذلك لا يمنع من أن تشارك في تنظيم الرحلات والاحتفالات بمناسبة الموالد والأعياد، أما رمضان فهي تخصه بأنشطة متميزة تمتد دون انقطاع من صلاة الظهر وحتى موعد الإفطار في مكانها المحبب بمسجد «تاباك».

في ذلك الحين كان «جوزيف تيتو» يقضي أيامه الأخيرة مطمئنًا إلى أن «يوغسلافيا» التي أسسها بعد تحريرها من الألمان عام خمسة وأربعين تحيا أزهى عصورها، بجمهورياتها الست بما فيها «البوسنة والهرسك» التي تعيش «نرمينا» في عاصمتها «سراييفو». يختلف المسلمون حول عهد «تيتو»، بعضهم يعتبره كان رحيمًا بهم إذا ما قورن وضع المسلمين في «الاتحاد اليوغسلافي» بوضع أشقائهم في «الاتحاد السوفياتي»، وبعضهم يعتبر أن الرجل مثله مثل الآخرين سعى إلى إزالة الوجود الإسلامي من المنطقة.

«نرمينا» لم تكن تعبأ بهذا الجدال، وتحمد الله كثيرًا على أنها عاشت عهدًا عاد فيه إلى بلادها رجال تعلموا في الأزهر ليبثوا روح الإسلام من جديد، مثل الدكتور «أحمد سمايلوفيتش» والبروفيسور «حسين جوزو».

قال لي «حسن تشينغيتش» يومًا بعد انتهاء الحرب في «البوسنة» إنه كاد أن يصدر قرارًا باعتقالي بصفته وزيرًا للدفاع بعد أن شاهد على شاشة «أم بي سي» العربية تقريرًا لي يُظهر صورًا من جبهات القتال لم يكن يرغب في عرضها. «تشينغيتش» أعرفه منذ لقائي الأول بالرئيس «علي عزت بيغوفيتش» عام تسعين، ومنذ الأيام الأولى للحرب عندما كان ينظم المجموعات للدفاع عن «سراييفو».

لكن «نرمينا» تعرفت إليه قبلي بكثير كما تعرفت إلى آخرين مثله بحكم «الاهتمامات المشتركة كصوم رمضان والتردد علانية على

المساجد» بحسب وصفها لي، وهي الأمور التي لم يكن ليفعلها إلا قلة قليلة في ذلك الوقت، وتتذكر جيدًا كيف أن «تشينغيتش» أعطاها نصًا مكتوبًا على الآلة الكاتبة؛ لأنه لم تكن أجهزة الكومبيوتر قد ظهرت بعد.

«كانت تلك المرة الأولى التي أتعرف فيها إلى الراحل «علي عزت بيغوفيتش» ككاتب، لاحقًا حصلت على العديد من النصوص التي كانت تعمم بيننا نحن الطلاب والتي يمكن القول إننا تربينا عليها، ومنها ما كان يخطه المرحوم «جوزو» الذي يصر على تجديد الفهم للقرآن وإيجاد تفسير يتواءم مع العصر، فالزمن الذي عشناه كان يتطلب نوعًا جديدًا من التعاطي مع القرآن الكريم لكيلا يبقى أيقونة موضوعة على الرف تتجمع عليها الغبار ولا تلمسها يد، وإنما ليصبح شيئًا معاشًا في حياتنا اليومية».

تمر الأيام، يتوفى «تيتو» عام ثمانين، وبعد ذلك بعام واحد تنهي «نرمينا» دراستها الجامعية وتحصل على وظيفة كمدرسة في مدرسة «الغازي خسرو بك» للبنات التي تأسست عام ألف وخمسمئة وسبعة وثلاثين. وبالمناسبة فإن «خسرو بك» هو أشهر أمراء «البوسنة» ويعد عهده هو العهد الذهبي لسراييفو، وقد حصل على لقب الغازي لشجاعته العسكرية وانتصاراته التي حققها على رأس الجيش العثماني.

سارت حياة «نرمينا» عادية إلى أن سمعت الأصدقاء والجيران وهم يتناقلون خبرًا مفاده اعتقال مجموعة من الشباب الذين تعرفهم جيدًا بتهم العمل على هدم الدولة والنظام، وقد سبب لها الأمر صدمة شديدة «فقد كنتُ شخصًا نما وترعرع في ذلك النظام، شخصًا التحق برابطة الأشبال في المدرسة الابتدائية ولاحقًا برابطة

الشباب، شخصًا حمل الشعلة وأدى التحية ووقف للنشيد الوطني في دولة كان فيها الرئيس «تيتو» يعتبر رمزًا».

لم يطل الأمر، فقد استدعى الأمن «نرمينا» إلى مديرية الشرطة، وذلك ضمن ما يُسمى بالمقابلات الاستعلامية، حيث كان محققو وزارة الداخلية يطلبون منها أن تكتب كل ما تعرفه عن المتهمين خصوصًا هؤلاء الثلاثة: «حسن تشينغيتش» و«جمال الدين لاتيتش» و«مصطفى سباهيتش».

على مدى عشرة أيام كانت تذهب من الصباح حتى المساء، غير أن ما كتبته لم يقدم إجابات مرضية ما دفع رجال الأمن لاستجوابها شفهيًا من خلال اقتطاع بعض أجزاء العبارات المكتوبة من السياق وتحويرها لتصبح أدلة اتهام.

مورس مع «نرمينا» نفس الطقوس الأمنية المعتادة: اعترفي بكل شيء ثم سنعفو عنك باعتبار أنه غُرر بك، وسوف نستخدم اعترافاتك لإدانة الآخرين. وكان الحوار معها يجري أيضًا بالأسلوب التقليدي المعروف بأسلوب الشرطي الجيد والشرطي السيئ، «كان يأتي أحدهم ويبدأ بالصراخ ويضرب الطاولة بقبضته ويهددني بأنني سأتعرض لكذا وكذا، ثم يأتي آخر ويطلب منه الهدوء وبعدها يتوجه إليّ طالبًا مني أن أخبرهم بكل شيء، لقد اتضح لي أن هؤلاء الناس لا يريدون سماع الحقيقة وإنما سماع ما يريدون سماعه».

ذات يوم افتُضِح أمر الفتاة أمام أهلها عندما تأخرت في مكتب التحقيقات إلى ما بعد منتصف الليل، ولم يكن من المعتاد أن تغيب اليوم كله دون أن تعلم أمها أين هي، وكان ذلك أصعب ما واجهته، وبالتوازي فقد بدأت تصلها أخبار عن متهمين انتهى بهم المطاف تحت وطأة التعذيب إلى المصحات النفسية.

انهارت «نرمينا» وقالت لهم: «اكتبوا ما شئتم فلم أعد أهتم لأي شيء، وسأقوم بالتوقيع»، فأُعد في الحال ملف من خمس صفحات ملئت بالتهم الفظيعة. وبذلك باتت صاحبتنا عمليًا شاهد الاتهام الرئيسي ضد «حسن تشينغيتش» وباقي المجموعة.

في انتظار المحاكمة قضت «نرمينا» وقتًا صعبًا، فهي تلوم نفسها من ناحية، ومن ناحية أخرى تدرك تمامًا عاقبة انسحابها من الإدلاء بشهادتها ضد المتهمين، إلى أن جاء شهر أغسطس عام ثلاثة وثمانين، فقرر الأمن استدعاءها بشكل مكثف يوميًا لتلقينها الشهادة التي نُسبت إليها، «وفي لحظة أدركت ما يجب عليَّ فعله».

كان «علي عزت بيغوفيتش» يتصدر المشهد في قفص الاتهام، كما سيتصدر المشهد في البلاد كلها لاحقًا، بعد أن يقضي سنوات سجنه الثماني ليخرج رئيسًا للبوسنة والهرسك وقد انفرط عقد «الاتحاد اليوغسلافي» كله، وراء «علي» كان يقف «حسن» و«جمال» و«مصطفى» وكافة المتهمين في المحاكمة التاريخية باعتبارهم متطرفين يسعون إلى أسلمة المسلمين.

في يوم خميس من أغسطس يدلي زميل «نرمينا» «سعاد سيليوباتس» ـ وهو رجل ـ بشهادته ضد المتهمين، لكن ضميره يدفعه إلى أن يسحبها. وقد فسر الأمن ذلك أمام الإعلام بأن الرجل تعرض لتهديدات من قبل عائلات المتهمين ما دفعه لسحب شهادته.

«لكنني صُعقت يوم الجمعة في غرفة الشهود عندما رأيتُ «سعاد» محطمًا ومنهكًا، لم ينظر إليّ مطلقًا. صمتنا نحن الإثنين، فقد تعرض لتعذيب وحشي اضُّطر على إثره أن ينفي سحب شهادته التي تتهم المتهمين، ويؤكد على وقائعها».

الساعة الحادية عشرة، «نرمينا» ترتعد وهي تستعد للإدلاء بشهادتها، «كانت صلاة الجمعة تشكل لنا، إن جاز التعبير، شيئًا مقدسًا، لقد رأيت في ذلك علامةً مميزةً وتولد لدي شعور بأنه، لا قدر الله، لو كذبتُ في المحكمة فإن المبنى سينهار عليَّ وأنني لن أخرج على قيد الحياة، ليس بسبب أن أحدهم سيدبر لي شيئًا ما ولكن ببساطة سيصلني العقاب الإلهي».

المحاكمة الهزلية منعقدة، والقضاء شامخ، والمتهمون يجلسون منكسرين، وحده «علي» يرفع رأسه أسدًا في محبسه، وكأن كتاباته تمر أمام عينيها، تقدمت لتدلي بشهادتها، سألتْ: «سيادة القاضي إذا ذكرتُ الحقيقة كاملة فهل ستقوم المحكمة بحمايتي؟»، تذكر القاضي كذبة أن «سعاد» الشاهد السابق قد تعرض للتعدي من ذوي المتهمين؛ لذلك سارع بالإجابة: «بالتأكيد سنقوم بحمايتك».

«نرمينا» كانت تدرك أن عقوبة شهادة الزور هي السجن خمس سنوات، وشهادة الزور هنا هي أن تقول ما لا يرغب الأمن والسلطات في أن تقوله حتى وإن كان حقيقة، إلا أن «نرمينا» أجابت سريعًا على القاضي الذي كان يمسك بمحضر أقوالها بيديه: «إن كان الأمر هكذا وأنكم ستحمونني، فإنني أبلغكم أن ما تحملوه بأيديكم، وما هو مكتوب إنما هو محض كذب ولا يمت للحقيقة بأي صلة، وإن ذلك منسوب لي زورًا وتم توقيعه باسمي وهو يجافي الحقيقة بالمطلق».

ساد صمت رهيب، ورد القاضي المصدوم بعد برهة: «مكتوب هنا أنكم أعلنتم...»، قاطعته: «أنا أعرف بالضبط ما هو مكتوب، لقد قضيت الأيام الخمسة الأخيرة في دراسة ما هو مكتوب وحفظه عن ظهر قلب، لكنني أؤكد لكم أن كل ذلك كذب».

«أعتقد أنه في تلك اللحظة لم يعد أحد يعرف ماذا يفعل، كان ذلك تحولًا دراماتيكيًا على شاكلة كتابات «كافكا»، وهو ما لم يتوقعه الحضور، لا الشرطة ولا أتباعها وعلى الأخص أولئك الأشخاص الذين تتم محاكمتهم».

«شعرت تلك اللحظة وكأنني وُلدت من جديد، لقد أزيحت فيها من على كاهلي كافة الأعباء، أعرف ما قلته للقاضي وهو بدوره حذرني. أفضل عندي أن أقضي خمس سنوات في السجن بتهمة شهادة الزور على أن أعيش مع شعور بأنني قلت ما هو ليس صحيحًا، كنت جاهزة تمامًا لأنتقل من مكاني كشاهدة إلى أن أجلس بين المتهمين، الذين هم إما أصدقائي وإما أساتذتي وإما أناس يشاركونني الاهتمامات نفسها».

دخلتُ بناية المحكمة التي أدلت «نرمينا» فيها بالشهادة ضمن وقائع تصوير فيلم عن الزعيم الراحل «علي عزت بيغوفيتش»، كل شيء تغير تمامًا عما كانت تحمله الصور الأرشيفية لأيام المحاكمة، جال بصري هنا وهناك، حيث كان يقف «علي»، وحيث كان يجلس «حسن»، وحيث كان القاضي يحكم، وحيث كانت «نرمينا» تدلي بشهادتها. نعم كل شيء قد تغير، أما شهادة الزور فهي تظل دائمًا ملجأ لرجال الأمن.

السابعة عشرة

إنه المكتوب!

لا أعرف لماذا تذكرت هذه الحادثة عندما استيقظت في الصباح، صاحبنا قرر ألا يخرج من بيته مهما كان الثمن حتى تنتهي الحرب التي اندلعت لتوها في «سراييفو»، ولو مات في سبيل ذلك جوعًا. لقد روعته مشاهد القتلى والجرحى على شاشة التلفزيون، وبالفعل بقي حبيس البيت ثلاثة أشهر كاملة، عانى فيها ما عانى في ظل انقطاع إمدادات الكهرباء والماء والتدفئة، إلى أن استسلم وقرر الخروج، وما أن غادر باب بيته حتى أصابته رصاصة قناص فسقط قتيلًا في الحال، وكأن الموت كان يختبئ له فعلًا.

شخصيًا، وما أن أُعلن عن انتهاء الحرب حتى صعدتُ إلى واحدة من تلك البنايات العالية المطلة على شارع «زمايا أود بوسنة» ومعناها «تنين من البوسنة»، والذي يعد الشريان الرئيسي للعاصمة «سراييفو»، وقد عرف وقت الحرب باسم «شارع الموت» لكثرة ضحاياه، كنت شغوفًا بأن أعرف كم كنت أبعد عن رصاصات القناصة عندما كنت أمر من هذا الشارع كل يوم مرة أو مرتين للذهاب إلى بناية التلفزيون بحكم عملي لتأمين إرسال التقارير التي أعدها عبر الأقمار الصناعية، خصوصًا أن الأمور التقنية في ذلك الوقت من عام ١٩٩٢ لم تكن سهلة كما هي الآن.

كنا نقطع ذلك الطريق بسرعة شديدة حتى نتجنب رصاصات القناصة، فأجلس في السيارة ناظرًا إلى الأمام، وليس إلى الجهة المحتمل إطلاق الرصاص منها، وكأني أريد أن أتجنب مشهد قاتلي، وأظل أطمئن نفسي بأنني بعيد إلى حد ما، على رغم معرفتي بحقيقة أن القناص اليوغسلافي يعد من الأبرع على مستوى العالم، مطمئنًا بأن سرعة السيارة ستفوت على القناص فرصته.

في إحدى المرات اضطرب زميلي الذي كان يقود السيارة فصدم سيارة أخرى أمامنا كانت تناور بدورها لتجنب الرصاص، ويقودها إعلاميان يابانيان، وقلت هذه هي النهاية، لقمة سائغة جاهزة أمام الأخ القناص، لكن الحادثة وقعت ـ ويا للطف الله ـ في زاوية من الشارع يصعب عليه فيها اصطياد ضحاياه.

عندما صعدت إلى الطابق العلوي، ودخلت إلى الشقة التي كان يتحصن فيها القناصة ونظرت من شرفتها إلى الشارع الذي كنا نمر منه أصابتني الدهشة؛ كل شيء واضح وسهل، وإذا رميت بحجر فربما تصيب به الهدف، فكيف نجوت من رصاصهم؟ لقد تملكني رعب ربما لم يتملكني أيام الحرب، رعب بأثر رجعي، ولم تكن ثمة من إجابة، غير أنه قدر الله الذي لا نعلمه.

أول خط قتال زرته في هذه الحرب كان في منطقة جبال «إيجمان»، أضحك على نفسي عندما أتذكر الواقعة، كنت فرحًا كطفل اصطحبه أبواه إلى رحلة كان يتمناها، لقد قطعت مسافة طويلة حتى أصلَ إلى هنا؛ هنا بوسعي أن أقول إنني بتُّ على خط القتال، كنت لأشعر بالعار لو لم أفعل ذلك.

في هذه المنطقة تحديدًا كانت القوات الصربية تتمركز أسفل الجبل، وقوات المسلمين في قمته، ما أن تنظر من علٍ حتى ترى

الصرب أسفل منك مباشرة، كأنك داخل بناية سكنية تطل من أعلاها على أسفلها، سألت: «لماذا لا تقومون بقصفهم وتنتهوا؟ إنهم في وضع ضعيف»، قالوا: «نحن في موقف أضعف، فليست لدينا أسلحة أو ذخائر كافية إذا خضنا المعركة». الصرب كانوا يعرفون ذلك؛ ولذلك شاهدتُ جنودهم في حالة استرخاء تام، يتحركون أسفل منا براحة شديدة.

أدرت رأسي يمنة ويسرة، ثم أخرجت كاميرتي الفوتوغرافية، لمعت عدستي في عيونهم، يبدو أنهم حسبوها بندقية قناص، أطلقوا الرصاص في اتجاهي، في اللحظة نفسها التي كنت أنا أنسحب فيها إلى الوراء، زغردت الرصاصة، هلل كل من حولي. في الحقيقة لم أفهم في البداية ما جرى، فهذه أول حرب أعيشها كصحفي، ولا خبرة عسكرية لي، خصوصًا أنني لم ألتحق بالتجنيد، يا إلهي.. هكذا في لحظة يمكن أن تفقد حياتك، برغم كل هذا الهدوء.

إننا نسير في الحياة بكل كِبر مدعين معرفتنا وإحاطتنا بالأمور، فيما نحن لا ندرك ما تخبئه لنا اللحظة المقبلة، يقول العامة إنها المقادير، ويكرر «باولو كويلو» في خيميائيِّه المعنى نفسه، إنه المكتوب.

المكتوب هو الذي جمعني في قطار متجه إلى العاصمة البولندية «وارسو» مع رجل بوسني ليحدثني عما يجري في بلاده، فيثير دهشتي وشغفي، وأسافر إلى هناك فيستقبلني هو وصديق له، أكرر الزيارة فيصحبني ثالث في جولة واكبت أول انتخابات برلمانية حرة. حينها سألني أحدهم سؤاله الشهير: «هل يعلم قومك أننا هنا، هل يعلم العرب أن في هذا الجزء من أوروبا المسمى «البوسنة والهرسك» مسلمين عانوا ما عانوا ويتوقعون الحرب؟»،

كانوا يبحثون عمن يسلط عليهم الضوء، ولو من شمعة، ولو من صحافي مغمور مثلي.

تدور الأيام وتصبح بلادهم بآلامها ملء أسماع العالم وبصره، ويصبح اثنان منهم سفيرين لبلادهما، والثالث رئيسًا للجمهورية، إنه المكتوب الذي لا تدركه الأبصار!

لاحقًا أيضًا سمعت من غيرهم قصة أخرى: «بعد اعتقالي عام ١٩٨٣، وخلال التحقيقات التي كانت تجريها وكالة الأمن القومي في السجن المركزي، سألني المحقق: أنتم تتظاهرون بالحديث عن الدين، لكننا نعرف أنكم تخططون لتشكيل حكومة بوسنية يترأسها «علي» ويكوّن «عمر» المجلس التنفيذي، وأنت كمهندس يمكنك شغل منصب وزير الطاقة، فمتى شكلتم تلك الحكومة؟».

واصل «أدهم بيتشاكتشيتش» حديثه قائلًا: «لقد استغربت الأمر تمامًا، فنحن لم نتطرق من قريب أو بعيد إلى هذا الأمر، وعندما أصدرت المحكمة قرارها وزُجَّ بنا في السجن، وعندما كانت الظروف تسمح لنا بأن نلتقي كنا دومًا نتذكر هذه الحادثة وتنتابنا موجة من الضحك مما وصلت إليه تخيلات وكالة الأمن القومي في ذلك الوقت والتي كانت أبعد ما يكون عن تفكيرنا».

«علي عزت بيغوفيتش» نفسه قال لأخته «خيرية» عندما اعتقل للمرة الثالثة، تلك التي يتحدث عنها «أدهم»، وكما ذكرت لي في لقاء جمعنا، إنه وقد قارب الستين، ومحكوم بأربعة عشر عامًا من السجن، فلا أمل في الخروج حيًا، بل وبحسب رفاق له، أنه كان عصبيًا في أول فترة اعتقاله، معتبرًا أنه حِيل بينه وبين أن ينجز مشروعه، وأن الوقت في المعتقل يذهب هدرًا، بعد أن حُكم عليه عمليًا مدى الحياة.

لكن الحياة لم تشأ أن تمضي دونه، فقد سقط كل من حاكموه ورفاقَه، وأفرج عنه، وأسس حزبًا، وخاض انتخابات كان يأمل خلالها بالفوز بمقعدين في البرلمان يعبران عن توجهات هذا التيار من المسلمين في «البوسنة»، لكنه نجح بأغلبية، هو ورفاقه أنفسهم لم يفهموها، وأصبح رئيسًا للجمهورية، وبات «أدهم» رئيسًا للوزراء، وشكل حكومته، وتحققت ادعاءات رجال الأمن القومي، وذلك كله في وقت وجيز؛ لأنه المكتوب.

تكمن المشكلة في أننا لا نعرف سر المكتوب، نجهله؛ لذلك نكون شديدي العصبية، فائقي التوتر، ففي لحظة نشعر بأن الدنيا قد انتهت، وفي أخرى نشعر بأن الدنيا فتحت علينا، والحقيقة أنه لا أحد يعلم ماذا تحمل اللحظة التالية، وهو ما يحتم علينا أن نسير وراء خططنا الخاصة، نحفر الأرض ولو بإبرة ونمضي.

تقول الحكمة «عليك أن ترضى بما كتب لك»، لكن الرضى بالمكتوب غير الاستسلام له.. ربما حدثتكم عن هذه الحكاية من قبل، لكن لا بأس في تكرارها.

تلقيت اتصالًا من شخص قال إنه في زيارة إلى قناة «الجزيرة» في «الدوحة»، وقد حصل أخيرًا على هاتفي، وأنه لا يريد سوى التعبير عن تقديره لما أعمل، وأخذ يعدد أكثر الحلقات التي أثرت فيه، شكرته، قال إنه سيأتي إلى «دبي» قريبًا ويريد أن يزورني، بالطبع رحبت به.

بعد أيام اتصل بي، ووصفت له العنوان، ووصل، وأدخله الزملاء إلى غرفتي، المفاجأة أدهشتني، الرجل ضرير، فهل كان يحتال عليّ بذكره الحلقات التي أعجبته، والمشاهد التي أثرت فيه؟ جلس وحكى لي الحكاية.

«لقد رضيت تمامًا بما كتب لي، غير أني رفضت الاستسلام له، قررت أن أتواصل مع العالم من حولي بكل السبل الممكنة، عرفت أن هناك أجهزة تقنية متعددة تمكن الضرير من القراءة والكتابة والتواصل مع المحيط، كان صعبًا اقتناؤها وتعلمها، لكنني جاهدت نفسي وغالبت الظروف ونجحت في ذلك، ومضيت في حياتي معتمدًا عليها، أقرأ وأكتب وأتابع ما حولي».

مرت سنوات قبل أن ألتقي «عمر عبد العزيز» في «إسطنبول»، قال لي إنه سمع عن عمليات لإعادة البصر، لكنه يخشى ألا يعرف كيف يتعامل مع المجتمع بعد أن يراه على حقيقته، «لقد بنيت قواعد معينة معه، وأخشى التغيير»، وأضاف مازحًا: «ماذا سأفعل عندما أرى الحسان اللائي يتحدث عنهن المبصرون؟!».

«سراييفو» فعلت الأمر ذاته، فقد كانت كل التقديرات تشير إلى أن العاصمة البوسنية المحاصرة ليس بوسعها الصمود أكثر من شهر، وعندما طُرحت فكرة حفر نفق يكسر به المسلمون الحصار المفروض عليهم، ويُدخلون عبره إلى المدينة المؤن الغذائية والأسلحة رفضت بعض القيادات ذلك، وقالت جهد لا طائل منه، المدينة ستقع، لا فائدة، آخرون رفضوا الاستسلام لما يعتقد أنه مكتوب، وقرروا المضي في حفر النفق، وتم الأمر فعلًا وكأنه معجزة، وعاشت المدينة سنوات الحرب حيَّة بفضله، ولم تسقط.

لا تهدر لحظة من حياتك، أعمِل عقلك في كل ما تراه ويدور حولك. قدَّر المكتوب أن أدخل إلى قسم المصابين بالمرض الخبيث في أحد المستشفيات اللندنية لزيارة مريض، وأن أتردد إليه لمدة طويلة، وأن أشاهد المرضى من أعمار وثقافات مختلفة، بعضهم كان عائدًا لفحص سنوي بعد أن هَزَم مرضَه، ما كان لي أن

أضيع الفرصة، كنت أراقب الجميع، وكانت النتيجة مذهلة.

كم من مصاب بالمرض الخبيث أصابته الغُمَّة، والتزم الفراش، واستقبل الزائرين والمواسين، أمطروه بنظرات العطف والشفقة، ليموت بالحسرة قبل أن يموت بالمرض، وكم من مريض به رفض الاستسلام لما هو مكتوب، وراح يعيد تشكيل حياته اليومية برغم كل آلامه، فعاش ما عاش ليرحل كما سنرحل جميعًا، وفي الحكمة أن كل الذين قاوموا ربما أثخنتهم الجروح لكنهم عاشوا، وكل الذين استسلموا ماتوا وإن ظلوا أحياء.

الثامنة عشرة

مكتوب إلى «فاطيمة»

عزيزتي..

ما زلتِ في ذاكرتي حتى اللحظة، تُرى هل أنا في ذاكرتك؟

لا أعلم لماذا علقت صورتك بذهني منذ أن رأيتك؟ التقيت كثيرين في مثل عمرك وفي مثل حالك لكن بقيت أنت وقصتك في مخيلتي، ربما لأنكِ لم تولي اهتمامًا يوليه من هم في مثل عمرك لهذا الصحفي الأجنبي ولهذه الكاميرا التي تسجل زيارتك، كنتِ صادقة جدًّا في مشاعرك، حتى إن ردود أفعال الناس على تقريري الذي أنجزته عنكِ كان مذهلًا، على رغم أنه كان تقريرًا عاديًا، وكنت أسأل نفسي تُرى هل وصلهم الشعور نفسه الذي وصلني منك؟

ذهبتِ ونحن وراءك إلى والدك، تسرعين الخطى كما لو أن الشوق أدمى قلبك، تربتين على التراب، ربما كما كان يربت عليك، تنقين من فوقه الحشائش التي نبتت سريعًا، تمامًا كما كنتِ تزيلين من على ملابسه ما علق بها حين كان يحتضنك، كان وجهك مكفهرًا وجادًا كما لو أن صاحبته ذات عقود وليس عقدًا واحدًا، قرأتِ الفاتحة، جذبتك والدتك لترحلي، رفضت في غضب، تريدين البقاء في حضرة الوالد، تتألمين وتستزيدين من

الشرف الذي ناله وهو يموت مدافعًا عن وطنه حتى لا تكوني ضمن السبايا اللاتي اغتصبوهن فلم يرحموا عجوزًا ولا طفلة..

عزيزتي «فاطيمة»..

أفهم أن لكل حرب دوافعها وأطرافها وظالميها ومظلوميها، لكن ما شأن الأطفال بذلك؟ ما شأنكم أنتم؟ لم يستشركم أحد في شأن القضية التي أثارت الحرب، ولم يسألكم أحد، وإذا حدث فليس بوسعكم الإجابة، ولا في قدرتكم؛ ولذلك كان أمركم يشغل بالي، وكان هو أكثر ما أثارني طوال سنوات الحرب، خصوصًا تلك «الجريمة المسكوت عنها»، فلما انتهت الحرب عام ستة وتسعين عدتُ بعدها بعام لأعد تقريرًا عن الثمن الذي دفعه أطفال «سراييفو» لقاء الحرب، بحثت عنك كثيرًا لكنني لم أجدك.

اخترت أن أبدأ تقريري بمشهد مجموعة منكم تغني لسراييفو في مكتبتها الوطنية، كان شكل الدمار حولهم مخيفًا، لقد أحرق الصرب المكتبة كما تعلمين بأكملها وكانت من أولى أهدافهم التي قصفوها، فاشتعلت النيران في المبنى العتيق الذي هو بمثابة جبل للمعرفة، ولولا بعض المخلصين الذين نجحوا في تهريب أغلب كنوز المكتبة وإخفائها لكانت «سراييفو» اليوم بلا ماضٍ، وبلا تاريخ، وبلا أكثر من مليوني كتاب ومخطوطة في مختلف مصادر الثقافة والمعرفة، لقد توقع هؤلاء المخلصون ما سيفعله الصرب، إنه التاريخ يا عزيزتي الذي قرأوه في المكتبة ذاتها.

غنى الأطفال لسراييفو، وهم الذين جُرح منهم خلال الحرب حوالي خمسة وأربعين ألف طفل، بعضهم بات مقعدًا، وبعضهم أُجريت له العمليات الجراحية دون تخدير، فيما قُتل ألفان من أطفال هذه المدينة وحدها.

الأرقام التي حدثني عنها أصحاب الشأن يا «فاطيمة» مرعبة، فقد أُجري استقصاء على خمسة آلاف طفل، حوالي تسعين بالمئة منكم عاشوا لستة شهور في المخابئ، وحوالي نصف عددكم شهد واقعة مقتل شخص أمام عينيه، وما يقرب من أربعين بالمئة منكم فقدوا واحدًا من أقربائهم، وما يزيد عن ثمانين بالمئة اعتقدوا جازمين أنهم سيموتون لا محالة.

شخصيًا ما زلتُ أذكر على رغم ضعف ذاكرتي كل شيء، كنت أشاهدكم وأنتم تحملون بقدر أوزانكم أوعية فتقفون في صفوف طويلة عند مضخة هنا أو هناك لتملؤوها بالماء الذي قطعت إمداداته الميليشيات الصربية عن مدينتكم، وآخرون يشاركون عائلاتهم قطع الحطب من الغابات ومن أشجار الشوارع للتدفئة في طقس تصل درجة حرارته شتاءً إلى عشرين درجة تحت الصفر.

كانت أيامًا قاسية، أذكر تلك الممرضة في مستشفى «كوسوفو» وهي تحدثني بألم عن الأطفال المصابين الذين تجمدت أطرافهم وهم في المستشفى جراء البرد الشديد وانقطاع التدفئة وتحطيم النوافذ الزجاجية، وكيف كانت تجد صعوبة في إدخال الإبر إلى أطرافهم لعلاجهم.

فكرت يا «فاطيمة» أن الشيطان تم الاستغناء عن أعماله عند هؤلاء القوم في تلك الأيام، وإلا من ذا الذي يخطر على باله أن يقيد طفلًا بالحبال ويدير وجهه بالقوة في اتجاه أمّه ليراها وهي تُغتصب، أما الأب فيتمرد فيقتل في الحال، هل تعتقدين أن الشيطان بنفسه قادر على أن يوسوس لبشر بمثل هذا الفعل؟

لكن ما لي ما زلتُ أخاطبك وكأنك ما زلتِ طفلة؟ لقد مرت عشرون سنة أو يزيد، ترى أين أنت الآن؟ هل تزوجت؟ هل بات

لديك أطفال تحكين لهم عما جرى لك ولرفاقك عندما كنت مثلهم صغيرة؟ أو ربما تحدثينهم عن تلك «الجريمة المسكوت عنها».

لو أسهبت في الحديث إليك ما سكتّ، لكن وسط ذلك كله ما زلت أذكر يا «فاطيمة» تلك البهجة التي حظي بها بعضكم يومًا تحت الحراسة المشددة، في ذلك الزمن من الحرب كان كل ما تفكر فيه الهيئات الإغاثية هي مدّكم بأكياس الطحين أو بالإسعافات الأولية، لكن بعضهم فكّر في أنكم بحاجة إلى البهجة قدر حاجتكم إلى الطعام والدفء.

هيئة إيطالية قررت أن تأتي إلى «سراييفو»، تنسق مع السلطات، وتستأجر حافلات تؤمن لها الوقود المحرومة منه المدينة بأسعار خيالية، ثم تمر على بعض الشوارع والأحياء، تجمع الأطفال بالتنسيق مع أهاليهم، ثم تدفع بهم إلى أكثر البنايات أمانًا في «سراييفو»، ثم يبدأ الاحتفال: لعب وهدايا وموسيقى وغناء، وفريق من المهرجين المتطوعين يأتي من «إيطاليا» حتى يلامس الفرح قلوبكم المحرومة، كنتم في ذهول، لقد نسيتم تمامًا عالم البهجة واعتقدتم أن الكبار سلبوكم إياه إلى الأبد.

عزيزتي «فاطيمة»..

تلك الجريمة وقعت في بدايات الحرب وشدت انتباهي، لكن لم تسمح لي وقائع العمل اليومية في تغطية الحرب أن أتتبعها، غير أنها ما زالت ماثلة أمام عينيَّ حتى الآن.

لقد كان الآباء والأمهات في وضع لا يوصف، هل يبقون على أطفالهم بصحبتهم والحرب دائرة واحتمالات إصابتهم أو قتلهم واردة في كل لحظة؟ أم يرضخون لهذا العرض ويسمحون بخروج أولادهم إلى مؤسسات وعائلات أوروبية وأمريكية ريثما تنتهي الحرب بعد شهر أو شهرين كما يشاع؟

في الثامن عشر من شهر مايو عام اثنين وتسعين، خرجت أول حافلة من «سراييفو» المحاصرة وبها مجموعة من الأطفال، أكثرهم من أبناء الملاجئ الذين لا أهل لهم، قصف الصرب الحافلة الأولى فجُرح أطفال وقُتل آخرون، ثم مرت القافلة، وبعدها مرت قوافل، كما مرت الأيام والشهور بل والسنون، وانقطع الاتصال مع هؤلاء الذين قاموا بتنظيم الأمر، وبالتالي مع هؤلاء الأطفال.

ثم تخرج جرائد بوسنيّة وكرواتية تتحدث عن وقوع عملية واسعة لبيع أطفال «البوسنة» في أوروبا، وأذكر أن جريدة «جلوبوس» الكرواتية قالت في طبعتها الصادرة يوم السادس من سبتمبر عام ستة وتسعين إن هؤلاء الأطفال تم استغلال بعضهم في أفلام إباحية بعد أن وقعوا في أيدي عصابات تعمل في الدعارة.

وكانت الجريدة ذاتها قد ذكرت في عددها الصادر يوم الثاني والعشرين من شهر يوليو عام أربعة وتسعين أن هؤلاء الأطفال قد رحلوا إلى روسيا وإيطاليا وألمانيا والولايات المتحدة والمكسيك. شخصيًا أشعر أن هناك مبالغة في الرقم المقدر بخمسين ألف طفل من «البوسنة» ممن رحلوا إلى الخارج نصفهم على الأقل من «سراييفو»، لكن المعلومات تشير وتؤكد إلى خروج حوالي مئة طفل دفعة واحدة من ملجأ واحد للأطفال في العاصمة البوسنيّة.

جريدة «آرينا» البوسنيّة تحدثت عن عدد محدود لأطفال خرجوا للعلاج ولم يعودوا، وجرائد أخرى انتبهت للأمر مع انتهاء الحرب وطالبت بالعمل على عودتهم، وذكرت أن الصلة قد قُطعت بينهم وبين الوطن والدين وأن كنائس إيطالية احتضنتهم.

أشهر المؤسسات التي اتّهمت بالتورط في هذه الجريمة هي ما تدعى بسفارة الأطفال، وهي مؤسسة أسستها مجموعة من الفنانين

والمثقفين والأطباء بهدف حماية الأطفال في دول «يوغسلافيا» السابقة، التقيتُ حينها بمديرها «دوشكو تومِيتش» الذي أكد على قيام مؤسسته بالترحيل لكنه نفى بيع الأطفال، وادعى أنهم عادوا إلى الوطن، واستشهد بأن أحدًا من أولياء الأمور لم يأتِ إلى السفارة ليطالب بابنه أو ابنته، لكنه لم يأتِ بسيرة أطفال الملاجئ الذين لا أهل لهم، وفي الوقت ذاته أكد وقوع هذه الجريمة واتهم مؤسسات أخرى بالضلوع فيها، وقد نجح في الخروج سالمًا من القضايا التي اتُّهم فيها بهذا الشأن، أين الحقيقة إذن؟ لا أحد يعلم.

مهما كانت التفاصيل والوقائع، فإن هناك أعدادًا منكم يا «فاطيمة» أخرجت من «سراييفو» ومن «البوسنة» كلها ولم تعد، وهي إما بيعت أو استُغِلَّت بصورة ما، أو فصلت عن وطنها ودينها على حد قول بعض الصحف البوسنيّة والكرواتية.

«فاطيمة» العزيزة..

كبرتِ، لكن إياك أن تفعلي ـ كما الكبار ـ فعلًا يدفع ثمنه الصغار.

التاسعة عشرة

«هيراك» يرضاه لأمه

قيل لي إن صيدًا ثمينًا قد وقع بأيديهم، وإنه رهن السجن المركزي ويجدر بي أن أحاول لقاءه، توجهت على الفور إلى هناك، بذل صديقي المترجم الدكتور «وسيم» جهدًا لإقناع الشرطي الواقف على الباب أن يسمح لنا بلقاء المأمور، الوضع شائك والأعصاب مستنفرة والحرب دائرة، بعد حوارات واتصالات قادنا شرطي آخر إلى حيث مأمور السجن المركزي في «سرايبفو»، استقبلنا الرجل متأففًا وسألنا وهو يلملم حاجاته ويضعها في حقيبة يد استعدادًا للانصراف: «ماذا تريدون؟».

حدثناه عن مجرم الحرب الصربي المعتقل لديه وإمكانية السماح لنا بلقائه، أجابنا بأن هذا يستلزم تصريحًا خاصًا وأمورًا معقدة قد تأخذ وقتًا، بدأت أفقد أعصابي، رفيقي «وسيم» كما هو محيط بلغة البوسنيين محيط أيضًا بطبيعتهم ويعرف كيف ينفذ إلى نفوسهم، فبدأ يستدرج الرجل في حديث طويل لا علاقة له بالأمر، كان ذلك ربما في صيف عام اثنين وتسعين، كان الرجل يتجاوب مع «وسيم» دون أن يبدي أي تنازلات للسماح لنا بلقاء أسيره، فيما أنا وزميلي المصور الليبي نتابع المشهد بقلق.

تطور الحديث ليمتد إلى الوضع على جبهات القتال، شكا

المأمور وهو يتوجه إلى باب غرفته للرحيل من أنه لا يستطيع متابعة الأخبار لأن مذياعه «الترانزستور» الصغير قد نفدت بطارياته، فسألني «وسيم»: «ألديك بطاريات؟»، أجبته بالإيجاب، فقال للمأمور على الفور بوسعنا أن نهديك اثنتين، تهللت ملامح الرجل فجأة، وشكرنا وهو غير مصدق، ثم نادى الجندي المسؤول وأمره أن يسهل لنا مهمتنا في لقاء مجرم الحرب واعتذر بأن عليه الانصراف الآن، تهللت أيضًا وجوهنا بالخبر السعيد، غير مصدقين أن ثمن هذا اللقاء الصحفي الثمين هو بطاريتان، وسرنا وراء الجندي إلى حيث أسيرهم وأنا أمنّي نفسي بلقاء مثير.

للحياة في ظل الحرب لغتها وقوانينها الخاصة بها وهي متغيرة، في بداية أي حرب ينتاب الناس خوف شديد ويحسبون حسابهم ألف مرة في كل خطوة، ثم ما يلبثون أن يضيقوا بالأمر، ويبدأوا في التصرف وكأن الحرب ليست قائمة، أو كأنها أمر طبيعي يومي.

عند نقطة ما على طريق جبلي، أوقفتنا القوات البوسنية ورفضت السماح لنا بالمرور لخطورة الوضع وطلبت منا الانتظار حتى يحل الظلام، كنا متعبين ونودّ الوصول إلى غايتنا في أسرع وقت، انتهت مفاوضاتنا معهم بالموافقة على مرورنا، شريطة أن نقطع الطريق بأقصى سرعة، ركبنا السيارة جميعًا، وبدأ السائق يشق طريقه وسط كل الاحتمالات التي حذرنا منها قائد الوحدة البوسنية، ساد الصمت السيارة ومن فيها، كلنا مشغولٌ بالدعاء والابتهال إلى الله، وفي منتصف الطريق انفجرنا كلنا فجأة ضحكًا؛ إذ وجدنا مقاتلًا يمشي عكس اتجاهنا وقد وضع على كتفه الجاكيت الخاص به ويسير وكأنه يتنزه في مكان ما، لقد سئم الحذر.

تمامًا كما جرى معي في منطقة أخرى على جبهات القتال حين تساقطت علينا فجأة قنابل الهاون فأمرنا دليلنا أن ننزل مباشرة إلى حفرة بها جنديان بوسنيان ومدفع هاون، جندي يلقم المدفع والآخر يطلقه، إذن أنا في موقع يقصف ويُقصف عليه، يا لسعادتي! ويا ليت المترجم لم يخبرني ما أخبره به الجنديان أن القذائف ليست صالحة تمامًا للاستخدام، وأنهما يقومان بتهيئتها تهيئة خاصة حتى تكون كذلك، وأن ذلك يتضمن خطورة أن تنفجر في أيديهم.

كانت وجوه المقاتلين عابسة، ومِعَدهم لم تعرف طعامًا منذ أربع وعشرين ساعة، كنت خائفًا، وكان رفيقي كذلك، وكان الجنديان يواليان إطلاق القذائف، وقذائف الجهة الأخرى تتوالى على منطقتنا، وأمرنا أن نُخفض رؤوسنا دائمًا حتى لا تصيبنا شظية، أما القذيفة فلا مهرب منها، فنحن فعلًا في حفرة وليست خندقًا، ووسط هذه الأجواء أرى جنديًا قادمًا يسير غير مكترث بما يجري، يقف ويكلم من في الحفرة لينقل إليهما التعليمات، وهما يجذبانه ليهبط إليهما اتقاء من القذائف وهو يشيح عنهما ولا يبالي، قلت في نفسي لو كان الساقط مطرًا لتجنبه.

هل هي شجاعة؟ أم إن الحياة والموت قد تساويا لديه؟ لا أعرف سوى أن الحرب تغير المفاهيم، بعض الناس يتشبثون أكثر بالحياة، لقد أدركوا قيمتها، والبعض الآخر على العكس يتساوى لديه الموت بالحياة، ربما من هول ما رأى ومن فقَد من قريب وصديق.

كل المفاهيم تتغير إذن، وتصبح هناك لغة أخرى، أنت لا تأبه لمعجون الأسنان وأنت تستخدمه كل صباح، لكنك مستعد لأن

تدفع أي ثمن عندما تحرم منه لعدة أسابيع أو شهور بعد أن تندلع الحرب وتتوقف الحياة وتغلق المحلات، فتبيع حاجاتك الخاصة لقاء أن تشتري فنجانًا من القهوة، أو دواء للصداع، أو علبة سجائر، أو بعض مواد المكياج.

كنت أجد نفسي محتارًا أمام الذين يبيعون أشياءهم الثمينة بثمن زهيد، هل أشتريها وأنا أعرف أن ثمنها الحقيقي أعلى من ذلك بكثير، أم أمتنع وأنا أعرف أن أصحابها في حاجة إلى المال؟ في الحقيقة كنت دومًا أميل إلى الخيار الأخير.

عند خط فاصل، بين مقاتلين بوسنيين من جهة، ومقاتلين صرب من جهة أخرى، صاح مقاتل مسلم على شخص يقاتله في الجهة الأخرى: يا فلان لا تطلق النار، سيخرج ابنك الصغير ليعبر إليك، فالمقاتل الصربي على الجهة الأخرى تسكن عائلته هنا في الجانب المسلم، تتوقف الاشتباكات، يخرج الصغير مرتعدًا ليمر إلى الجهة الأخرى وهو يحمل ما يستطيع وما أعدته أمه لزوجها على الجهة الأخرى، ثم تعود الاشتباكات لتستمر. في المساء يتكرر الأمر، لكن من الجهة الصربية حيث يصيح والد الطفل على الذين يقاتلونه من الناحية الأخرى لا تطلقوا النار سيعبر ابني عائدًا إليكم، تتوقف الاشتباكات، يعبر الطفل وقد حمل معه هدية ثمينة من الجانب الصربي: سجائر في زمن الحصار، يستقبلونه ويمررونه إلى أمه ويحصلون على السجائر ثم تستمر الاشتباكات.

حتى الألم طالته التجارة، كان الصحفيون يبحثون عن قصص الاغتصاب لما لها من حساسية، إنها موضوعات مثيرة للقارئ، ولم يكن بوسع كل الضحايا بالطبع الحديث، فكانت بعض النساء اللائي لم يتعرضن لهذه الجريمة يبدين استعدادهن للحديث

للصحفيين مقابل بعض المال، فيتحدثن بما سمعن من الضحايا الأخريات، والصحفيون سعداء أنهم حصلوا على ما يريدون.

على كل حال، وصلنا إلى زنزانة الأسير الصربي أخيرًا، ملامح باهتة لا تدل على أي شيء، أدخلوه إلينا في غرفة مجاورة، وقف الشرطي عند بابها، حبسنا أنفاسنا، أعد المصور أجهزته، استعد المترجم لعمله، وأنا أسأل نفسي ماذا بوسعي أن أسأل متهمًا باغتصاب وقتل ستٍ من الفتيات والسيدات؟

ببرود شديد قال مجرم الحرب «بوريسلاف هيراك»: «لن أتحدث ما لم أحصل على سيجارة»، ترددنا، تطوع المترجم بإهدائه واحدة، طلب أخرى، أعطاه إياها، بدأت أسأله ويجيب، بدأ المصور في الانفعال مع كل ترجمة يقوم بها زميلنا، ثم يطلب من زميلنا المترجم أن يقول للجاني «كيف ترتكب مثل هذه الجرائم في حق مستضعفات كنّ جارات لك؟»، والجاني يرد ببرود أن هذا ما حدث، وأنا أحاول كبت غضبي من الإثنين: المجرم الذي يتحدث بهذه اللامبالاة، والمصور الذي يخرج عن سير العمل وقواعده ليدخل في جدال مع الجاني.

يتوقف المصور عن الجدال، أستمر أنا في الأسئلة، يواصل المترجم عمله، يحتفظ الجاني ببرود أعصابه الشديد ثم ينفجر المصور فجأة، ويطلب بلهجة حاسمة من المترجم أن يسأل الجاني «هل يرضى أن تتعرض أخته أو أمه لمثل هذه الجريمة؟»، يتردد المترجم، ينفعل المصور في وجهه راجيًا إياه أن ينقل سؤاله، أترضاه لأمك؟ ثم يسود المكان دهشة من كل أطرافه: أنا من المشهد الذي خرج عن إطار التحكم فيه، المترجم الذي لم يعهد مثل ذلك، المصور من إجابات الجاني، والجاني مندهش أيضًا منا، فقد أجابنا مرات عديدة، نعم أرضاه لأمي!

العشرون

«آدم».. ومعركة الشهداء

(١)

ما هو برأيك أسوأ مقعد في الحافلة؟

أنا أخبرك، ذاك الذي يتوسط المقعد الأخير في مواجهة الممر، راكبان على يمينك متحابان، وراكبان على يسارك صديقان، فإذا ما مرت الساعات، والحافلة بحالتها المتواضعة تقطع طرقًا جبلية، فتصعد وتهبط، ثم تصعد وتهبط، وجيرانك على يمينك ويسارك يجدون ما يسندون عليه رؤوسهم، جدار الحافلة أو كتف الرفيق، وأنت بعد يوم عمل مضنٍ تشتهي النوم ولو لدقائق، والحافلة كما الثعبان تتلوى يمينًا وشمالًا وليس عليك إلا أن تكون كلاعب السيرك الذي يحاول حفظ توازنه، فتمسك بمسند الكرسي الذي أمامك حتى لا تميل على جيرانك يمنة أو يسرة فيتأففون، وتبقى على هذه الحال تسع ساعات حتى تصل الحافلة مبتغاها في السادسة صباحًا بالتمام والكمال.

نعم، أتذكر هذه الليلة الصعبة من نوفمبر عام ألف وتسعمئة وتسعين، وحينها اكتشفت لماذا الحرمان من النوم هو إحدى وسائل التعذيب في السجون العربية والإسرائيلية، وإذا كنت الآن أدّعي

التبرم فإنني أعترف أنني كنت حينها سعيدًا جدًّا برحلتي وبمغامرتي، أما الشيخ «محمد علي هاجيتش» فقد أصرَّ أن يشتري لي بطاقة السفر ويودعني هناك في «سرايیفو»، ليستقبلني هنا في «بريشتينا» الشيخ «شمس الدين إيوازي»، أستاذ اللغة العربية بجامعة المدينة، كنت قلقًا ألا أجده فلا أعرف إلى أين أذهب، وهيئتي ستدل جنود الاحتلال على أنني غريب، لكنه ها هو يقف في انتظاري في محطة الحافلات الرئيسية، وللتو بدأت أدرك فرق التوقيت بين ابتسامة «سرايیفو» وعبوس «بريشتينا».

مسحة من الحزن والغضب تخيم على الناس والأشياء والمكان، و«شمس الدين» لا يريد أن يضيع وقتًا، فيخبرني بعد السلامات والتحيات أن الصرب وضعوا العام الفائت دستورًا جديدًا انتزعوا من خلاله حق الألبان في حكم مقاطعتهم «كوسوفو» وفق نظام الحكم الذاتي الذي تتمتع به منذ عام سبعة وأربعين، وذلك ضمن «الاتحاد اليوغسلافي».

لا تحتاج أكثر من دقائق معدودة في العاصمة «بريشتينا» في ذلك الحين حتى تدرك أنك في بلد محتل، المشهد أبدًا ليس مشهد صراع بين حكومة ومعارضة، الجنود المدججون بالسلاح والآليات منتشرون في كل مكان، يعاملون الناس بخشونة شديدة، المدارس معطلة، الجامعة معطلة، المصانع معطلة، دور الصحف معطلة، لقد عاقبتهم «صربيا» جزاء احتجاجهم السلمي بإيقاف عجلة الحياة.

لكن هذا الشعب لديه إصرار عجيب على الصمود وعلى المقاومة، تعرف مثلًا ماذا فعلوا جراء إغلاق السلطات الصربية لمدارسهم؟ قرروا تدريس أولادهم في منازلهم بصورة جماعية، تطوع بعض أصحاب المنازل لتحويل غرف منازلهم إلى مدرسة،

وتطوع المدرسون والمدرسات للتدريس مجانًا، وقامت منظومة كاملة للتعليم التطوعي.

تسعون بالمئة أو يزيد من هذا الشعب هم من الألبان الذين معظمهم مسلمون، والباقي هم من الصرب سواء الذين وُلدوا هنا أو الذين جلبتهم السلطات كمستوطنين لتعديل كفة الميزان، لكن هيهات، فالألبان مثل العرب يتكاثرون سريعًا، خصوصًا وأنهم شعب يكاد لا يعمل ويعتمد على أبنائه الذين يعملون في الخارج ويرسلون إلى أهاليهم مدخراتهم وقوتهم اليومي.

في ذلك الحين كنت أعمل مع جريدة اسمها «المسلمون» تصدر من «السعودية»، وكان اسمها في حد ذاته كفيلًا بتعقيد أموري لا تسهيلها إذا استوقفنا أحد، كان الشيخ «شمس الدين» كثير الالتفات ليرى إن كان هناك من يتبعنا. قال لي، وكنت حينها أعيش في ألمانيا: «إذا أوقفنا أحد تحدث معه بالإنجليزية وأخبره أنك صحافي قادم من بلدك ألمانيا»، استعددتُ لذلك على رغم أنه ليس هناك من هيئتي ما يدل على ألمانيتي.

في بناية «أكاديمية العلوم الألبانية» التي يعتبرها الألبان حصن هويتهم، التقيت بأساتذة وأكاديميين، أذكر منهم «صدري فينو»، و«رجب كوسيا»، و«شوقية إسلامي»، الكل في حالة غضب، كحال الناس خارج أسوار الأكاديمية، حماس شديد لأن يحكوا لك عن قضيتهم، وعن مظالمهم، هم يشعرون كما الأبكم الذي يتعرض لظلم ولا يتمكن من التعبير عنه، يريد أن يصرخ ولا يستطيع، قلة من الصحفيين الأجانب توليهم اهتمامًا، أنا بالنسبة إليهم أجمع شيئًا من الحسنيين، صحافي أجنبي وعربي مسلم، والسؤال القاسي دومًا: «هل يعرف شعبك عنا شيئًا؟».

حين انتصف النهار دعوني للطعام فاعتذرت، كنت لا أريد أن أضيع ولو دقيقة في أمور ثانوية، فلا بدَّ من المغادرة مساء، التهمتُ من فناجين القهوة طيلة النهار ما لا أذكر عدده، والحق أقول إن ضغط العمل والشعور بالتوتر والخطر، يفتحان كل مسام العمل لدى الصحفي، لكن كنت أخشى أن تفتح أكثر مما يجب.

من مكان لآخر أدور زائرًا ومستقصيًا مع الشيخ «شمس الدين»، هو مثل شعبه، كل يريد أن يساعد دون مقابل، «فقط أوصلوا صوتنا إلى العالم، نحن هنا محتلون محاصرون مهانون في بلادنا»، لم أكن قد قرأت بعد عن تلك العلاقة المميزة بين الصهاينة والصرب، لكن الشعور الذي تملكني وأنا في شوارع «بريشتينا» أن هؤلاء الجنود الصرب الغلاظ إنما هم صهاينة يقمعون هؤلاء الألبان الفلسطينيين.

في بناية صغيرة، وفي شقة متواضعة، وأمام مكتب صغير كان يجلس رجل لن تمضي سنوات قليلة حتى يتصدر وسائل الإعلام العالمية. رحَّب بي بحرارة، وظل في مرات لاحقة يناديني بالصحفي القادم من «ألمانيا»، سألته: «لمَ وأنت الأديب ورئيس اتحاد الكتاب هنا تهجر الكتابة إلى السياسة؟»، أجابني «إبراهيم روجوفا»، زعيم حزب «الاتحاد الديمقراطي لكوسوفو»: «بعد سنوات طويلة من ممارسة الشعر والأدب أجدني مدفوعًا لممارسة السياسة، وأقول مدفوعًا فنحن الأدباء لنا مهام أخرى، لكن القهر كفيل باستبدال الوظائف والمهام والأولويات».

الجالس أمام هذا المكتب المتواضع في هذه الشقة الفقيرة والمسمى «غاندي البلقان» لنضاله السلمي سيصبح رئيس «كوسوفو» بعد استقلالها، وسيحتار الناس كثيرًا في أمر دينه، حتى إنه عندما

توفي ترك وصية ألا يدفن وفق الشعائر الإسلامية التي رسميًا يدين بها، ولا وفق أي شعائر أخرى باعتبار أنه رئيس للجميع، صحيح أن الدين هنا كامن في نفوس الناس وأصيل، لكنه ربما حبيس لا تراه، وعلى رغم ذلك فإن الصرب يبذلون جهدهم لإقناع أوروبا بأنهم بحربهم ضد الألبان إنما يحمون أوروبا من الأصولية الإسلامية.

بعد أن أنهينا لقاءنا قال لي «شمس الدين» إنه ليس علينا سوى زيارة «ذانون شيليه»، سكرتير منظمة حقوق الإنسان الكوسوفية، توجهنا إلى منزله، تمنى «شمس» ألا تكتشف السلطات الأمر، طرقنا الباب واستقبلنا الرجل ومعاونوه بترحاب، ثم أتى بالوليمة: صور لضحايا التعذيب الذي يمارسه الصرب في حق الألبان لقمع أي محاولة سلمية للتعبير عن احتجاجهم، والكثير من المعلومات ووثائق الإدانة.

تكلم الرجل بحماس شديد، صور الضحايا المعذبين تقشعر لها الأبدان، وفجأة ونحن غارقون في حديثنا إذ نسمع صوت سيارات الشرطة وصفاراتها تدوي، ارتبك الحضور، قالوا: «لقد وصلوا»، وانتظرنا اقتحام المكان، انتظرنا قليلًا ثم فتحنا النافذة، فإذا سيارات الشرطة قد توقفت على بعد منا لمهمة أخرى.

تابعت الاستماع لقصص الضحايا ومشاهدة صورهم، في الحقيقة كانت شنيعة ومرعبة، خفت، «ما موعد الحافلة المغادرة يا شيخ «شمس الدين»؟»، أجابني: «ما زال أمامنا بعض الوقت»، قلت له: «أليس من الأفضل أن نذهب مبكرين؟»، فهم وابتسم.

أنهينا مهمتنا، حملت ما أستطيع حمله من الصور، يا ويلي إذا أوقفني الجنود الصرب وفتشوني واكتشفوا ما معي! توجهنا إلى

محطة الحافلات التي استقبلتني صباحًا، بحثنا عن الحافلة المتجهة إلى العاصمة الصربية «بلغراد»، حيث أستقل منها طائرتي عائدًا إلى أسرتي في «ألمانيا»، ودّعني الشيخ «شمس» عند باب الحافلة، كنت تقريبًا الأجنبي الوحيد بين هؤلاء الصرب العائدين أو المتجهين إلى عاصمتهم، حقيبة الملابس وضعتها أعلى مقعدي، وحقيبتي الأخرى التي تحوي كنزي الثمين من الصور ظللت ممسكًا بها طوال الرحلة.

كان لدي شعور وكأن كل الركاب يشكون في أنني أحمل دلائل ضدهم، بعد ثلاث ساعات تقريبًا كان الجوع قد أنهكني، فضلًا عن حاجتي للتوجه إلى دورة المياه، توقف السائق عند الاستراحة، ظللت مترددًا، هل أنزل فأتناول شيئًا من الطعام والشراب وأقضي حاجتي؟ أم قد تلفت هيئتي أنظار بعضهم فيبدأون في سؤالي وربما يطلبون أحدًا من الشرطة ثم نبدأ «سين وجيم»، وقد يتطور الأمر إلى التفتيش فتتعقد أموري؟

آثرت البقاء في مكاني حتى أنهى الركاب مهمتهم واستقلوا الحافلة وأكملنا المسيرة إلى أن وصلت «بلغراد»، أسرعت إلى غرفتي في الفندق، في دورة مياهها خبأتُ صوري بها في مكان ما، ونزلت إلى الأسفل لأبحث عن أقرب مطعم.

لكن ما شأن ذلك كله بآدم؟ أجيبك، هذه كانت الخطوة الأولى في الطريق، لاحقًا سأحكي لك كيف وصلت إلى «آدم».

(٢)

لن أنسى هذا المشهد، حفنة من الرجال، ثيابهم مهلهلة، وأجسادهم هزيلة، ووجوههم متعبة، يحملون أسلحة بدائية، فيما

العدو على بعد أمتار، جيش عظيم ومؤن وعتاد وأسلحة فتاكة، خرج الزعيم على رجاله الفقراء، وصاح فيهم: «لقد جئتم تقاتلون كرجال أحرار، وماذا عساكم أن تفعلوا دون حريتكم؟»، ثم واصل يخاطب من يشكك في جدوى المقاومة: «نعم اهربوا وستحيون لسنوات، وستموتون على أسرّتكم، وحينها سوف تتمنون لو تعودون ولو للحظة واحدة، فقط للحظة واحدة، إلى يومنا هذا لتصرخوا في عدوكم: قد تسلبنا أرواحنا لكن لن تسلبنا حريتنا».

كانت المعادلة غير متوازنة تمامًا بين الطرفين، لكن «ويليام والاس» رأى أن الحلول السلمية لا جدوى لها، وأن العدو لا يعرف غير لغة القوة، فقرر المواجهة مهما كان الثمن، وشاهدنا نحن ذلك في الفيلم الشهير «القلب الشجاع»، أما صاحبنا الذي أنا في الطريق إليه فإنه ليس من «إسكتلندا»، لكنه يئس هو الآخر من خيار الحلول السلمية التي طرحها زعيمه «إبراهيم روجوفا».

أنا شخصيًا لم أيأس من انتصارهم؛ ولذا عدت مرة أخرى إلى «بريشتينا»، هذا الشعب يدهشك، لقد قرر رغمًا عن أنف «صربيا» ـ التي تحتله ـ تنظيم انتخابات برلمانية كخطوة نحو إعلان بلاده دولة مستقلة، هكذا من طرف واحد. كان الصحفيون الأجانب يتوافدون إلى «كوسوفو»، وأغلبهم من مناصري القضية الألبانية، كان عرسًا على أسنَّة الرماح، حالة من التحدي الجماعي غير مسبوقة، تدهشني هذه الروح، تطلق في نفسي طاقة جبارة، أرثي لحال هؤلاء الذين يستكينون أمام طغيان عدوهم متحججين بقوته.

تنفست الصعداء ما أن عبرت الحدود قادمًا من «مقدونيا»، كان ذلك يوم الثالث والعشرين من مايو عام اثنين وتسعين، كنت

أخشى أن يعرقل الجنود الصرب دخولي فتفوتني المناسبة العظيمة المقرر لها اليوم التالي، ثم نُقلت إلى حيث اجتمع الصحفيون الأجانب بزعماء الألبان، أحاديث ومعلومات ونقاشات. فلما حان المساء، دعانا الألبان ـ على رغم أحوالهم الاقتصادية الصعبة نتيجة الحصار الصربي المفروض عليهم ـ إلى العشاء على أنغام الموسيقى الألبانية، وخوفًا علينا من مضايقات السلطات الصربية، قرروا استضافتنا في منازلهم، وفي هذه الليلة لا أظن أن «كوسوفو» نامت، أنا نمت.

لم يكن من صحافيين عرب تقريبًا سواي أنا و«جميل روفائيل»، الذي قضى ليلته في الفندق الرئيسي «جراند بريشتينا»، باعتبار أنه مراسل لجريدة «الحياة» في العاصمة الصربية «بلغراد» وقد أتى بتصريح رسمي من السلطات الصربية وموافقتها.

في الصباح الباكر بدأ الناس يخرجون للتصويت، وكأن ليس بوسعهم الانتظار، على رغم أن الاحتمالات كلها كانت مفتوحة على مصراعيها، ظللت أتنقل من مكان لمكان لأرصد ما يجري، وما قد يقع، كل الناس تساعدك، بالأحرى تساعد أي صحافي أجنبي.

في «كوسوفو» تشعر أن هناك عائلة واحدة تسكن هذه البلاد، مستوى من التضامن الاجتماعي غير مسبوق، وكما لم تسجل شاشات السينما الغربية بطولات صاحبنا الألباني الذي سأحكي لكم عنه مثلما سجلت عن «ويليام والاس»، لم تسجل أيضًا هذا النضال الجماعي الرائع، الذي شهد أوجه عند الظهر بوصول «إبراهيم روجوفا» إلى المركز الانتخابي للإدلاء بصوته وسط هتافات وحشود وروح حماسية عالية، ليعلن في المساء عن فوزه بمنصب رئيس

جمهورية «كوسوفو»، وعن تشكيل البرلمان، فيما «صربيا» تسخر من الأمر برمته.

أغمض عينيَّ ثم أفتحهما فأجدني في «كوسوفو» صيف عام تسعة وتسعين، يا إلهي! هذا بلد آخر، هل تعرف أن الفرح يغير قسمات الناس وهيئة الوطن؟ لقد أُجبر الصرب على الانسحاب ودخلت القوات الدولية. كنت أعمل على حلقة لبرنامج «نقطة ساخنة»، وبالتوازي بدأت أبحث عن أفكار لبرنامج «يحكى أن»، الحكايات هنا متناثرة على قارعة الطريق، قصص النضال الملحمي للشعب، قصص التعذيب والاعتقالات وضحاياها، المذابح الجماعية، الحرب، والأهم ـ على الأقل بالنسبة إليّ ـ قصص الشهداء. والشهداء نوعان: الأول هم ضحايا المذابح، والآخر هم المقاتلون، نعم هؤلاء الذين اختاروا الذهاب إلى الحرب طواعية، وهم يعرفون مصيرهم المحتمل، نحن نطلق عليهم شهداء لكن الأمر بالطبع بيد الله هو أعلم بحالهم وحالنا.

أحب مقابر المقاتلين الشهداء المتناثرة على الطرقات، كأنها صكوك الشرف والكرامة، أحب مقابر الشهداء، أزورها وأحدث ساكنيها وكأنهم ما زالوا على الأرض أحياء، لقد اختاروا ألا يموتوا على أسرّتهم حتى لا يندموا على لحظة، فقط لحظة واحدة، يتمنون فيها العودة ليذهبوا إلى المعركة ويصرخوا في وجه عدوهم: «قد تسلبنا أرواحنا لكن لن تسلبنا حريتنا».

لكن إذا قررت أن تكون قصتي عن الشهداء، فمن أختار بينهم؟ طُرحت عليّ أسماء الأبطال، وحكايات استشهادهم، كيف تفاضل؟ الشهداء كلهم سواسية، اخترت أن أستشير قلبي، كلما اختلط أمر عليّ أن أفوضه في اتخاذ القرار، طلبت أن أذهب إلى

حيث الشهيد الأول، أعاين المكان وأرى الموقف بعينيَّ ثم أتخذ قراري بالعمل على هذه الحكاية أو الانتقال إلى أخرى.

في وادي «درينيتسا» نزلت من سيارتي بعيدًا حيث لا طريق موصل إلى بيت الشهيد، فلما اقتربت شاهدت بيتًا محاطًا بمثل أعمدة البناء من كل جانب تحمل ممرات يسير عليها الزائرون ليعاينوا ويشاهدوا مكان الحدث، حيث استشهد الشهيد، وفي الحال قررت أن هنا قصتي.

أنهيت زيارتي لمعاينة المكان، وبعد عدة أيام عدت أنا وكامل فريق العمل إلى هذه القرية الصغيرة، بلونها الأخضر الطاغي، وبحسنها الساحر. استضافنا بعض أقرباء «آدم» في بيت أحدهم، ما زالت آثار الحرب عالقة في كل مكان، المياه مقطوعة، لكن يتم تدبيرها في براميل، والكهرباء مُدَّت إلينا من مكان قريب.

صدقًا كانت أيام التصوير في هذا البيت المتواضع في هذا المكان الريفي من أفضل الأوقات التي عملت فيها تصويرًا عن أي مكان آخر، حيث كنا نقضي أيامنا في بيت بسيط على بعد أمتار من مقبرة يسكنها اثنان وخمسون شهيدًا، ألم أخبرك أنني أحب مقابر الشهداء؟

لحية كثَّة وجسم ضخم وقلب أسد هو «آدم يشاري»، هزتني قصته وتفاعلت معها تمامًا، لقد غالبتني الدموع مرارًا وأن أكتب كلمات هذا الفيلم، والذي أدهشني أن سنواتٍ طوالًا تمر ويقابلني أناس يشيدون بهذه القصة، يا إلهي كيف يذكرونها بعد انقضاء كل هذا الوقت؟

لم نكن بحاجة إلى تهيئة الجيران والأقارب للحديث، كانوا ينفجرون أمامنا كلامًا وعواطف ومشاعر جياشة، عندما بدأت

المونتاج كنت في حيرة من أمري، أيُّ كلامهم أحذف وكله حسن؟ إلا أن المدة المقررة للفيلم لا تتسع.

قالوا لي إن شبابًا في «كوسوفو» رأوا أن المسار السلمي لن يوصل بلادهم إلى الحرية فقرروا المقاومة، «آدم» كان واحدًا منهم، وكان معروفًا لدى السلطات الصربية، التي اتخذت قرارها في أحد الأيام باعتقاله، وبالفعل بدأت القوة الصربية تشق طريقها في اتجاه بيته، أدرك الناس ذلك على رغم أن القوة كانت تسير على الطريق العام الذي يربط المدن والبلدات الكوسوفية كلها، فأخذوا يتصلون به لتحذيره، لكنه قرر المواجهة وهو يدرك أنه لن يحقق فوزًا أمام آليات ما كان يعتقد أنه رابع جيش في أوروبا.

فيلمي هذا احتفى به الألبان، طبعوه على أقراص مدمجة وكانوا يبيعونه في الأسواق مترجمًا، وقرروا في ذكرى استقلال «كوسوفو» أن يقيموا احتفالًا خاصًا به، ودعوني ودعوا نخبة القوم لحضور عرض الفيلم في الرابع من مارس عام ألفين وثلاثة، وأرسلت القوات الدولية التي تُسيِّر الأمور هناك اثنين من رجالها بلباسهما العسكري ليشاهدا العرض مخافة أن يكون مخرجه العربي من الأصوليين، أو يكون من «دعاة الكراهية». كما تقرر عرضه في التلفزيون الرسمي مساء، لكن أُوقف العرض التلفزيوني بأوامر مباشرة في آخر لحظة، اندهشت يومها وحزنت.

أما صاحبنا «آدم» فقد استعد للقاء، جمع أهله وأصدقاءه، وعند وصول القوات الصربية رفض بالطبع الاستسلام، وبدأت المعركة بينهم وبين القوات الصربية، سقط شهيدٌ فاستمروا، سقط آخر فاستمروا، وهكذا حتى سقط منهم ما يزيد على خمسين شهيدًا، وهذا هو الأمر المدهش، لم يتردد أحد ولم يهرب أحد

عندما وجدوا كثافة النيران الصربية، وسقوط إخوانهم، وأن لا أمل في النجاة، لقد استمروا جميعًا حتى آخر رجل يحاربون، «آدم» كان هو الرجل الأخير.

«آدم» وزوجته وأولاده وأشقاؤه استشهدوا جميعًا واحدًا تلو الآخر، لم يبق منهم إلا طفل، وفتاة اختبأت في صندوق.

يومها فاز الصرب في المعركة، لكن «آدم» انتصر حين أجج استشهاده روح القتال في أنحاء «كوسوفو» فدارت المعركة الكبرى وتدخلت القوات الدولية وأُجبر الصرب على الانسحاب، ولاحقًا أُعلن استقلال «كوسوفو»، أرأيت؟ الشهداء دومًا ينتصرون ولو بعد حين.

الحادية والعشرون

طرائف المترجمين في زمن المتحاربين

كان الأمر محيرًا إلى حد كبير، كلما ذهبت إلى مكان ابتسم الحضور أو ضحكوا، نحن في حرب والظروف سيئة إلى أقصى حد، فما الذي يدخل السعادة فجأة على قلوب هؤلاء الناس؟ إنهم يتبعون ابتساماتهم بتحية إلى زميلي المترجم ثم مصافحته، سألت «مصطفى» ضاحكًا وكنت حديث التعرف إليه: «كيف لك بهذه الشعبية كلها وأنت الأجنبي بينهم؟»، ابتسم بدوره وقال إنه يعمل منذ عام تسعة وثمانين ممثلًا كوميديًا في تلفزيون «سراييفو».

«مصطفى» مثله مثل عموم السودانيين، طيب ومخلص في عمله، لكنه يخشى الحرب كثيرًا، وعندما اندلعت وجدت الهيئات الإغاثية العربية التي تدفقت على «البوسنة» آنذاك أنها في حاجة إلى موظفين يجيدون العربية وكذلك لغة البلاد، ورأت في الطلبة الذين كانوا يدرسون هناك ما تبغي إليه، «مصطفى» أنهى دراسته في الهندسة المعمارية، ودون عمل لكنه أبلغهم بحزم: «نحن في زمن الحرب، ولا سبيل لخروجي إلا إذا حفرتم نفقًا لي من بيتي وحتى محل العمل».

«مصطفى» سرعان ما غير رأيه بعد فترة من الزمن، لقد اعتاد الحرب، شأنه شأن الآخرين الذين كانت رصاصات القناصة

الصرب القاتلة في شوارع وأزقة المدينة لا تمنعهم من محاولة الحياة بشكل طبيعي، إنهم يتحدون نداء الموت وأذى الحصار المفروض عليهم والذي يحرمهم كل مصادر الطاقة، تمامًا كما تحدته قيادتهم التي قررت تشغيل مصانع السلاح لديها بعد أن انسحبت كل الكفاءات الصربية والكرواتية، وهو الأمر الذي أثارني كثيرًا، فسعيت لأن أدرس هذه التجربة الفريدة، بقيت فترة طويلة وأنا أحاصر أحد القيادات البوسنية المختصة في ذلك ليحدثني في هذا الشأن، استخدمت كل الوساطات الممكنة، في النهاية أتت الموافقة، لكنها مشروطة بألا يكون في حوزتي كاميرا تصوير أو ميكروفون إذاعة أو جهاز تسجيل.

كانت الشروط مجحفة لكن فضولي المهني دفعني للقبول مرغمًا، أصرَّ زميلي المصور حينها «نجيب قويعة» أن يأتي معي دون كاميرته يدفعه أيضًا فضوله الثقافي والمعرفي، ذهبنا بصحبة «مصطفى»، دخلنا إلى بيت الرجل، هيبة شديدة في المكان، بعد قليل دخل، اعتذر عن عدم إمكانيته للقيام بواجب الضيافة لظروف الحصار.

كانت معلوماته المتوقعة هي أفضل واجب ضيافة بالنسبة إليّ، بدأ الرجل بالحديث، وأبلغنا أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية وراء ذلك، هكذا قال «مصطفى» مترجمًا وحبست أنفاسي لأسمع، واصل «مصطفى»: «أما السبب الأول»، ثم سكت فجأة ونظر في سقف الغرفة وقال: «والله نسيت»، قلت له: «معلش يمكن تفتكر لما نخرج، اذكر السببين الآخرين الله يخليك الراجل بيبصلنا»، واصل «مصطفى»: «أما السبب الثاني»، ثم توقف مرة أخرى وقال «والله نسيت»، لاحظت أن المسؤول البوسني بدأ يشعر أن هناك أمرًا ما، قلت له: «طب كمل يا «مصطفى»»، «أما السبب الثالث»،

أكمل «مصطفى» ثم أطرق إلى الأرض وقال بصوت مرتعش: «لا أستطيع التذكر».

كنت أود أن أسحب أي مسدس من الذي يحمله هؤلاء الذين يحرسون الرجل وأفرغ طلقاته في «مصطفى»، أكملنا الحديث الثانوي وخرجنا وأنا لا أطيق النظر إليه، والحقيقة كنت أغالب الضحك، فالموقف على رغم مأساته إلا أنه كوميدي بامتياز.

لكن لعل موقفًا آخر جعلني أتشفى فيه، فبعد مرور شهور الحرب الرتيبة، وبعد أن قررت قيادة الجيش البوسني منع الصحفيين الأجانب من زيارة الخطوط الأولى للجبهات، إثر اكتشافها أن بعضًا منهم يقوم بدور الجواسيس، طلبت من «مصطفى» أن نستخدم كل معارفنا لطلب زيارة خط أول للقتال، وخطوط القتال في مثل هذه الحروب ليست صحراء ولا غابات، وإنما شوارع وأزقة وبيوت الناس، فهذا الشارع على يمينك مثلًا للصرب وهذا الشارع على يسارك للمسلمين.

كنت فرحًا ونحن بصحبة «مصطفى» وقيادة إحدى الوحدات العسكرية نسير صعودًا وهبوطًا في طريقنا إلى خط القتال الأول، كنت أغالب مشاعر الخوف على أمل أن أخرج بصيد مناسب، كنا نتصبب عرقًا عندما وصلنا إلى تلة مرتفعة، قمنا بتحية الجنود المتعبين، كان الجو هادئًا تمامًا، ثم دخلنا إلى أحد الخنادق.

صعد مصورنا إلى حيث تلك الكوة التي تستطيع أن توجه منها سلاحك، ثم نزل، كان «مصطفى» يومها يتصرف بطمأنينة غريبة، فصاح: «أريد أنا كذلك أن أرى»، ثم صعد ونظر والتف إلينا وبدأ الحديث بصوت مرتفع، وقال لي: «من هنا تستطيع أن ترى (الإخوة) المقاتلين في الخندق الذي يلينا»، فصاح فيه القائد أن

هؤلاء ليسوا إخوة، هذا هو خندق عدونا الصربي. ارتبك «مصطفى» وضحكنا بصورة هستيرية، خاصة عندما بدأ «مصطفى» في الحديث بحدة مع القائد، واعترف لنا لاحقًا أنه طلب منهم وأكد مرارًا على أننا ـ وعلى عكس ما طلبت منه ـ نريد زيارة خط قتال خلفي، غير أنه ولأسباب غير معروفة قرر القائد اصطحابنا إلى الخط الأول، وإلى أن انتهت الحرب ظللنا نذكر «مصطفى» بجريمته الضاحكة.

ليس «مصطفى» وحده هو المترجم الجاني في زمن الحرب البوسنية، ففي إحدى المرات، وفي أحد الجبال، وفيما كنا ننتظر وصول أي سيارة لتقلنا إلى هدفنا وجدت طفلًا في حوالي التاسعة من عمره مع ذويه الذين يبدون مثلنا: قُطع بهم الطريق وينتظرون أي سيارة ناجية، فقلت لصديقي المترجم الدكتور «وسيم»: «هل يمكن أن تلاطف هذا الطفل ثم تسأله عن شعوره؟». دخل «وسيم» في حديث طويل معه، ثم التفت لي ليبلغني بالترجمة وهو يأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، إنه يقول إن هذه الأرض أرض أجداده وآبائه، وإنه لا يأبه أن يموت هنا أو هناك، فهذه معركة وجود، معركة شرف وكرامة. هالني هذا الخطاب الأيديولوجي والمصطلحات اللغوية التي لا تناسب طفلًا في التاسعة من عمره، فسألت «وسيم»: «هل أنت متأكد أن هذا الطفل قال هذا الكلام؟»، أجابني بعد أن أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته: «بصراحة لا، لكن أظن أنه يجب أن يقول كذلك».

حال «وسيم» كحال «حامد» (الزايغ)، إنه شخصية فريدة من حيث الطيبة والإخلاص، ولديه خاصية الدخول في أحاديث طويلة مع أي عنصر نسوي يمر بنا في عملنا، حتى ولو كانت أسيرة صربية، فعندما كنا في «توزلا» بشمال البلاد، زرنا السجن الرئيسي

حيث الجنود الصرب المأسورون، حصلنا على موافقة بلقائهم وتصويرهم، وقبل أن نبدأ كنا حريصين على الحصول على موافقاتهم الشخصية من باب الأدب والإنسانية، وعندما خرجنا من زنزانتهم، أبلغنا الجندي البوسني المرافق أن هناك مقاتلة صربية في الأسر في الزنزانة المجاورة، كلفت «حامد» أن يستأذنها هي الأخرى، وقفنا عن بعد نستعجله وقد ضاق صبر الجنود البوسنيين الذين بصحبتنا، وضاق صبر مصورنا «نجيب» الذي كان يلتفت إليَّ كل برهة ويقول: «ماذا يفعل «حامد»؟ ماذا يقول لها؟». لقد دخل معها في حديث طويل لم أعرف سرَّه حتى الآن.

«حامد» فلسطيني، كان شابًا حينها على الأقل. قبل أن نتعرف إليه ببضع سنوات كان يدرس الطب في العاصمة الكرواتية «زغرب» وقد تزوج من أهلها لكن شوقه لفلسطين أعاده لزيارة بلده فاعتقلته سلطات الاحتلال ومارست تعذيبها السادي عليه، قال لي: «وضعوا رأسي تحت صنبور تسقط منه نقطة ماء كل فترة، ضحكت أول الأمر من هذا التصرف لكن سرعان ما شعرت بفداحته بعد حوالي خمس عشرة دقيقة، فكانت قطرة الماء تخترق رأسي كأنها سيخ من حديد بل من نار». بعد الإفراج عنه وعودته إلى عائلته في «زغرب» وجد أن الجامعة حرمته من مقعده الدراسي لتغيبه، فيما أصبح هو كثير النسيان، ولطالما يعتذر لنا معللًا ذلك بما وقع له على أيدي الصهاينة.

في إحدى المرات خرجنا من المبنى الحكومي في «سرايفو» وأنا آمل أن يفي الموظف بوعده وينجز المطلوب يوم الثلاثاء، لكن «حامد» توقف فجأة وقال: «تعرف يا أخ «أسعد» أنا خايف من إيه؟»، سألته: «من إيه يا «حامد»؟»، أجاب بكل ثقة أن يصادف يوم الثلاثاء عطلة نهاية الأسبوع فتكون المصلحة الحكومية مغلقة،

اندهشت وقلت له إن عطلة نهاية هذا الأسبوع هي السبت والأحد فكيف يخشى أن يصادف ذلك الثلاثاء؟ فقال في تأفف واضح: «إنني أعرف ماذا أقول»، وواصل حديثه معي بصوت ترتفع نبضاته ويعكس حالة الضيق من غبائي الذي لا يستطيع استيعاب مخاوفه، إلا أنه توقف فجأة في الشارع وضرب على عادته بيده جبهته وأدرك عبث ما يقول.

لقد أثَّر التعذيب في ذاكرته بشكل كبير، وقد ساعدني ذلك شخصيًا، فعندما ننهي عملنا ونقضي الليل الطويل دون كهرباء أو أي شيء نفعله نلجأ إلى سرد الذكريات، وكنت أحكي لحامد الحكاية نفسها عدة مرات، وكان في كل مرة يندهش أو يضحك أو يحزن بحسب الحكاية، وقد ذكرت له ذلك مرة وجلسنا نضحك بشدة، لكن ليس أكثر مما ضحكنا في هذا اليوم المرهق الحار على جبهات القتال، حين وصلنا إلى منطقة نريد التصوير فيها مع مجموعة من المقاتلين، وكعادة الناس هناك تقدمنا إليهم نصافحهم وكل واحد منا ينطق باسمه، «أسعد طه».. «أسعد طه».. «أسعد طه»، كنت أصافح كل واحد منهم وأقول هكذا، لكني سمعت اسمي يتردد ورائي كأنه صدى صوت، التفتّ فوجدت «حامد» يفعل مثلي تمامًا، وبدلًا من أن يقول اسمه نسي فكان يقول اسمي أنا.

وإذا كان عذره يومها الإرهاق، فماذا كان عذره يوم أن كنا نسكن هذه الشقة في أحد أحياء «سراييفو»؟ كنا نعود من العمل حوالي الثامنة مساء في أيام الحرب العادية، يدخل كل منا غرفته ينفض عن نفسه غبار اليوم ويستعد لليوم التالي، ولما كانت الكهرباء مقطوعة عن «سراييفو» المحاصرة، فقد جلست على طاولتي وأشعلت شمعة أستضيء بها، وأكتب خطتي لليوم التالي، وأقرأ ما يمكنني قراءته، فيما هو جالس في البهو مستضيئًا أيضًا

بشمعة ليترجم بعض الحوارات المنجزة، طرق الباب ودخل عندي يحدثني في أمرٍ وطال الحديث، وفجأة عاد التيار الكهربائي الذي كان يعود كل ثلاثة أيام لساعتين، فقلت له: «علينا الآن أن نتوقف ونستغل هذا الأمر، وعندما تنقطع الكهرباء مرة أخرى نعود للحديث»، أكد على كلامي وخرج مسرعًا، وواصلت أنا عملي، وقاومت رغبتي الشديدة في التوجه إلى دورة المياه للاستفادة بكل دقيقة من الكهرباء، ولما عجزت عن المقاومة خرجت، ولكنني ذهلت للمشهد للحظات، الأستاذ «حامد» نسي أن الكهرباء تعمل، وظل جالسًا في البهو كل هذه الفترة يعمل على ضوء شمعة.

أما «محمد جوباني» اليمني فقد تصرف تصرفًا مغايرًا تمامًا عندما كنا في سفر من العاصمة الطاجيكية «دوشِنْبِه» إلى إحدى مدن الجنوب، صحيح لم نكن في حرب، لكن الطائرة المهترئة كانت حربنا وقد وضعنا بعضًا من أمتعتنا في دورة مياهها بعد أن ضاقت مساحة الطائرة بها، كنا نشغل أنفسنا بالحديث على أمل الوصول إلى مبتغانا ولننسى مشهد الطائرة المرعب من الخارج وعجلاتها المتآكلة، فلما بدأت الطائرة في الهبوط بدأت الطمأنينة تغمرنا، وقبل أن تلامس الأرض قرر (السواق) التحليق مرة أخرى فأدركنا أن ثمة مشكلة هناك، فتملكنا الرعب مرة أخرى، وازداد عندما وجدنا أننا في مواجهة مرتفعات على قائد الطائرة المحنك أن يتفاداها، قرأ «محمد» الفاتحة ثم أتبعها برسم الصليب، فضحكت زميلته اللبنانية المسيحية وسألته لماذا تفعل ذلك؟ فأجاب سريعًا: «محدش ضامن إيه اللي حيحصلنا، خلينا نتبع وسائل كل الأديان»، لا أعرف إذا كان حينها جادًا أم مازحًا، وأظنه الخيار الآخر، لكن أعرف أن مزحته ظلت تضحكنا حتى هبط أتوبيسنا الطائر.

الثانية والعشرون

اختطاف رئيس

الحكاية تجمع بين المرارة والطرافة، أما شقها الأول فيفيد بأنه ما أن اندلعت الحرب في «البوسنة والهرسك» حتى دعي رئيسها «علي عزت بيغوفيتش» لمفاوضات في «لشبونة»، بقيادة الدبلوماسي البرتغالي «جوزيه كوتيليرو»، حيث أصرت المجموعة الأوروبية على سفر الرئيس ومشاركته في المفاوضات، ووعدته بتقديم كل ضمانات الأمان، فيما اشترط هو أن يتوقف الصرب عن قصف المدينة أولًا.

وبالفعل، التزم الصرب وتوقفوا عن رشق «سراييفو» بصواريخهم، وخرج «علي» من المطار الذي يسيطر عليه الجيش اليوغسلافي، والذي في الحقيقة بات في أيدي الصرب بعد انسحاب المسلمين والكروات. وما أن وصل «لشبونة» حتى استأنف الصرب قصف «سراييفو»، فقطع «علي» المفاوضات وقرر العودة مباشرة، وكان ذلك في الثاني من مايو عام اثنين وتسعين.

«سابينا» ابنة الرئيس «علي» ومترجمته حكت لي ما جرى وقالت: «لقد انطلقنا عائدين في طائرة المجموعة الأوروبية، وعندما اقتربنا من «سراييفو»، حاول قائد الطائرة الاتصال بمطارها، لكن أحدًا لم يرد عليه، سألنا ماذا يفعل، وخيرنا بين التوجه إلى

العاصمة الكرواتية «زغرب» أو إلى العاصمة الصربية «بلغراد»، فاختار والدي «زغرب»، وبمجرد أن غيرت الطائرة مسارها حتى اتصل مطار «سرايفو»، ليبلغوا قائد طائرتنا بأنهم موجودون، وأن مراقبة الطيران جاهزة، ويمكننا الهبوط».

تستكمل «سابينا»: «عندما هبطت بنا الطائرة، سألني أبي إن كنت أرى أحدًا في المطار، أخبرته بأنني لا أرى من نافذة الطائرة سوى دبابات تحيط بنا موجهة فوهات مدافعها باتجاه طائرتنا وحولها عناصر من الجيش اليوغسلافي، وما أن نزلنا من الطائرة حتى اقتادونا فورًا إلى غرفة صغيرة، وأذكر أنه كان معنا السيد «لاغومجيا»، الذي كان حينذاك رئيس الحكومة أو نائب رئيس الحكومة، لست متأكدة الآن، وكان معنا أيضًا «دينو»، عنصر الحماية الشخصية، وأنا، نحن الأربعة فقط».

القصة التي تحكيها «سابينا» غاية في الإثارة والغرابة، خاصة أن ممثلي المجموعة الأوروبية التي منحت الرئيس كل الضمانات لسلامته ومرافقيه اختفوا فجأة ولم يكونوا في استقبالهم في المطار. تتابع «سابينا» روايتها: «ما أن جلسنا إلى طاولة، حتى طلب أبي الهاتف، فأجابوه على الفور بأن خطوط الهاتف لا تعمل، وكان قائد المطار وهو برتبة عقيد جيش قد اختار أربعة من الجنود الشبان، ووزعهم على زوايا الغرفة الأربع، فوضعوا أسلحتهم في وضع الإطلاق ووجهوها نحونا، فلم يكن بإمكان أحد منا أن يتحرك».

وفي لحظة من اللحظات، صدف أن خرج قائد المطار من الغرفة، وبعد خروجه بدقيقتين، رنَّ جرس الهاتف الموجود على الطاولة في الغرفة ذاتها، انتابني الخوف، فإذا أمسك أبي بالسماعة

سيقتله الجنود، فسارعت لرفع السماعة، فإذا امرأةٌ عادية تسأل إن كانت هناك طائرة ستغادر «سرايفو»، فهي تريد الرحيل، وكان أبي طوال الوقت يقول: «أعطني الهاتف، أعطني الهاتف»، ففعلت، فقال لها: «سيدتي، أنا «علي عزت بيغوفيتش»، وأنا موجود في المطار، لقد أسرتني قوات الجيش اليوغسلافي، أرجوك اتصلي فورًا بالرئاسة وبالتلفزيون»، ثم وضع السماعة.

«كان الجنود الشبان في ذهول، لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون، هل يطلقون النار أم لا؟ فالقائد غير موجود. عاد القائد، وهو لا يدري ماذا حدث، لا علم له بشيء. ولم يجرؤ أحد على إخباره».

انقضى النهار بأكمله، وفي المساء قرر القائد الصربي نقل «علي» ومن معه إلى الثكنة العسكرية في «لوكافيتسا»، وهي على بعد ساعة من المطار. كانت تلك الثكنة معقل الصرب العسكري، ومنه يقصفون المدينة طوال الوقت، فقضى الأربعة ليلتهم وهم يستمعون إلى قصف الصرب لمدينتهم بمختلف أنواع الأسلحة من موقع أَسْرِهم.

تواصل «سابينا» حديثها معي وتصف الموقف في الثكنة التي نُقلوا إليها فتقول: «كان هناك ضباط شبان وكذلك الكولونيل «غاغوفيتش»، الذي كان عصبيًا جدًّا إلى درجة الجنون. كان الوضع على حافة الانهيار؛ لأنه في الوقت نفسه ظهرت مجموعة كبيرة من المدنيين الصرب المدججين بالسلاح، جاؤوا يريدون رأس أبي، وكان السبب الذي دفعهم لذلك أنه قبل نحو عشرين يومًا هاجمت مجموعة من قوات الدفاع المحلي في «سرايفو» ناقلة جنود صربية، وأسروا بعضهم».

وتضيف: «أذكر أن ضابطًا شابًا كان يحاول أن يكون لطيفًا معنا، وأخبرنا عدة مرات بأن المصادفة وضعته في هذا الموقع عندما بدأت الحرب، وكان يحضر لنا علب الحليب ويفتحها أمام أعيننا، لكيلا تساورنا أي شكوك، أما أنا فقد كنت أحاول الاتصال بالسفير الأمريكي في «بلغراد»، وأخفقت في الوصول إليه، ربما لأني كنت مضطربة، ثم أخذ ذلك الضابط الهاتف تحت الطاولة وطلب الرقم ثم أعطاني السماعة. تواصلت مع السفير الأمريكي مباشرة، وأخبرته بما يجري».

على الرغم مما مر به «بيغوفيتش» من اعتقالات سابقة، فإنه يصف تلك الليلة بأنها الأصعب، فقد كان يخشى أن يقع سوء لابنته وهم بأيدي الصرب، خصوصًا عندما أخبرته «سابينا» في الرابعة صباحًا بأنها ستذهب مع طبيبة صربية موجودة بالثكنة لتستلقي قليلًا حيث إنها مصابة بنوبة برد شديد.

تقول «سابينا» إن الطبيبة كانت تشتكي طوال الوقت من أن جنودهم الذين جاؤوا لاقتحام «سراييفو» يتعرضون للإصابة والقتل، وكيف أنها تعمل على إنقاذهم، «وعندما عدت إلى والدي وجدت أن القلق والخوف عليّ قد سيطرا عليه تمامًا، ولو كنت أعلم ذلك ما كنت ذهبت».

تضيف «سابينا»: «كان هناك كثير من الأمور الغامضة، لكنني أظن أنه لو لم يكن شقيقي في «سراييفو» في ذلك الوقت، لكانت الأمور اتخذت منحى مختلفًا تمامًا».

كان «سناد حجي فيزوفيتش» أشهر مذيع في «البوسنة» وقت الحرب، وما زلت أتذكر واقعة طريفة له في ذلك الحين، فقد كان «ياسوشي أكاشي» الياباني مسؤولًا عن مهمة حفظ السلام التابعة

للأمم المتحدة في «يوغسلافيا» السابقة، وكان البوسنيون يكرهونه لمواقفه ضدهم وإجهاضه لكل محاولات كبح جماح الصرب كما يعتقدون، وحدث أن وقع زلزال في اليابان، وخرج «سناد» في نشرته بالتلفزيون ليقول بكل جدية إن زلزالًا قد وقع في اليابان، وللأسف لم يكن «ياسوشي أكاشي» موجودًا.

في بهو فندق «هوليداي إن» بسراييفو يحكي لي «سناد» الوجه الطريف من الحكاية - إذا صح هذا التعبير - فيقول: «كنت قد دخلت الأستوديو قبل الساعة الثالثة ظهرًا بقليل، وبدأت في تقديم برنامجي اليومي على الهواء مباشرة، وكأنه نشرة الأخبار اليومية، كان ذلك شيئًا لا يصدق، فقد كانت كافة الأطراف حاضرة على الهواء، حتى المعتدون الذين يقومون بالهجوم، بمن فيهم القادة العسكريون الصرب، سواء كبار القادة أو مساعدوهم، وكذا القادة الميدانيون، وفي السابعة والدقيقة الثالثة والعشرين تمامًا، وبشكل غير متوقع، رنّ الهاتف الموجود على طاولتي بغرفة بث النشرة، فقمت بالرد على الهاتف، مع أنني أعلم تمامًا، كما أبلغوني من غرفة التحرير، أنه تبقى لدينا ١٨ ثانية فقط حتى نهاية البرنامج».

«جاءني صوت عبر الهاتف يقول أنا «علي»، شككت في أن هذه خديعة من غرفة التحرير على شكل معاكسة من أحد، يمزح بعد خمس ساعات من العمل المتصل على الهواء مباشرة ليجعلني أسترخي قبل ختام البرنامج، ما جعلني أسايره وأقول له ومن دون تحفظ إطلاقًا: «أين أنت يا «علي»؟ ماذا لديك؟ كيف أنت يا «علي»؟» وهكذا، ومن ثمَّ فقد تعرف هو على صوتي، وقال: «هذا الصوت معروف لدي» قلت له: «قل لي أنت من تريد؟»، عندها قال: «أريد أحدًا من مجلس الرئاسة»، قلت: «لا والله، أنت أخطأت مجلس الرئاسة»، قال: «هل أنت «سناد»؟»، «نعم أنا»

ومن ثمَّ واصلنا البرنامج ليستمر هذا الجنون حتى الخامسة والنصف صباحًا».

يقول «سناد»: «لقد اكتشفنا أن الرئيس مختطف لكن لحسن الحظ أن من اختطفه كان الجنرال «فويسلاف جورجيفاتس»، الذي كان قبل ذلك بعشر سنوات قائدي بالجيش حيث كنت أعمل صحافيًا، ومن ثمَّ قمت ببذل قصارى جهدي خلال الساعات الخمس أو الست التالية ليعطيني كلمة شرف عسكرية بأنه لن يحدث للرئيس سوء».

لعب الإعلام دوره، واجتمعت الجهود والوساطات وتمت مبادلة الرئيس بجنرال صربي كان معتقلًا لدى المسلمين بين الساعة الرابعة والخامسة من مساء اليوم التالي.

«مفيد مميا»، مستشار الرئيس للسياسة الخارجية، لاحقًا يخبرني الآتي: «مرة قال لي «علي» ونحن في طريقنا من «تارتشين» إلى «إيجمان»: أتعلم يا «مفيد»؟ سألتُ القادة الميدانيين عما إذا كنا سنمر بالأراضي الخاضعة لسيطرة الجيش الصربي، فأجابوني بالنفي، لكنهم قالوا إننا سنمر قريبًا جدًّا من خطوطهم، وسوف يروننا من ذلك التل في الجهة الأخرى، كما يرون كفوف أيديهم، وإنهم يستطيعون إطلاق النار علينا بسهولة، وقال: إنني لا أخاف من ذلك، أن أقتل بقذيفة، لكنني لن أسمح أبدًا بأن أقع في أسرهم مرة أخرى. إلى ذلك الحد أثرت فيه تجربة الأسر في الثاني من مايو في «لوكافيتسا»، حتى إنه قال إنني أمرت حراسي الذين يرافقونني أن يطلقوا النار عليَّ في حالة وقوعي في الأسر».

كلما تذكرت هذا الملف تذكرت ما قاله «سناد» لي: «حسب علمي كانت هذه هي الحالة الوحيدة ـ الأولى والأخيرة ـ التي

يكون فيها رئيس دولة مختطفًا بواسطة الجيش؛ الرئيس الشرعي المنتخب للدولة»، ودائمًا أقول في نفسي ربما هي الأولى لكنها ليست الأخيرة، ولدينا نسخ عربية.

الثالثة والعشرون

لا انقلاب يدوم

لا يمكن أن أصف لكم بدقة عينيّ «تشافيز» كيف كانتا تبرقان وهو يحدثني عما وقع إذ كان عمره تسعة عشر عامًا، وكأن الحادثة كانت بالأمس القريب وليس في ذلك اليوم من عام ألفين واثنين، «لقد قرأت الصحف وشاهدت التلفاز ولامست ذلك الرعب المتمثل بقصفهم للقصر الجمهوري وقتلهم «أليندي»، لقد خرج أعضاء الهيئة العسكرية مع آلياتهم وبعضهم بنظارات سود وخوذ كبيرة، فشعرت بقرف إزاءهم، وأنا أقول إنني عسكري ولكنني لست هكذا، إنني جندي بوليفاري، ذلك الانقلاب العسكري ضد «أليندي» كان بمثابة انقلاب ضدي أيضًا».

كان الرئيس الفنزويلي «هوغو تشافيز» يقصد ما وقع في الحادي عشر من سبتمبر لعام ١٩٧٣، والذي بدأت حكايته قبل ذلك بثلاثة أعوام، عندما فاز برئاسة «تشيلي» المرشح الاشتراكي «سلفادور أليندي» في انتخابات وُصفت بأنها نزيهة، وهو الأمر الذي لم يرق حينها للرئيس الأمريكي «نيكسون»، فأعد خطة لإقصائه شملت الإعلام وشراء ولاءات العسكر وتجييش طبقة الأثرياء.

وفي الموعد المحدد، تحركت القوات المسلحة لتسيطر على

المناطق الاستراتيجية، لكن الرئيس المنتخب رفض التنازل عن السلطة، فتحرك العسكر نحو القصر الجمهوري وقصفوه بالدبابات والمدفعية والطائرات، واستمر إطلاق النار حتى تمت تصفية الرئيس وكل من رفض الهرب، لتعلن بعدها الهيئة العسكرية بقيادة الجنرال «أوغستو بينوشيه» توليها السلطة.

الروايات تعددت حول ما إذا كان «أليندي» أُعدم أو انتحر مفضلًا ذلك على سقوطه في يد «بينوشيه» ورجاله. لكن قبل دقائق من قصف القصر الجمهوري توجه «أليندي» عبر إذاعة سرية بخطاب لمواطنيه، قال فيه: «بالتأكيد ستكون هذه فرصتي الأخيرة للحديث معكم، كلماتي هنا لن تحمل المرارة بل خيبة الأمل، ليكن ذلك عقابًا أخلاقيًا لأولئك الذين خانوا قسمهم من جُوَدِ تشيلي»، ثم أضاف: «في هذا المنعطف التاريخي، سأدفع حياتي ثمنًا لولائي للشعب، وأقول لهم إنني على تمام الثقة بأن البذور التي زرعناها في ضمائر الآلاف والآلاف من المواطنين التشيليين لن تذهب هباءً، هم لديهم القوة لحكمنا، ولكن الصيرورة الاجتماعية لا تُحكم بالجريمة أو القوة، التاريخ ملك لنا، والشعوب تصنع التاريخ».

«بينوشيه» ارتكب بعد انقلابه مذابح دموية وملأ السجون بالمعتقلين وأطاح بكل من يشتبه في مخالفته للانقلاب، حتى إن رفاقه أنفسهم لم يتحملوا نزقه وسفكه الدماء، وكانت محاكمته بعد فترة نهايةً لانقلاب دموي.

كان «تشافيز» يتحدث غاضبًا وكأن الانقلاب في «تشيلي» قد وقع أمس. الطريف ـ إذا كان هذا طريفًا ـ أن «تشافيز» نفسه تعرض لانقلاب.

كنا منتصف إحدى ليالي سبتمبر من عام ألفين واثنين عندما اصطحبني خارج القصر الرئاسي وأشار إلى تلة بعيدة وقال: «في مثل هذا اليوم قبل عشر سنوات وسبعة أشهر وصلتُ مع قواتي إلى هنا، كان الوقت حينها منتصف الليل الساحر، بعد أن خرجنا في عجالة للبحث عن الوطن الذي ضاع منا، تركنا الحياة وراءنا، وإلى هنا وصلنا، كان ذلك في الرابع من فبراير».

كان الرئيس يتحدث عما قام به عام ١٩٩٢، عندما قاد محاولة للإطاحة بحكومة الرئيس الفنزويلي «كارلوس أندريس بيريز» معتمدًا على تنامي غضب الشارع بسبب الإجراءات الاقتصادية المتخذة. كان قبلها بعقد قد أسس مع أقران له حركة استمد اسمها من «سيمون بوليفار»، زعيم استقلال أمريكا الجنوبية، فسماها «الحركة البوليفارية الثورية»، وقال في أسباب تشكيلها: «إن الوطن كان يغرق في أزماته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية، وإن الرئيس «كارلوس أندريس بيريز»، الذي جاء إلى الحكم عام ١٩٨٩، كان يأمرنا بقتل الشعب، فنزلت علينا اللعنة، ملعون الجندي الذي يوجه الأسلحة ضد شعبه».

غير أن حركته فشلت والحمد لله، وإلا كنا احترنا في تسميتها اليوم أهي ثورة أم انقلاب. نعم فشلت وأدت إلى مقتل ثمانية عشر شخصًا وإصابة ستين آخرين قبل أن يسلم «تشافيز» نفسه. وعندما حاول زملاؤه تجديد مساعي الاستيلاء على السلطة بعد تسعة شهور، كان «تشافيز» رهن السجن العسكري، ولم يكن مصير مساعي المحاولة الثانية أوفر حظًا من المحاولة الأولى، بل باءت أيضًا بالفشل.

قضى «تشافيز» عامين في السجن قبل أن يحصل على عفو

ليخرج ويؤسس حزبه المعروف باسم «حركة الجمهورية الخامسة»، وينتقل من خندق العسكر إلى خندق الساسة، ويتكرس نضاله السياسي بعد سبعة أعوام بالفوز برئاسة البلاد عام ١٩٩٩.

خرجنا من القاعة التي كان حديثنا يدور فيها بالقصر الرئاسي، أمسك شيئًا بيده وقال: «إنها طلقة نارية من ذلك اليوم، لم تُزَل من هنا قطُّ، لم يغيروا زجاج النافذة، لقد أتيت رئيسًا بعد سبع سنوات من ذلك اليوم، وعندما تأملتُ كانت الطلقة هنا، لم يغيروه ألبتة، ولا حتى أنا سأزيله».

في السماء ومن نافذة الطائرة، وإذا كان الوقت مساء سترى وأنت تهبط جبالًا تحيط بالعاصمة الفنزويلية «كاراكاس»، جبالًا مزينة بأضواء خافتة على طولها وعرضها، ستظن أنها منتجعات سياحية، لكنك عندما تتوجه إليها في الصباح سوف تكتشف أنها أكواخ الفقراء الذين استوطنوا هذه الجبال بعد أن ضاقت عليهم العاصمة التي ملأها الأثرياء ببيوتهم وفيلاتهم وسياراتهم.

ولأن ذلك الوقت من عام ٢٠٠٢ كان زمن المظاهرات والمظاهرات المضادة التي لا تتوقف، فإن السؤال هو كيف تستطيع التفريق بينها دون الاستعانة بصديق؟ الأمر سهل؛ مظاهرات المعارضين، وهم طبقة أثرياء النفط والثروات المحتكرة، تشبه الحفلات الغنائية وعروض الأزياء، شباب وفتيات، وموسيقى صاخبة، وعناق، ورقص، وصنوف من الدخان.

أما مظاهرات المؤيدين فقوامها الفقراء، بسطاء تشعر بأنهم من نفس طينة الأرض التي ولدوا عليها، يرتدون في الأغلب قمصانهم الحمراء، رمزًا لثورتهم التي قادها «تشافيز»، شعارات، وطبول، وأغانٍ ثورية، و«بوليفار» حاضر دائمًا.

قال لي «تشافيز» في تلك الليلة: «بعد عيسى المسيح الذي هو قائدي الأول يأتي «بوليفار» كقائدي الثاني، كنت أشعر دائمًا بأني جندي من جنوده، ووريثه، وعضو في جيشه، إذ يجب عليّ استخدام سيفي للدفاع عن الضمانات الاجتماعية، أي ضمانات شعبي، وإلا فإني لست بجندي بوليفاري، وسأكون ملعونًا إذا وجهت أسلحتي ضد شعبي».

قبل أن أصل إلى «فنزويلا» بعدة شهور عام ٢٠٠٢، شنَّ «إياهم» حملة إعلامية شرسة ضد «تشافيز»، يقول العارفون بالأمر إنهم تحالف رجال الأعمال مع العسكر وبرعاية أمريكية. ولأن الدولة لا تملك سوى القناة الرسمية الفقيرة، ولأن الآخرين يمتلكون قنوات خاصة قوية وثرية وشديدة التأثير، اتُّهم «تشافيز» بأنه يدعم الإرهاب، وسُيِّرت المظاهرات ضده، ورفعت صور كاريكاتيرية له مع «بن لادن»، ووُصِف أتباعه ومناصروه بأنهم رعاع وهمج.

«بيدرو كارمونا»، رئيس أكبر اتحاد للاستثمارات في «فنزويلا»، و«كارلوس أورتيغا» رئيس قناة «CTV»، كانا على رأس المعارضة بعد أن عادا من زيارة لواشنطن.

المؤيدون لتشافيز نظموا مظاهرات مضادة، ووقعت اشتباكات متفرقة بين الفريقين، وتمركز القناصة يضربون في الجانبين ليشعلوا المواجهات، وليسقط قتلى وجرحى. الكاميرات المسلطة نحو جموع المؤيدين وحدهم ترصد وتلتقط أي مشهد لمؤشرات العنف، وتعيد بثَّه مرات ومرات.

وفي الموعد المحدد، وبدعم من بعض قيادات الجيش، احتُجز «تشافيز» بالقصر الرئاسي بعد أن تم التهديد بقصفه، وقُطع بالفعل الإرسال التلفزيوني عن القناة الحكومية. تداعت الأحداث

سريعًا، إلى أن سلّم «تشافيز» نفسه لقيادات الجيش مع تمسكه بعدم تقديم استقالته كرئيس شرعي للبلاد.

وُضع «تشافيز» تحت وصاية المجلس العسكري وتأسست حكومة انتقالية فورية، واستيقظت «فنزويلا» في اليوم التالي على رئيس جديد غير معروف، وبدأت الشرطة حملات الاعتقال والترهيب للمواطنين.

تظاهر أنصار «تشافيز»، طرحوا الاستفتاء كبديل، أحاطوا القصر الجمهوري بأعداد ضخمة، هتفوا: ««تشافيز» لم يستقل.. «تشافيز» معتقل».

كان الليل يمضي سريعًا وقد انصرف أغلب موظفي القصر، فيما كنت أنا وفريقي في كامل يقظتنا ونحن ننصت له حاكيًا قصة الانقلاب الذي تعرض له، برغم إرهاقنا بعد يوم حافل من العمل. قال «تشافيز»: «أما كيف حصل؟ فلا شك في أنكم بحثتم في الأمر. هناك نخبة سياسية دنيئة لا أخلاقية وغير شرعية، هي نخبة عسكرية خائنة، نخبة عسكرية تدافع عن مصالحها وامتيازاتها، ومعها نخبة دينية، ونخبة إعلامية ونخبة نقابية لا أخلاقية وفاسدة، كل هذه النخب توحدت، في نخبة واحدة موحدة وأطلقت تلك الخطة الخبيثة».

«وهكذا، وفي يوم من الأيام وبإرادة المتآمرين الفاشيين في ذلك الفجر من شهر إبريل، تحولت من رئيس في هذا القصر إلى سجين في زنزانة، وتأقلمت روحي بسرعة متناسبة مع هذا التحول. لكنني بسرعة أيضًا شرعت في وضع خطط للعودة في الأربع والعشرين ساعة التي تلت، ولعلي فجأة عدت طفلًا من جديد، ربما كنت أخشى الموت في الساعات الأولى فقط، لكن الخوف تحول فيما بعد إلى شيء سامٍ؛ فكنت مستعدًا للموت».

«نعم، كنت في الساعات الأولى لاعتقالي أشعر بخوف مختلط بحالة من عدم اليقين، ثم شعرت بالحرية وبدأت أحلق في حريتي فعمَّت السكينة ضميري. لكن ذلك تحول فيما بعد ليجعلني كالجمل، وشعرت بالوحدة في تلك الزنزانة، ثم بسرعة أصبحت أسدًا، ولم تعد الزنزانة صحراء بل صارت غابة».

وفيما كان «تشافيز» في سجنه إثر الانقلاب عليه، كانت أعداد المتظاهرين المؤيدين تتزايد بسرعة، كانوا يدافعون عن مكاسبهم وعن ثورتهم، أحاطوا بالقصر الجمهوري، ملؤوا الشوارع. المعارضون الانقلابيون كانوا يتراجعون بسرعة على رغم الدعم المعنوي الأمريكي.

مروحية عسكرية تحوم حول القصر الرئاسي، أضواؤها تبدد ظلمة الليل، المواطنون الأنصار يتابعونها بقلق شديد، تحط رحالها في ساحة القصر، الناس عن بعد يحبسون أنفاسهم، يخرج الرئيس، تعلو الهتافات، ويختلط بأنصاره يعانقهم ويعانقونه، ثم يصعد إلى المنصة، يبدأ خطابه مستشهدًا بآية من إنجيل «مرقس»، ثم يقول لأنصاره: «لقد حميتم الشرعية وأعدتموها».

ثم خاطب معارضيه قائلًا إنه يتمنى لو يستطيع تغيير قناعاتهم، لكن في كل الأحوال يمكنهم الاستمرار في معارضته كما يشاؤون، ولكنهم لا يمكنهم معارضة الدستور، فهو دستور الشعب، وبالفعل استمرت المعارضة التي شهدتُ مظاهراتها عندما وصلت.

فكرت كثيرًا فيما قاله لي وأظن أنني أخالفه: «أنا لا أحب العنف، ولكن في بعض الأحيان يكون عنف المستضعفين ضروريًا ضد عنف الظالمين. التاريخ يقولها بوضوح، المسيح أمسك يومًا بسوط وضرب به التجار في معبد الرب».

ثماني وأربعين ساعةً كان عمرُ الانقلاب في «فنزويلا»، في بلاد أخرى استمر شهورًا أو بضع سنوات، في كل الأحوال.. لا انقلاب يدوم.

الرابعة والعشرون

هل يندم الحكّاء على ما حكى؟

كان آخر ما يمكن أن أتوقعه أن ألتقي برئيس دولة عند الحلاق..

قبلت الرشوة التي قدمت لي، ساندويتشات من الجبن وعصائر لعلها تخفف من وطأة الساعات أقضيها في انتظار وصول الرئيس، سيادته يعلم أن الأمر ليس لقاء تلفزيونيًا إخباريًا عاديًا لهؤلاء العرب القادمين من آخر الدنيا، وإنما هو فيلم وثائقي عن حياته الحافلة، بعد منتصف الليل وصل.

استأذن هو في الحلاقة قبل أن نبدأ حديثنا معه، استأذنت أنا في تصوير المشهد والسيدة تقص شعره في غرفة صغيرة ملحقة بغرفته، إنها تعمل بجدّ في أعلى قمة في البلد! ألقيت السلام بالعربية، ردُّه وحميمية الترحاب أشعراني أننا أصدقاء طفولة، انطلق في الحديث، لاحقته متعبة زميلتي «ديمة الخطيب» لتترجم إسبانيته إلى عربيتي.

قال لي: «حلمت أن أكون رسامًا ثم حلمت أن أصبح لاعب بيسبول، وفي السابعة عشرة من عمري كبر حلمي وأصبح أن أكون جنديًا من جنود «بوليفار» محرر أمريكا الجنوبية، فكنت أتجول وفي يدي بندقية وعَلَم وعلى لساني نشيد الوطن وفي ذاكرتي تاريخ الوطن وفي قلبي حب الوطن».

سألت الرئيس الفنزويلي «تشافيز» عن «بوليفار»، قال إنه يأتي بعد عيسى المسيح الذي هو قائدي الأول، وأكمل: «أنا أعشق المسيح لأنني أراه في الأطفال الفقراء في أحيائهم المعدمة على الهضبات، أعشقه لأنه أعطانا مثلًا أعلى للطيبة، مثلًا أعلى للتضحية وللنزاهة، ولا أرى تناقضًا بين أن أكون مسيحيًا وثوريًا في آن واحد».

فرغ من حلاقته، اصطحبني في قصره الرئاسي «ميرا فلوريس» إلى غرفة أخرى خاصة به، العرب هنا رسمًا وصورة على الحائط، وذكريات يحكيها: «كنت فقيرًا أسيرُ وأنا صغير دون حذاء حتى أهداني تاجر عربي واحدًا». ببساطة وبعظمة تحدث الرجل وأكد الصورة المرسومة في الأذهان كمناضل وطني.

أرهقنا الثائر الرئيس، تنتظره بالساعات، تصوره بالساعات، يمتد اللقاء إلى الثالثة صباحًا، ليتفق معك على صحبته السابعة صباحًا في رحلة عمل بالطائرة إلى هنا أو هناك، لا يكل ولا يمل، ينتصر للفقراء والمحرومين، حياته قصة نضال سخية بأحداثها، عرف السجون والمعتقلات، جرب وهو الجندي الانقلاب العسكري ليصل للسلطة، فشله دفع به بعد سنوات السجن إلى العمل السياسي، خاض معركة دامية، دفعه الحالمون بالمساواة إلى سدة الحكم رئيسًا للبلاد عام ١٩٩٩.

كل يوم عمل كنت أسأل نفسي: «أتستحق الحكاية أن تُحكى؟ هل أنا مصيب في أن أفرد ساعة من فيلم وثائقي لحاكم؟»، كانت إجابتي لنفسي نفسها، إنها حكاية تستحق أن تروى، لست حَكَمًا، أنا حكاء أسجل التاريخ وأوثقه عبر قصص صانعيه، ثم أزيد بذكر انطباعي وشعوري للذين ليس بوسعهم أن يكونوا هنا ويشعروا بما

شعرت أنا به. ما زاد على الحكاية فهو من الحكاء يصيب فيه ويخطئ.

خلال فترة عملي وعلى مدى عدة أسابيع شاهدت أنصار «تشافيز» يخرجون في مظاهراتهم، فقراء مساكين، عمال وفلاحون، مظهرهم يدل عليهم، في مواجهة مظاهرات المعارضة التي هي خليط من علية القوم ورجال الأعمال، شباب وفتيات في عمر الزهور، ملابس فاخرة وسيارات فارهة وأغانٍ صاخبة، إنها مظاهرات المتضررين من حكم المساواة.

أنهي عملي، ويُبث فيلمي، وتمر السنون، وعيني على «فنزويلا»، وعيني على «تشافيز»، صحيح أن حرب الأغنياء ضده تزداد ضراوة، صحيح أن حرب «الولايات المتحدة» ضده تتواصل، لكن الصورة الزاهية تفقد بريقها رويدًا رويدًا، يتخذ قرارات استثنائية، يتخطى الدستور ويتشبث بالسلطة، ويجدد انتخابه، ويعمل على مركزية الدولة تحت إمرته، وفي موسم الثورات العربية يصطف مع الطغاة، أسأل نفسي كيف لثائر أن يتخلى عن مبادئه ومنطلقاته؟ وفي التفسير أن الثورات مؤامرة أمريكية، وأنه ضد «أمريكا» وهي ضده؛ لذلك فهو مع «القذافي»، وهو مع «بشار».

تدهشك مواقفه من الثورات العربية، تتفق مع «تشافيز» أو تختلف، لكنه ما زال يرفع علم النضال ونصرة المظلومين والفقراء والمحرومين، وما زالت له شعبيته في بلاده، والتغيُّر في مواقفه النضالية لا ينفي حدوثها ابتداء.

لا يجب أن يلوم المرء نفسه، دور الحكاء ليس سوى أن ينقل الحكاية كما هي، في الزمن الذي وقعت فيه، وبأحداثها الحقيقية، دون زيف أو تحريف أو تغيير أو تبديل، فإذا كان من الحكايات ما

هو قصص لشخصيات تراها شعوبهم أبطالًا، وإذا ما مرَّ الزمان، وإذا ما تغيرت مواقفهم أو تبدلت، فإن ذلك لا يستدعي لوم منتج العمل الوثائقي ولا مخرجه. لا يمنح الحكّاء ضمانات لحكاياته أن تظل صالحة مستمرة حتى آخر الزمان، نعم لا زمن لانتهاء الصلاحية.

أتذكر أن «تشافيز» وكأنه يحلم قال لي: «أحب العالم العربي، أحب تاريخه، لقد عبرت بهاتين القدمين مشيًا الحدود بين «إيران» و«العراق»، وحلقنا فوق السهول الواسعة جنوب «بغداد»، فرأينا «الفرات» و«دجلة» وبلاد ما بين النهرين القديمة، لقد قطعت «المملكة العربية السعودية» من البحر الأحمر وحتى الخليج العربي، امتطيت الناقة عبر الصحاري، وتوغلت في قلب الصحراء في منتصف الليل لأنظر إلى القمر مع الإخوة العرب، لقد رقصت رقصاتهم، وقفزت والسيف والبندقية في يدي، وأطلقت نحو السماء بارودًا لا يؤذي، برفقة الأمراء ورفقة الشعوب».

وأتذكر أني في نهاية حكايتي قلتُ:

يبقى الرجل حاكمًا أو يزول..

مناضلًا كان أو لأجل المجد والمُلك يثور..

يدور المرء مع الحق..

ولا يدور مع الرجال..

لذلك إذا أورد الحقيقة في زمانها وصدق في الوصف والمعلومة، فإن الحكاء لا يندم على ما حكى.

الخامسة والعشرون

«حزب الله» وأنا.. وقائع ما جرى

كنت قد بلغت حوالي أحد عشر عامًا، حين تسللت مع أبناء الجيران إلى حافة قناة «السويس» عند «بورتوفيق» الرائعة، أو التي كانت كذلك، لم يأبه الكبار إلينا ونحن نتسلل إلى هناك، ولم نأبه نحن إلا للعَلَم الكئيب مرفوعًا على الضفة الأخرى، مشهد قصير جدًّا في ذاكرتي، لكنه محفور فيها لا يغادرها. عدنا منكسي الرؤوس إلى بيوتنا في شارع «النهضة»، كما كان يعود جنودنا المنسحبون كل يوم من «سيناء» لتنشغل «السويس» كلها بحكاياتهم. وما هي إلا أيام وبدأت طائرات الكيان الصهيوني في قصف بيوتنا ومشافينا وشوارعنا ولعبنا وحدائقنا وذكرياتنا، فأدركنا مع الكبار أننا بحق قد هُزمنا فيما عُرف لاحقًا تجملًا بنكسة سبعة وستين من القرن الماضي. الغريب أن كل ما شهدته لاحقًا مما أحدثته الغارات الإسرائيلية لم يترك أثرًا كما تركه هذا العَلَم المغروس في أرضي، ثمة ثأر لا يهدأ.

رحلتي الأخرى إلى حيث العدو كانت محفوفة كذلك ببعض الخطر، تم تفتيشنا بدقة شديدة وتهذيب أشد، ثم ركبنا شاحنةً كبيرةً غُطّت نوافذها فلم نعد ندرك ما حولنا سوى أننا نعلو ونهبط في ممرات متعرجة إلى أن توقفت الحافلة، ونزلنا منها. كان الطقس

رائعًا في ذلك الوقت من شهر أغسطس عام ثمانية وتسعين، وكانت الخضرة تملأ المكان، يزاحمها مقاتلو «حزب الله»، قال أحدهم: «هذه هي المفاجأة التي كنا نخبئها لك، نحن لم نسمح منذ شهور طويلة لأي صحافي بالوصول إلى الخطوط الأولى، أنتم اليوم استثناء»، شكرته وقلت مازحًا: «سأسجل ذلك إن عدت اليوم حيًّا»، ارتدينا القمصان الواقية، وسرنا وراء دليلنا مسافة طويلة بين أشجار كثيفة، فيما طائرات الاستطلاع الإسرائيلية تواصل عملها الروتيني اليومي وتحلق فوق رؤوسنا، ودليلنا يطلب منا أن نكمل المسير وهو يعدنا بمفاجأة أكبر.

بالرغم من أنني لم أعمل يومًا موظفًا في قناة «الجزيرة»، لكنني لا أزور بلدًا إلا وأبلغ صحافيي القناة هناك أو مدير مكتبها بأمر زيارتي، اتصلت بزميلتي «ميا بيضون» أخبرها أنني هنا في «بيروت»، وأن مهمتي هي إعداد حلقة ضمن برنامج «نقطة ساخنة» عن «حزب الله»، قالت لي مشكورة: «سأعد لك لقاء معهم»، وفي الموعد المضروب مرتْ عليّ لنذهب معًا، في الحقيقة كنت مترددًا في زيارة مقر الحزب بصحبتها، كدت أبلغها ألا تأتي، الصورة النمطية عن الجماعات الإسلامية في عالمنا العربي هي تحسسهم المبالغ فيه من التعامل مع المرأة، لكن عكس ذلك هو ما وجدته حين وصلنا مقر «حزب الله»، استقبال في غاية اللطف لها ولي، وعتاب رقيق لميا عن غيابها عنهم أحيانًا.

دار حديث طويل حول الهدف من الحلقة، شرحتُ وأسهبتُ، الناس تريد أن تعرف من هو «حزب الله»، ونحن نريد أن نريهم إياه، أن نعيش معه قليلًا، أن نلمس في حكايتنا السياسي والإنساني، أن نرصد تجربة مواجهة العدو الصهيوني، باغتني المسؤول وكأنه يختبرني: «إذن أنت ستعد حلقة تمتدح فيها

«حزب الله»»، نفيت دون تردد، واعتقدت أن هذا سيُفشل الأمر برمته، وزدتُ بقولي له إنني سوف أستضيف خصومًا لهم يتحدثون ويدلون برأيهم، ابتسم الرجل ووعدني أنه شخصيًا سيزوّدني بأسماء بعض الخصوم.

واصلنا المسير وراء دليلنا إلى أن وصلنا إلى «أبي ذر»، إمام يخطب في مجموعة من مقاتلي «حزب الله» تتهيأ للتسلل إلى وراء خطوط العدو ومهاجمته. صورنا الأمر برمته، وتابعنا المقاتلين حتى نقطة ما حيث تم إيقافنا وقيل لنا: «هنا آخر ما يمكن أن تصلوا إليه، أما مقاتلونا فإنهم سوف يقضون عدة ساعات حتى ينجحوا تسللًا في الوصول إلى هدفهم، ثم سنرى ماذا يمكن أن نفعل معًا».

عدنا إلى الوراء، نزور بيوت المنطقة وأُسر بعض الشهداء، ونرصد كيف تجري الحياة على خط النار هناك في الجنوب اللبناني، لم أكن أعبأ بأنني مصري وأنهم لبنانيون، وأنني سنّي وهم شيعة، كنت أمارس مهامي المهنية، ومنها أن أنقل للمشاهد ما أرى كما أراه، لم يكن لدي حكم مسبق، ولا موقف مسبق، لكن إعجابي كان يزداد كل يوم بما أشاهده وأعايشه: تنظيم دقيق إلى أعلى درجة، انضباط شديد، تفانٍ في العمل، عطاء يومي لا ينقطع، خبر نقرؤه سطورًا قليلة في الجرائد عن عملية قام بها «حزب الله» وراء خطوط العدو، ولا نعرف كم من جهد بُذل لأجل ذلك.

حينها كانت بندقية «حزب الله» تتجه في دقة شديدة إلى صدر العدو، وكان ذلك يفرحني، كما أفرحني عندما قال لي دليلنا: «حان الموعد الآن، سنذهب معًا إلى منطقة مرتفعة سترون منها

موقعًا للعدو تتهيأ الوحدة العسكرية التي رأيتموها وصورتموها لمهاجمته»، مشينا وراءه مسرعين، وصلنا إلى حيث أراد، قال: «بإمكانكم التحرك في هذه المسافة»، ثم أشار إلى الجهة الأخرى وقال لنا: «ثبتوا عدساتكم في هذا الاتجاه، هذه الثكنة سوف تتعرض بعد دقائق لقصف رجالنا»، كان العَلَم القبيح نفسه مرفوعًا مغروسًا في أرض عربية، ضاق صدري إلى أن تفجرت القذائف في اتجاه الثكنة الإسرائيلية، كنا نسمع صوت صياحهم، العلم انتكس، وصدري أثلج، وعشت وقتًا من أسعد أوقاتي، أما قلت لكم ثمة ثأر لا يهدأ؟

بعد ذلك، وفي الموعد المحدد أيضًا، تمت إجراءات التفتيش كما هو المعتاد، صودرت هواتفنا، كل ما أعرفه أننا في «الضاحية الجنوبية»، ومنذ أن دخلنا البناية لا تسألني عن تفصيل، تمت استضافتنا في غرفة وقيل لنا هنا سيكون اللقاء، جهزوا أنفسكم، بقينا بعض الوقت إلى أن دخل الرجل، هذا هو إذن الذي يقولون إنه «السيد»، تبادلنا التحايا، ودارت الكاميرا، ودار معها الحوار، لاحقًا قال الرجل لمجموعة من الصحفيين إن أفضل عمل أنتج عن «حزب الله» كان لهذا الصحفي المصري.

قال لي زميلي بعد أن أتممنا تصوير الحلقة بكاملها وبعد أن انتهيت من كتابة النص: «لم تكن بهذا الحماس لهذا الموضوع حين بدأنا التصوير»، قلت له: «نعم، لم يكن لي موقف سلبًا أو إيجابًا، سوى أن هناك خط تماس بيننا ألا وهو العدو المشترك لكلينا، الموقف يحدد ملامحه ما أراه وما أسمعه وما أقرأه»، وقد كنت مقتنعًا بكل حرف كتبته وقلته.

اقرأ ما يعده الباحث جيدًا، ثم اقرأ أنت من مصادرك

المختلفة وبطريقتك الخاصة، ثم دقّق، ثم فكّر، ثم أعد أسئلتك، شمّر عن ساعديك وانزل إلى الأرض، الكتابة التي تضمها المكتبات وشاشات الكومبيوتر منزوعة الدسم، منزوعة الأحاسيس، الأرض وحدها يا صديقي تحدد الموقف، هكذا أحدث نفسي قبل كل عمل.

كنت كعادتي وقت بث البرنامج مضطربًا للغاية، أرقب الساعة لأعرف متى ينتهي بث الحلقة. «أبو جاسم»، مدير القناة، أبلغني قبل بثها أنهم تلقوا أكبر عدد من الإعلانات حتى إن الوقت لا يسعها، الناس تريد أن تعرف من هو «حزب الله». كورنيش «بيروت» مكتظ كالعادة، اتصال من الزميل «علي حلني» في «مقديشو» يبدي إعجابه بختام الحلقة: «الانحناء أمام العدو لا يكون إلا لزرع القنبلة».

عدت مرة أخرى إلى «لبنان» ومن ثَمَّ إلى الجنوب، علمت أن «أبا ذر» الذي صورناه في ذاك اليوم يعظ المقاتلين، أصرَّ أن يخوض معركة بنفسه، قال لهم إن الإمام لا يجب أن يتقدم الناس فقط في الصلاة وإنما في الحرب أيضًا، ولما أُعلن عن انسحاب «إسرائيل» ذهب إلى الخط الفاصل حزينًا أن المعركة قد انتهت دون أن يشارك، لكن رصاص قوات العدو أصابه وهي تنسحب، وكانت قصته أحد أفلام «يحكى أن».

اعترفْ.. هل أنت الآن نادم على ما فعلت؟

عندما بدأت الأخبار تتواتر، قلت لا، ثمة خطأ ما، كيف للذي حارب العدو أن يحارب الشقيق؟ كيف يضل الطريق؟ إنه منطق «داعش» نفسه، علينا أن ننتهي من المنافقين حتى نفرغ للعدو الصهيوني، والمنافقون في قواميسهم هم أولئك الذين يختلفون

عنهم، كنت وما زلت أسأل نفسي، كيف يتوضؤون ثم يغرسون الرصاصة في قلوب الأبرياء؟ كيف يصلون ويرفعون أكفهم إلى الله، وهم يدعمون رجلًا يحرق شعبه ببراميله؟

اعترفْ.. هل أنت الآن نادم على ما فعلت؟

الكتابة هي ربما البضاعة الوحيدة التي لا يستطيع بائعها منح المشتري صك ضمان، الكاتب يكتب «اليوم» كما يراه الآن، وليس كما سيكون في المستقبل، وكذا يفعل صانع الفيلم الوثائقي، الإثنان يصوبان عدساتهما وحروفهما نحو الهدف بدقة، والمحترف الأمين هو الذي يحرص ألا تنحرف عدته كما انحرفت بندقية «حزب الله».

السادسة والعشرون

لماذا يتغير المناضلون؟

لا أتذكر اسمه، لكنه يقفز إلى ذهني من حين لآخر، كان فيلمًا عن قرية إيطالية خلال الحرب العالمية الثانية وقد وصلها نبأ يفيد أن قوات العدو في الطريق إليها، ولأنها لا تملك السلاح للمواجهة، فكرت وفكرت وتوصلت إلى فكرة تعتمد على عمل جماعي، وهو الأمر الذي استمتعت به حينها: كيف يقرر الناس أن يتكاتفوا من دون شكل تنظيمي محدد لتحقيق غاية محددة.

تذكرت هذا الفيلم عندما زرت «كوسوفو» وهي تحت الاحتلال الصربي الذي يتشابه مع الاحتلال الصهيوني إلى حد كبير في وسائل القمع، فقد قررت السلطات الصربية إغلاق المدارس الألبانية بالكامل، وكان هذا يعني أن أجيالًا ستكبر أميَّة غير متعلمة. أفزع الأمر الأهالي، لكنهم فكروا وفكروا إلى أن توصلوا لفكرة تعتمد على عمل جماعي: يتنازل بعض أصحاب البيوت عن بعض الغرف في منازلهم لفتحها أمام التلاميذ، ويتطوع المدرسون لتعليم الأطفال بالمجان، ويتطوع آخرون لنقل التلاميذ.

وهكذا كانت العاصمة «بريشتينا» تبدو خلية نحل صباحًا والتلاميذ يتوجهون إلى تلك «البيوت/ المدارس»، لم يشتك أحد من الإزعاج، أو من أي تلفيّات يسببها الصغار، وتبارى الناس على

القيام بأعمال الصيانة والتنظيف، وهكذا تكونت ورشة عمل جماعية مجانية لشعب قرر مواجهة التخلف الذي كان الاستعمار يحاول فرضه عليه.

ولأن السلطات الصربية لم تغلق المدارس فحسب وإنما أيضًا الشركات والمصانع، أصبح الشعب عاطلًا عن العمل، فهاجر الآلاف إلى أوروبا بحثًا عن لقمة العيش، لكن همّ المهاجرين لم يتوقف عند سد حاجاتهم الشخصية فقد راحوا يحولون جزءًا من مدخراتهم شهريًا إلى عوائلهم في «كوسوفو»، ومن ليس له قريب يعمل في الخارج يتلقى دعمًا من جاره الذي له قريب يعمل في الخارج ويرسل له شهريًا جزءًا من المدخرات.

سهل أن تحمل سلاحك وتوجهه إلى صدر عدوك، فالمسافة الزمنية قصيرة بين أن تقتله أو يقتلك، لكن النضال عبر الوسائل الأخرى يحتاج صبرًا وعزيمة لا تنفد، ولكل سلاح حكمته، سواء كان بندقية أو تمردًا مدنيًا، أو تعاونًا بشكل جماعي على شاكلة ما فعلته «كوسوفو».

كنت أسمع وأشاهد حكايات نضالهم وأندهش، لم أكن متشائمًا، لكن ما ظننت أنهم سينالون حريتهم على الأقل في حياتي، لكن المعركة بدأت، حين ملّ بعض الشباب من «سلمية» الزعيم الألباني «إبراهيم روجوفا» فقرروا تكوين فرقهم المسلحة. تصارع طويلًا الفريقان، لكن السلاح أعلى صوتًا، وفُرض الأمر الواقع، وبدأت الصدامات المسلحة بين الألبان المسلحين وبين قوات الشرطة أو الجيش الصربي، ثم بدأت المعركة الشهيرة التي تدخل فيها «الناتو» لصالح ألبان «كوسوفو».

وعلى شاكلة ما حدث في «البوسنة»، توجه بعض المجاهدين

العرب إلى «كوسوفو»، قيادات جيش تحرير «كوسوفو» رفضت وجودهم منذ أول لحظة، فهمتُ ذلك على أنه رسالة تطمين إلى «الناتو» وأوروبا، ومضت المعركة من دون العرب إلى أن تحقق لهم طرد الصرب ووضع الإقليم تحت الرعاية الأوروبية، ثم لاحقًا الاستقلال.

ائتِ إلى «كوسوفو»، إلى أي مدينة أو بلدة أو قرية، اطرق باب أي بيت، أي بيت، واسأل، لن تعدم عائلة إلا وتحكي لك عن معاناتها في الزمن الصربي، ألف حكاية وحكاية يمكن أن تسمعها هناك، وقبل الحكايات ستشاهد بنفسك قبور الشهداء في كل مكان، سواء كانوا المدنيين الذين قتلوا على يد الصرب في مذابح فردية وجماعية، أو المقاتلين خلال المعارك.

لكن غير حكايات الضحايا، هناك حكايات النضال والمقاومة؛ ولذا تحقق لهم ما تحقق وفازوا باستقلالهم. في نظري لا أحد يهزم الشعوب، الهزيمة إن وقعت تلحق بالقادة، وكان ملفتًا بالنسبة إليّ في كل زيارة إلى «بريشتينا» العاصمة بعد الانسحاب الصربي أن أجد الدم وقد تدفق في العروق، بدت المدينة لي وكأنها تخرج من نوم أهل الكهف: الناس في الشوارع، الشركات والمصانع تفتح أبوابها، المطاعم والمقاهي، كل شيء، كل شيء كان يعلن ولادته من جديد.

كانت ظاهرة بالنسبة إليّ محطات التزود بالوقود التي انتشرت هنا وهناك، ليس في نشأتها ولكن فيمن امتلكها، فقد وزعت بصورة أو بأخرى على شباب «جيش تحرير كوسوفو» الذي خاض معركته ضد الصرب، فهمتُ ذلك على أنه مكافأة للجهود المبذولة، ولكن رويدًا رويدًا زاد الأمر عن حدّه، ومرت السنوات وبدأ الحديث يخرج إلى العلن.

«جيش تحرير كوسوفو» تحول إلى «الحزب الديمقراطي الكوسوفي»، وترأسه «هاشم تاتشي» القائد المقاتل العنيد، ضمن العملية السياسية التي بدأت مع تأسيس الإدارة الدولية في «كوسوفو»، وانتهت بفوز هذا الحزب في انتخابات نوفمبر عام ألفين وسبعة، وتشكيل «تاتشي» الحكومة التي أعلنت الاستقلال عن «صربيا» في السابع عشر من فبراير عام ألفين وثمانية. لاحقًا اتهمته تقارير محلية ودولية بالضلوع في ارتباطات بالمافيات التي تسيطر على تجارة المخدرات وتهريب النفط والبشر.

الناشر الكوسوفي المعروف «فيتون سوروي» أصدر كتابه «أرجل الثعبان»، الذي يحكي فيه سيرة «هاشم تاتشي» وأهم رجالات «جيش تحرير كوسوفو»، وكيف أن «تاتشي» عمل من خلال علاقاته مع عصابات المافيا على السيطرة على مفاصل الاقتصاد والدولة الكوسوفية خلال ولايتين من حكمه.

صديقي البروفيسور «محمد الأرناؤوط» تعرض في كتاباته لهذا الكتاب، الذي قال إنه خصّص خمس صفحات للعلاقات بين «هاشم تاتشي» وجماعته وبين إسرائيل، وفيه يكشف المؤلف أن «تاتشي» كان يرأس فريق التفاوض الكوسوفي مع «صربيا» في «فيينا» الذي انتهى عام ألفين وسبعة باقتراح الرئيس الفنلندي آنذاك «مارتي أهتيساري» مشروعه حول «الاستقلال المشروط». وذكر الكتاب أن التشاور بدأ بين الفريق الكوسوفي حول الدول المؤثرة التي يمكن أن تساعد في تأمين الاعتراف الدولي باستقلال «كوسوفو» ليفاجأ الحاضرون بتاتشي يقترح أن يتم ذلك من خلال السفارة الإسرائيلية في «واشنطن».

اعتقد الحاضرون في تلك اللحظة أنها مزحة أو غلطة، ولكن

«تاتشي» أكد ذلك ثانية في نهاية الاجتماع مع اندهاش الحاضرين، فقد كان المطلوب اقتراح دولة أو دول لها تأثير في العالم العربي الإسلامي؛ ولذلك لم يكن مفهومًا كيف يمكن لإسرائيل أن تضغط على دول عربية وإسلامية للاعتراف بكوسوفو.

ويكشف المؤلف عن زيارة قام بها «تاتشي» مع «قدري فيصلي»، رئيس جهاز الاستخبارات في «جيش تحرير كوسوفو»، للكيان الصهيوني عام ألفين وسبعة، أي قبيل إعلان استقلال «كوسوفو»، حيث قابل «تاتشي» بعض السياسيين، بينما انشغل «فيصلي» بلقاء مسؤولين في «الموساد».

وفي غضون ذلك ـ والحديث منقول عن «أرناؤوط» ـ لفتت الأنظار أن «تاتشي» حَرِصَ على اتخاذ شاب إسرائيلي مستشارًا له حتى يرشده إلى عالم الموضة، بعد أن كان يكتفي أيام الكفاح المسلح بالسترة الفيتنامية، وكيفية التعامل مع الأحداث وإبداء التصريحات عنها بالشكل المناسب وفي الوقت المناسب.

وربما تفيد هذه الخلفية في فهم موقف «تاتشي» خلال حرب «غزة»، بالتعبير عن إعجابه بإسرائيل على صفحته في مواقع التواصل الاجتماعي، مستذكرًا زيارته «إسرائيل» عام ألفين وسبعة التي اعترف بها علانية للمرة الأولى.

الكتاب تعرض أيضًا إلى «حازم سيلا» القائد العام السابق لأركان «جيش تحرير كوسوفو»، فقد كشف أنه لجأ إلى «سويسرا» عام ألف وتسعمئة وأربعة وتسعين وحصل على صفة لاجئ سياسي من «يوغسلافيا» التي كان يحكمها «ميلوسوفيتش»، ثم عرض على السلطات وثائق تثبت أنه عاجز بنسبة مئة في المئة لكي يحصل على تقاعد صحيّ مجزٍ، ولكن السلطات السويسرية اكتشفت لاحقًا أن

هذا العاجز أصبح عام ألف وتسعمئة وتسعة وتسعين رئيس أركان «جيش تحرير كوسوفو» ثم نائبًا في البرلمان الكوسوفي، لترفع عليه دعوى لاسترداد نصف مليون فرنك سويسري.

وكشف الكتاب أيضًا كيف أن هذا العاجز تابع دراسة الماجستير والدكتوراه في الولايات المتحدة وأصبح اسمه د. «حازم سيلا» في سيرته الذاتية الموجودة في البرلمان الكوسوفي، ليتبيّن الآن مع الكتاب أن لا وجود لاسمه في جامعة «لاينيز» في ولاية «نيو مكسيكو» التي ادعى أنه حصل على الدكتوراه منها.

هل أنت مندهش مما قرأت؟ أنا مثلك، وربما أكثر لأني شاهدت هؤلاء الناس والتقيت ببعضهم، وأعرف كيف كانت الظروف حينها، الرصاصة والقذيفة والحروق والتعذيب إن سقطت أسيرًا، الخندق والجوع والبرد، وهذا أدعى أن أسأل نفسي كيف لمقاتل خرج من بيته وقد وضع روحه على كفِّه، لا يعلم إن كان سيبقى حيًّا أو يموت، أن يتحول إلى مثل هذه الكائنات؟

لماذا يتغير المناضلون؟ لماذا يستبدلون البندقية بالكرسي؟ لماذا يتنازلون عن أرواحهم الطاهرة؟ لماذا تتلبسهم الشياطين؟ لقد غامروا بحياتهم ولم يكونوا على ثقة أبدًا أنهم سينتصرون، أو على الأقل سيكونون أحياء عند الانتصار، وعلى رغم ذلك يتحولون إلى هذا النقيض. لقد اكتشفت أن بعض الشعوب تنتصر فيما تكون الهزيمة من نصيب قادتها.

السابعة والعشرون

هل نالت الفتنة منك؟

حذروني منه، قالوا لي: «سوف يضجر بتعليمات التصوير، وقد يفقد أعصابه معك، فتحّمل ثورته». في الموعد وصل الرجل بشوشًا لطيفًا كأنه طيف، أبدى استعداده لفعل أي شيء حتى يدلي بشهادته عن رئيسه المتوفَّى، مَثَله الأعلى، موضوع حكايتنا.

تمعَّنت في هيئته وهو منهمك في الإجابة عن أسئلة الحوار. لقد بدا الرجل بنظارته السميكة ويديه المرتعشتين عجوزًا هرمًا خارج إطار الحاضر. طلبنا منه أثرًا له من صباه، أخبرتني صوره أنه كان شابًا جميلًا، أنهينا الحوار، خرجنا إلى شوارع المدينة.

كان كل ما حولي خلابًا، الصبايا والشباب والشجر وحتى الحجر، هرج ومرج وفرح، والرجل يمشي بينهم، لا أحد يأبه له، لا أحد يهتم به، لا أحد يعرفه، ولا أحد يدرك أنه لولا هذا الرجل ورفاقه ربما ما بقيت مئذنة، ولا سمع في الأنحاء «حيَّ على الفلاح»، ولا سُمِّي طفل بأسماء المسلمين، ولا بقي قبر منقوش عليه «الفاتحة». هو ليس زعيمًا سياسيًا، ولا رجل أعمال، ولا فنانًا ولا كاتبًا، هو ليس سوى «مصطفى»، سار بينهم مبتسمًا ورحل.

سرحت في شأنه، لقد أفنى هذا الوسيم شبابه في دعوة الناس

إلى ما يؤمن به والدفاع عنه، تحمل السجون وضيق الحال وفقدان الوظائف ونظرات المجتمع له. يا إلهي! سهلٌ أن تتشبث بما تؤمن به عامًا أو عامين أو عشرة، لكن البقاء هكذا طوال عمرك أمر صعب.

ما أجمل هؤلاء الناس، إنهم يمضون في الحياة بلا ضوضاء أو صخب، مجهولين، يؤدون في هدوء أدوارهم كاملة ثم ينصرفون، لا ينتظرون أجرًا ولا شكرًا، تمر السنون، تتغير عليهم الدهور، وهم ثابتون على المبدأ نفسه، لا يرضخون لأي تهديد ولا يستجيبون لأي إغراء.

ليس سهلًا عليك أن تثبت وأنت تجد نفسك وحدك، كل من حولك مختلف عنك، في الفكر والمعتقد، في الآمال والآلام، إنه الشعور بأنك أقلية، وهو شعور يُضعِف، ويُشكِّك فيما تؤمن به، ويُثخن في عزيمتك.

تُرى لماذا نحترم هؤلاء الثابتين على قيمهم برغم أنهم ربما لا يحملون أفكارنا نفسها ولا معتقداتنا نفسها؟ أهو السر في الإخلاص، مبدأ العطاء بلا مقابل، منطق الجندية للفكرة وليس للأشخاص أو المنصب؟

كم من زعيم سياسي، كم من قائدٍ عسكري، كم من مفكرٍ، التقيته وشعرت بأنّه على استعداد للقفز من الخانة التي يقف عليها ـ ويستمد منها قوته ـ إلى الخانة المقابلة! إنه جاهز للتنازل في اللحظة التي يوعَد فيها بمغنم أكبر من مغنمه الحالي.

عندما أتابع الإعلام المرئي في بلدي يرد إلى ذهني فورًا مشهد القرود في حديقة الحيوان وهي تقفز من شجرة إلى شجرة، لا مانع لدى بعض هؤلاء من القفز من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار،

يمدحون هؤلاء وهم في السلطة، وفي اليوم التالي يمدحون معارضيهم إذا أسقطوا الأولين وحلوا مكانهم.

أليس من المضحك أن زعماء جمهوريات «الاتحاد السوفياتي» كانوا قيادات شيوعية عريقة، فلما سقط هذا الكيان كفروا بشيوعيتهم وأعلنوا إيمانهم بالديمقراطية، وإن ظلوا على عقيدتهم الشمولية يمارسونها سرًّا، يعتقلون ويسفكون الدماء ويسرقون؟ وفي المقابل، كم من البسطاء كانوا يدفعون الثمن، بنفس راضية وبعزيمة لا تهدأ وبثبات يبهرك.

من نكات البلقان المشهورة، والتي تنسب أحيانًا للبوسنة وأحيانًا إلى «ألبانيا»، أنه بعد سقوط الدولة العثمانية، وبالتالي سقوط المناطق التي كانت تحميها في البلقان، بدأت حملة شرسة لتنصير الأهالي، وفي إحدى القرى اصطفَّت مجموعة من المسلمين للتنازل رسميًا عن هوياتهم وتغيير أسمائهم رغبة في النجاة من التهجير أو القتل وطمعًا في الوظائف، ولما كانت الإجراءات تسير بطيئة، والوقت يمر سريعًا في ذلك اليوم من الأسبوع، صاح عجوز ببساطة شديدة: «أسرعوا أسرعوا لا نريد لصلاة الجمعة أن تفوتنا»!

وي! كأن حتى هؤلاء الضعفاء تظاهروا بأنهم تنازلوا، فيما استمر ثبات قلوبهم على ما يؤمنون به، وي! كأنه يجب ألا نطلب من كل الناس أن يخوضوا حروبهم كأبطال، البعض يختار أن يحتال ليخفف عن نفسه وطأة الثمن، لا بأس، شرط أن يظل ثابتًا على ما يؤمن به، شرط ألا يبدأ في التنازل خطوة خطوة.

بالمناسبة، فإن أحدًا لا يتنازل فجأة عن مبادئه، الكارثة قرينة الخطوة الأولى، تخطوها على السلم هابطًا، وبعد ذلك تُفتَح أمامك وتُبرَّر كل أبواب التنازلات، تمامًا كما يصف القتلة فعلهم،

أول مرة صعبة للغاية، لكنك بعد ذلك تعتاد القتل وتبرره. الذنب كذلك، والتنازل كذلك، أليس التنازل ذنبًا؟

الصمود صعب لكنه ليس مستحيلًا، يغيظني الصالحون، إنهم يثبتون أن ذلك ممكنٌ، لكن هل تعلم أنك إذا ما مررت بفتنة وثبتَّ فيها على ما تؤمن به، فإن ثمة فتنة أخرى تنتظرك، ربما أشد من سابقتها، أو مختلفة عنها، فإذا مررت بها كانت تنتظرك أخرى، وهكذا دواليك؟ وكأنك في معمل لصهر المعادن، تمر من مرحلة إلى مرحلة، حتى تصبح نقيًا تمامًا، وفي خضم ذلك فإنك تَعُدُّ الأذى الذي يقع عليك، وتَغفل عما حصدته من نِعَم.

مثلًا، تُضطر إلى أن تهجر وطنك تحت ضغوط سياسية أو أمنية محاولًا أن تنجو بما تؤمن به، تعاني كل صنوف المعاناة، تمر سنواتك ثقيلة مجهدة، ثم فجأة تجلس لتحصي حصاد هذه التجربة، فتكتشف أنها قد خلقت فيك شخصًا آخر، ومنحتك قدرات وملكات لم تكن لتتمتع بها لو بقيت حيث ولدت، أنت الآن شخص جديد، وقد رزقت مفاهيم أخرى للحياة، وطرقًا جديدة لاكتشافها، وتجربة إنسانية ثرية، حتى تكاد تشكر الفتنة على ما فعلته بك.

حين أسافر وأسير في طرقات غير عربية، أنظرُ إلى هؤلاء فأراهم متسكعين غرباء في شوارع وأزقة مدن غير مدنهم، وبين أناس غير أهلهم، يتحدثون بلسان غير لسانهم، إنهم ساخطون، متذمرون، يعتقدون أن الدنيا قد غضبت عليهم وغدرت بهم ولفظتهم، يقضون أوقاتهم في الشكوى من الحال، ومؤامرات الكون عليهم، والتضحيات التي تحملوها من جراء تمسكهم بمبادئهم.

وددت لو أعانقهم واحدًا واحدًا، وأخبرهم أنني إذا منحت الحياة وعدت إليهم بعد سنوات لأجدنَّهم وقد تغير حالهم إلى ما لم يكونوا يحلمون به، لكنني أمسك عن ذلك، فالأمر مشروط بمبدأ مهم، وهو كيف يدير المرء فتنته، كيف يفكر ويخطط ويخوض التجربة تلو التجربة، فهؤلاء وحدهم الذين يتغير بهم الحال إلى الأفضل.

ولكن، مهلًا ما الفتنة التي تحدثنا عنها؟ وما تعريفها؟

حسب «لسان العرب» فإن «الأزهري» قال: «إن معنى الفتنة هو الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد»، يا إلهي! إنها النار إذن، تؤلمك جدًّا، لكنها تنضجك كثيرًا.

غير أننا معشر المخلوقين، نعتقد أن الفتنة التي تحاول أن تنزعنا من مبادئنا محصورة في الأذى، والحقيقة أن للنار أشكالًا متعددة، خذ عندك مثلًا هذا الشخص الذي عرفته فقيرًا مسكينًا مضطهدًا في وظيفته، فإذا بالدنيا تفتح أبوابها عليه، فينال المنصب والثروة، فإذا هو شخص جديد، مختلف تمام الاختلاف وقد ضيع مبادئه وقِيمه، بعد أن قدم التنازل تلو التنازل حتى بات شخصًا آخر، شخصًا أسوأ هذه المرة.

والمبادئ ليست بالضرورة أيديولوجيات، وإن كانت تلك من ضمنها، وإنما هي تلك القيم التي يختارها المرء لنفسه، والتي هي بقدر ما تكون واضحة له تصبح قدرته على اتخاذ القرار أكثر سهولة.

يا عزيزي المقاوم، إذا صمدت فإن الفتنة تزول وتبقى نفسك كريمة عزيزة، تستطيع النظر بفخر في عيني امرأتك وأطفالك، فيما آخرون لن يكون بوسعهم ذلك أبدًا.

لكن هل الثبات على ما نؤمن به في مطلقه ممدوح؟

وماذا إذا اكتشفت أنك على خطأ، أو حتى بعض ما تؤمن به خطأ، هل تتغير؟

يا صاحبي: الثبات لا يعني الجمود، ثم أنت لا تتبع قيمك لأنك تقدسها في حد ذاتها؛ ولكن لأنك تعتقد أنها دربك إلى الحقيقة، فإذا اكتشفت أنك في حاجة إلى تصحيح دربك أو تغييره كليًا حتى تصل إلى ما تبغي أن تصل إليه، إذا اكتشفت هذا الأمر ولم تفعل، فإن ذلك هو الخيانة الواضحة والصريحة، وهنا تكون الفتنة قد نالت منك بحق.

الثامنة والعشرون

أصل الحكاية

في عام اثنين وسبعين، منحتني أختي خمسين قرشًا لأقتني كتاب «عودة الوعي» لتوفيق الحكيم، كان من عادتها أن تدفع لي لأشتري من الكتب ما شئت، سواء أكانت على قناعة بالمنشور أم ضده، لكنها اندهشتْ بعد أن اطّلعت على موضوع الكتاب، فقد كنتُ حينها مشبعًا تمامًا بكل أفكار ثورة يوليو، متحمسًا لها، مغنيًا بها، ومن ليس بوسعه أن يهيم بأفكار العدالة الاجتماعية، والمساواة، والكرامة الوطنية، والتحرر، إلى آخر ما كان من شعارات المرحلة؟ وكانت بالتالي تعرف حبي الشديد لعبد الناصر.

كان منطلقي وعمري حينها ستة عشر عامًا هو أن أحيط بوجهة النظر الأخرى، فإما أن أثبت على فكرتي أو ألفظها، كنت شغوفًا أن أعرف رأي «الحكيم» في تقييم الواقع وفي ثورة يوليو، وهو الذي كان يعتبر أن المهمة الكبرى لحامل القلم والفكر هي الكشف عن وجه الحقيقة، وإنْ كان سؤالي حينها لماذا الآن؟ ألا يجب على الذين يبحثون عن الحقيقة أن يتحلوا بالشجاعة ليعلنوها في حينها وليس بعد عشرين عامًا؟

وهو المنطلق نفسه الذي حركني بعد ذلك بسنوات، حين كتبتُ وزميلي «صلاح الدين» جريدة حائط، وقمنا بتعليقها في

صدارة صالة مبنى إعدادي بكلية الهندسة بالإسكندرية، وكان عنوانها لافتًا: «سيدي الأمير يحارب طواحين الهواء»، كان المعتاد حينها هو أن يقوم الطلاب بنشر مقالاتهم في مجلات حائطية ومكتوبة بالخط العادي، لكننا استبدلنا ذلك بمجموعة من الورق المقوي الكبير وكتبنا عليها مقالنا الصادم حينها بحروف كبيرة.

في ذلك الوقت كانت الجماعات الإسلامية في بداية عصر صعودها، وكانت فكرة تحديها تخيف الكثيرين لارتباطها بالدين ومقدساته، فما بالنا وقد استهدفنا رأس الجماعة (سيدي الأمير)؟ كنا نقف في الصالة حين فوجئنا بالمعيد «تاج الدين» وهو ينزل من مكتبه بصحبة عدد ضخم من الشباب الملتحي من «الجماعة الإسلامية»، الذين كانوا حادّي الطباع والكلام، حتى قدرتُ وصديقي أننا سنتعرض للضرب لا محالة، لكنه أمرهم أن يصمتوا ففعلوا وحدثنا بأدب جمٍّ، وطلب أن نرفع مجلتنا ورفضنا وعرضنا الحوار بديلًا فوافق على أن يُجرى في مكتبه.

صديقي «صلاح» كان يعرف أنني مواظب على صلواتي لكنه اعترض بشدة أنني بدأت التردد على مُصلّى الكلية الذي كان بمثابة معقل للجماعة الإسلامية، وكانت وجهة نظري أن المسجد ليس لهم وحدهم، وداخلي صوت يلح عليَّ أن أعرف ماذا يريد هؤلاء، ليس عندي أي غضاضة أن أقفز من موقعي إلى موقع خصمي لأتأكد بنفسي ماذا يريد، أهو على حق أم أنا؟

أن تجد الحقيقة يستلزم أولًا أن تكون مخلصًا لها، لها وحدها وليس لسواها، مستعدًا للتنازل في الحال عما لديك إذا كان يجافيها، فإذا وضعت أسوارًا في البداية بينك وبين أفكار الآخرين، ورفضت أن تسمعها وأن تفكر فيها بعمق وإخلاص وتجرد فكيف تصل إلى الحقيقة؟

كذلك فإن الأمر يحتاج إلى شجاعة فائقة، نعم، أن تكون لديك الشجاعة أن تتحول إلى ما كنتَ تعاديه إذا ثبت لك أنه الحق، أن تكون من حيث المبدأ جاهزًا لأن تخرج على المجتمع فتقول كنتُ على خطأ، وقد اعتنقتُ الآن ما أرى أنه الحقيقة. والحقيقة ليست لها لون ولا طعم، فهي ليست مرتبطة بأشخاص ولا أقوام، فلا المسيحية هي التي تدفع أتباعها لقتل أهل «ناجازاكي» و«هانوي» و«بغداد»، ولا الإسلامِ هو الذي يوحي لأتباعه بفعل ما يفعله بعضهم الآن، وبالتالي فإنَّ حكمكَ يجب أن ينصبّ على الفكرة لا على أتباعها.

كثير من الذين ألحدوا لم يفعلوا ذلك قناعة بالأمر قدر كراهيتهم لأهل الدين وسلوكياتهم، وكان عليهم أن يدركوا أن المسافة شاسعة بين هؤلاء وبين الدين الذي يزعمون أنهم يعتقدونه.

بدأت أقرأ في ديني أكثر، فوجدت أنه يتحدث عن الأخلاق، لقد اختصر الرسالة كلها في «لأتمم مكارم الأخلاق»، وجدتني في مأزق، ففي هذا الوقت كان التنظير والتأطير والحوارات والمظاهرات والندوات جارية على قدم وساق، وكان الرفاق يدخلون في نقاشات ملتهبة، وهم يدخنون، وشعورهم مرسلة مبعثرة، يتحدثون عن البروليتاريا، وصراع الطبقات، والديمقراطية البرجوازية، ومواجهة الشعبوية، والاستعاضة عن الديالكتيك بالمذهب الاختياري، وأهمية الحركة الستاخانوفية، فيما الإخوة يتحدثون عن الصدق والإخلاص والأمانة؛ يعني عن مكارم الأخلاق.

كانت عبارة «اللي يكذب حيروح النار» ـ التي كان أهالينا يقولونها لنا ـ مثار ضحك وسخرية بين جيلنا ونحن صغار، كانت

النصائح الأخلاقية المباشرة هي سمت الجيل القديم، وليس جيلنا التواق إلى الحرية، الساعي للتغيير، المتمرد على القوالب الجاهزة. وظللت أفكر لماذا لم يخرج مفكرونا بحزمة من المصطلحات العصرية؟ ولماذا ليست هناك أطروحات تعتمد على صحيح الدين لتقدم حلولًا وخططًا ورؤى متوائمة مع روح العصر؟

في عام ألفين واثنين ذهبت إلى «كازاخستان» بخصوص إحدى حلقات برنامج «نقطة ساخنة»، لكن فكرة أخرى لبرنامج «يُحكى أن» كانت تناديني من «سيمي بلاتينسيك» شمال شرق البلاد، فبدءًا من التاسع والعشرين من الشهر الثامن لعام تسعة وأربعين، وعلى مدى أربعين عامًا، أجرت السلطات السوفياتية أربعمئة وستًا وخمسين تجربة نووية في هذه المنطقة، يُقال إنها كانت من القوة ما بلغ ألفين وستمئة مرة ما كان لقنبلة «هيروشيما».

لقد مات من الناس من مات، وهُدّم من البيوت ما هدم، والأسوأ هم أولئك الذين عاشوا، فقد أصيبوا بالأمراض جراء التأثيرات النووية، وأنجبوا أطفالًا مشوهين، وأصيبت المنطقة بالجفاف، وجفت المياه في الآبار والينابيع، وتُوفّيت حيوانات كثيرة بعد أن فقدتْ الأعشاب مصدرًا لغذائها، كان المشهد بحق مرعبًا.

وما فعله السوفيات بحق سكان هذه المنطقة المسلمين، مشابه لما فعلته «أمريكا» في «نيفادا» حيث يعيش الهنود الحمر، وما فعلته «الصين» في مناطق «الإيغور».

أحيانًا لا تحتاج إلى دراسات وأبحاث لتقرر موقفك، تحتاج فقط إلى أن تُعمل عقلك، أن تنظر حولك وتفكر، ولقد دفعني ما رأيت إلى التفكير طويلًا طويلًا، كنت أسأل نفسي ـ وهذا مثال من عشرات الأسئلة ـ ما الذي يمكن أن يردع صاحب القرار عن أن

يتخذ مثل هذا القرار بقتل الملايين وتشويههم؟ ما الذي يمكن أن يمنع الطيار من أن يقذف بقنابله النووية على شعوب مسالمة فيموت الناس وتولد أجيال مشوهة تعيش طيلة حياتها معذبة؟ من له هذا السلطان على القائد وعلى الجندي.. سوى الأخلاق؟!

وهل الاستبداد والديكتاتورية والفساد والاستعمار وانتهاك حقوق الإنسان والتعذيب والاغتصاب إلا سوء أخلاق؟

فكرت وتخيلت أنني بهذا وصلت إلى أصل الحكاية.

التاسعة والعشرون

الناس.. الثابت والمتغير

ما أن عبر بوابة الكلية حتى أزاح عن وجهه تلك الكوفية التي كانت تغطي ملامحه، ظننت أنه أحد العمال الذين يشتغلون هناك، ربما لشكله الذي يكبرنا نحن الطلاب، وربما لهيئة ملابسه، غير أن أحدهم تطوع وشرح لي الأمر: «هذا «تيمور الملواني»، طالب في هذه الكلية منذ سنوات طويلة، في الحقيقة يقضي حياته بين الكلية والسجن، فهو مناضل شيوعي». خفت قليلًا من فكرة المناضل والسجن، شعرت والزمن عام خمسة وسبعين أن رجال الأمن ينظرون إلينا من حيث لا نراهم ويسجلون كل صغيرة وكبيرة، فنحن في زمن الديمقراطية ذات الأنياب.

لاحقًا وفي ردهة الكلية المخصصة لتعليق مجلات الحائط التقيت به وجهًا لوجه للمرة الأولى، كان قد قرأ ما كتبت ورحَّب بي عضوًا جديدًا ضمن المشاكسين، غير أني تهربت من الدخول معه في نقاش، ربما هيبة لعشرات الكتب التي اعتقدت أنه قرأها، ولتلك المصطلحات المعقدة التي تلوك بها ألسنة الرفاق، لكن العلاقة بيننا بعد ذلك تطورت، وتعرفت إلى مجموعة من الطلاب الشيوعيين واليساريين، أولئك الذين كانوا يكتبون آراءهم في مجلات الحائط ويوزعون المنشورات ويدعون إلى التظاهرات، لكن

ظل «تيمور» هو أكبرهم سنًّا وأكثرهم شهرة وأشدهم صلابة.

شخص لطيف للغاية إذا ما تحدث معك، عنيف جدًّا إذا ما التفَّ حوله المخبرون، كان يدرك أن حاجزًا كبيرًا يفصلنا، لكن ظل كلانا حريصًا على العلاقة، إلى أن حل ذلك الصيف واضطررت لإجراء عملية جراحية خطيرة. أبلغني الطبيب حينها أنني في حاجة إلى تأمين عدد من المعارف والأصدقاء يحملون فصيلة الدم نفسها حتى يُنقل لي عقب العملية، شرط أن يكون طازجًا، أي أن يتم التبرع به في الحال، وقال: «يمكنك أن تأتي بمن لا يحمل فصيلتك فيعطينا دمه، ونعطيك نحن أيضًا دمًا طازجًا من فصيلتك سبق لآخرين التبرع به في الصباح نفسه».

في الموعد المحدد، السابعة صباحًا، كان «تيمور» يستأجر سيارة نقل يمر بها على المتطوعين لينقلهم إلينا، وكان يمكن لرجال الأمن التخلص من كل قيادات العمل الطلابي حينها بضربة واحدة لو أطبقوا على غرفتي في مستشفى «الشاطبي» بعد إجراء العملية، وكان بها كل هؤلاء الشيوعيين واليساريين من كليات مختلفة بجامعة «الإسكندرية».

يمر الزمان وأنا و«تيمور» على علاقتنا، تذهلني هذه الصلابة وهذا الثبات الذي وجدته عليهما، إلى أن حان موعد آخر في ردهة الكلية نفسها، كان هناك اجتماع حاشد للطلاب ومظاهرات عارمة في الجامعة، فيما كان الشيوعيون وشعبيتهم وزمنهم يتضاءل، غير أن «تيمور» لم يجد حرجًا أن يكون وحده دون حتى أقرانه ضمن هذا الحشد معارضًا ومناوئًا.

وصيت بعض «الإخوة» بحماية «تيمور» إذا ما وقعت المواجهة، وبالفعل تبادل على المنصة الخطباء، فلما جاء دوري

وخلال خطبتي قاطعني «تيمور» معترضًا على ما أقول، وصرخ وسط الحشود: «فلنقارع الحجة بالحجة يا «أسعد»»، وكانت هذه الصيحة أشبه بإشارة الهجوم، فقد انقضت عليه الحشود كما توقعت لتفتك به جهادًا مقدسًا، فقامت المجموعة التي اتفقت معها بحمايته وقفزتُ أنا من على منصتي لأنضم إليهم لأحميه وفقدت حينها ساعتي!

بعد حوالي ساعة من هذا المشهد، كنت أجلس معه نحتسي شايًا عند عم «السيد»، وهو الأمر الذي كان غاية في السوء في نظر الكثيرين، كيف تؤانسه وهو عدوك؟ فشلت في أن أشرح لهم، نحن مختلفون لكننا لسنا أعداء وهناك فارق كبير، كنت أظن أن ذلك أمر بديهيٌ واندهشت كيف لا يدركه الآخرون، ولم يكن ليخطر في بالي أن هذه الفكرة البسيطة لن تجد من يناصرها على مدى سنين طويلة وحتى بعد أن قامت الثورة.

باعدت بيننا الأيام ولم أعرف أخباره وظلت صورته في ذهني، ذلك الفتى المناضل الذي لا يتغير، يخرج من السجن كما دخله، الثبات نفسه على المبدأ، حتى في السجن كان يشاكس وقد زاره المأمور مرة في زنزانته بنفسه ليقنعه بالامتثال للقوانين فاحتدَّ بينهما النقاش، فما كان من «تيمور» إلا أن صرخ في المأمور وطرده، بل أمره أن يغلق باب الزنزانة بعد خروجه وكأنه ما كان ليفعل.

على العناد نفسه كان «محب» ولكن بصورة أخرى، فقد خصص هذا القبطي الشيوعي جهده ونضاله في مجال الفكر والثقافة. كان يعيش فوق أسطح المنازل في تلك الغرف البائسة، لكنه شعلة من النشاط، مسرحيات وتمثيليات ومحاضرات وأعمال أدبية، يعمل بجانب دراسته ليتعيش ويستطيع الصرف على مشاريعه

الفكرية والفنية ورسائله الأيديولوجية، وكذلك على أدويته بعد أن هدَّه المرض.

«عصام» كان مختلفًا، زرته مرة في بيته بحيّ «غيط العنب»، اقترح عليّ أن أمنحه بعض الوقت ليطرح عليّ ما أسماها مغالطات القرآن وتناقضاته، كان يجمع التبرعات للمعتقلين وذويهم، ويشارك في المظاهرات، ويوزع المنشورات الممنوعة، شيوعي صلب هو الآخر.

في أحد المؤتمرات التي سُمح بعقدها في مدرج الكلية، اكتشف «عصام» بحكم خبرته في السجون والمعتقلات وتعامله مع رجال الأمن أن ضابطًا بزي مدني متواجد بين الحضور يتابع بنفسه ما يجري، فصرخ «عصام» في الجموع أن هذا هو الضابط فلان من أمن الدولة، فهاج الطلاب والتفوا حوله ثم أوسعوه ضربًا وسبًّا وطردوه من البناية كلها، وكنا على يقين أن «عصام» سيدفع الثمن عاجلًا أم آجلًا.

لاحقًا شارك «عصام» في إحدى التظاهرات التي خرجت في شوارع «الإسكندرية» دعمًا لفلسطين، وفي اليوم التالي كانت قصته حديث الطلاب، فقد ترك جنود الأمن المركزي مهمتهم في حصار المظاهرة وانقضوا على «عصام» ضربًا حتى نُقل إلى المستشفى بين الحياة والموت، وبعد إسعافه نُقل إلى السجن، وكان ذلك بلا شك بأوامر من الضابط إياه وتوجيهاته.

انقطعت عنا أخبار «عصام» الذي كان يعيش قصة حب عنيفة مع الرفيقة «حنان»، لكن بعد سنوات قليلة اكتشفنا أن «عصام» هرب إلى فرنسا وهناك انضم إلى الحزب الشيوعي، واندمج في المجتمع الفرنسي واتخذ عشيقة أخرى وقد نسي «حنان» وحبها.

تمر سنون قليلة ليعود في زيارة قصيرة إلى مصر وقد تغير مظهره تمامًا، من ذلك الشاب الفقير المعدم إلى هذا الثري ببذلته الأنيقة، وحزنت «حنان» ـ وحزنّا معها ـ حزنًا عميقًا على هذا المتغير.

الثلاثون

هل شممت رائحة النبي؟

في منتصف صيف عام ألف وتسعمئة وثلاثة وتسعين، وفيما كانت الحرب دائرة على أشدها في «البوسنة والهرسك»، وصل في يوم خميس إلى العاصمة الكرواتية شاب عربي ثري يحمل أموالًا ضخمة فوضه بشأنها آخرون للصرف على إغاثة المتضررين من المسلمين. وفي ظهر اليوم التالي توجه إلى المسجد الوحيد في «زغرب» لتأدية صلاة الجمعة، نزل من الترام ومشى مسافة كبيرة هي الفاصلة بين المحطة وبين المسجد، على ضفتي الطريق مساحات شاسعة من اللون الأخضر الجميل، تتخلله خيام اللاجئين البوسنيين، نظر الشاب إلى الفتيات الموزَّعات هنا وهناك، بشُقْرهن وشورتهن، وقال: «من زعم أن هؤلاء وأهلهن مسلمون؟»، صلّى ثم حمل أمواله وأموال المتبرعين وغادر «كرواتيا». الشاب رفض الاعتراف بهويتهم، فيما الصرب اعترفوا بها وعلى أساسها كانوا يذبحونهم.

لم يكن في «تيرانا» كلها إلا إشارتان للمرور، فلا حاجة للعاصمة الألبانية لها، فالزعيم الأوحد «أنور خوجة» حرم أي ملكية فردية، كما حرم عليها الإسلام أيضًا، لكنه للحق أبقى على مسجدها الأثري المتهالك في الميدان الرئيسي كشاهدٍ أن هذا كل

ما تبقى من عدوه في هذا البلد. عندما توجهت إليه كان الشيخ «صبري كوتشي» مفتي البلاد رَحِمَهُ اللَّهُ، والخارج من السجن لتوه بعد عشرين عامًا من الاعتقال، يصلي فيه الظهر ومعه رجلان، فيما اجتمع الناس، الذين هم مسلمون بالوراثة، يرقبون من الخارج وعبر نوافذ المسجد وبانبهار شديد فِعْلَ هؤلاء من ركوع وسجود، وكأنهم كائنات فضائية حطت على الأرض للتو.

لاحقًا عرفتُ أن بعض العائلات الألبانية بدأت تختبر أسقف بيوتها وأعمدتها، بعد أن اكتشف بعضهم أن الأقدمين جمعوا المصاحف والكتب الدينية وغلفوها جيدًا وربطوها إلى الجدران، ثم صبوا عليها الإسمنت ليخفوها عن أعين الشرطة، وليجدها أبناؤهم وأحفادهم لاحقًا، قال لي أحدهم إن بعض هذه المحفوظات لم تكن سوى مجلات عربية لكن الحرف العربي أوحى لهم بأنها مقدسة.

تذكرت إذاعة «الحياة» التي تأسست في «سرايیفو» وقت الحرب، كانت تذيع صباحًا القرآن الكريم، ثم تليه بأغانٍ عربية، سمعت يومًا عقب القرآن أغنية يتغزل فيها المغني في الكأس وشرابه، هؤلاء البوسنيون مثل الألبانيين يشتاقون للإسلام، ويحسنون الظنَّ في العرب، ويعتقدون أنهم أهل القرآن.

لقد ظلمت الشيوعية كل الناس وكل الأديان، لكن حَظِيَ المسلمون بالنصيب الأكبر من الاضطهاد، ولو قرأت أو سمعت ماذا فعلت بهم الشيوعية ثم سافرت إلى بلادها بعد سقوطها لتوقعت ألا تجد فردًا واحدًا ما زال على الإسلام، لكنهم ظلوا عليه، وإن كان ذلك بصورة على غير ما يتمناها العرب ويحاسبون عليها الناس.

العجوز التتارية في جنوب «أوكرانيا»، كانت تحكي لي أنها سُلبت من كل شيء عندما هجّرتها قوات «ستالين» من بلدها في «القرم» إلى «سيبيريا»، الأرض والبيت والمال وكل الممتلكات، لكنها سعيدة للغاية أنها احتفظت طوال تلك السنين بمصحفها وإن فقدت كل شيء.

في آسيا الوسطى، ما أن سقطت الشيوعية حتى خرج الدين وكأنه لم يُوأد من قبل، مثل خروج الجنّي من القمقم، بعد أن كانت المسبحة دليل اتهام يودي بصاحبها إلى غياهب السجن لسنوات، ها هم الشباب الآن يؤمون المساجد. دُبر لي لقاء مع أحدهم، قال لي: «كنت طفلًا عندما كان والداي يلزماني بتعلم القرآن، كان معلمنا يأتي مساء متأخرًا متسحبًا، ثم ننزل به إلى قبو تحت الأرض، نسميه نحن الحجرات، نشعل شمعة أو مصباحًا صغيرًا حتى لا يرى الجيران ضوءًا في المساء فيتساءلون لماذا نحن مستيقظون، ونظل في هذه الأقبية ساعات لا نفعل شيئًا سوى حفظ القرآن، ربما الوالدان لا يعرفان من الدين إلا قليلًا، لكنهما مثل آخرين حسبوا الأمر ببساطة، إذا لم يكن بوسعنا هزيمة الشيوعية فلننقل المسؤولية إلى أولادنا وأحفادنا»، حددوا المهمة في توريث الأبناء القرآن على رغم أنهم لا ينطقون العربية.

رجل آخر في «أوزبكستان»، حكى لي كيف أن المعلمين كانوا يتعمدون إعطاءهم في نهار رمضان وهم صغار في المدارس بعض الأطعمة المجانية حتى يكتشفوا من يصوم منهم ومن لا يصوم، والعقوبة تقع على الطفل وعائلته، بل إنهم كانوا أحيانًا يحاولون أن يستنطقوا الأطفال ليفشوا سرَّ عائلتهم إذا ما كانوا على صومهم.

قصَّ لي أن أمَّه كانت تدربه كيف يصلي بحواجبه إذا ما حان

وقت الصلاة وهو في المدرسة، حتى لا يلحظ أحد ذلك، مخافة أن يتعرض هو وعائلته للعقاب سنين طويلة وراء الشمس، يقول: «كنت أجلس وأنظر إلى السبورة ثم أرفع حاجبيَّ وأقول في سري الله أكبر، ثم أنزلهما عند الركوع قليلًا ثم أرفعهما ثم أنزلهما إلى أسفل كأني ساجد، وأنا أتمتم بالصلوات في سري»، لقد اجتهدت أمُّه في الأمر، وكل همها أن تبقى الصلاة قائمة.

حكوا لي في العاصمة الداغستانية «محج قلعة» كيف كان بعضهم يحفظ القرآن، يذهبون إلى الجبال في أي ناحية من ناحية «داغستان» ويختبئون في الكهوف، يجلسون فيها ولا يخرجون إلا بعد أن يحفظوا قدرًا من آيات الله، في انقطاع عن العالم وعن عيون الشرطة، أما طعامهم وشرابهم فيتسلل به ذووهم إليهم من حين لآخر، يعطونهم الزاد ويرحلون هربًا.

كم مرة في أول التسعينيات لفّتني الدهشة وأنا ألمس شوق الناس في أي منطقة كانت تحكمها الشيوعية إلى أشياء بسيطة جدًّا: مسبحة، أو آية مكتوبة، أو حتى أي حرف عربي. كانوا يكابدون شوقهم للدين وإن لم يصلوا ولم يصوموا. كنت أفرح بمشهد المآذن التي ما زالت باقية هناك، كنت سعيدًا أن هذه العمائر ما زالت موجودة وكأنها خرجت من المعركة منتصرة، لاحقًا تعلمت أن العمائر كانت في قلوب هؤلاء البسطاء حين احتفظوا فيها بدينهم فيما عجزت جوارحهم عن أن تفي بالمفروض من العبادة.

في يوم من أيام الحج صعدت أعلى الحرم، ألقيت نظرة على الحضور، وجدت عجوزين آسيويين هزيلي الجسد، اخترت الجلوس بجانبهما، صليت المغرب، ثم جلست لأقرأ القرآن، فوجئت بأحدهما الذي يجاورني يستدير قليلًا لأكون أنا قبلته، ارتبكت،

واصلت القراءة، صلينا العشاء، دعونا الله، أمسكت بمصحفي وقمت، فإذا هو ينظر إليّ وكأنه يريد أن يقول شيئًا غير أن اللغة تخذله، مددت يدي إليه مصافحًا، انحنى سريعًا ليقبلها، فزعت وسحبت يدي، الرجل عاجز عن أن يقرأ القرآن، ويعتقد أن الله إنما يصطفي الناس فيمنح بعضهم القدرة على قراءة كتابه، وكأنه يعتقد أنني من المصطفين، ولو علم حالي لرماني بحذائه.

فهمت حالته، عندما عادت بي الذاكرة إلى يوم سافرت فيه إلى أقصى جنوب «الفلبين»، حيث المسلمون يناضلون للحصول على حقهم في حكم أنفسهم بأنفسهم، وعلى تقرير مصيرهم، وهم غير أولئك من الجماعات الأخرى الذين يخطفون ويقتلون. في هذه المناطق المعزولة عن العالم، يعيش الناس حياة بسيطة جدًّا، ويفرحون بوصول أي عربي إليهم. ما أنْ توقفت سيارتي أمام إحدى المجموعات المقاتلة حتى وجدتهم يستقبلونني استقبال الأبطال، وكأنني قائدهم الأعلى وليس صحافيًا أو مراسلًا جاء يمارس مهمته.

هناك في هذه المناطق التي يعيش الناس فيها على فطرتهم، يودعك الرجل بأن يحتضنك ثم يقبل كتفك، ثم يشم رائحتك، فإذا ما سألته أجاب: «أنت أيها العربي أتيت من عند بلاد النبيّ، وأنا أحب أن أشمَّ رائحة النبيّ».

الحادية والثلاثون

عن الرئيس الغائب.. ردَّه الله

كان الأمر مزيجًا من الرعب والفكاهة، ودَّعَنا الرجلُ وعائلته الذين كنا نسكن عندهم وداعًا حميميًا باعتبار أن احتمالات عودتنا من «الشيشان» أحياء ضئيلة جدًّا. ركبنا سيارة سوفياتية متهالكة، وغادرنا بلدة «خسافيورت» الداغستانية. قادنا المقاوم الشيشاني إلى حدود جمهورية «داغستان» ذات الحكم الذاتي لنعبر إلى «الشيشان»، كلا البلدين ضمن الفيدرالية الروسية، غير أن «الشيشان» ترغب في الاستقلال؛ ولذلك فالحرب مستعرة.

كنا نسير في طريق عام مرصوف إلى أن انحرف مرشدنا إلى طريق جانبي ترابي، ثم هبط فجأة في نهر قد هرم، فلم يبق منه إلا مستوى من الماء يسمح لسيارتنا بعبوره، ثم أكملنا سيرنا لنصبح في طريق موازٍ تمامًا للطريق المرصوف.

ـ لماذا تضحك يا أخي؟ (قالها مرشدنا الشيشاني بلغته العربية التي يتحدثها بطلاقة).

= ألم تخبرني أننا سنعبر إلى «الشيشان» عبر طرق التهريب؟

ـ بلى.

= أليست هذه المركبات العسكرية التي تسير على الطريق العام الموازي لنا روسية؟

- بلى.

= أليست في طريقها مثلنا إلى «الشيشان»؟

- بلى.

= أليس بوسعها تصويب مدافعها إلينا باعتبار أننا نسلك طريقًا للتهريب؟

- بلى، ولكن لن يفعلوا. الجنود الروس وكما سترى لاحقًا أُقحموا في هذه الحرب وتُركوا هنا دون أسلحة كافية ودون طعام يشبعهم.

= أنت تتحدث عن جنود إمبراطورية سوفياتية وإن كانت قد سقطت.

- لقد اتفقنا معهم على أن يغضوا نظرهم عن إمداداتنا وسياراتنا الآتية من «داغستان» إلى «الشيشان» مقابل ألا نستهدف نقطتهم الحدودية.

= لكن الدعم الذي يصل «الشيشان» من «داغستان» سيصب في النهاية ضدهم كقوات روسية، فكيف يسمحون بتقوية خصومهم؟

- يا صديقي هم شباب صغار السن لا يجدون مبررًا لأن يتركوا أحضان حبيباتهم ليموتوا هنا في أرض غير أرضهم.

لم أقتنع بكلام المقاتل الشيشاني أو ربما زاد من دهشتي، فهو ضد المنطق وضد العقل، لكن لماذا أتحدث عن العقل وقد تناسيته تمامًا عندما قررت أن أمنح نفسي عطلة من حرب «البوسنة» لأقضيها في حرب «الشيشان»؟ كان مشهد مقاتليهم على صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون، بلحاهم ووجوههم القوقازية لا يقاوم،

كانت نفسي المجنونة تحثني على الذهاب إلى هناك مهما كان الثمن.

أعترف، لقد تصرفت كشاب طائش حين اتصلت بالزملاء في غرفة الأخبار بقناة «أم بي سي»، وأبلغتهم بأنني سأذهب إلى «الشيشان» إن كانوا في حاجة إلى تقارير إخبارية من هناك، فردوا بأنهم أرسلوا بالفعل نحو ثلاثة فرق إلى المنطقة، ولا داعي لسفري، وعليّ البقاء في «سراييفو» لمتابعة تغطية الحرب، فشكرتهم وقررت السفر.

توجهت إلى «موسكو» بتأشيرة سياحية، لا تمنحني حق العمل الصحفي. نصحني أصدقاء هناك بالخطوات المطلوبة للوصول إلى «الشيشان»: عليك أن تركب الطائرة، فإذا لم تسقط وهبطت في «محج قلعة» عاصمة «داغستان»، اذهب إلى بلدة حدودية اسمها «خسافيورت»، وهناك يمكن التنسيق مع المقاتلين الشيشان الذين يحتضنهم إخوانهم في العقيدة أهل «داغستان»، وهم سوف يصطحبونك إلى داخل أراضيهم الشيشانية، غير أن ذلك يتطلب تصريحًا من السلطات الروسية بصفتك الصحفية للسفر إلى هناك، وهو ما ليس بوسعك الحصول عليه. فشكرتهم وقررت السفر.

من «موسكو» إلى «محج قلعة» إلى «خسافيورت» هي قصة بحد ذاتها، ففي هذه الأيام من عام خمسة وتسعين كانت الحركة في هذه المناطق مرهقة للغاية، فالنظام الشيوعي بقوانينه وأساليبه ما زال قائمًا في نفوس الناس على رغم سقوط الشيوعية، ولأنها مرحلة انتقالية فإن مزايا الشيوعية نفسها قد فُقدت، فلا أمان، وبوسع أحدهم أن يقتلك ليستولي على حقيبتك التي لا يعلم ما إذا كانت تستحق أم لا، والمنطقة تعيش حياة شبه بدائية لا يمكن أن

تتخيل معها أنها كانت ضمن الإمبراطورية السوفياتية يومًا ما.

في الفندق الرئيسي بالعاصمة «محج قلعة» تركني الرجل الذي ساعدني واصطحبني من المطار، في كل طابق هناك سيدة تعطي النزلاء مفاتيح غرفهم وتراقبهم، طلبت منها شايًا، أتت لي بإبريق ضخم من الماء المغلي، ثم بإبريق آخر صغير به شاي مركز، وعليّ أن أخلط الإثنين وأتحكم بمقدار كل منهما للحصول على الشاي الذي يوافق رغبتي، ثقيلًا كان أم خفيفًا، وأتت أيضًا بنحو نصف كيلوغرام من السكر، وطلبَتْ مبلغًا وقدره دولار أمريكي واحد!

أردت أن أعطيها ما يساويه بعملتها الوطنية، فغضبت ورفضت، هي تريد دولارًا أمريكيًا، وعندما فعلتُ انفرجتْ أساريرها، ومنحتني النصيحة: «إياك أن تفتح الباب لأي طارق، وأغلقه جيدًا من الداخل، فبوسعهم اقتحام الغرفة إذا علموا أن أجنبيًا بها». نمت بملابسي ومعطفي وحذائي، فالحجرة يرثى لها.

في الصباح توجهت إلى «خسافيورت»، أوصلني بعض المعارف بعائلة تؤوي الصحافيين في منزلها لقاء مبلغ زهيد لعدم وجود فندق في البلدة، وضعت حقائبي ثم دلوني على مركز للصحافيين الأجانب تابع للمجموعة الأوروبية، يرسل المراسلون من خلاله تقاريرهم التلفزيونية إلى قنواتهم.

لم أصدق عينيّ عندما دخلت، فقد وجدت زميلًا بولنديًا كان يشرف على مثل هذا المركز في «سراييفو» قبل فترة، تعانقنا، سألني أين فريقي، أجبته بأنه لا فريق معي وأنني هنا وحدي، وأنني أبحث عن مصور، رد سريعًا: «أنت مجنون، هنا ليس مثل «سراييفو» حيث يمكن أن تجد مصورين أو عاملين في هذا المجال، عد إلى هناك أفضل من ضياع وقتك هنا فلا أمل لك». شكرته وقررت أن أبقى.

اتصلت بالزملاء في غرفة الأخبار بقناة «أم بي سي» في «لندن»، وأبلغتهم أنني في «داغستان» وسأكون حالًا في «الشيشان»، دُهشوا بالطبع، وأبلغوني أن فرقهم غادرت «الشيشان» عائدة إلى «لندن» وأنهم يرحبون بتقاريري، حمدت الله على هذا التغيير.

بعد نحو ثلاثة أيام، وما أن دخلت إلى المركز الصحفي في «خسافيورت» حتى صاح صديقي البولندي: «عندي لك أخبار عظيمة، لقد وصل أمس مصور بلجيكي لديه مهمة عمل هنا مع الصليب الأحمر، وما أن ينهي مهمته خلال يومين حتى يكون مستعدًا للسفر معك إلى «الشيشان»، بشرط ألا يذهب إلى العاصمة «غروزني» التي أنهكتها الطائرات الروسية تمامًا»، أجبته بالموافقة، طلب مبلغًا خياليًا في اليوم وكان عليَّ أن أوافق وأشكره وأقرر السفر.

وهأنذا معه الآن في هذه السيارة العتيقة نسلك طرقًا مجهولة مع هذا المقاتل الشيشاني الذي يتحدث العربية ليوصلنا إلى مقر للمقاتلين مع بعض عائلاتهم، وهو في الحقيقة فيلا مملوكة لأحدهم تبعد نحو أربعين كيلومترًا عن العاصمة الشيشانية «غروزني»، فيما الحرب دائرة في البلاد.

ولأني أؤمن بالمثل القائل «أقرع ونزهي»، وبرغم أنه ليس معي من فريق للعمل إلا هذا المصور الذي تعرفت إليه للتو، فإنني أطلقت لأحلامي مداها، فطلبت من مرافقي لقاء «جوهر دوداييف»، ذلك الجنرال الذي كان أول مسلم يحصل على منصب قائد لفرقة عسكرية في القوات الجوية السوفياتية، والذي يقود المقاومة الآن رئيسًا للشيشان بعد انتخابه عام واحد وتسعين.

بقينا في هذه الفيلا أيامًا في الانتظار، دخل علينا رمضان وأنا

مع هؤلاء المقاتلين وعائلاتهم، نصوم ونقرأ القرآن في انتظار التصريح لي بلقاء الزعيم الشيشاني، فيما صديقي المصور لا يصوم ويعد نقوده التي يتحصل عليها كل يوم وهو جالس في مكانه دون عمل، إلى أن استُدعيت لأُبلَّغ بالموافقة على اللقاء، كانت فرحتي منقوصة، فمكان اللقاء عكس كل ما تصورت، إنه في العاصمة «غروزني»، حيث اشترط المصور ألا يذهب.

عدت إلى الفيلا سريعًا وأنا مقطب الحاجبين، أعددت حقيبتي الصغيرة على عجل وهممت بالخروج، سألني المصور دهشًا: «إلى أين أنت ذاهب؟» أجبته، فذكّرني بالشرط بيننا، أبلغته أنني لذلك لم أطلب منه حزم أمتعته، قال: «وماذا ستفعل وحدك؟»، قلت له: «حتى ولو كان حديثًا للصحافة المكتوبة، حتى ولو بكاميرا فوتوغرافية، هذه فرصة تاريخية ولن أدعها تمر»، غضب جدًّا إلى أقصى حد، ثم قال: «لن أدعك وحدك، سآتي معك».

كنت أتفهم تخوف المصور، فالعاصمة الشيشانية «غروزني» كادت تُمحى عن ظهر الأرض، دكتها الصواريخ الروسية دكًّا حتى أوشكت ألا تبقي فيها حجرًا على حجر، وقد هجرها أهلها؛ ولهذا استبعدت تمامًا أن يكون «دوداييف» ما زال مختبئًا فيها، والصواريخ الروسية تبحث عنه ليل نهار.

إذن نحن الآن على مشارف «غروزني»، الطرق خاوية، سيارتنا المتهالكة تشق الطريق إليها بشق الأنفس، تسير فتتعطل فتتوقف، ثم يعالجها مرافقنا فتستأنف المسير، فيما الطائرات الروسية المقاتلة نراها تحلق وترمي حممها على أطراف بعيدة من المدينة وننتظر نحن دورنا، كنت مغتاظًا من الرجل؛ فلو كان ما يسقط على المدينة من السماء مطرًا وليس قذائف لانتابه خوف أكبر ولو خشية

أن تبتل ملابسه، لكنه كان يتصرف بهدوء شديد، وبأعصاب باردة.

السيارة صغيرة وأنا محشور فيها مع آخرين بمآربهم المختلفة، عادم السيارة يبدو أنه معطل وصوت فرقعاته يختلط مع صوت القذائف فلا تستطيع التمييز بين هذه وتلك. أعربت عن أمنيتي بألا أموت في مثل هذه السيارة وفي مثل هذا الزحام، تمنى لي أحد المحشورين تهكمًا أن تكون ميتتي في سيارة مرسيدس.

المشهد في شوارع العاصمة مخيف، لا وجود إلا للموت، أغلب البنايات محطمة، أحياء بكاملها مدمرة، الأكثر رعبًا هو مشهد تلك الصواريخ التي سقطت من الطائرات الروسية ولم تنفجر فزرعت في الأرض، يبدو أنه قد انتهى زمن صلاحيتها فلم تعد تعمل، أيُّ دمار يمكن أن يحدث أكثر لو انفجرت هذه العشرات من الصواريخ؟ وددت لو كان في مقدوري الآن أن أشكر السائق وأقرر العودة.

أُدخلنا إلى بيت خشبي يرتعد ويرتج بدوره كلما مرت فوقه طائرة، قيل لنا انتظرا هنا حتى تأتينا تعليمات أخرى، ساعة فساعتان فثلاث ساعات، مرت كأنها دهر بأكمله، أزيز الطائرات لا يتوقف، أصوات القذائف تقطع الصمت من حين إلى آخر.

ثم دخل علينا مرافقنا ليبلغنا اعتذار الرجل عن المقابلة، فقد اضطُر إلى التحرك نحو منطقة ما لظروف الحرب، هكذا أُبلغت. فوجئت، حزنت جدًّا، لُمت نفسي، فهذا المصور البلجيكي الذي برفقتي يتحدث الروسية بطلاقة، ويبدو أنهم شكوا فيه، حسبوه جاسوسًا، طلبت أن أنطلق إلى شوارع «غروزني» لأصور ما أستطيع، لا أعلم لماذا شعرت بالأمان والحماسة في شوارعها أكثر مما كنت أشعر في هذا البيت الخشبي.

بعد قرابة عامين كنت في «غروزني» مرة أخرى، أسجل كيف تسير الحياة فيها بعد حربها الأولى وقبل حربها التالية. في الميدان الرئيسي كان المتصوفون يرددون أناشيدهم، رأيت صورته مرفوعة في حلقات الذكر، سألت فكانت الإجابة، نحن لا نعتقد أن زعيمنا قد اغتيل، لا شأن لنا بما نقلته وسائل الإعلام يوم الحادي والعشرين من إبريل عام ستة وتسعين بأنه قُتل في أثناء مكالمة له بواسطة الأقمار الصناعية مع الرئيس الروسي «يلتسن»، الرئيس «جوهر دودايف» ما زال حيًّا، إنه مختبئ وسيعود يومًا لاستكمال مهمته وتحرير «الشيشان».

الثانية والثلاثون

ليلة سقوط «شالي»

الناس في «الشيشان» طيبون للغاية، بسطاء للغاية، مسالمون للغاية، مؤمنون حتى وإن لم يؤدوا فروضهم الدينية، عاداتهم متشابهة مع عادات أهل «داغستان»، الجمهورية المسلمة المجاورة والتي مررت بها في طريقي إلى «الشيشان».

في تلك الجمهورية وفي بلدة حدودية أقمت في ضيافة أسرة داغستانية، بيتها مكون من طابق واحد، فإذا شعرت في منتصف الليل أنني مضطر لقضاء حاجتي، فعليَّ أن أرتدي ملابسي الشتوية الثقيلة لأخرج في طقس يصل أحيانًا إلى ثلاثين درجة تحت الصفر لأذهب إلى دورة المياه الخاصة بالمنزل والمقامة خارجه؛ لأنهم يعتبرون وجودها داخل سكناهم نجاسة لا تجوز.

زرت «الشيشان» ثلاث مرات، اثنتان منهم كانتا زمن الحرب، في واحدة منهما طمحت للقاء قائد القوات الشيشانية التي تحارب من أجل الاستقلال عن «روسيا»، نُصحت بالتوجه إلى بلدة «شالي» حيث يدير معاركه من هناك.

لا جدوى من رفع علامة بيضاء على سيارتنا في طريقنا الجبلي اتقاء للقصف الروسي، فالسماء تنشق فجأة وتنقض عليك الطائرات المروحية الروسية غير معنية بهوية ركاب السيارات،

عائلات بأكملها قُتلت وهي هاربة من مدنها وقراها طالبة للأمان، في الطريق حافلة صغيرة تشهد بذلك، والأمتعة تؤكد أن الضحايا ليسوا من العسكريين بأي حال.

لا بأس فقد وصلنا أخيرًا إلى المدينة، وقد اقترب وقت العصر، عند مدخلها سألنا الجنود المنهمكين في تفتيش سيارتنا عن مكان القائد، دلونا ببساطة على الطريق، وصلنا إلى بناية لا تتعدى الدورين، بعض المقاتلين هنا وهناك، ونحن ثلاثة أنا والمصور والمترجم السوري، الذي يصر على التحدث معنا بالعربية الفصحى ويحمل اسمًا حركيًا مخافة أن تتعرف عليه سلطات بلاده.

بعد الاستفسار والتفتيش أنزلونا إلى طابق تحت الأرض حيث مقر القائد، المكان مظلم لانقطاع التيار الكهربائي، وشموع عديدة تحاول معالجة الأمر، سألت: «أين سنجري اللقاء؟»، قالوا: «بالطبع هنا»، أصابني التوتر فكيف يمكن التصوير وسط هذا الظلام؟ طمأنني «إبراهيم البطوط»، صديقي المخرج والمصور الذي كان برفقتي، هذا الرجل يمتاز بموهبته المميزة، وجرأته الزائدة على الحد أحيانًا.

لفت نظري وجود رجال شقر يتحركون بحرية، سألت فقيل لي إنهم مقاتلون روس أسرى لدينا، اندهشت كيف هم أحرار هكذا؟ قالوا: «وأين يذهبون؟ إذا خرجوا من هذا المكان لقتلهم الناس»، ثم علمت أنهم في انتظار وصول أمهاتهم من روسيا، فقد وعد القائد بإطلاق سراح أي جندي روسي أسير إذا أتت أمُّه لاستلامه!

وصل القائد «أصلان مسخادوف»، رجل بسيط، تعلو الابتسامة وجهه، طلب «إبراهيم» من الحضور أن يكفوا عن استخدام موقد الغاز الذي تنبعث منه النار، واستخدمه هو كمصدر وحيد للإضاءة.

جرى الحديث مع الرجل المؤمن بقضيته حد النخاع، والمُقرّ بتفوق خصمه الروسي، والمصرّ على مواصلة النضال نحو الحرية حتى وإن كان ثمنها روحه؛ التي دفعها بالفعل في الثامن من مارس عام ألفين وخمسة إثر عملية اغتيال قامت بها القوات الروسية.

كنت مطمئنًا أننا بصحبة قائد القوات الشيشانية الذي سيضمن لنا مكانًا آمنًا نقضي فيه ليلتنا فيما أصوات القصف تتعالى. وبالفعل طلب الرجل من أتباعه بعد إنهاء المقابلة معه الاهتمام بشأننا، وتوفير مكان أكثر أمنًا، صعدنا إلى أعلى، خرجنا من البناية، فإذا بظلام دامس في كل مكان، دخلنا سيارتنا، سمعنا همهمات تدور هنا وهناك، بسهولة كان يمكننا ملاحظة حالة من الاضطراب تسود المكان، سألت المترجم فقال: «فهمتُ من كلامهم أن المدينة في خطر وأن القوات الروسية تتقدم».

انطلقنا بالسيارة مع رفيقنا الذي بعثته القيادة العسكرية معنا، والذي قال لنا إن الأرض للروس نهارًا ولنا ليلًا، مفسرًا هذه القنابل الضوئية التي تملأ السماء وتطلقها القوات الروسية للكشف عن تحركات المقاتلين الشيشان الناشطة في المساء.

تحركت حافلتنا إلى المكان الآمن الذي وُعدنا به، وصلنا إلى بيت خشبي بسيط يرتجف مع مرور كل طائرة أو سقوط أي قذيفة، توجست شرًا، أدخلونا إلى غرفة واسعة حيث رحبت بنا مجموعة من المقاتلين، كانوا يتبادلون النكات ويمزحون بقذف قنبلة يدوية فيما بينهم، لم أطمئن، صاحبي مطمئن، ما يشغله كيف سيصور في الغد، طلب منهم أن يشرحوا له كيف يمكن الوصول إلى الخط الأول لجبهة القتال، وكأننا لسنا في جبهة قتال.

في وقت متأخر نصحونا بأن نتوجه إلى النوم، أي نوم يمكن

أن يصل إلى هذا السرير في هذه الغرفة الصغيرة والسماء مضيئة بالقذائف والطائرات تحوم كل ساعة حولنا، وبيتنا الهش ما زال يرتعد، من غرفة منزلنا بطابقه الوحيد وقفت أرقب الموقف وأتساءل: هل سيكون المقاتلون أوفياء وينقلون جثتي إلى أهلي؟

دخل مقاتل عائدًا من حيث المواجهة إلى غرفتنا ليشاركنا مشروع النوم، لم يكن من مكان سوى الأرض، احتضن سلاحه ثم نام فوقه، استغربت، سألت فأجابوني أن القوات الروسية تتقدم ونخشى من أي تسلل مفاجئ لذلك لا نفارق سلاحنا، لا يجب أن نموت وأيدينا خالية منه، بلعت ريقي وقلت لهم أنتم أبطال. قام «البطوط» من السرير متذمرًا من عدم استطاعته النوم وسط هذا القصف، اعتذرت له، دخل مقاتل آخر سأل مترجمنا أن يعلِّمَه ماذا يقول كمسلم عندما يحتضر، عندها شعرت أنني أحتضر.

وَصَلَنا الفجر بشق الأنفس، صلينا، انتظرنا الشروق، هدأ القصف، لكن شوارع البلدة في هرج، سألنا مجددًا فقيل لنا إن القوات الروسية تتقدم بسرعة ويتوقعون سقوط المدينة وعلينا المغادرة، «لن تفرق القوات الروسية بين كاميراتكم وبين أسلحة المقاتلين، سوف تعتبركم مجاهدين عربًا»، شكرت لهم صنيعهم وتوجهنا إلى خارج البلدة.

في الطريق مررنا بوحدة طبية أُعدت على عجل، كانت بمثابة بيت كبير من طابق واحد، الرائحة نفاذة بشكل غير عادي، إنها رائحة الحروق، والجروح التي لا تلتئم، لا وجود لمطهرات أو مسكنات أو أي وسائل تخدير، المكان مزدحم عن بكرة أبيه بالمصابين وذويهم، نتحرك بينهم بصعوبة، سيدات ورجال وأطفال وعجائز، المشهد مؤلم بكل أبعاده، ولا أفهم سرَّ تكدس عائلات

المرضى بجانبهم، يكاد المرء يختنق من الزحام والرائحة. فجأة مرقت طائرة حربية، أصاب الهلع الجميع، في لمح البصر انبطحنا على الأرض، وحده «إبراهيم البطوط» وقف ورفع كاميرته ليسجل اللحظة.

انصرفنا مما يسمونه مستشفى، تمنيت العودة إلى الحرب في «البوسنة»، فهي أرحم حالًا مما يجري في «الشيشان»، سألت مقاتلًا يرافقنا ليدلنا على الطريق: «ماذا تفعلون عندما يصاب أحدكم، كيف تسعفونه؟»، ردَّ الرجل ببساطة: «ليس لدينا أي وسائل لنقل المصابين، فإما أن يستطيع هو الذهاب إلى أقرب مركز لمداواة جرحه، وإما أن يبقى إلى أن يموت في مكانه»، شكرته بعنف.

واصلنا طريقنا إلى حدود «الشيشان» مع «داغستان» على أمل أن نصل بلدتها الحدودية «خسافيورت»، ومن ثمَّ نغادر إلى عاصمتها «محج قلعة» ثم نعود إلى «موسكو». كلما اقتربنا من الحدود ازداد اطمئناننا إلى أننا نجونا. كنا نعبر بعض المرتفعات، حينما قال لي أحدهم إن هذه المرتفعات التي نمر بها هي مرتفعات رملية هشة وليست صخرية، نظرت إليه مستفهمًا، أكمل بُشرَاه: «مثلًا الأسبوع الماضي كانت سيارة تمر من هنا حين انهار بها الطريق ودُفنت وركابها جميعًا»، كانت الشمس تستعد للغروب، حين أنهى الرجل كلامه، أدرت وجهي إلى النافذة، أرقب هذه التلال التي نمر عليها، ربما تكون واحدة منها مستقري الأخير.

الثالثة والثلاثون

هل إذا عدت عدت؟

كان القائد لطيفًا للغاية، قال: «لن أستطيع أن أمنعكم، أنتم صحافيون ولكم الحق في الاطلاع على الوضع عن كثب، غير أنني أنصحكم بأن تؤجلوا زيارتكم قليلًا، الوضع الآن خطير جدًّا، وما تطلبونه يعرض حياتكم لتهديد حقيقي». صاحبنا المترجم أخذه الحماس وأخذ يلحّ على القائد أن يسمح لنا بالتوجه إلى الخط الفاصل بين القوات البوسنيّة التي نحن في أرضها وبين القوات الصربية في ذلك الوقت من عام ثلاثة وتسعين. ولعل «حامد» في ذلك كان يقدر أننا قطعنا يومًا كاملًا في طريق وعر لنصل إلى هنا، وعزّ عليه أن نعود دون فائدة، وإن كان ذلك أفضل من ألا نعود نهائيًا.

خرجنا مع الدليل الذي عُيّن لنا بعد أن استجاب القائد لإلحاحنا وحمّلنا مسؤولية ما قد يصيبنا، وجدنا أنفسنا بين طبيعة جميلة وهادئة بين أحراش الغابة، حتى إننا اعتقدنا أن القائد بالغ في الأمر لتخويفنا، كان «حامد» يسير مع الدليل في المقدمة، ثم «نجيب» المصور، ثم أنا آخرهم.

بعد فترة شعرت أننا في نزهة، خاصةً وأن الأحراش قد تباعدت وأصبحتُ أرى المشهد الجميل على مرمى البصر في

مساحات مفتوحة، وبدأت المسافات تتباعد بيننا نحن السائرين، شاهدتُ «حامد» والدليل وهما يعبران طريقًا مدكوكًا يقطع الغابة ويرتفع عنها قليلًا، ثم «نجيب» يتبعهما ويعبر إثرهما إلى الناحية الأخرى، وكان التعب قد بلغ مني مبلغه، فخطوت على هذا الطريق ببطء وأنا أتلفت يمنة ويسرة لأكتشف المنطقة.

فجأة انطلقت رصاصات القناصة في اتجاهي، الحمد لله أخطأتني كلها، غير أن الفزع الشديد أصابني، وبتُّ لا أعرف ماذا يجب عليَّ أن أفعل، انتبه الزملاء المتقدمون وراحوا يصرخون بناء على نصيحة الدليل أن أنبطح أرضًا، ففعلتُ، عانقتُ الأرض وتمنيت لو تفسح لي قليلًا في بطنها إلى أن يهدأ الحال، توقف القناصة عن إطلاق الرصاص، ونُصحت بالزحف إلى أن أصل الناحية الأخرى عندهم ففعلت، هنَّؤوني وقالوا لقد نجوت، عليك أن تذبح بقرة، قلت لهم سأذبحكم أنتم وقد تركتموني دون أي إرشادات، ثم أكملنا المسيرة.

بعد حوالي ربع ساعة من المشي صاح الدليل: «وصلنا»، لم نكن نسمع إلا زقزقة العصافير، ولا نرى أحدًا، تلفتُّ أستطلع المكان، اكتشفت أننا وسط ميدان المعركة، خنادق محفورة في قلب الأرض وكأنها تحتضن الجنود المتعبين ومدافعهم الهاون. ثم فجأة ودون مقدمات، وكأن هناك شخصًا أطلق الصافرة، اندلعت المعركة. دليلنا نفسه ارتبك فالتصق تمامًا بشجرة تقف وحدها في المكان، المصور كان بعيدًا عني غير أنه انبطح على الأرض وربما تمنى مثلما تمنيتُ سابقًا، أما أنا والمترجم فقد دفعونا للنزول في أحد الخنادق هذه، وهي حفر صغيرة.

تأكدت وأنا في قلب واحدة من هذه الحفر أنني أعيش

لحظاتي الأخيرة، الخطر لا يكمن فقط في قنابل الطرف الصربي التي تتساقط بكثافة على المنطقة، بل في هذه الحفرة نفسها التي نحن بها، بعد أن أفهمني المترجم أن المدافع والقذائف قديمة جدًا وغير مهيأة للعمل، وأنها قابلة للانفجار في أي لحظة في أيدي الذين يقومون بتعديلها وإعدادها للإطلاق.

شرح لي مترجمي الحديث الدائر بين الجنديين اللذين يشكوان أنهما لم يتناولا طعامًا منذ أربع وعشرين ساعة كاملة، ووسط هذه التراجيديا وجدت مقاتلًا يأتي من بعيد، يسير غير مكترث بالقنابل المتساقطة، يحمل شيئًا أعطاه للجنود الذين نحن بضيافتهم وهم يصرخون فيه أن ينزل إلى الخندق ليتفادى القنابل، بينما هو يتحدث إليهم بلا مبالاة، حالة لم أشاهدها في حياتي لا من قبل ولا من بعد، وأدركت أن اعتياد الخطر يولد هذا الشعور.

أخرجونا من هذه الحفرة لاحقًا، تنقلنا بين عدة مناطق، ثم عند نقطة بعينها أمرونا أن نجري خلف دليلنا، سلكنا الطريق نفسه عائدين، وكلما مررنا بمنطقة آمنين ازدادت ثقتنا بالنجاة، حتى وصلنا إلى مكتب القائد الذي فوجئنا بأنهم أخبروه بتفاصيل ما جرى، ودعناه وانصرفنا عائدين.

في الطريق قررت ألا أعود إلى الحرب مرة أخرى مهما كانت الإغراءات، سأرسل هذا التقرير، وسأرجع إلى بيتي في «لندن» وأبحث عن موضوع آخر وقضية أخرى بعيدًا عن كل هذا الهلع، وبعد أسبوع بين العائلة والماء الساخن قررت أن أعود.

هذا السيناريو تكرر مرات ومرات، بتفاصيل مختلفة، لكنها الأزمة نفسها، ترى الموت يحدق فيك، فتقول: «كفى لن أعود»، لكنك لا تحتمل السكون وتعود.

ماثلة أمام عينيّ هذه اللحظة التي وقعتْ قبل حوالي ثلاثة وعشرين عامًا، كانت عائلتي تسكن حينها في «برمنجهام»، وقد وصلت إليها من «لندن» عبر القطار، كان يوم سبت حيث بداية العطلة، وكان الوقت مساء، خرجت أحمل حقائبي للبحث عن تاكسي يقلني إلى بيتي، فوجدتُ جموعًا من الشباب والشابات يحتفلون بطريقتهم بعطلة نهاية الأسبوع، هرج ومرج وفرح وموسيقى ورقص، عالم آخر غير العالم الذي أتيت منه للتو، حيث لا ماء ولا طعام ولا كهرباء ولا تدفئة، ولا جديد سوى أخبار الموتى، سألت نفسي: «من منا يا ترى يعيش الحياة، أأنا أم هم؟»، في الحقيقة شعرت أنني أنتمي إلى عالم أفضل من عالمهم، لكن نفسي حدثتني كثيرًا مرة أخرى عن الراحة التي يخلقها السكون.

عندما أجلس الآن أراجع صورًا فوتوغرافية تستدعي من الذاكرة حوادث بعينها، أسأل نفسي كيف فعلت هذا؟ كيف أقدمت على كل ما أقدمت عليه؟ في الحقيقة لا أعلم، أو في الحقيقة أعلم ولا أريد أن أصرح؛ إنه الجنون، وهو السبب نفسه الذي يصيبني بالهلع عندما يقرر أحد من أولادي أن يقدم على مغامرة ما.

أعرف تمامًا هذا الشعور، إنك لا تهدأ إلا إذا أنجزتَ ما تريد، إنك لا ترى أمامك إلا هدفك، ولا تكترث للسهام المنطلقة من كل ناحية صوبك، إن روحًا ما تناديك فتسير وراءها مثل الندَّاهة، لا تعي بمخاطر الطريق، ولا الثمن الذي يمكن أن تدفعه، لا تعبأ بشيء سوى أنك تريد أن تصل، الموت الذي صادفني كثيرًا علمني أن الحياة ثمينة جدًّا، وأنك قد تفقدها في أي لحظة، ولأنها ثمينة جدًّا فلا يجب أن تقضيها في التافهات من الأمور.

لكن المثبطات كثيرة، تحاربك نفسك، مالك أنت وهذه الأمور العظام؟ هل أنت مبعوث العناية الإلهية حتى تدعي أنك ستبلغ البشرية بما يجري في البلقان أو آسيا الوسطى أو الجمهوريات الخارجة من «الاتحاد السوفياتي»؟ هل أنت من سيحرك العالم بعد أن تبلغه بمآسي الحروب الأهلية في «الكونغو» أو غيرها؟ من سيسمع لك وأنت في أمريكا اللاتينية تتحدث عن التقارب مع شعوبها، تلك التي لا تاريخ من الاستعمار أو العداوات بيننا وبينها، بل إنها تناصر الكثير من قضايانا؟

لا يقف الأمر عند حديث النفس، فالمثبطات الخارجية كثيرة، مثل هذا الشاب الذي كان يتعمد رسم ابتسامة ساخرة لاذعة عندما يمنحني الرسائل التي تصلني من مؤسسات صحافية وقد سجلت عنواني على عنوان المركز الإسلامي في «فرانكفورت» حيث كنت أقيم، كان يسأل بتهكم: «يعني إنت بقى عايز تبقى صحفي؟»، وهو الشخص نفسه الذي اتصل بي هاتفيًا بعد أكثر من خمسة عشر عامًا ليسألني: «أنا فلان يا أستاذ، هل تذكرني؟ هل يمكن أن نلتقي؟».

«أنا لها»، هو أعظم نداء داخلي يمكن أن أسمعه وسط هذا الضجيج، ضجيج يهزمه هذا الجنون اللذيذ الذي يدفعني لأن ألقي بنفسي في قلب التجربة، وليس معي من الزاد إلا القليل، مدركًا أن هزائمي الصغيرة هي زادي لمعركة النصر الأكبر؛ لأنه لا أحد ينتصر وهو ساكن.

لكن ثمة فارقًا بين التهلكة وبين المغامرة المحسوبة، ولطالما كنتُ مع الأخيرة، عليَّ ألا أبالغ في الحسابات، كثرة الحسابات تعيق المسير؛ لذا لا داعي لأن أسأل نفسي، هل إذا عدت إلى العمر نفسه سأعود إلى الفعل نفسه؟ ولم لا؟ هذا الجنون هو عقل الحياة، ولو عدت لعدت.

الرابعة والثلاثون

أسئلة الجنون

اضطربت حياة الناس بشدة بعد تفكك «يوغسلافيا» بجمهورياتها الست في أوائل التسعينيات، شركات أغلقت، وبنوك أفلست، ومؤسسات لم يعد لها أي سند قانوني فانهارت.

يحكي لي صديق أن رجلًا توجه إلى شخص يعرفه، يترأس مؤسسة شبه حكومية. شرح الرجل لصاحبه الأمر، أسهب له في وصف سوء حاله، توسل إليه أن يقوم بتوظيفه في أي منصب وبأي راتب، بعد أن فقد عمله وهو ربّ عائلة تعتمد عليه، لكن المسؤول اعتذر له، انهار الرجل بعد أن سُدَّت أمامه كل السبل.

بضعة أيام تمر، وإذا بفكرة تباغته وهو يسير في الشارع واضعًا يديه في جيوبه الفارغة: لمَ لا يؤسس شركة طيران محلية وليس لبلاده الوليدة واحدة؟!

بعد دراسات طويلة وتعاون مع أطراف متعددة وإيجاد حلول بديلة لكل العقبات، نجح الرجل في استئجار طائرة بدأ بها مشروعه، مستدينًا مرة، ومؤجلًا الدفع مرة ثانية، ومشاركًا مع آخرين في مرة ثالثة، وفي ظرف عام أصبحت الطائرة طائرتين وثلاثًا. لاحقًا يقص الرجل حكايته لصديقي ضاحكًا ويسأل: ماذا لو كان صاحبه المسؤول وافق على تعيينه موظفًا؟

هذه الحكاية ذكرتني برجل أعمال سوري سكن «أوكرانيا»، وصف لي كيف كان يعاني وأسرته شظف العيش، وكيف كانت قمة سعادته أن يستطيع شراء أكياس البطاطس أول الشهر عندما يتسلم راتبه، فيخزنها فوق سطح بيته وقد ضمن غذاءه وغذاء عائلته لشهر.

وحدث أن انهار «الاتحاد السوفياتي» الذي كانت «أوكرانيا» جزءًا منه، وصاحبنا في أسوأ أحواله. وحدث في تلك الفترة أن فشلت صفقة حديد كانت تحملها باخرة ضخمة إلى ميناء «أوديسا» الأوكراني حيث يسكن، ونزل قبطان الباخرة إلى المدينة التي تعمها الفوضى آملًا أن يجد جهة أو تاجرًا يشتري بضاعته لأن مصاريف العودة بها ستسبب خسارة فادحة.

لمعت الفكرة في ذهنه وأذهان أصحابه ممن يعانون معاناته نفسها: لماذا لا ندبر نحن الأمر؟ وبالفعل عُقدت الصفقة، ووافق قبطان الباخرة - المخول بالتصرف في شحنة حديده - أن يتسلم أمواله بعد حين، وقفز الرجل ورفاقه إلى مرتبة أثرياء المدينة وفق صفقات متتالية.

عندما تكون في القاع انظر إلى علٍ، إلى القمة، واحلم وفكر، لعلك تنالُ بهمتك منزلة لم تكن تتوقعها، ثم ما الضير في أن تنظر إلى القمة وأنت في القاع؟ اطمئن لن تسقط، فليس بعد القاع قاع.

يقولون دائمًا «فكّر خارج الصندوق»، على رغم أنه لا أحد يعرف ما الصندوق بالأساس وما محدداته! لكنها ربما إشارة إلى معاكسة المألوف. أحيانًا كثيرة نكتشف أننا تقليديون للغاية، نواجه المشكلات بمحاولة حلها بالطرق التقليدية، ونُدهش أنها في الأغلب لا تُحل.

تريد أن تتزوج، لا بدَّ من تأمين مصاريف الزواج، والشقة بأثاثها، ستحتاج إذن إلى مبلغٍ ضخمٍ، والوظيفة ـ إذا كنت تعمل بالأساس ـ لا تؤمّن لك ذلكَ إلا بَعد عدة عقود، عليك إذن بالهجرة، لكنك تسعى إلى عقد عمل حتى تنزل من الطائرة إلى مقر العمل مباشرة، وتبحث عن صديق يعمل هناك، يؤمّن لك بيتًا، وحبذا لو يُسكِنكَ معه حتى لا تنفق كثيرًا، وبالطبع لا شيء يتحقق.

الزواج في شقة مؤجرة، والهجرة أو السفر للعمل دون عقد مسبق هو الجنون في نظر بعضنا، في حين أن الجنون الحقيقي بنظري هو عكس ذلك تمامًا، هو أن تبقى راكدًا في مكانك، تنتظر الظروف المواتية لتبدأ، وفي الأغلب تنتظر كثيرًا.

سهل أن تنصح الناس.. لكن هل لديك الجرأة أن تفعل ذلك؟

شخصيًا لم أبدأ حياتي لا في شقة تمليك ولا مستأجرة، ولا في شقة من الأصل، ولكن في غرفة صغيرة، والعجيب أنني بعد أن انتقلت إلى شقق كبيرة وجميلة ظلت تلك الغرفة هي الأحلى مذاقًا.

ليس هناك أجمل من أن تبدأ حياتك دون ديون وأقساط وعبء لا يحتمله قلبك، وإذعان لصاحب العمل لأن غضبه يعني توقفك عن سداد الأقساط كخطوة أولى نحو السجن.

انطلق.. كن كنبيٍّ في قومه يدعوهم إلى مخالفة ما تعارفوا عليه، تحمل أعباء السير في عكس الاتجاه إلى أن يصحح المجتمع مفاهيمه وقيمه.

أول مرة سافرت إلى «البوسنة» لم يكن معي من مال إلا بعدد أيام بقائي هناك بالكاد، فإذا تأخرت عودتي يومًا لأي سبب طارئ

فسوف أبيت في الشارع. وأول مرة سافرت إلى «الشيشان» وهي في حرب، لم أكن أعرف من يمكنه أن يدلني على الطريق، والصحفيون ممنوعون بالأساس من الوصول إليها إلا في أضيق حدود. وعندما سافرت إلى «الكونغو» ـ وكان اسمها حينئذٍ «زائير» ـ وهي في حرب أهلية، كان كل ما فعلته أن حملت حقيبتي من «لندن» وقصدت «رواندا» على أمل الوصول إلى أحراش جارتها «الكونغو»، ولم أكن أعرف أي شخص ولا أي طريق. وعندما فتحت مكتبي في «دبي» لم أكن أعرف كيف تدار الشركات ولا ماذا يمكن أن أفعل، هل تريد المزيد؟

أكثر الناس سعادة هم المجانين، صدقني والله، أنت تعتقد أنهم يتخبطون، لكن فجأة تجدهم وصلوا إلى القمة وأنت ـ عفوًا ـ ما زلتَ في القاع، فاغرًا فاك، غارقًا في حساباتك لكل صغيرة وكبيرة للوصول إلى حلمك الذي لا يتحقق، متسائلًا كيف حدث هذا؟ وكل ما في الأمر أن أولئك المجانين حطموا القواعد المعتادة، ووجدوا سعادة لا تضاهيها سعادة في مواجهة التحديات المترتبة على ذلك.

هل يعني ذلك أن الجنون يفترض الحركة دون تخطيط؟

لا.. مطلقًا، هو يحتاج إلى تخطيط وحسابات، شريطة أن تكون محدودة، ألا تمضي عمرك وأنت تعد الخطة وتحسب الحسابات، وتنتظر اللحظة المناسبة، التي عادة لا تأتي، عليك في لحظة ما أن تبدأ، أن تختار نقطة ما ولحظة ما وتتوقف عن الانتظار وتبدأ، المهم أن تبدأ.

قرأت من قبل نظرية «الدراجة»، وأعجبت بها كثيرًا، حيث تدعي النظرية أنه ليس بوسعك أن تحقق توازنك وأنت تجلس فوق

الدراجة، لكن عليك أن تسير بها، ثم تنحرف قليلًا يسارًا أو يمينًا إلى أن تحقق توازنك، وتصحح طريقك. فكرت فيها كثيرًا، فعلًا التوازن والتصحيح يجريان وأنت تسير قدمًا إلى الأمام، وليس وأنت واقف، أو تنتظر استكمال الحسابات ورسم الخطة.

لكن ألا يمكن أن يؤدي ذلك إلى الفشل؟

بالطبع هذا وارد جدًّا! ولِمَ تضحك؟ وهل الثبات لا يؤدي إلى الفشل؟ على الأقل فشلك وأنت تتحرك سوف يعود عليك بألف فائدة من خبرة ومعرفة الطريق، فيما بقاؤك ثابتًا لا يحقق ذلك، المهم ماذا ستفعل بعد أن تفشل، هل اكتشفت مَوَاطن الضعف عندك وقررت تصويبها؟ هل اكتشفت مَوَاطن قوتك لتنميها وتحسن استغلالها؟ هل اكتشفت أن الطريق الذي سلكته لن يؤدي بك إلى ما أردت وأن الأمر يحتاج إلى أن تسلك طريقًا آخر؟

هل تعلم أن الحياة ليست إلا رحلة، ولذتها ليست في الوصول، وإنما في الطريق؟ استمتع بالطريق، وافخر بنضالك وأنت تتغلب على عثراته، «وارفع رأسك فوق»، فأنت لم ترضَ بالهزيمة.

لكن بالله عليك كن واقعيًا، إذا كان هناك شاب بهذه المواصفات، لا يملك شيئًا ومجنون كما ذكرت، ويسير في رحلته كما وصفت، ويتعثر كما أسلفت، ثم تقدم إلى ابنتك فهل تقبله زوجًا لها؟

لا.. غير معقول!

أمزح معك.. بالطبع أوافق، لكنْ لدي شروط أخرى، وهي أن تتوافر لديه شروط الجنون، فالجنون يا صاحبي ليس مشاعًا، ليس بوسع أي شخص أن يكون هكذا مجنونًا، الجنون له أهله،

وشروط الجنون في نظري ثلاثة: الهمة والرؤية والمرونة؛ الهمة التي ستدفعه للمغامرة وتحمل عثرات الطريق، والرؤية التي بها يعرف إلى أين يسير وماذا يريد، والمرونة التي تمكنه من تغيير مساره حين يخطئ ويستبدله بمسار آخر، وهذا الجنون هو العقل بذاته.

يحلو لي دائمًا أن أتذكر مقولة الشيخ «محمود أبو العيون» رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأستدل بها على ما أعتقد: «عقل الثورة جنون الثوار».

الخامسة والثلاثون

كيف نصل ونحن لم نبدأ؟

قمت بتنظيف حجرتي جيدًا بعناية فائقة وأخذت وقتي في ذلك، ثم أعددت الطاولة التي سوف أستذكر عليها دروسي، ثم رتبت كتبي وكراريسي، ونظمت أقلامي، ثم جلست أكتب المواد التي عليّ دراستها، واقترحت على نفسي طرقًا عدة لتنظيم جدول المذاكرة، وعندما أنهيت جدولي بتّ متعبًا، لم أستذكر دروسي ونمت.

أعترف أن رحلتنا عام ثمانية وتسعين كانت جميلة جدًّا، من العاصمة «مانيلا» إلى الجنوب الفلبيني، رحلة طيران ببعض المطبات الجوية، لكن المطبات الأرضية التي رافقتنا من عاصمة الجنوب إلى أقاصيه ـ في سفر زاد على ست ساعات ـ كانت أكثر قسوة، خاصة وأنه قد أصابنا التعب والإرهاق جراء الاستيقاظ مبكرًا والعمل لوقت متأخر، وحمل الحقائب والتنقل، فضلًا عن القلق والتوتر لما قد يقع في الطريق في مناطق يتقاتل فيها أهلها مع الحكومة المركزية في «مانيلا».

ولوعورة المكان ركبنا عدة وسائل للمواصلات، من السيارات الخاصة إلى الشاحنات إلى الدراجات البخارية، ثم التقينا بالحاج «مراد» القائد العسكري لحركة «مورو» الإسلامية التي تقاتل مطالِبة

بحق تقرير المصير سعيًا للاستقلال عن «الفلبين»، وهي غير قوات «أبو سياف» المتهمة بارتكاب العديد من أعمال الخطف والقتل.

ثم طلبنا لقاء الرجل، فقيل لنا إنه غير موجود في مقره؛ ذلك أنه يقوم بجولة على أتباعه في أنحاء المنطقة وسيعود بعد عدة أيام، ابتسمت وقلت لمحدثي: «لكنكم محاصرون، فكيف يتنقل قائدكم؟»، قالوا سيرًا على الأقدام أو على ظهور الماشية. صمتُّ، وفي الموعد عدتُّ.

أنزلتنا السيارة في مكان ما، ثم سرنا وسرنا، لا أنكر حسن المشهد في هذه الغابات الفلبينية الجميلة، لكن السير طال، وبدأنا في صعود مرتفعات حتى كدت أطلب الاعتذار والانسحاب، عكست ملامح وجهي تذمري، ضحك المرافقون الحاملون لأسلحتهم، وقالوا اصبر قليلًا.

دخلت على الرجل، فوجدت شخصًا عجوزًا بشوشًا، استقبلنا بترحاب وبادلنا الحديث بالعربية التي يتقنها، «كيف لك بربك أن تقطع كل هذه الأميال لتفقد رجالك؟ لقد كدنا نموت مشيًا يا شيخ»، هكذا بدأنا الحديث. تكلم كثيرًا عن مطالب حركته، وقال ما ذكرني بالشيخ «أحمد ياسين»، نحن نحب الحياة، ونحب السلام، غير أننا نريد السلام القائم على العدل.

بغض النظر عن أفكار الرجل وما إذا كنت تتفق معه أم لا، فقد لفت نظري هذا الإصرار العجيب، الذي دفعه لأن يترك نعيمَ مهجرٍ ظل به أكثر من عشرين عامًا، بعد أن تعلم في «السعودية» و«مصر»، كي يعود إلى بلاده ليعيش هذا الضنك ويؤسس لمعركة تسعى للاستقلال أو حتى لحكم ذاتي.

لقد بدأ من اللحظة التي كان فيها خاوي اليدين، خاوي

الأنصار، كان معه فقط الفكرة والإرادة، وبهما ناضل، وظل لحوالي ثلاثين عامًا يحمل سلاحه ويطالب بحق تقرير قومه لمصيرهم، ملتزمًا بتعاليم دينه، لا يقتل المدنيين ولا يروعهم وإنما يحصر معركته في الدفاع عن الوطن الذي دخله الإسلام عام ألف وثلاثمئة وعشرة، وعمّره أجداده.

وإذا كان هذا حال «سلامات هاشم» الإسلامي، فإن صاحبنا الآخر شيوعي، اسمه «تشيكو مندس»، له قصة مختلفة، ومن أجلها ذهبتُ إلى «ريو برانكو» عاصمة «أكري»، واحدة من الولايات البرازيلية السبع والعشرين.

في هذه الولاية لجأ السكان الأصليون إلى مهنة جمع المطاط، وعلى رغم ما تعرضوا له كالعادة من استعباد واستغلال من أصحاب الشأن، فإنهم تعايشوا مع الواقع، إلى أن بدأ تدفق الإقطاعيين على المنطقة، وهم يحلمون بهدم مساحات كبيرة من الغابة وإحراقها وتهيئتها لاستخدامها في تربية الماشية والزراعة، كان ذلك بالنسبة إليهم يدر ربحًا عظيمًا، حتى لو كان على حساب السكان الأصليين جامعي المطاط، هؤلاء الذين كانوا قليلي الحيلة.

ولأن «تشيكو مندس» تربى في الغابة، فقد تولد لديه احترام عميق لها، وعاش مع أهله حياة تتسم بالتناغم، فقد كانوا يستخلصون القيمة من الغابة دون تدميرها، وكان هذا الاحترام الغريزي هو ما ولد غضب الرجل حين واجه فيما بعد طوفانًا من الوافدين العازمين على تدمير الغابة.

«تشيكو مندس» كان شخصًا مختلفًا بين أهله من السكان الأصليين، فقد آثر والده أن يعلمه، وعندما بلغ الثانية عشرة من العمر، كان قد تعرف إلى سجين سياسي شيوعي فارٌّ اسمه

«إكليديس فرنانديز تافورا»، ولمدة خمسة أعوام كان «تشيكو» يتردد على مسكن «تافورا» ليتلقى على يديه أفكار «ماركس» و«لينين» وتاريخ البرازيل السياسي، علاوة على الكثير مما كان يدور في العالم خارج حدود الغابة المطيرة، وعن طريق تلك الأمسيات التي قضاها مع «تافورا»، صار «مندس» مهيئًا لتنظيم النقابات وسط جامعي المطاط في «أكري» وتبني مطالبهم وتنظيم الاحتجاجات والدفاع عن الغابة.

لم يكن هناك ما يوحي بالنصر، فقراء مسالمون في مواجهة قوى رجال الأعمال وما يواكبهم من فساد ورشاوى قادرة على إبطال أي قوانين محلية يمكن أن تنصف السكان الأصليين أو غابتهم، لكنه قرر البدء في النضال دون تردد ولا تفكير. ومنذ عام خمسة وسبعين و«تشيكو مندس» يخوض حربًا لا هوادة فيها لنصرة شعبه وللحفاظ على غابات الأمازون التي يعملون بها ضد محاولات تجريفها.

احتدمت المعارك ووقف يومًا يقول: «لا أريد سوى أن يساهم موتي في ردع القتلة، الذين قتلوا حتى الآن خمسين رجلًا مثلي من قادة جامعي المطاط الملتزمين بإنقاذ غابة الأمازون، المناضلين من أجل إثبات أن التقدم ممكن من دون تدمير الطبيعة».

في بيته، وتحديدًا في المطبخ قالت لي ابنته «ألنيرا مندس»: «كان والدي جالسًا هنا على هذه المائدة مع شرطيي الحراسة اللذين خُصصا لحمايته من تهديدات الاغتيال، وكان يلعب معهما الدومينو، فيما كانت والدتي تعد طعام العشاء. كان من عادة والدي الاستحمام قبل الأكل، فتوقف عن اللعب واتجه خارج البيت نحو الحمام ممسكًا بمصباح يدوي ليبدد الظلمة، وما أن فتح

الباب حتى غمره الرصاص فاتكأ عليه وهو يقول لقد نالوا مني. وعلى وقع الهجوم هرب الحارسان وقفزا من هاتين النافذتين».

وهكذا اغتيل «تشيكو مندس» في الثاني والعشرين من ديسمبر عام ثمانية وثمانين، بعد عيد ميلاده الرابع والأربعين بأسبوع تمامًا. وبعدها احتفى العالم الظالم بذكراه، وأنشأ محمية باسمه، وقد زادت لتصبح أكثر من عشرين محمية، وغنى له كثيرًا مشاهير المغنّين العالميين، وعُدّ أول شهيد للبيئة.

في العاصمة الرواندية «كيغالي» كنت أقوم بدورة تدريب على صناعة الفيلم الوثائقي، وقد اختارت مجموعة من المتدربين العرب إنجاز فيلم عن «ميتو رغامبا»، رجل بسيط يعمل مصممًا للأزياء، حضرت شطرًا من المقابلة معه، أدهشني وهو يعترف بفشله المتتالي في مشروعات عدة خاضها، ثم قال ما أعده حكمة: «كلما فشلت، شعرت أنني أقوى».

سأله المحاور عن سبب اختياره لهذه المهنة بالذات، أجاب بأنه كان يبحث عن عمل لا يدر عليه وحده فائدة وإنما على وطنه وعلى شعبه، وقد اجتهد فوجد أن «رواندا» ليس بها بيت للأزياء نهائيًا، وقد أراد أن يسد هذا الفراغ على رغم أنه لا خبرة له بهذا المجال مسبقًا، ومن ثمَّ لجأ إلى أن يبدأ بصناعة «الكرافتات» والأشياء البسيطة.

شاب صغير لكنه يبدو ملهمًا جدًّا وهو يروي حكايته، قال إن الفن قادر على تغيير نفسية الناس في بلد شهد مذابح مروعة، وابتسم وهو يضيف أنه بدأ مشروعه بثلاثمئة دولار. واللطيف أن الزملاء المتدربين اختاروا عنوانًا عظيمًا لفيلمهم وهو «لا أبرح حتى أبلغ».

ذكرني هذا الشاب بهذا الرجل العجوز الذي لا أملّ من قص حكايته، التقيته في وقت فراغ وأنا أعد فيلمًا عن شعبه تتار «القرم» الذين هجرهم «ستالين»، وها هم يعودون بعد سقوط الشيوعية وانهيار «الاتحاد السوفياتي»، وقد انصرف الناس إلى تأمين احتياجاتهم بعد أن وجدوا بيوتهم وقد سكنها الروس.

في دكان صغير مظلم، جلس الشيخ الهرم ينقش في بعض الحلي، وعندما سألته أجاب: «هذه مثل الحلي التي عندكم في خان الخليلي بمصر، عندما هُجّرنا لم يمنحنا جنود «ستالين» فرصة أن نلملم أشياءنا، هذا التراث التتري يكاد ينقرض حتى بعد أن عدنا، أنا هنا أحاول من ذاكرتي أن أنقش من كل حلية مثالًا حتى تبقى للأجيال ليصنعوا مثلها وهم يستردون هويتهم على كل الأصعدة».

الرجل لم ينتظر المنظمات الدولية الثقافية، ولا العالم الإسلامي، ولا حتى رفاقه، لقد قرر أن يبدأ وفق طاقته وقدرته، وأن يسد بابًا لم يسده أحد حتى وإن بدا غير مهم. في زمن الفتن وفي المعارك الكبرى عليك أحيانًا أن تخوض معركتك الصغرى.

هذه الحكايات ظلت منقوشة في مخيلتي تلهمني كلما ضعفت طاقتي، إنها حروب منوعة، وعلى أصعدة مختلفة، لكن السر الذي يجمع بينها أن أحدًا لم ينتظر أحدًا، وأن أحدًا لم يعتذر بقلة الإمكانات وقوة العدو المتربص، وضبابية المشهد، فقط بدأ، فقط عزم وبدأ.

إياك وأن تفعل مثلما فعلت أنا في بداية حكايتي هذه، التخطيط مهم للغاية، لكنه أحيانًا معطل. ابدأ، في بعض معارك الحياة يكون كل ما عليك هو أن تبدأ، وأن تصلح من مسارك

وأنت تسير، لا تنتظر دعمًا من أحد، ولا معطيات مثالية، المسألة ببساطة هكذا، الحلم مثل الحب، لا ينتظر تأجيلًا ولا تسويفًا.
أتذكر «ماجدة الرومي» في الفيلم الشهير «عودة الابن الضال» وهي تقول لهشام سليم: «إحنا لبعض يعني دلوقتي حالًا الآن فورًا»، لكننا لا نفعل ذلك، الأدهى أننا نشتكي أننا لا نصل إلى ما نريد، بربك كيف نصل ونحن لم نبدأ؟!

السادسة والثلاثون

شِق كلمة.. شِق عدسة

ثمة موقع عظيم على نهر «نيرتفا» يمكن أن تشاهد منه جسر «موستار» العتيق، المشهد هناك مغرٍ للغاية، كأن قطعة من الجنة سقطت، قف في هذه الزاوية، وجِّه عدستك نحو الجسر، يقفز إليك تلقائيًا في أقصى يسار الصورة حجر منقوش عليه ما معناه: «حتى لا ننسى».

الجسر المبني في القرن السادس عشر يُعد من أعظم الجسور التي خلفها العثمانيون في البلقان، وهو يربط شطري مدينة موستار، لكن في الثامن من نوفمبر لعام ١٩٩٣ وخلال الحرب البوسنية قصفه الكروات بستين قذيفة هدمت معظمه، إلى أن أعيد بناؤه بإشراف «اليونسكو» عام ٢٠٠٤.

الحجر المنقوش يذكرنا بجريمة هدم هذا الجسر الأثري وقطع أوصال المدينة، وربما يطمع في تذكيرنا بكل ما تعرض له المسلمون في «البوسنة». شخصيًا لطالما صادفتني مثل هذه العبارة: «حتى لا ننسى» بلغات مختلفة خلال أسفاري في أنحاء متفرقة من العالم، خصوصًا تلك التي تعرضت لجرائم جماعية، ولطالما سألت نفسي لماذا علينا ألا ننسى؟

لوهلة قد يعتقد المرء العكس، أي إن علينا أن ننسى، أن

نجنب الأجيال القادمة أن يرثوا هذا الغضب منا ويسعوا إلى الثأر. لكن فكرت أن النسيان إنما هو بمثابة دعوة مفتوحة لكل مجرمي العالم، أن ارتكبوا ما بدا لكم من جرائم، لن نفضحكم، لن نطلب الثأر، لن نعاقبكم، لن نعيد الحق لأهله، وستكرر أجيالنا اللاحقة أخطاءنا، تراجعت وقلت لا، علينا ألا ننسى.

عندما بدأت مقدمات الحرب في «البوسنة» وقبل أن تستعر وقبل أن يغمر طوفان الصحفيين «سراييفو»، كان الأهالي في الشارع يتجاذبونني من ملابسي ما أن يعرفوا أنني صحافي، حتى أصور جثث الجنود المسلمين الذين قُتلوا خارج أراضيهم بعد أن أجبروا على المشاركة ضمن الجيش اليوغسلافي في حرب لا علاقة لهم بها بين الصرب والكروات.

كانوا يريدون أن يصرخوا ليسمعهم العالم، تدخلوا من فضلكم، أنقذونا. كنت خائفًا، أشعر بأنهم يحملونني أمانة أكبر من طاقتي، كيف لحفنة من الكلمات والصور الفوتوغرافية أن تحقق رغبتهم؟ وكأني نسيت فعل التراكم، لا أحد وحده يستطيع، لكن أنا وأنت وهو نستطيع، على شرط ألا أنتظرك أو أنتظره أو ينتظرنا، وإنما على كل منا أن يبدأ وفي الحال.

بعد مرور أكثر من عام من الحرب، كان الناس قد ملوا الصحفيين الذين لا يفعلون شيئًا سوى تصوير قتلاهم، فكانوا يقولون لنا: نحن نموت وأنتم تقبضون الثمن، كأنما يشيرون إلى أن ما نقوم به من تقارير متلفزة وتصويرهم وهم يتعرضون للقتل إنما يتحول إلى دولارات نتحصل عليها من مؤسساتنا الصحفية.

نسي هؤلاء البسطاء أننا أيضًا قد نموت مثلهم، وأن قذائف الموت ليس بوسعها التفريق بين الصحفيين والمواطنين، لكن الحال

اختلف عندما وقعت المذابح الكبرى، كانوا يدركون أن الموت بات قريبًا منهم جدًّا وممن يحبون، فرغبوا في ألا يموتوا بالمجان، كأنهم يطلبون الثأر، كأنهم يقولون: وثّقوا ما يجري، إذا لم يكن بوسعنا هزيمة هذا الشر فلنفضحه، ولنخبر الأجيال القادمة به، لعلها تحول دون تكرار الأمر، لعلها ترد حقنا.

الصوت تسمعه بصعوبة، والصورة مهترئة، لكن المخرج سعيد جدًّا بما وقع في يديه، فصناع الأفلام الوثائقية يتعاملون مع أي مادة أرشيفية كما يتعامل تجار الذهب مع مصاغهم، إنهم يدركون قيمتها المادية والمعنوية، ومن أجل ذلك بوسعهم تحطيم كل القواعد المهنية، إنها وثيقة تاريخية تثبت دعواهم وتؤكد رسالتهم التي يحملها الفيلم وتدعم نظريتهم.

كنت مستعدًا لأن أشتري أي مادة أرشيفية مهما كانت حالتها رديئة لأنقل للناس ماذا جرى عندما هجّر «ستالين» شعب التتار بأكمله من بلاده إلى «سيبيريا» ووسط آسيا، تخيلوا أن هذه الجريمة لم تُوثَّق، تخيلوا أن هذه الآلاف التي هلكت ليس هناك ما يدل على ذلك، تخيلوا أنه لا وثيقة تدين الجاني.

على مائدة العشاء في مطعم إيراني بلندن سألت صديقي الفلسطيني الداعي: «هل وثقتم للثورة الفلسطينية، للانتفاضات، للنجاحات، للإخفاقات، للقيادات، للجواسيس؟ هل وثقتم للشوارع الفلسطينية، للقرى؟ هل وثقتكم أحاديث العجائز قبل أن يتوفّاهم الله ليحكوا للأجيال المقبلة ما جرى؟» صمت كلانا، وانصرفنا إلى الخبز الساخن.

التوثيق هو التاريخ، وبقدر ما نصيب فيه نقلل من تزوير التاريخ، التوثيق يا سادة هو ذاكرة الوطن التي لا يدركها النسيان،

هو حلقة الوصل بين مستقبل الوطن وحاضره وماضيه، هو الشاهد الحيّ على نضال المناضلين، أفرادًا وجماعات ومؤسسات؛ ولذا فإن ذاكرتنا هي الهدف الأول لعدونا؛ لأنها توثق لحقوقنا، وأن الأرض لنا، وأن الأسماء لنا، وأن النقش لنا.

حكى لي الأصدقاء في «اليمن» أنه عندما قامت ثورتهم، خشي المصورون التقليديون كبار السن أن يقوموا بعملهم وسط هذا الخطر الذي لم يَخبَروه من قبل، وامتنعوا ـ إلا من رحم ربي ـ عن تسجيل مرحلة مفصلية في تاريخ بلادهم وتوثيقها، الشباب الصغار أقدموا على ذلك دون أي سابق خبرة، ولما لم يكن لديهم أي معدات فقد استخدموا هواتفهم المتحركة الخاصة، ولم يصدقوا أنفسهم عندما تناقلت كبرى القنوات الفضائية صورهم، وهو الأمر الذي منحهم طاقة كبرى للاستمرار في جهادهم التوثيقي.

لو أن هؤلاء الشباب الصغار قالوا وما جدوى صورة بهاتف متحرك، ربما الحجر أقوى، ربما الرصاص أجدى، ما فضحت محاولات كل الثورات المضادة، ولظلت كل أخبار الثورات طي وسائل الإعلام الرسمية، تطفف فيها ما شاءت، لكنهم أضافوا لذاكرة بلدهم صفحة مهمة قد تكون ملهمة للجيل القادم إذا لم يكن بوسع الجيل الحالي أن يفوز.

لكن إذا كانت هذه مهمة مقدسة، فالأهم كيف تتحقق؟

يقول «باولو كويلو»: «إن إحدى أقدم الطرق التقليدية التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله كانت القصص والروايات»؛ لذا فإن توثيق هذه المرحلة في شكل حكايات يضمن لها الخلود، وأقصد بالحكايات تلك الأفلام الوثائقية ليس بشكلها البرامجي التقليدي الممل، بل عبر هذه الأفلام المحكية بطريقة رائعة، والتي

يعرف صانعوها كيف يشحنونها «بالمتعة» القادرة على جذب المشاهدين من كل عمر وباختلاف ثقافاتهم.

الحكاية هي بندقية أخرى، بندقية لا تصيب ولا تقتل إلا الباطل المحتل والفاسد الحاكم، تحمي ذاكرة الوطن إلى من يأتي محملًا بكل أسباب النصر، إنها في نظري تحقق فريضة التوثيق، لكنني أدرك أن الكثيرين لا يؤمنون بذلك، يعتقدون أنه كلام عاطفي، يبحثون عن عمل ضخم مؤثر يغير الأحوال مئة وثمانين درجة مرة واحدة، أما عدسة كاميرا وحروف مكتوبة فإنها إضاعة للوقت والجهد.

يا حسرتاه!

يا صاحبي، المعركة طويلة، وليس بالضرورة أن يتحقق النصر في حياتك، لكن تستطيع أن تشارك في تحقيق النصر حين تترك للأجيال المقبلة ما يحاربون به، ودون ذلك سوف ينسى الآخرون، بل سننسى نحن أيضًا.

قم إلى حروفك وعدستك، ووثِّق ثورتك، الإخفاقات والنجاحات، الأبطال والخونة، الزعماء والبسطاء، صعِّبوا عليهم تزوير التاريخ، أغرقوهم بالحقائق، دعوا أولادكم وأحفادكم يرددون حكايتكم، لا تستصغروا فعلكم، لا تحقروا معروف الوثيقة، وكما يمكن أن ينجينا من النار شق تمرة، يمكن أن ينجينا شق عدسة، وشق كلمة.

السابعة والثلاثون

هل تعلم ماذا تريد؟

رغم أن المشهد يبدو لي وكأنه وراء ضباب إلا أنني أتذكره جيدًا، كانت القاعة مزدحمة للغاية بأولياء الأمور الذين جاؤوا لمشاهدة أبنائهم وهم يقدمون عرضًا مسرحيًا، دخان المدخنين وضجيج الحضور يملآن المكان، واللمبات الصفراء تزين سقف القاعة، كان ذلك في أوائل الستينيات، لا أتذكر إن كان عمري حينها ثماني سنوات أو تسعًا، لكن أذكر جيدًا أن مدرستي اختارتني لأقوم بدور الفلاح مع تلاميذ آخرين في مشهد تمثيلي عن السخرة التي تعرض لها المصريون في حفر قناة «السويس»، وبالطبع كنا في زمن «عبد الناصر».

كنت أرتدي نظارة سميكة، ولما كنت أقوم بدور الفلاح فقد نزعوها فجأة عني قبيل بدء المشهد، فاختلطت كل الأشياء أمامي، لكنني اندمجت في الدور، ويبدو أن زميلي اندمج أيضًا في دوره فأخذ يصرخ وهو يتعرض لسياط الإقطاعي الذي كان يلهب ظهور الفلاحين والعمال لحثهم على الحفر، زميلي زاد من صراخه، فخرجت عن النص وخرجت عن طوعي، وتركتُ الفأس من يديَّ وهجمتُ على المعتدي دفاعًا عن زميلي!

ارتبك زملائي الذين يؤدون أدوارهم في المسرحية، وارتبكت

المدرسة واضطرت أن تتدخل لتخرجني من على المسرح، فيما أنا في أوج حماسي ثائرًا ضد الذين يستعبدوننا، أما القاعة فقد غُصّت بضحك لم أفهم سببه، وانتهت بذلك كل آمالي في التمثيل.

لأسباب مجهولة حتى الآن، تملكني بعدها اعتقاد أن الله ﷻ قد حباني صوتًا مميزًا، وأنني ما خلقت إلا لاستغلال هذه الهبة، وليس عليّ إضاعة الوقت، فقررت وأنا في العطلة الصيفية بإحدى سنوات دراستي الثانوية أن أتوجه إلى قصر الثقافة بطنطا، تلك المدينة التي هُجّرت إليها من السويس بعد هزيمة عام ١٩٦٧، فهناك بوسعي أن ألتحق بكورس أغاني التراث الشعبي، مثل الزملاء العظماء «سيد درويش» وغيره!

كان ذلك في أوائل السبعينيات، حين دخلت الدرس متأخرًا قليلًا، جلست في الصف الأخير. في الصف الأول كان المدرس العجوز يعزف على البيانو بوقار شديد، وكان تلاميذه يرددون وراءه تلك الطقطوقة الشعبية الشهيرة «يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح»، فعلت مثلهم، اندمجت تمامًا، غنيت بحماسة وقوة. ألم أقل لك إنني ما خلقت إلا لذلك؟!

كان المدرس يلتف كل برهة يمنة ويسرة وتبدو على وجهه ملامح الضيق، ثم توقف الرجل عن العزف فجأة والتفت إلى الوراء باحثًا في الوجوه. كان مساعده على مقربة مني وفهم مقصد أستاذه فصاح مباشرة: «من هنا يا أستاذ من هنا»، وما أن منحنا الأستاذ فترة استراحة حتى وليت هاربًا، فقد كان الرجل يشير ناحيتي وهو يكلم أستاذه.

لم أستسلم، وقد شعرت أن مستقبلي الحقيقي سيكون في الموسيقى، وهرعت إلى تعلم عزف الكمان، وأجبرت أسرتي يومًا

أن تجلس لأدهشها بموهبتي الحقيقية، وبدأت العزف وما أن انتهيت حتى قيل لي: «كويس كويس بس مش كان أحسن تتعلم قطعة موسيقية شهيرة»، فاندهشت أنا، فقد بات واضحًا أن لا علاقة بين الأصوات التي كانت تصدر من «كماني» وبين أغنية «أم كلثوم» الشهيرة التي كنت أعتقد أنني أعزفها. وقد لاحظتُ بعدها أنهم انصرفوا عن سماع أغانيها.

أنّبت نفسي على التورط في أمور لا أجيدها، وقلت لنفسي فلأبقَ في مجال القراءات السياسية، ولما كنت على وشك دخول الجامعة، ولما نصحني الأصدقاء الشرفاء بضرورة التواصل مع الجنس اللطيف حتى لا تقع الواقعة حين ألج الجامعة؛ لذا قررت أن أضرب عصفورين بحجر واحد، ألتقي فتاة قابلتها صدفة في أحد النشاطات الثقافية، وأحدثها في السياسة!

في حديقة المنتزه بطنطا وفي مقهى يتوسطها، ذهبتُ تدفعني فكرة الصداقة بين الجنسين إلى حيث وجدت الفتاة تنتظر، كانت حولنا - والوقت قبل المغرب - ثنائيات كثيرة لم أفهم أمرها في البداية، وبعد السلامات والتحيات انطلقت في الحديث معها عن التحديات التي تواجه الثورة ودور الجماهير المأمول، وانعرج الحديث - طبعًا من جهتي - عن السد العالي هذا المشروع الطموح الذي يتحدى به «عبد الناصر» قوى الاستعمار العالمي.

كانت المسكينة تنصت بدهشة، وكلما حاولت هي تغيير اتجاه الحديث لا أجد في جعبتي ما يلائم حديثها، فأستمر خطيبًا عن سياسات عدم الانحياز ومؤامرات الاستعمار وحتمية وحدة العالم العربي، وهو المشهد نفسه تقريبًا الذي شاهدته لاحقًا في فيلم لنور الشريف، وشعرت حينها بأنني لست وحيدًا في هذا المصاب.

فما أن بدأت الشمس في الغروب حتى وقمتُ مسرعًا كمن لسعه عقرب لنغادر المكان، فيما الظلمة والهدوء بدآ يسودانه، وقد لاحظت أن الآخرين حولنا والأخريات بدأوا يقتربون من بعضهم البعض وهو الأمر الذي لم أجد له تفسيرًا، خصوصًا وأن الكفاح من أجل السد العالي لم يكن بحاجة أبدًا إلى هذا النوع من التلاحم، وبالطبع لم تتواصل معي هذه الفتاة مرة أخرى مطلقًا.

كانت القراءة حاضرة دائمًا، لكن أقرب التجارب إلى قلبي كانت التصوير الفوتوغرافي، وبالموازاة نشطت مع «منظمة الشباب الاشتراكي»، التابعة إلى التنظيم الوحيد في الدولة حينذاك وهو «الاتحاد الاشتراكي العربي»، والتحقت بمعسكراتها حيث كنا نحن معشر المتدربين نمر بدورات سياسية مكثفة، وقد أثر هذا كثيرًا في تفكيري وسلوكي. ولا أكون مبالغًا إذا قلت إن معظم قيادات الحركة الوطنية والإسلامية في «مصر» تخرجت في هذا التنظيم الذي بدأ عام ألف وتسعمئة وثلاثة وستين واستمر رسميًا حتى عام ستة وسبعين، وأظن أننا بحاجة إلى دراسة هذه التجربة بسيئاتها وحسناتها خصوصًا أن هذه المنظمة قد استطاعت إلى حد ما أن تضم تيارات وروافد فكرية متعددة حتى الإسلامية منها.

كنت في تلك السنوات مضطربًا للغاية، على رغم قناعتي المبكرة وأنا في سن الابتدائية بأن الصحافة هي قبلتي، لكن طاقة الشباب جبارة؛ إنها تقنعك بأنك تملك كل شيء وبوسعك أن تفعل أي شيء، وأن أمرًا واحدًا لا يكفيك، وأن بمقدورك هدم العالم كله عن بكرة أبيه وإعادة بنائه من جديد على أسس تؤمن أنت بها.

كان عقلي يعمل على مدار الساعة، أطرق كل الأبواب، وأجرب كل الأشياء، وحماستي فيضان يكاد يجرف بي هنا وهناك.

كنت أحاول أن أجعل قيمي التي اخترتها آنذاك هي الثابت في ذلك كله، الضياع هو العفريت الذي يطل عليك من كل ناحية، يقول لك لقد هلكت، أنت لا تعرف ماذا تريد، لقد انتهيت، والحقيقة أنك ابتدأت، نعم. . ففي هذه المرحلة من «الضياع»، تعد مرحلة «لا أعرف ماذا أريد»، مرحلة لذيذة برغم آلامها؛ لأنها ببساطة علامة البدء والميلاد.

لا مشكلة في ألا تعرف ماذا تريد، ولكن المسألة كيف تعرف ما تريد، ما خططك لتعرف، إنك تنظر إلى الأمور كلها وتحتار، ثم ينتابك القلق، لقد سقطت في التيه، لكن الأهم أن تدرك أن ذلك من طبائع الأشياء وأن الأولى أن تضع خططك حتى تصل في النهاية إلى أن تعرف ماذا تريد.

قد تحدد قائمة بالخيارات، وتقارن بينها، وتحسب حساباتك، لكن القول الفصل هو لأمر آخر، تقول حكمة الأيام عليك بالتجربة، كيف تحكم على الطعام دون أن تتذوقه؟ بالله عليك ماذا ستخسر إذا جربت؟ لا تجربة خاسرة مهما بدا لك الأمر غير ذلك، تفقد بعض الوقت، وتفقد بعض المال، وتفقد بعض الجهد، وتكون محل استهزاء البعض وتهكمهم، لكنك في المقابل تكسب كثيرًا: معارف ودرايات وخبرات ودروسًا عظيمة، أدناها أنك تأكدت أن هذا الاختيار لا يناسبك، عليك أن تبحث عن غيره، فتطيح به نهائيًا من قائمتك واهتماماتك.

يحل الأمر بالناس فيختلفون في التعامل معه، يتباين أداؤهم، وهنا مربط الفرس. يقول الكاتب الإنجليزي «ألدوس هكسلي» إن: «التجربة ليست ما يحدث للإنسان، بل ما يفعله الإنسان حيال ما يحدث له»، وذلك يذكرني بقصاصات الأوراق التي كنت أحتفظ بها وأنا فتى وتشمل ما يقع بين يدي من حِكَمِ الحكماء.

«آينشتاين» مثلًا قال إن «الشخص الذي لا يرتكب أي أخطاء لم يجرب أي شيء جديد»، وقرينه الفيزيائي الأمريكي «ريتشارد فاينمان» قال: «ليس مهمًا مدى جمال نظريتك ومبلغ ذكائك، فما دامت النظرية لا تتفق مع التجربة فهي خاطئة». أما سيدنا «كونفوشيوس» فقد ذكر أن «العظمة ليست في ألا تسقط أبدًا، ولكن العظمة أن تنهض كلما سقطت». ويقول المثل الروسي: «أول فطيرة لا تنجح». أما الروائي الإيطالي «إيتالو كالفينو» فيقول إن «ما يُصطَلح على تسميته بصورة رومانسيةٍ عبقريةً أو موهبةً أو إلهامًا أو حدسًا، لا يعدو أن يكون العثور على الدرب الصحيح عن طريق التجربة».

في أحد المراكز الإسلامية في «فرانكفورت»، قال «حسن»، الشاب المصري القادم لتوه مهاجرًا لمدير المركز: «سيدي لن أزعجكم مثل الآخرين، ولا أريد منكم أي مساعدة سوى تأمين عمل وسكن مناسب لي». ضحك الرجل وقال له: «لقد طلبت الأعظمين، وإلامَ يمكن أن يحتاج المرء غير ذلك؟ لقد سألتَ كل شيء».

«حسن» أحسن مثالًا من آخرين، فعلى الأقل غامَرَ ووصل إلى أوروبا، فيما لا يحب الآخرون من شبابنا في العالم العربي، إلا من رحم، التجربة أو المغامرة مطلقًا، إنهم يطلبون الضمانات بالنجاح قبل البدء، يكاد المرء منهم يطلب عقد عمل موثقًا وعقد إيجار مسكن قبل أن يجمع قروشه ليدفع ثمن بطاقة السفر.

هل تريد أن تكون طبيبًا أم مهندسًا، شاعرًا أم صحافيًا؟ هل تريد أن تهاجر أم تبقى؟ هل ترغب في هذه الوظيفة أم تلك؟ هل تريد أن تسلك هذا الطريق أم ذاك؟ فكّر قدر ما تستطيع أن تفكر،

احسب قدر ما تستطيع أن تحسب، ثم اختر ما تميل إليه حساباتك ويزكيه قلبك، وخض تجربتك.

آه من هذا القلب، إنه أحيانًا ـ أو ربما غالبًا ـ يسير في اتجاه عكس اتجاه الحسابات، لكن لا بأس، لا تتردد كثيرًا في أن تتبعه. سأقول لك سرًا: بعد أن تصل إلى سن متأخرة من عمرك ستجد أن الأشياء عادت إلى حجمها الذي تستحقه، نعم بعض الأشياء تبدو في شبابنا كبيرة جدًّا عن حجمها الطبيعي، وبعد أن تمضي عمرك تناضل كي تكسبها تجد في النهاية أنها لم تكن تستحق، على الأقل لا تستحق كل ما بذل من أجلها.

قلبك إذن هو منارتك في التجربة، وإلا فكيف تصبح طائرًا محلقًا في أعالي السماء وتنال البهجة؟ ولا بهجة إلا بعمل بجدّ وكدّ، واستماع لمن هو أكبر منك ولمن هو مختلف عنك؛ الأول يمنحك خلاصة تجربته، والآخر يمنحك الصورة المناقضة حتى تستطيع أن تتبين، و«الاستماع» لا يعني «الانصياع»، بل يعني التفكر وإعمال العقل.

واعلم يا هذا أنك سوف تخطئ، سوف تخطئ كثيرًا، فلا بأس، لسنا أنبياء نسير بوحي من الله، كل الذين نقرأ اليوم سيرهم الذاتية أو نشاهدها أفلامًا؛ بصفتهم أبطالًا وشخصيات خلدها التاريخ، إنما كانوا يومًا في «حيص بيص» يضربون أخماسًا في أسداس، يخطئون هنا ويخطئون هناك ثم يصححون مساراتهم، ثم شبوا عن الطوق عندما كانت لهم عزيمة لا تقهر.

هيا، اعمل بنصيحة «غوته» وابدأ الحياة كل يوم من جديد كما لو أنها بدأت الآن.. نعم استمر بقوة في مسعاك حتى لو رأيت أحدهم يشير إليك ويصيح «من هنا يا أستاذ.. من هنا».

الثامنة والثلاثون

لدي فكرة..!

زارني «رضا»، صديق العمر وإن كانت معرفتي به بدأت قبل عدة سنوات، مقترحًا تأسيس مركز للتدريب، أجبته رافضًا: «قدرتي على صناعة فيلم وثائقي لا تعني بالضرورة قدرتي على تعليم الناس هذه المهنة»، دافع عن وجهة نظره بقوة، أغواني بجيل الشباب، الطرف المستفيد من خبرة لا بأس بها تُنقَل إليه، هو يعرف أن هذا الأمر يستهويني، مضيفًا: «إذا مارسته مرة فسوف تستهويك المسألة»، وعدته بدراسة الأمر وأنا في غير حماسة.

«هيثم» دعاني لدورة في «أون تي في»، أبلغته أنني رفضت مجرد التفاوض بخصوص هذا الأمر مع جهات متعددة، لكن لسبب غير مفهوم أقنعني بالمحاولة، بدأت أعد نفسي للأمر، اندهشت زوجتي وهي تراني مثل التلميذ أدرس وأقرأ وأستعد، وعلى طاولتي العديد من الكتب والمصادر محاولًا ترتيب أفكاري وصياغة منهج دراسي، قالت: «لا أفهم كيف تفعل ذلك بعد كل هذه السنوات من العمل في هذه المهنة؟»، كررت وجهة نظري، القدرة على العمل لا تعني القدرة على تدريسه، ثم حالت ظروف الانقلاب في مصر دون أن يتم الأمر.

«ياسر» كان الثالث، والدعوة من الصديق المصري كانت

موجهة لي في «المغرب»، وافقت، استبد القلق بي، حتى إنني استيقظت ليلة اليوم الأول للدورة في الثالثة صباحًا ولم أنم بعدها، يخيفني حد الرعب أن يثق بي أحدهم ويأتي محملًا بأمانيه في شخصي أن أحقق له عبر الدورة إنجازًا عظيمًا في حياته.

«معاوية» «الزول» السوداني كان صاحب الدعوة التالية، ومنحني فرصة لا تعوض بدعوتي إلى «رواندا» حيث أقيمت الدورة في بناية المكتبة العامة في العاصمة «كيغالي»، الفرصة كانت في اكتشاف أن هذا البلد الإفريقي ـ الذي زرته عام ١٩٩٧ إبان مذابحه المروعة التي راح ضحيتها ما يقرب من مليون إنسان ـ قد نهض وتجاوز المأساة ـ التي نعيش نحن الآن مثيلتها ـ بمصالحات قانونية وقَبَلية.

باتت الصورة واضحة أمامي، الدورات التدريبية أمر رائع من حيث المبدأ، وبوسعها تهيئة الراغبين في الولوج إلى هذا العالم عبر جرعة عملية، لكن المشكلة الأولى أن المتدربين يخوضون هذه الدورات معتقدين أنهم سيدخلون من هذا الباب ليخرجوا من الباب الآخر مخرجين وصناعًا كبارًا للأفلام الوثائقية، وستُفتَح لهم أبواب العمل هنا وهناك؛ ولذا لا أترك فرصة إلا وأقول إن الدورة ـ أي دورة ـ ليست إلا خطوة واحدة على طريق طويل.

المشكلة الأخرى تأتي من المدربين أنفسهم، فإما أن بعضهم لم يمارس هذه المهنة بنفسه، ولم يخض تجربة تليها تجربة، وإنما يقوم بمهمته معتمدًا على معلوماته النظرية، وإما هو لا يدرك طبيعة دوره جيدًا، ويتعامل مع المتدربين كمحاضر في جامعة، فيمدهم بمعلومات نظرية عن الفيلم الوثائقي وتاريخه، ومدارسه وأنواعه.

عبر مواقعي على منصات التواصل الاجتماعي وردتني الكثير

من الأسئلة التي ساعدتني على فهم ما يبحث عنه المتدربون، ومن ثَمَّ في صياغة منهج خاص للدورة المطلوبة في صناعة الفيلم الوثائقي، وكانت كلها تصب في سؤال رئيسي: «كيف نضع أقدامنا على أول الطريق؟»، شريحة لا بأس بها منهم لم تدرس الإعلام، أي إنهم مثلي؛ لذلك اعتبرت أن مهمتي الأولى هي إرشادهم إلى هذا الطريق، ومساعدتهم في كسر حاجز الخوف حتى يبدؤوا مشوارهم الطويل.

عادة وعندما أخوض تجربة جديدة أبدأ بدراسة تجارب الآخرين، وهذا ما فعلته، ومن ثَمَّ تكاثرت الأسئلة في ذهني، لماذا يرتدي المدرب رباطة العنق، ويفعل مثله المتدربون، ليخوضوا دروسهم بين جدران إسمنتية، بشكل تقليدي صارخ؟ وإذا كان هذا الأمر يصلح في بعض التخصصات، فهو لا يصلح بلا شك فيما يخص الفيلم الوثائقي الذي يعتمد على صيد فكرته من الواقع.

لدي فكرة..!

لماذا لا أقوم بالتدريب في مكان طبيعي، غابة أو ريف مثلًا؟ لماذا لا تُقام الدورة في مخيم هناك، حيث أكون والمتدربون معًا على مدار الساعة لنحو عشرة أيام، نحكي نظريًا، ونطبق عمليًا، ونتداول بخصوص ما مر بي من تجارب، نعيش معًا، نتغلب على الظروف المحيطة، ونتعلم العمل الجماعي والانصهار فيه؟

وإذا كنت أردد الحكمة العظيمة «كن ممتعًا وأنت تقول الحقيقة» في إشارة إلى التشويق والمتعة اللذين يجب أن يتحلى بها الفيلم الوثائقي، فلماذا لا نتمتع ونحن نتعلم؟ أي: كيف نمتع الآخرين ونحن نقول لهم الحقيقة؟ ما المانع في أن تكون مخيماتنا في أماكن رائعة، شرط ألا تتحول إلى دورات ترفيهية؟

خضت التجربة الأولى في «تركيا»، سافرت إلى عدة مناطق إلى أن اخترت ما رأيت أنه مناسب، مخيم في منطقة ريفية، اكتملت كل الأسباب لإنجاح المخيم، بقي أمر واحد مخيف بالنسبة إليّ، فأنا ممن يقدسون أمر الخصوصية، وفي الدورات السابقة كنت أنهي عملي في الخامسة مساء، وأبقى حتى الصباح وحدي في غرفة فندقية بعيدًا عن فندق المتدربين، فكيف لي أن أعيش متجاوزًا هذه الخصوصية؟

غير أن التجربة نجحت، ومنحني المشاركون وقتًا ممتعًا، وسهَّل التعايش بيننا على مدار الساعة أمر الإرسال والاستقبال بين المدرب والمتدربين، وخجلت وأنا أكتشف أن منهم من أتى من خطوط النار في «سوريا» آملًا أن يتعلم شيئًا يفيد بلاده وقضاياها، بل عمد بعضهم إلى إقامة دورات خاصة بعد عودتهم، وكأن الفكرة تكبر.

لدي فكرة..!

لماذا لا أسير قُدُمًا في الأمر وأتجاوز «تركيا»؛ لتكون التجربة التالية في إفريقيا حيث الحياة الحقيقية؟ لماذا لا أعود إلى «رواندا»؟ خصوصًا وأن حكاياتها لا تنتهي، وبالأخص بعد تجربتها المريرة ونجاحها في أن تقفز لتكون إحدى أكثر الدول الإفريقية تقدمًا، «رواندا» نموذج صارخ بالنسبة إليّ مهنيًا وفكريًا، سأدفع خلاله المتدربين العرب إلى دراسة هذه الحالة: كيف تمت المصالحة؟ كيف تمكنوا من تخطي المحنة؟

في الحقيقة انطلق المخيم قبل موعده بكثير، فالتجربة بدأت عندما اضطر الراغبون في الالتحاق بالدورة إلى دراسة الأمر ليقرروا أبعاد المغامرة؛ بالسفر إلى بلد في قلب إفريقيا لا يذكر إلا وتذكر

مذابحه، ودخل بعضهم في نقاشات حادة مع ذويهم القلقين على سلامة أبنائهم، إلى مشوار الحصول على التأشيرات وإيجاد أفضل الطرق للوصول إلى «رواندا»، بعضهم قرر أن يأتي قبل بدء المخيم بيوم أو يومين ليكتشف بنفسه ملامح هذا البلد.

الدهشة ـ التي هي عندي شرط الحكاية ـ كانت تتحكم فيهم واحدًا واحدًا، كل ما قرأوه عن هذا البلد أو شاهدوه كان مثيرًا لهم، ومن ثم اعتبرت أنني حصلت مقدمًا على ضمانٍ لنجاح المخيم قبل أن يبدأ، الفرحة التي كنت أراها في عيون المتدربين كانت أبلغ تقييم للتجربة، تلك التي نقلتهم من بيوتهم الآمنة في «تونس» و«الرياض» و«القاهرة» وغيرها إلى أدغال إفريقيا، يلتقون بالضحايا والجناة على حد سواء، ويخوضون تجربة التصوير في الأحراش والغابات.

لم يكن مخيم «رواندا» مجرد الجولة الثانية في هذه التجربة. لقد تجاوز ذلك إلى ما يشبه المهرجان المعني بالفيلم الوثائقي، الفعاليات التي صاحبته، والاحتفاء به في بعض وسائل الإعلام دفعًا به ليكون أكبر من مجرد «دورة تدريبية»، لقد كبرت الفكرة حتى أكثر مما كنت أتصور.

لدي فكرة. . !

تكاليف إقامة مثل هذه المخيمات باهظة جدًّا، وفي المقابل فإن المبلغ المرصود للالتحاق يمثل مبلغًا كبيرًا في بعض الدول العربية، والزملاء الذين يعملون معي في إدارة المخيم: «وحيد» و«طه» و«مهند» و«مريم» و«هيثم» لن يكون بوسعهم الاستمرار في العمل تطوعًا أو بمقابل رمزي؛ لذا سعيت إلى تأمين رعاة يتولون بدورهم التقليل من قيمة الاشتراك، لكنني أعترف بأنني لم أنجح حتى الآن في ذلك.

أفكارنا مثل أطفالنا، نلدهم صغارًا ثم يكتمل نموهم مع الأيام والتجارب، لا تولد فكرة كاملة من أول لحظة، وما حدث شجعني أكثر، لنتجاوز الحسرة على ما وصل إليه إعلام الاستخفاف والتفاهة، إلى المشاركة في صناعة جيل جديد بانتماءاته المختلفة.

لماذا لا تتمرد أفكارنا على الواقع؟ مثلًا لماذا لا نكسر الطوق المفروض على صناع الأفلام الوثائقية في عالمنا العربي عملًا على تسويقها بعيدًا عن «عقود الإذعان» التي تفرضها بعض القنوات علينا؟ لماذا لا يعمل المستقلون على تأمين سوق كبير للأفلام الوثائقية؟ لماذا لا نستغل منصات التواصل الاجتماعي في ذلك؟ لماذا لا يتحد المخلصون من صنَّاع الأفلام الوثائقية ومنتجيها في كيان يمكِّنهم من فرض شروطهم العادلة؟

ثمة أفكار عديدة تدور في دواخلنا جميعًا لكننا نتباطأ في الإفصاح عنها، ونتردد في العمل بها والدعوة إليها، وهنا مكمن الخطر، وكما قال الشاعر الداغستاني «رسول حمزاتوف»: «لا تخبئ أفكارك.. إذا خبأتها فستنسى فيما بعد أين وضعتها»!

التاسعة والثلاثون

الطائرة التي لا تهوي بك.. تقويك!

سألتها: «كيف الوصول إليك؟»، أجابت: «عليك أن تتدبر أمرك وحدك، لم أنجح في العثور على أي شخص هنا يتحدث الإنجليزية يمكن أن يكون برفقتك ويدلك على الطريق»، قلت لها: «لا بأس بالتيه في بلاد الثورة».

كانت بلغتها الإسبانية وبخبرتها الصحفية مايسترو فريق العمل المكون من مجموعتين: واحدة لبرنامج «نقطة ساخنة»، والأخرى لبرنامج «يحكى أن»، فيما كنت أنا أتنقل بين المجموعتين، وعليّ هذه المرة أن أغادر العاصمة الفنزويلية «كاراكاس» لألحق بالمجموعة الأخرى وضمنها المايسترو «ديمة الخطيب» في أقصى جنوب شرق البلاد، ذلك كان نهايات عام ألفين واثنين.

في الموعد المحدد توجهتُ وحدي إلى مطار العاصمة، أنهيت الإجراءات المعتادة وركبت الطائرة، وعندما وصلت إلى مطار مدينة «بويرتو أورداس» كان في انتظاري سائق لا يجيد إلا لغة أهل البلاد الإسبانية ويحمل لوحة كتب عليها اسمي، لقد رتبت «ديمة» كل شيء بدقة متناهية، كنا مساء، أقلني من المطار إلى الفندق، عند الاستقبال اكتفى الموظف هناك بإيماءة من رأسه للتعبير عن ترحيبه ما دامت اللغة قد خذلتنا، توجهت إلى الغرفة.

كان صوت المكيف مزعجًا بشكل لا يطاق، وبرودة الغرفة شديدة لدرجة لا تحتمل، ولا يمكن التحكم به من الغرفة، عدت إلى الاستقبال أحاول شرح الموقف، لكن مرة أخرى لا لغة مشتركة. وتذكرت البسطاء في بلدي، لو زار سائح غربي أعماق ريف «مصر» وتحدث الإنجليزية فبوسعه أن يتدبر أمره: بالإشارات وبعض الكلمات الصغيرة والحركات يمكن التفاهم، المصري قدير في ذلك وإن لم يكن لديه أي خبرة باللغة. أما هنا فعليك أن تنطق الكلمة بلغة أهل البلاد وبطريقة نطقهم نفسها حتى ولو كانت كلمة معروفة مثل «الكوكاكولا» أو البيتزا وإلا ما فهمك أحد.

اتصلت بديمة، شرحت لها الموقف، ثم توجهت إلى الموظف وأعطيته الهاتف، تواصل معها، ثم أعطاني الهاتف وشرحتْ لي، ثم أعطيته الهاتف وشرحتْ له، وهكذا حتى أُنجزت المهمة المستحيلة وهي إغلاق المكيف، تبًا لهذه التفاصيل التي تستنفد وقتك!

في الصباح أقلني السائق نفسه إلى مطار المدينة الذي استقبلني فيه ليلة أمس، وفي المدخل وعلى بعدٍ وجدت طائرة صغيرة، أشار إليها ضاحكًا أو ربما ساخرًا، أتممت الإجراءات وجلست، إلى أن أتى رجل، يشبه سائقي الشاحنات في «مصر»، ليصطحبني إلى الطائرة..

- صباح الخير.

= صباح النور.

- حضرتك مسافر إلى «سانتا إيلينا دي وايرين»؟

= أيوه..

ـ طيب اتفضل معايا نروح للطيارة.

= دي الطيارة؟

ـ أيوه.

= بس دي صغيرة قوي!

ـ ولا يهمك بنسافر فيها كتير.

= دي مفيش فيها إلا كرسيين اتنين، أنت وأنا.

ـ يا عم اطّمن، الأعمار بيد الله.

= معلش بس الكرسي مش ثابت، وبعدين طب فين الحزام؟

ـ متقلقش قوي كده، كله بيمشي بالبركة، لكن أنت رايح هناك تعمل إيه؟

= بعمل فيلم وثائقي عن السكان الأصليين.

ـ ياه! أنتم العرب مهتمين بالسكان الأصليين في فنزويلا وناسينهم في بلادكم!

لو جرى الحديث بهذه اللغة ما خفق قلبي وما اضطرب، يقولون إن المرء عدو ما يجهل، لم نتبادل ولو كلمة واحدة، سرت وراءه، ثم ركبت، ثم فزعت، الطائرة من الداخل تذكرك بالحافلات المهترئة في قرى «مصر»، وبعد أن أصبحنا في كبد السماء، أي أقرب للصعود إلى البارئ، أشرت إليه أن الباب الذي بجانبي غير محكم الإغلاق، ففعل فعلة السائقين، أمسك مقود الطائرة بيد وبالأخرى سحب الباب سحبة قوية.

من علِ أرى أننا غادرنا المدينة وليس تحتنا إلا مجموعة من

الجبال تكسوها بعض الأشجار، وطائرتنا المعجزة يخيّل إليّ أنها تكاد تلامس هذه الأشجار، إذن أنا وهذا الغريب وحدنا في السماء ولا لغة مشتركة غير ابتسامات بلهاء نتبادلها، كنت مجمدًا على كرسي شبه هزاز، وكأنني لو تحركت لاهتزت الطائرة وسقطت، بعد قليل بدأت أهدأ قليلًا، وأطمئن نسبيًا، لكن ماذا لو أن هذا الرجل الآن ولسبب ما فَقَدَ وعيه؟ ماذا لو هناك طائرة أخرى في الاتجاه المعاكس؟ خصوصًا وأنني لم ألحظ على الرجل أعراض التواصل مع برج مراقبة أو ما شابه.

أردت أن أطمئن نفسي، ذكرتها بتلك الطائرة الصغيرة التابعة لحلف شمال الأطلسي التي ركبتها من العاصمة الكرواتية «زغرب»، وكانت أنيقة للغاية بركابها العشرة، ربما كان ذلك عام ألف وتسعمئة وخمسة وتسعين، وما أن صعدت الطائرة إلى السماء حتى أبلغنا ربانها أننا سنهبط «سراييفو» بعد ثلث ساعة، مرَّ أكثر من ساعة ولم نهبط، لقد باتت الطائرة فوق العاصمة البوسنيّة لكنها تهتز بشدة مخيفة ولا تستطيع الهبوط، كنا نتأرجح يمنة ويسرة، ثم نقع في مطبات هوائية فتصطدم رؤوسنا بسقف الطائرة وقد ألجمنا الفزع جميعًا، ننظر إلى بعض ولا نستطيع الكلام، باب قمرة الطائرة كان مفتوحًا، وبدا القائد هادئًا وهو يهاتف برج المراقبة وسط طقس سيئ للغاية، وكانت الحرب قد انتهت وقد تملكني شعور أنني سأموت في «سراييفو» بعد أن تنتهي حربها، لكن الأمر مرَّ بسلام.

واستدعيت من ذاكرتي أيضًا تلك الطائرة الروسية الصغيرة المتهالكة التي أقلتنا في رحلة داخلية في «الكونغو» خلال حربها الأهلية عام ألف وتسعمئة وسبعة وتسعين، كان ربانها الروسي يرتدي «شورت» و«شبشب» ويقف أمامها ونحن نركب، سألته بما معناه «حتوصلنا دي؟»، فردَّ مازحًا «لست متأكدًا»، فوقع المزاح موقع الجد في قلبي.

أو تلك الطائرة السودانية الضخمة التي أقلتنا من «الخرطوم» إلى الجنوب، ضمت فريقنا وفريق الطائرة والبضائع التي جلسنا فوقها، عندما بدأنا في الهبوط بعد رحلة مريرة لاحظت أننا ندور في دائرة، سألت فأجابوني أن المدرج صعب جدًّا وأحيانًا تصطدم الطائرة بالأرض عند الهبوط، وأن الطيار يبذل أقصى جهده للهبوط آمنين، ونصحني أحدهم أن أنظر من نافذة الطائرة إلى هناك حيث طائرتان محطمتان على المدرج. لقد مرَّ ذلك كله وما زلت حيًّا، فلا بأس هذه المرة.

بعد حوالي ساعة، بدأت الطائرة في الهبوط، رغم أنني لم ألحظ أي وجود عمراني، وعرفت لاحقًا أن البلدة اسمها «كانايما»، لامست الطائرة الأرض فتنفست الصعداء. مجموعة من المنازل المتناثرة، ومجموعة من الطائرات الصغيرة كطائرتي، والسائقون، أقصد الطيارين، يجلسون في مقهى متواضع، مشهد عجيب، وبعد قليل صعدنا مرة أخرى لنهبط بعد حوالي ساعة في البلدة الهدف.

يغادر المرء نفسه وأهله والعيال..

يحمل متاعه..

يعبر البحار والجبال..

تفر من بين يديه السنون والأيام..

يبحث عن الذهب..

فإذا ما العمر ذهب..

أدرك ما غابت عنه الأفهام..

الذهب هو الإنسان..

إذا ما ظل فيه الإنسان..

بهذا المقطع أنهيت حكايتي عن «ألدورادو»، واستعددنا للرحيل، أقلتنا سيارة إلى مهبط الطائرات، حظي أفضل حالًا هذه المرة، الطائرة أكبر مرتين من التي أتت بي، والأفضل من ذلك أنني لست وحدي، وقديمًا قالوا الموت مع الجماعة رحمة.

امتقع وجه «ديمة» بعد أن صعدت بنا الطائرة، وعبثًا حاولنا أن نستفسر منها لماذا لم يهبط الطيار بعد ساعة كما كان مخططًا؟ كنا نطلب منها أن تترجم سؤالنا، لكنها كانت تحملق في المجهول، ونحن أكثر رعبًا منها إلى أن قاربنا على الوصول، فشرحت لنا بعد أن تبادلت الحديث مع الطيار، وبعد أن لعنت اللحظة التي قررت فيها أن تأتي معي إلى «فنزويلا»، أن الطائرة كان لها من الوقود ما يكفي لحملها إلى غايتها دون قدرتها على التوقف للتزود به، وأي تأخير في المسار يعني نفاد وقودها وهي في الجو!

خرجنا من طائرتنا الصغيرة إلى طائرة عادية مع عموم الركاب، عائدين إلى «كاراكاس»، طائرة كبرى ضخمة. كنا نضحك وهي الأخرى تهتز قليلًا، فالحكمة تقول لا بأس بالفزع الأصغر ما دمت قد مررت بالفزع الأكبر.

الأربعون

روح «القذافي» اللاتينية

ليس أطفالنا وحدهم الذين يزج بهم في السجون لأسباب سياسية، أطفالهم أيضًا، فقد اعتقل الرجل وعمره نحو خمسة عشر عامًا، وبلاده تبعد عن بلادي آلاف الأميال، وفي عام أربعة وسبعين، أي بعد تسعة وعشرين عامًا من ميلاده أطلق سراحه ليذهب إلى «كوبا»، ثم يقرر العودة إلى وطنه مناضلًا ضد حكم ديكتاتوري، ليصبح رئيسًا لبلاده عام خمسة وثمانين، ثم يعاد انتخابه عام ألفين وستة، ومرة ثالثة عام ألفين وأحد عشر.

إليه قررت أن أتوجه، رتبت حاجاتي ثم أخذت مقعدي، غفوت قليلًا، وعندما استيقظت استمتعت بفنجان من القهوة وأنا أقرأ كتابي، تعبت فقررت أن أشاهد فيلمًا، وعقب ذلك طالبت بوجبتي، ثم نمت قليلًا، ثم استيقظت لأجد أنني قد قضيت نحو خمس ساعات محلقًا في السماء، وقد تبقت عشر ساعات أخرى أظل فيها رهين هذا الكرسي اللعين، إلى أن تهبط طائرتي في مطار «ساو باولو» البرازيلي قادمة من «دبي».

قضيت عدة ساعات ترانزيت، ثم استقللت طائرة جديدة لست ساعات أخرى متوجهًا إلى «بنما»، وبعد عدة ساعات في مطارها حملتني طائرة أخيرة لمدة ساعتين ونصف الساعة حتى وصلت مبتغاي.

كان ذلك في الشهر الأخير من عام ألفين وسبعة، وقبل هذا الموعد كنت قد أمضيت نحو أربعة شهور وأنا أرتب لهذه الزيارة، أقرأ الأبحاث القيمة التي أغرقني بها الأستاذ «جمال إدريس»، وأتواصل مع صديقي «مصطفى»، الذي تولى الوساطة بيني وبين المعنيين حتى أحظى باللقاء المرتقب مع المعتقل طفلًا، المهاجر شابًا، المناضل سابقًا، الرئيس حاليًا.

مثل الأطفال أنا، تستهويني الفكرة فأنطلق إليها غير عابئ بكلفتها الجسدية أو المادية، كنت دهشًا من عودة اليسار إلى حكم أمريكا اللاتينية، فمنذ فوز «تشافيز» بانتخابات الرئاسة في «فنزويلا» عام ثمانية وتسعين والقارة اللاتينية تتجه يسارًا، فبعده وصل العامل «لولا» إلى حكم «البرازيل»، وبعده النقابي «موراليس» إلى رئاسة «بوليفيا»، وامتد انتصار اليسار إلى «الأرجنتين» و«أوروغواي» و«تشيلي» و«الإكوادور» و«غواتيمالا» و«نيكاراغوا»، وهذه الأخيرة هي التي قررت زيارتها ولقاء رئيسها «دانيال أورتيغا»، الذي قد قاد الثوار الساندنستيين للإطاحة بنظام الديكتاتور «سوموزا»، المدعوم آنذاك من «الولايات المتحدة».

أصِلُ العاصمة «ماناغوا» في وقت متأخر من المساء، لا أحب أن أدخل المدن والليل هو السائد، الانطباعات الأولى مهمة، واللون الأسود يحول دونها. أدخل إلى غرفتي في فندقي الصغير، الساعات العشر الفارقة في التوقيت بين ما كنت وما أصبحت تحول دون النوم، غير أني أفوز بساعتين، أستيقظ لأبدأ الاتصالات.

عالم آخر هذه المدينة، سكانها أكثر قليلًا من مليوني نسمة، طقسها معتدل طوال العام، لكن زلازلها متعددة. حصلت على أوراق الاعتماد الصحفية، وبادرت بالاتصال بالقصر الرئاسي، كان

الجميع مشغولًا بمناسبة وطنية. وفي الميدان الرئيسي أقيم الاحتفال، والحضور جمهور عريض، ورئيس البلاد المقصود، ونخبة من ضيوفه، وحين جاء دور الرئيس في الحديث لم ينس أن يذكّر في خطبته الثورية بالعداء الأمريكي، وتشويه الإعلام الدولي له وللرفاق، وفجأة أشاد بِـ «الجزيرة» وبفريقها «الموجود بيننا»، فتفاءلت خيرًا، وليتني لم أفعل.

في يوم تالٍ تلقيت اتصالًا هاتفيًا من شخص يتحدث العربية، لكن طريقته فيها بعض الخشونة، سألني عن مهمتي، سألته عن هويته، أجابني بأنه مستشار الرئيس للشؤون العربية، اتفقنا على اللقاء، وفي الموعد وصل متجهمًا، دخلنا في حوار تقليدي وأنا أحاول أن أفهم سرَّه وأكوّن صورة لشخصيته، ثم انصرفنا على وعد باتصال آخر يحدد فيه موعد اللقاء بالسيدة «روزاريو موريلو».

وفي الموعد المحدد مرَّ المستشار عليَّ بسيارته ليصطحبني إلى قصر الرئاسة، انتظرنا في الغرفة المخصصة إلى أن دخلت السيدة «موريلو»، مطابقة تمامًا للأوصاف التي ذكرت لي؛ شغوفة بالإكسسورات، تتحلى بخواتم في كل أصابعها تقريبًا، وقرط كبير لامع، وعقد ضخم يلف عنقها، وترتدي ملابس شبابية مفعمة بالحياة، وهي مثقفة وشاعرة، والأهم أنها زوجة السيد الرئيس.

بترحاب شديد ودافئ دار الحديث، شرحت لها مهمتي، تحمست لها كثيرًا، أهديتها حلقة «يحكى أن» عن الرئيس الفنزويلي «تشافيز»، وعدتْ بتقديم كل المساعدات الممكنة لتسهيل مهمتنا، سواء فيما يخص لقاء الرئيس، أو أي لقاءات أخرى من جانبهم، ولم تبدِ أي اعتراض على رغبتي ـ التي أكدت عليها مرارًا ـ في لقاء رموز المعارضة.

استرحت للسيدة، لكن لم أسترح للمستشار، إلى أن علمت أنه وصل البلاد في الثمانينيات مبعوثًا من «القذافي» الذي كان يوزع أموال بلاده يمنة ويسرة نصرة للثورات وحلمًا بالزعامة، رجل مملوء بروح الشك، يسألك في كل صغيرة وكبيرة ولا يثق بأي من ردودك، حتى إنه كان يشك في هويتي، قلت له اتصل بالقناة اسألهم، ادخل على «جوجل» وابحث، اتبع أي طريقة حتى يطمئن بالك، لكن كيف يطمئن باله وهو مثل زعيمه الأخضر حامي حمى الثورات؟

كان يستقبلني متجهمًا، وينصرف متجهمًا، قلت ربما طبعه البدوي غلب عليه، لكن البدو طيبون، ولم أشعر في سلوكه معي بأنه يحمل هذه الصفة، زارني مرة في فندقي، قضى معي وقتًا طويلًا يقنعني بسذاجة شديدة أن أصرف نظري عن إعداد موضوعي هذا، وأن أنصرف إلى إعداد حلقة مهمة عن السياحة في «نيكاراغوا»، وعاداتها وتقاليدها ومطبخها الغني بأنواع المأكولات المختلفة، قلت له يا أستاذ «محمد» ما تقوله مهم، لكن طبيعة برنامجي تختلف تمامًا، وأنا واضح فيما طلبت، وقد منحت رخصة رسمية بالعمل بناء على هذا الأساس.

في إحدى المرات تتبعنا بسيارته مثل أي مخبر عربي، دخلنا إلى مطعم شهير، جلسنا في بهوه السفلي، تلقيت اتصالًا منه، سألني أين أنت الآن، أجبته، قال أنا في المطعم نفسه وأراك، ثم أبلغني أين يجلس في بهو المطعم العلوي، وطلب أن أصعد إليه، دار الحديث الأحمق نفسه، والأسئلة المخابراتية ذاتها.

لم أكن لأجلس منتظرًا موعد الرئيس دون عمل، باشرت بإعداد مواعيد لقاءات التصوير مع بعض الرموز والقيادات من كل

الاتجاهات، كما بدأت تصوير حلقة مختلفة عن شاعر وثائر ورجل دين شهير، ويبدو أن تحركاتنا كلها كانت تحت الأنظار.

لماذا يخون الثوار مبادئهم؟ كنت أسأل نفسي مرة هذا السؤال، لماذا يعدون شعوبهم بأمور يتنازلون عنها حين يصلون إلى كرسي الحكم؟ إنهم يلعنون تكميم الأفواه ويطالبون بالحرية، ويتحدثون عن الشفافية، فما أن تصبح السلطة بأيديهم حتى يعتذروا بالظروف غير المناسبة، وبالمؤامرات التي تحاك.

بالتأكيد لا يمكن التعميم، تذكرت ذلك وأنا أزور تمثال «أوغستو ساندينو»، الذي قاد الثورة وأجبر القوات الأمريكية على الانسحاب من البلاد عام ألف وتسعمئة وثلاثة وثلاثين، وبعدها اغتيل برصاص عملاء للولايات المتحدة الأمريكية، وبعدها أيضًا، وتحديدًا عام واحد وستين، استعاد طالب شاب اسمه «كارلوس فونسيكا» تاريخ الرمز الوطني «ساندينو»، وأسس مع اثنين من زملائه «الجبهة الساندنستية للتحرر الوطني»، تلك التي انضم إليها «أورتيغا» مناضلًا ضد الحكم الديكتاتوري.

كنت على موعد جديد مع السيدة «روزاريو موريلو» لاستكمال الترتيبات، اتصل بي المستشار الليبي وأبلغني أنه سيمر عليّ، في الموعد أتى وأبلغني أننا سنذهب إلى فندق آخر لتناول فنجان من القهوة ريثما تتصل به السيدة وتبلغه أنها جاهزة للقاء. ارتبت في الأمر، جلسنا نتحدث، استأذن لإجراء مكالمة هاتفية، ثم عاد، ثم تلقى مكالمة هاتفية وأنا أجلس معه، حمل هاتفه وابتعد ليتحدث، ثم عاد وجلس ليبلغني بصورة حازمة قرارًا وطنيًا.

«السيد الرئيس اتصل بي الآن وهو يطلب منكم مغادرة البلاد في الحال». لم أفهم الجملة مطلقًا، تساءلت، أعاد مقولته مصحوبة

بروح التشفي، سألته ما السبب، قال لا أعرف، لكن عليكم الآن المغادرة، عبثًا حاولت أن أفهم، طلبت لقاءً مع الرئيس دون تصوير، رفض رفضًا قاطعًا وأجابني بحزمٍ لقد قضي الأمر. قام في الحال وطلب أن أصحبه ليعيدني إلى الفندق استعدادًا للرحيل.

كان من الصعب استكمال الحوار أو المهمة مع رفاق تحكمهم عقلية المؤامرات الخارجية، والتدخلات الأجنبية، ويجدونها عذرًا لتكميم الأفواه والانزعاج غير المبرر من أحاديث صحافية مع قوى المعارضة، التي هي بالضرورة خائنة وعميلة في نظرهم.

قضيت وزملائي الليل ساهرين نفكر في أي حلول ممكنة، فشلت محاولاتي في الاتصال بصديقي «مصطفى» الذي دبر الموعد، تواصلت مع «الجزيرة» فلم يبدِ الأستاذ «أيمن» اهتمامًا بالأمر (!!) يبدو أن عليّ تقبل الأمر: أنا وفريقي في حكم المطرودين. بدأت أبحث بين شركات الطيران عن سبيل الخروج من هذه البلاد، وفي الصباح الباكر كنا في المطار، نقف في صفوف المغادرين ونحن لا نفهم ماذا جرى ولماذا جرى.

لا تتوقف دهشتي كلما تذكرت هذه الحادثة وما تلاها، حيث تواصل مع القصر الرئاسي زميل من قناة «الجزيرة» يعيش في «كوبا»، ورتب مع المعنيين فيه كل الإجراءات المطلوبة لإجراء حوار مع الرئيس، ثم تكرر الأمر ورفضوا إجراء المقابلة. الأطرف من الحادثتين أن السيد المستشار الليبي اتصل بالجزيرة لاحقًا يعاتبهم على تقصيرهم في تغطية ما يجري في «نيكاراغوا»، وحينها فهمت أن «القذافي» ليس شخصًا بقدر ما هو حالة.

الحادية والأربعون

متلازمة العشق والثورة

كنتُ كأنّي مراهق أسيرُ وراء مراهق، نُسِرُّ إلى بعضنا البعض أسرارَ الحُبِّ، «اتبعني سأحكي لك»، قالها غَيْرَ مكترث بكل من يحيط بِنا ويتبعنا، «انظر! هذه هي سارية الكنيسة، في مقابلها يطل بيت حبيبتي، كانتْ جميلة جدًّا، كلما دقَّ جرس الكنيسة خرجتْ إلى شُرفتها، فأخرجُ أنا لأنظر إليها، نتبادل الابتسامة، ثم نُعاود الأمر مع قرعِ الجرس من جديد»، قالها ثم أطرق يَنظر إلى الأرضِ طويلًا، وكأنَّه يسْتعيد سرًّا دفينًا.

عندما كنتُ على القارب أتبادل الحديث معه، أردت أن أفاتحه في هذا الموضوع، حبه الأول، لكنْ خشيتُ أن يغضب، أني أتجاهل القَضَايا الرئيسية وأحَدِّث كهلًا تجاوز الثمانين من عمره عن حبه الأول، أوصيتُ مترجمي أن يتلطَّف إلى أقصى حد وهو يطلب منه ذلك، ولأن الرجل عصبي المزاج، كنتُ أخْشى أن يقذف بنا إلى قاع بحيرة «نيكاراغوا» الكبرى.

على العكس توهج وجه الرجل، وبدا فجأةً أصغر من عمره كثيرًا، وانطلق يتحدث عنْ حبيبته، التي وقع في غرامها منذ أكثر من ستين عامًا، قبلَ أنْ يفترقا لاحقًا، بل حدَّثَني عن اللَّحظة التي رآها . . أول مرة وقع نظره عليها، عندما كان عمره ثمانية عشر عامًا، وعمرها ثلاثة عشر عامًا.

هذا العجوز إذن ما زال صبيًا عاشقًا، قلتُ في نفسي، لكنني سألتُ «سعيدًا» المترجم، هل يمكن أنْ يقرأ لنا الرجل قصيدة من تلك القصائد التي نظمها فيها، فالعاشق شاعر أيضًا، تحمس صاحبنا جدًّا لفكرتنا، وبدأ يقرأ شيئًا من قصيدته..

«ما زلتُ أَتَذَكَّرُ..

تلكَ الشوارعَ بأنوارِهَا الصّفراءَ..

وذلكَ البدرَ بينَ الأسلاكِ الكَهْربَائِيّةِ..

وتلكَ النَّجْمَةَ عندَ المُنْعَطَفِ..

ومِذْياعًا بَعيدًا..

وبُرجَ «المِرْثِيدِ» الذي كانَ يُعْلِنُ الحاديةَ عشرةَ..

والضوءَ المُذَهَّبَ مِنْ بَابِكِ..

المفتوحِ عَلَى هَذَا الشَّارعِ..»

تفقِد القصيدة نصف معانيها عندما تترجم، نعم! ثمَّة معانٍ تغتالهَا التَّرجمة، لكنْ ما دُمنا في الشعر والقصيدة، وما دام هو من أشهر شعراءِ «نيكاراغوا»، فلم لا يحدِّثنا عن هذا النوع من القصائد التي أبدعها واشتهر بها، إنها تُوثِّق تاريخ «نيكاراغوا» وأمريكا الوسطى وحاضرهما عبر حكايات الناس والأحداث وتصويرها لدقائقِ الأمورِ، حتى إن النقاد شبهوا هذا النوع من القصائد الذي ابتدعه بالفيلم الوثائقي، وأطلقوا عليها اسم «القصائد الوثائقية».

أركب معه «الحنطور»، تلك العربة التي يجرها حصان، كان ذلك في الشهر الأخير من عامِ ألفين وسبعة، تسير بنا العربة في شوارع «غرناطة»، وهذه غرناطةٌ أخرى غير «غرناطة إسبانيا»، تبعد

خمسين كيلومترًا جنوب العاصمة «ماناغوا»، يعيش فيها ما يزيد على مئة ألف نسمة، معظم أثرياء البلاد اختاروها للسكنى، أسست عامَ ألف وخمسمئة وأربعة وعشرين، واحدة من أقدم المدن اللاتينية، البنايات القصيرة المزخرفة ذات النقوش الجميلة تحيط بك، وتحيط بك أيضًا ابتسامات الناس ولطفهم حتى تحسبهم شعبًا آخر غير الذي يسكن العاصمة التي بها فندقي.

جاري في الحنطور ليس شاعرًا عاشقًا فحسب، وإنما هو ثائر أيضًا، وُلِدَ هنا في هذهِ المدينة في العشرين من يناير عام خمسة وعشرين، والذي يولد هنا برأيي يجب أن يكون شاعرًا، محبًا للجمال، كارهًا للظلم، محاربًا للظالمين، فما بالك وقد درس الفلسفة والآداب في «ليون» و«ماناغوا» و«المكسيك» و«نيويورك»؟

في أحد الأيام سأل نفسه هل يهزم الشعْر الديكتاتور؟ ثمَّ لجأ إلى ما هو غير الشعر، فاشترك في محاولة لإسقاط حكم «سوموزا» عام أربعة وخمسين، وبسبب خيانة اكتُشفت الخطة، ولكنه تمكن من الهرب ونجا مما أصاب أقرانه من سجن وتعذيب حتى الموت، لكن بعد ذلك بعامين تمكن شاعر آخر من قتل «سوموزا»، ويبدو أنَّ الشعراء هنا يحترفون الحَرْفَ والرصاصَة، وحينها أتم قصيدته: «ساعة الصفر»؛ تلك القصيدة التي ولدت مع مولدي عام ستة وخمسين، ومنها:

«أمْريكَا الوُسطى ليَالِيهَا استِوَائِيَّةٌ..

بحيراتٌ وبراكين تحتَ القمرِ..

أضواءُ قصورٍ رئاسيةٍ وثُكْنَاتِ

صُفَّاراتُ حَظْرِ تجولٍ..

حزينةٌ «سانْ سلفادورْ» تحتَ جُنْحِ الظَّلامِ..
والشعبُ في الخارجِ يُفَرَّقُ بالقنابلِ الفوسفوريةِ..
الفلاحونَ مَطْعُونٌ مَوزُهُم..
والمُضْرِبُونَ - بالرَّصاصِ - يُكْبَحُ جِماحُهُم.. -
تجسسٌ عَلَى الهَمْساتِ في المنازلِ والفنادقِ..
وصُرَاخٌ في مراكِزِ الشُّرطَةِ..
«ماناغوا» مُصَوَّبَةٌ نَحْوَهَا المدافعُ الرَّشَّاشةُ..
منْ داخلِ قصْرِ الكَعْكِ والشوكولاتة..
وخُوَذُ الحديدِ الصَّلْبِ تَعِسُّ الشَّوارعَ..
حَرَسْ! في أيِّ ساعةٍ منَ اللَّيلِ نَحْنُ..
حَرَسْ! في أيِّ ساعةٍ منَ اللَّيلِ نَحْنُ»..

كنا نتعامل معه بحذر شديد، فهو فائق الحساسية، وأي أمرٍ تافهٍ كفيلٌ بإغضابه ودفعه إلى التوقف عن استكمال التصوير، لكن من حسناته أنه - مثلي - يحب شرب قهوة الإسبرسو، فكنتُ أتحجَّجُ بها لأطلب المزيد..

قال لي إنه لاحقًا - وبعد مقتل الديكتاتور الذي خلفه ابنه «لويس سوموزا»، وكان يفوقه دموية - مَرَّ بأزمة روحية عميقة غيرت حياته، وقرر أن ينبذ العنف الثوري وينخرط في سلك الكهنوت، نعم! فهذا الرجل العجيب كان قِسًّا، وأذكر ما قاله للآخرين: «إذا ما سألتني من هو الله بالنسبة إليّ لذكرت لك بصدقٍ أنه من أتواصل وأتفق معه، كان الله هو من مضى بي إلى الدير حيث كنتُ

على يقينٍ أنَّ قدري سيكون حياة صمت كليّ غير أنَّه أخرجني كي يدفَعَ بي إلى مجتمع مختلف تمامًا، ومنْ ثَمَّ إلى اندماج في حركة مسلحةٍ وكفاح من أجل التحرير، وبعد ذلك إلى شيء لم أكن أتخيله قطُّ، وهو تحمُّل مسؤولية وزارية في الحكومة، وأرى أنَّ هذا طريق واحد، فمنذ الصمتِ الذي كانَ يُخَيِّمُ على نظام الدير إلى مسؤولية وزارة الثقافة، كنت كمن يطيع إرادة ما، ولكن بما أنكم تسألونني عن الله لكوني ماركسيًا، فإنني أعتبره قوة التحولات الاجتماعية، وقوة الثورات، وبكلماتٍ أخرى إنه قوة المحبة، وهذا هو تصور الكتاب المقدس لله».

أو كان ماركسيًّا؟! نعم.. ويبدو أنَّ هذا الرجل كان كل شيء، لقد جمع بين الثورة والماركسية والدين والشعر والعشق، وكانت له مفاهيمه الخاصة عن كلٍ منها، ففي نظره جاء السيد المسيح ليقول لنا إنَّ المملكة الكاملة جاءت معه، وهذا في نظره هو ما عبر عنه ذاته ماركس بالشيوعية الكاملة، فلا عجب إذن أن يكتشف رجال الدين من معتنقي لاهوت التحرير أنَّ بإمكانهم أن يكونوا ماركسيين ومسيحيين في الوقت نفسه.

في الشهر السابع من عام تسعة وسبعين، اندلعت في «نيكاراغوا» «الثورة الساندنستية» التي قضت على حكم الديكتاتور «سوموزا الابن»، ووصلت «الجبهة الساندنستية للتحرر الوطني» إلى السلطة، وتبوأ الرجل الذي كان أحد أهم قادتها الميدانيين مهمة وزير الثقافة، لكنه لاحقًا انتقد سلوك الرئيس الحالي لنيكاراغوا «دانيال أورتيغا»، وتمرد عليه وأصبح معارضًا له، وربما كانت لقاءاتنا مع هذا الرجل سببًا في إزعاج «أورتيغا» الذي أمر بطردنا من البلاد بعد أن كنا ننسق مع مساعديه للقائه.

«أورتيغا» هو الذي قال مرة إن «كاسترو» نصحه: «لا تنسَ ثلاثة دروس: لا تقاتل ضد الكنيسة والمسيحية، بل بالعكس اعمل مع القساوسة الثوريين، ولا تقاتل أصحاب المصانع والمزارع الكبيرة، ولا تقاتل بشكل صريح الحكومة الأمريكية فهي قادرة على خلق مشاكل كثيرة لنيكاراغوا».

يعيش صاحبنا حاليًا في جزيرة «ماناكرون»، وهي مقر الكنيسة التي كان هو راعيها، وقصفتها طائرات «سوموزا» عام سبعة وستين، عندما تكشّف دوره في محاولة الانقلاب الفاشلة، لكننا تنقَّلنا معه في عدة أماكن وهو يحكي لنا حكايته.

عند تمثال ملهم الثورة وأبيها الروحي، قال لي: «بعد عودتي إلى «نيكاراغوا» من «أمريكا» صممت هذا النموذج لساندينو، وصُنع هذا التمثال بطول ثمانية عشر مترًا من الصلب، وقد اخترنا هذا المكان بعناية، فهو منطقة نموذجية لحكم عائلة الديكتاتور «سوموزا»؛ وذلك حتى يظل التاريخ يذكر أن «سوموزا» قد اغتال «ساندينو»، ثم بعد خمسين عامًا عاد «ساندينو» إلى المكان نفسه الذي كان يعبر عن هيمنة «سوموزا»».

قلتُ في نفسي هنيئًا له احتفاء العالم به شاعرًا وثوريًا وقسًا، ولو كان عندنا لكفره المتدينون، وأدانته السلطة، ولفَظَهُ الشعراء، لكن لا بأس أن أسأله كيف جمع بينهم؟

«بطريقة ما، فتلك الأشياء لم تكن مجتمعة في البداية»، قال لي ثم أردف: «فقد كانت بمثابة نزعات متباينة، ولكن ما يمكن قوله إنها أصبحت بعد ذلك نزعة واحدة، كوني شاعرًا هو ما قربني إلى الربِّ للتأمل فيه وفي روعته، ثم ارتباطي به هو ما جعلني أهب نفسي للآخرين من شعبي، من هنا كان انضمامي للثورة لخدمة

الشعب، حينئذٍ أصبحت شاعرًا من أجل الربّ وأصبحت ثوريًا من أجل خدمة الشعب».

لكن كيف جمعت إذن بين الماركسية والمسيحية؟ أجاب: «بالنسبة إليّ يوجد شيء يربط بينهما وهو الرغبة في تغيير المجتمع بخلق عالم جديد، نحن كمسيحيين مقصدنا هو تحقيق العدالة وخلق عالم أفضل، أما الماركسية فهي الطريقة إلى بلوغ هذا المقصد».

لكنك يا سيدي متصوف، «حسنًا، كان تناولي لمعنى الإله من النظرة المتصوفة، والدين والتصوف يختلفان في أكثر الأحيان حتى عندكم في الإسلام، هناك في الدير حيث عشتُ لم يكن هناك صحف، لم يكن هناك تلفاز، لم يكن هناك مذياع، لم نكن نأكل اللحم ولا البيض ولا السمك، ولم نكن نتواصل بالكلام ولكن بالإشارات، نعيش في صمت، وقد كان يروق لي ذلك الصمت، كنتُ أبدأ يومي في وقت مبكر جدًّا في الثانية صباحًا كل يوم، إنها تقاليدُ منذ قرون عديدة، كانت نزعتي أن أكون راهبًا، لكنني بعد ذلك لم أستطع المواصلة هناك لأسباب صحية، الأمر الذي جعلني أختار حياة دينية مختلفة عن حياتي التأملية في أمريكا الشمالية وذلك بتطبيق أمر ديني في دير آخر، حيث كانت رؤيتي لمفهوم القس ذات نظرة تأملية متحررة من تلك الواجبات الدينية».

ضيَّقت عليه وتوقعت غضبه، «والآن هل أنت ما زلت مؤمنًا؟»، لم يفهم مترجمي من همهماته شيئًا سوى أنه ابتعد عن هذا الشأن كله دون رد حاسم.

بعضنا حياته عاصفة، لكنني لم أرَ مثل «إرنستو كاردينال»، وكاردينال لقبه وليس صفته، لقد تمرد على كل شيء وثار ضد كل شيء وأحب كل شيء، ولم يهدأ لحظة في حياته التي قضاها كلها ثائرًا عاشقًا لحبيبته، لبلاده، لمبادئه.

عدتُ إلى فندقي، فتحت جهاز الكومبيوتر الخاص بي، سألتُ ما معنى متلازمة، قال «جوجل» شاكرًا هي مجموعة من الأعراض والعلامات المتزامنة ذات المصدر الواحد وتسمى في الطب النفسي المتلازمة مثل كذا وكذا وكذا، وأكملت أنا: «نعم، وربما مثل متلازمة العشق والثورة»!

الثانية والأربعون

ماذا تعرف عن العشق يا هذا؟

مكتبة

ـ وكأن الأرض انشقت فجأة فخرجت هذه الحورية من حور الجنة، وكأنها سكنت أمس حيًّنا وهي المولودة فيه قبل عشرين ربيعًا، لماذا لم أكتشفها إلا للتو؟ لا أعلم، لكن أعلم أن قلبي يدق بعنف كلما شاهدتها أو لمحتها أو مرت بي أو مررت بها؛ لذا كنت أتحين كل الفرص وأفتعل كل الحجج حتى أحظى برؤيتها ولو للحظات، ثم قررت أن أُسكن الشوق، ناضلت وناضلت حتى وافقت عائلتها على مضض، وبت رسميًا عريسها، وساعات وتزف لي ليجمعنا إلى الأبد عش تكون هي سيدته وأميرته.

= هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها أنك هكذا وقعت في الحب مبكرًا.

ـ لم أكن أنا يا فتى، وإنما شخص كتب يشتكي إلى تلك الصفحات التي يقصدها القراء بحثًا عن نصيحة من خبير يستعينون بها لتخرجهم من مآزقهم، وصاحبنا كانت شكوته غريبة للغاية، حتى إنني قرأتها في السبعينيات وظلت عالقة في ذهني إلى الآن، لقد أورد شكواه بعد أن أغدق على زوجته المديح لجمالها وأخلاقها، لكنه استطرد أن الطامة الكبرى اكتشافه أنها مثلنا، تستيقظ بعيون شبه مغلقة، وثياب «مكرمشة»، وأنها تقصد دورة

المياه تمامًا مثل كل البشر. يقول صاحبنا إنه لم يرَ في زوجته عيبًا قطُّ، لكنه اكتشف أنها إنسانة عادية، وأن ذلك أفقده كل الحب والمشاعر التي كان يكنها لها، وهو لا يدرك ما هو فاعل الآن، فإن أبقى عليها ظلمها بعد أن تبدد حبُّه لها من قلبه، وإن أطلق سراحها ظلمها. الغريب أنني لا أتذكر بماذا رد عليه صاحب الصفحة، لكن القصة مثال لهذه المبالغة التي تنتابنا إذا ما وقعنا في عشق أحدهم، إننا نرفعه أو نرفعها إلى عنان السماء ونرسم لهم صورة خيالية، والنتيجة هو ما قصّه صاحبنا.

= ولكن ألا تعتقد أن هذا أمر طبيعي؛ أن ترى بعدسة مكبرة محاسن من تحب، فتُسقط من المشهد كل مكوناته ولا يبقى سوى أحسنه؟ ثم أليس الحب أعمى؟

ـ ليس الحب بأعمى، وكيف للحب أن يَعمَى؟ نحن الذين لا نرغب أحيانًا في مواجهة الحقائق، نحن الذين نتعداها، نحن الذين نتجاهل طبائع الأشياء، أحيانًا وقبل أن نقع في الحب نرسم صورة مبهرة لمن نريد أن نقع في حبه، فإذا صادفنا أحدهم وملنا له وضعناه في هذا البالون الضخم الذي قمنا بنفخه، العشق يا صاحبي يرفعك إلى عنان السماء، غير أنك تنسى أنك ما زلت على الأرض.

= تقول إننا ابتداء نرسم صورة لمن نريد أن نقع في حبه، هل تعتقد أننا من حب أنفسنا نحب من يشبهها؟ وهل يتحابّ الأضداد؟

ـ الحمد لله ليس للعشق قوانين منظمة، إنه ربما يردنا إلى فطرتنا، وفطرتنا تحنّ إلى الاختلاف، وتطمئن به؛ لذا ينجذب المرء أحيانًا إلى من يخالفه، ربما لأنه يضيف إليه شيئًا ليس عنده، وبه تكتمل الصورة، وتحلو الحياة، خذ عندك مثلًا «علي عزت

بيغوفيتش»، عندما تقرأ سيرته وتكتشف أنه مفكر وسياسي تظن أن «خالدة» زوجته التي أحبها من كل قلبه مثله، تُعنى بالفكر والسياسة، لكنها في الحقيقة غيره، ولا تُعنى بما يُعنى به، لكنها أيضًا مقارنة جائرة، فأنت يمكن أن تقارن بين الإثنين بمحور آخر غير محور الفكر والسياسة، فتجد أنها تتفوق عليه في مجال لا خبرة له به، وربما أنه رأى فيها ما لم يكتشفه آخرون، والعكس، بل انظر إلى الزيجات بين أصحاب الديانات المختلفة، كيف يجمع الحب بينهم على نقيض ما يؤمنون به، وكيف تتزوج الثرية فقيرًا أو العكس، ثم إن العشق يا صاحبي فعل قلبي بعيد عن الحسابات والأرقام والمنطق.

= تقصد أنه غير مفهوم؟

ـ العشق مثل الثقب الأسود، نتحدث عنه كثيرًا ونتكهن بما وراءه، لكن لا أحد بوسعه أن يشرحه لنا ما هو، أو يكون لديه تفسير لمساراته، وكيف ينتهي. على سبيل المثال «مانديلا»، لقد امتد زواجه إلى أربعة وثلاثين عامًا، قضى منها سبعة وعشرين عامًا في السجن، فلما خرج قرر وزوجته الانفصال، وقال في خطاب الطلاق «إنني أنفصل عن زوجتي بلا اتهامات مضادة، وأضمها بكل الحب والحنان اللذين كننتهما لها داخل جدران السجن وخارجه، الحب والحنان اللذين شعرت بهما حيالها منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها»، ترى ما الذي يجعل العشق يصمد كل سنوات المحنة، فإذا انتهت المحنة انتهى العشق؟ ما الذي جعل الفتاة البوسنية تخبرني أنها لن تتزوج من شباب بلدتها الذين لم يحاربوا، وتفتح كفيها لي وتكمل: «ولم تتشقق كفوفهم من حمل السلاح»، فإذا ما انتهت الحرب تزوجت الفتاة المسلمة إيطاليًا، ثم تقول في استحياء: «أعرف حكم الدين، لكن لا أعرف ماذا أفعل مع عشقي».

= أمرها لله، لكن ليس لك أن تحكم لها أو عليها، ولعل عشقها لبلدها هو الذي دفعها خلال الحرب لقول ذلك.

ـ ذكرتني، في الشهور الأولى للحرب توجهت ضمن تغطياتي الصحفية إلى العاصمة الصربية «بلغراد»، وبينما كنت في الحافلة شاهدت مجندًا يودع طفله وزوجته وقد بدا على الجميع التأثر، سألت نفسي حينها، كيف لهذا العاشق لبلده وعائلته أن يقتل ويذبح ويغتصب آخرين؟ إن الذي يعشق فعلًا تسمو نفسه، تحلق هناك في عنان السماء، ولا يمكن لها أن تمارس ما يمارسه الغارقون في وحل الأرض.

= لكنك تخلط الأمور، نحن نتحدث عن العشق، وأنت هنا تتحدث عن الوطنية وعن المشاعر العائلية.

ـ ولماذا حصرت العشق في العلاقة بين الرجل والمرأة؟ لو رأيت كيف كان «تشافيز» يحدثني عن «فنزويلا»، لو رأيت كيف تتسع حدقتا عينيه وهو يتغنى بحسنها، كيف يتوهج حماسه وهو يعدد آماله نحوها، كيف يضطرب صوته عندما يأتي ذكر آلامها، إنه لا يتحدث عن قطعة أرض، ولا حفنة تراب، وإنما عن حبيبته وعشيقته، حتى عندما يتحدث عن إيمانه إنما يتحدث عن وقوعه في حب المسيح. ثم دعك من «تشافيز»، «خيرو» مثلًا، السائق البوسني الذي عمل معي لفترة، إنه لا يتوانى أن يتوقف بسيارته وسط كل ما كان يجري وقت الحرب إذا ما شاهد شخصًا يرمي ورقة على الأرض، إنه يخرج ليتشاجر معه، هو يشعر أن كل شبر في هذا البلد إنما له، وهو حبه وهو عشقه، يزيل حجرًا، أو يرفع أذى، أو يدفع بأبنائه للانخراط في المقاومة، إنه عاشق لبلده، يؤمن أن الوطنية ليست هي النشيد الوطني، أما أخبرتك أن العشق لا يعرف حدودًا ولا قوانين ولا منطقًا؟

= وكيف تعرف العاشق إذن؟ ما علامات العشق؟

ـ انظر إلى عيني المرء سترى قلبه إذا ما كان مشتعلًا، اقترب منه ستشعر أن روحه تحلق هناك في علٍ؛ لذا لا ينحدر سلوكه، صحيحٌ العاشق ليس ملاكًا، لكن قلبه كذلك، وإذا ما اقتربت أكثر ستجده معطاء، فالعشق يمنحك إكسير العطاء، فتجد نفسك مدمنًا في منح الآخرين كل ما لديك.

= لقد أغفلت الجسد من حديثك يا مولانا.

ـ كيف ذاك؟ وماذا تعرف عن العشق يا هذا؟!

الثالثة والأربعون

عندما كنتُ وراء النهر

«بعض المدن كبعض النساء، لا تعرف سببًا للوقوع في حبها»، قلت أنا، فردَّ هو: «أنتم تقولون من يشرب من ماء نيل بلادكم يعود إليها، ونحن نقول يعود إلى بلادنا من يأكل من خبزها»، ثم أردف: «انظر حولك، لا شيء مميز، نحن والتاريخ وهذه الحياة البسيطة، لكن الناس تعود إلينا».

قبل أن أقول وقبل أن يقول، وبزمن بعيد، قال شاعر الرومانسية «إدغار آلان بو»: «والآن أجِلْ بصرك في «سمرقند»، أليست ملكة الدنيا، مزهوة على جميع المدن، وفي يديها مصائرهن؟»، وهو الغزل ذاته الذي صدّر به «أمين معلوف» روايته الشهيرة «سمرقند»، التي وصفها لاحقًا بأنها «أجمل وجه أدارته الأرض يومًا نحو الشمس»، أما عمنا «ابن بطوطة» فقال إنها: «من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالًا، مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادي القصَّارين، وكانت تضم قصورًا عظيمة، وعمارة تُنْبِئ عن هِمَم أهلها».

ما شأن ذلك كله ببرنامج «نقطة ساخنة»؟ أنا أخبرك، فتحت يومًا خرائطي ووضعت إصبعي على آسيا الوسطى: «كازاخستان»، «طاجيكستان»، «قيرغيزستان»، «أوزبكستان»، «تركمنستان»، الاسم

والمكان والميلاد والتاريخ: كلها مغريات. سبعون عامًا من الشيوعية ومئة قومية، وشعوب مسلمة لا نعلم عنها شيئًا، خفق قلبي، وعندما يخفق قلبك تعلم أن حبًّا ما ينتظرك هناك، حزمت حقائبي وقلت إلى هناك.

كان ذلك في زمن تعد الرحلة فيه منذ أن تحط طائرتك من خارج البلاد إلى لحظة وصولك غرفة الفندق، رحلة مستقلة تحتاج إلى توثيق وتوصيف، فالشيوعية وإجراءاتها وثقافاتها ما زالت تحكم المناخ العام، والأحلام والتطلعات تتوق إلى غير ذلك، فلا ظلت هي البلاد الشيوعية، ولا هي غير ذلك، هي بين بين، هي الفوضى.

«طشقند» العاصمة مدينة شيوعية الطراز والروح والمزاج، أما أنحاء «أوزبكستان» الأخرى فلا تحمل الهوى نفسه. ذهبت إلى هناك أول مرة ربما عام ألف وتسعمئة وتسعين، حينها لم يكن معي إلا قلمي وأوراقي، ساعدني هناك طالب عربي تطوع للترجمة معي، شاب مخلص إلى حد الخطر، ربما نقضي ساعة في الشارع يستوقف فيها سيارات الأجرة، ويرفض قبول الأجر الذي يطلبه سائقوها، وعندما سألته عن فرق المبلغ بين ما يطلبون وما يعرضه عليهم فوجئت أنه أقل من دولار واحد، لكنه يراه في حينها مبلغًا ضخمًا، والأمانة تقتضي الدفاع عن مصالحي، حتى وإن ضيعنا الوقت والجهد.

يحكي لي «محمد» أنه في زمن الشيوعية كان يصله من عائلته أقل من مئة دولار شهريًا، وأنه كان يعيش في رغد، يؤجر سكنًا خاصًا، ويأكل أفضل الأطعمة، ويشتري ملابس، ثم يدخر المتبقي، «هل تعلم يا أخ «أسعد» أننا كنا نشتري بطاقة السفر من «باكو»

عاصمة «أذربيجان» إلى «عُمان» عبر «موسكو» والعودة بأقل من خمسين دولارًا؟».

على كل حال ظلت «طشقند» في ذاكرتي بعد أن أنهيت رحلتي هذه، إلى أن قررت أن أعود إليها فاتحًا مع جيش من الزملاء والزميلات: يمني ومصري وبريطانية ولبنانيان، وانضم إلينا زملاء من أهل البلاد. قالت «هنريتا»: «غدًا في الصباح الباكر نذهب من «طشقند» إلى «سمرقند»»، نمت مبكرًا ـ كأني لا أنام عادة مبكرًا ـ وفي الموعد المقرر كنت أؤدي طقوس الصباح في المشاجرة مع المتأخرين من فريقي الذين لجأوا إلى أسرّتهم في وقت متأخر من مساء الليلة السابقة، بعد جهودهم الحثيثة لاكتشاف ثقافات أهل البلاد الليلية.

حافلة صغيرة أقلتنا إلى هناك، ما سمعناه عن المدينة أثار في نفوسنا الشغف، بتنا نستمتع بالسفر وكأننا في رحلة مدرسية، ساعات قليلة تمضي، ونجد أنفسنا غارقين في قلب البهجة، يا إلهي، كيف لمدينة صغيرة مثل هذه يصل تعداد سكانها إلى أربعمئة ألف نسمة وقتها أن تحتمل كل هذا التاريخ؟

«هذه المرة من سمرقند»، محطة رئيسية على طريق الحرير، مضخة العلم والعلماء، أنا هنا حيث كان كبار وعظماء التاريخ، «جنكيز خان» و«تيمور لنك» و«الإسكندر الأكبر»، وحيث ولد ـ عفوًا ـ رئيس البلاد «إسلام كريموف» عام ثمانية وثلاثين من القرن الماضي، الرجل الذي شغل منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعي، ثم بعد سقوط الشيوعية واستقلال «أوزبكستان» عن «الاتحاد السوفياتي» عام واحد وتسعين، كان هو أول رئيس «منتخب» بعد أن أعلن اعتناقه الديمقراطية، ومن يومها وحتى وفاته

في سبتمبر عام ألفين وستة عشر، ظل رئيسًا للبلاد معتنقًا الديمقراطية مؤمنًا بروحها المتمثلة في «تداول السلطة».

ما كان بوسعنا أن ننطق اسمه خيرًا أو شرًا في حضرة موظف الدولة: إنه رجل يعتقد أنه يجب أن يكون دائمًا أقرب إلينا من حبل الوريد، ليس بغرض المراقبة معاذ الله، ولكن لمساعدتنا وحمايتنا من أشرار الناس، كان اسمه «نادر»، وأتمنى ألا يغضب كثيرًا إذا قرأ هذه السطور فهو يجيد العربية، وكم من مرة كان يخرج أحدنا من غرفته في الفندق فجأة فيجد «نادر» ملتصقًا بالباب لعله يُحبط أي محاولة للمساس بالأمن الوطني للبلاد.

غير أن ألطف أعمال المراقبة هي تلك التي كانت تحدث كل ليلة، فبعد أن ننهي عملنا ونتناول عشاءنا معًا ينطلق كلٌ إلى مبتغاه، ينصرف بعض الزملاء إلى نادٍ ليلي، دقائق ويلحق «نادر» بهم ويقول لهم ـ كل مرة ـ «يا لها من مصادفة لم أكن أعرف أنكم هنا»!

أحلى ما في عملك ألا تمارسه كمهنة تجني من ورائها لقمة عيشك، كدت أن أنسى أحيانًا لماذا أنا هنا، شغف ما بعده شغف وأنت تتابع كل ما حولك وتسمع للناس هنا، ويتلبسك شعور أنك «كولومبس» مكتشف العالم الجديد، كيف أنتم هنا، ونحن هناك لا نعلم عنكم شيئًا؟

المفاجآت على قارعة الطريق، تمامًا كشهود المقابر لعظماء خلدهم التاريخ، هل تعلم يا سيدي كيف أسلمت «سمرقند»؟ تقول الروايات إن «قتيبة بن مسلم» دخلها فجأة دون الأعراف التي كان يتبعها المسلمون حينها وقت الحرب من إنذار الناس وغيرها، فشكاه كهنة «سمرقند» إلى خليفة المسلمين حينها «عمر بن عبد العزيز» فأمر بمحكمة سأل فيها القاضي «قتيبة»: «أفعلت

ذلك؟»، فلما أقرّ أمر القاضي بمغادرة المسلمين البلاد، لم يصدق أهل المدينة الأمر إلى أن فعلها المسلمون، الدهشة دفعت بهم للاستفسار عن هذا الدين، فتركوا أوثانهم ودخلوا في الإسلام.

ـ تمثال من هذا؟

ـ كيف لا تعرف؟

ـ وكيف أعرف؟

ـ إنه تمثال «تيمور لنك»، أقيم مكان تمثال «لينين»، فهو الأوزبكي الذي اتخذ «سمرقند» عاصمة لإمبراطوريته؛ لتكون زينة الأرض ومركز الكون.

ـ وماذا عن «جنكيز خان»؟

ـ هو المغولي الذي اجتاحها بجحافله وأعمل السكين في رقاب أهلها، وهذا طبعًا قبل «تيمور لنك».

ـ و«الإسكندر الأكبر»؟

ـ «الإسكندر» هو من قال عنها عندما وصلها: «كل ما سمعته عن «سمرقند» من محاسن هو صحيح باستثناء أنها أجمل مما أتصور».

ـ و«إسلام كريموف»؟

ـ هو من قال عنه الموالون: مفهوم الإسلام عندنا هو ما يريده الرئيس. (يُرجى الأخذ في الاعتبار أن هذا السؤال وإجابته لم يردا إلا في ذهني فقط).

لطالما كنت أتابع باهتمام «أحمد مظهر» وهو يتحدث في فيلمه

الشهير عن القائد العربي الشجاع «صلاح الدين الأيوبي»، وعندما كبرت اكتشفت أن الرجل كردي، تمامًا كما تتحدث أدبيات عربية أخرى عن فاتح الأندلس القائد العربي المظفر «طارق بن زياد» الذي هو بربري الأصل. مدن آسيا الوسطى مهمومة بتماثيل العظماء، وقد تذكرت ما سبق وأنا أشاهد تماثيل «ابن سينا» و«الفارابي» و«الخوارزمي» وغيرهم، الذين نعتقد في بلادنا أنهم عرب أصلاء وهم في الحقيقة أبناء هذه المناطق الجميلة.

وقفت في «ريجستان»، الميدان الرئيسي، في حضرة تحفة معمارية تلتقي فيها ثلاث مدارس دينية شهيرة أقرب للجامعات حيث كانت تدرس بها علوم الكيمياء والفلك والرياضيات والفلسفة، بالطبع بجانب العلوم الدينية؛ ولذا يقال إن من بين كل آسيا الوسطى فإن أكبر نخبة مثقفة إنما هي تلك التي تعيش في «أوزبكستان»، يا إلهي ما كل هذا البهاء! ليتني أعود وأعيش في هذا الزمن، وفي هذا المكان، حيث أشرقت الأفكار وغابت الأصنام.

«انظر إلى شجرة التوت هذه، كلنا يعتقد أن الإمام البخاري أكل بعضًا من ثمارها وهو يكتب آخر متونه؛ لذا فإنهم يأتون إليها من كل مكان ليربطوا حول غصونها هذه الشرائط الممزقة من الثياب؛ أمنية، نذر، تعويذة، لعلها تدفع الشر عنهم، ما أكثر المخاوف في النفس البشرية، لا أحد يريد أن يعيد البصر كرتين، وأن يرى العالم كما رآه الإمام»، هذا ما كتبه «محمد المنسي قنديل» في روايته الشهيرة «قمر على سمرقند»، «حنان» ـ شفى الله صديقنا زوجها ـ نصحتني يومًا بقراءتها، وقالت إن الرواية المنشورة عام ٢٠٠٢ تذكِّرها بما حكيت أنا عنه هناك في العام نفسه أيضًا.

على بعد ثلاثين كيلومترًا تقريبًا إلى الشمال من «سمرقند» زرت مقام «البخاري»، وفي «بخارى» أيضًا زرت مدرسة «مير عرب» التي بُنيت في القرن السادس عشر، وظلت مفتوحة طوال الحقبة الشيوعية، انحنيت وأنا أدخل من باب أحد فصولها لانخفاض سقفه، أظن أنه في كل الأحيان كان عليّ أن أنحني وأنا أسمع مشدوهًا صوت الطالب الأعجمي يقرأ القرآن بعربية أفصح من أكثر العرب فصاحة قرآنًا مجودًا، فإذا انتهى لا تحاول أن تحدثه بالعربية فهو لا يجيدها.

علمتني هذه المناطق أن الله ﷻ له أسلحة متعددة حفظ بها دينه، اللغة أحيانًا، العادات أحيانًا أخرى، مرات يكون كل دور الناس هو النقل دون فهم ودون إدراك ودون قدرة على التطبيق، فإذا ما سنحت الفرصة وسقطت الأنظمة الظالمة، بدأ اللاحقون في اكتشاف الثروة التي تركها لهم السابقون، يتفكرون فيها، ويعيدون قراءتها واكتشافها.

«بخارى» مثل «سمرقند» تقع على طريق الحرير، «اليونسكو» أعلنت حيَّها القديم موقع تراث عالمي، نعم اليوم هو موقع تراث، وبالأمس كان مصدرًا للعلم والحضارة. و«بخارى» أيضًا كانت موطنًا لليهود البخاريين قبل أن يغادر معظمهم إلى «فلسطين» المحتلة.

أطلق المسلمون على تلك المنطقة اسم «بلاد ما وراء النهر» عندما فتحوها في القرن الهجري الأول، إشارة إلى النهرين العظيمين اللذين يحدانها شرقًا وغربًا وهما نهر «سرداريا» ونهر «آموداريا»، وأنا أريد العودة إلى هناك.

في حلقة «نقطة ساخنة» التي أنتجتها عن «أوزبكستان» ضمن

ملف آسيا الوسطى، تحدثت عما أنجزه السيد الرئيس على المستوى الديني من الاهتمام بتأسيس مدارس ومعاهد دينية، وذكرت في المقابل وجهة النظر الأخرى التي تتهمه بالديكتاتورية ـ معاذ الله ـ واستخدام الدين لصالح مآربه السياسية، احتجت السلطات بعد بث حلقتي، وتعرض زميل ذهب إلى هناك للطرد بسببي، ما أثار دهشتي!

«سمرقند» ثاني أكبر مدن «أوزبكستان»، اسمها يعني قلعة الأرض، والمدينة تعني لي الكثير، أريد أن أعود إليها، إلى تلك القباب التي وقفت أمامها ضمن إحدى حكايات «يحكى أن» أقول عن الأجيال التي رأيتها وأنا أنحني أمام مدارسها:

هي ليست مثل أجيالنا..

هي أجيال..

تنطلق من حراء..

ومن حراء إلى الوعي..

ومن الوعي إلى الالتزام..

ومن الالتزام إلى الثورة..

الرابعة والأربعون

فلما جنّ الليل

قلت له: «وما المطلوب يا «أبو جاسم»؟»، قال: «هذه رسالة رسمية ويجب أن ترد عليها»، قلت: «لكنها من إحدى عشرة صفحة»، أجابني: «لا بأس، عليك أن تفعل، وبأسلوب مهني وبعيدًا عن أي انفعالات»، رضخت لطلب مدير قناة «الجزيرة»، وبدأت أتفحص انتقادات سعادة السفير للعمل الذي أنجزته في دولته وخرج ضمن ملف عن آسيا الوسطى.

كتبت خطابًا مهذبًا يفند كل ما جاء في الرسالة المطولة، وأرسلته إلى مدير القناة، وأبلغني لاحقًا أنه أرسله بدوره إلى السفير الشاكي في «الرياض». مرت بعدها الأيام والتقيت صدفة في مقر «الجزيرة» بالدوحة بزميلي المراسل حينها في إحدى مدن «روسيا» العظمى، باغتُّه بالقول: «انظر يا فلان، نحن نختلف في وجهات نظرنا تمامًا، ولكن هذا الاختلاف لا يجب أن يؤذي العلاقة بيننا، فنحن على الأقل زملاء في مؤسسة واحدة، وما كان يجب أن تكتب هذه الرسالة الموقعة من سفير «كازاخستان» الذي لا يتكلم العربية».

اليقين الذي تحدثت به مع زميلي أربكه، وبدأ الدفاع عن نفسه، لكن بعد دقائق اكتشف أنه وقع في الفخ، وأنه كان يجب

أن يتساءل أولًا أي رسالة أقصد، ثم ينفي أي صلة له بها، بل ربما يعلن غضبه عن سوء ظني به، ولقد أدرك ذلك لاحقًا لكن الوقت كان قد تأخر، وتأكدت ظنوني أن الزميل بعلاقته الشخصية مع السفير، هو الذي كتب باسمه رسالة نقد مفككة، شملت ضمن ما شملت انتقادًا حادًا لحلقة «نقطة ساخنة» التي أعددتها من هناك، وجاء ضمن المآخذ التي ضمتها أنني أغفلت الإشارة إلى أن نساء «كازاخستان» هن أجمل نساء الأرض، وقد اختتمت بهذا الأمر رسالتي إلى سعادة السفير، وقلت له ساخرًا وهامزًا: «هذه مهمة غيري».

على غير ما توقعت وأنا أجوب بلدان آسيا الوسطى، وجدت «كازاخستان» أحسنهم حالًا، وقد أدركت لاحقًا أنه كلما زاد عدد السكان الروس في أي جمهورية مسلمة من جمهوريات «الاتحاد السوفياتي» المتوفَّى تحسَّن حالها.

ثمة أمر غريب يشترك فيه «الاتحاد السوفياتي» و«الاتحاد اليوغسلافي»، فالسوفيات أرسلوا الروس من «روسيا» إلى جمهوريات «الاتحاد السوفياتي» المتعددة، ومنحوهم امتيازات اجتماعية واقتصادية ومكّنوهم من المناصب القيادية، كذلك فعل الصرب إلى حد ما في «الاتحاد اليوغسلافي»، وكنت أسأل نفسي لماذا غابت فكرة الاتحاد وبزغت القومية: المجد للروس هنا، وللصرب هناك؟

ليست هذه هي الخطيئة الوحيدة، فقد قام صاحبنا «ستالين» بتقسيم آسيا الوسطى إلى خمس دول في عشرينيات القرن العشرين، لم يكتف بالتقسيم ولكنه عمد إلى زرع قنابل موقوتة، تنفجر حال استقلال هذه الدول عنه؛ إذ رسم حدودًا سياسية فيما بينها، تقطع

التواصل العرقي للقوميات المختلفة وتخلطها ببعضها البعض وتجعلها تتداخل فيما بينها، لا لسبب مفهوم سوى أن تنفجر النزاعات الحدودية إذا وقع الاستقلال، وهو الأمر المثار اليوم.

خذ مثلًا، نزعت مدينة «خوجاند» ذات الأغلبية الأوزبكية من «أوزبكستان» لتُضَم إلى «طاجيكستان»، فيما نزعت مدينتا «بخارى» و«سمرقند»، ذاتا الأغلبية الطاجيكية من «طاجيكستان» وضمتا إلى «أوزبكستان»، ما أدى إلى نزاع دائم بين الجارتين المسلمتين، وهو الأمر المتكرر في مناطق أخرى من آسيا الوسطى.

على كل حال، فوضع «كازاخستان» إذن أفضل من شقيقاتها في آسيا الوسطى، لاحظت ذلك عندما زرتها للمرة الأولى ونزلت في فندقها العتيق، كنت محشورًا في الطائرة التي أوصلتني إلى هناك، أضع حقائبي الخاصة على قدميَّ وأنا جالس في الطائرة، وما من خدمات تقدم، ولسان حال طاقم الطائرة: «احمد ربنا خلناك تركب»، وتذكرت سيدنا «بلال» وهو ينادي: أَحَدٌ أَحَدٌ تحت وطأة صيف الصحراء وقيظها، كنت في عطش شديد، وهيهات أن تكون لي الجرأة وأطلب الماء.

لم يتغير الأمر كثيرًا عندما وصلتها مرة ثانية بعد حوالي عام مدعوًا إلى مؤتمر هناك، ولكن سلطات الفندق رفضت استقبالي، وطلبت تأمين بعض الأوراق فلما جهزتها وقدمتها بعد الوقوف في صفوف طويلة أمام استقبال الفندق، وإثر مقابلة السيد المدير العام، تكرم وقبل طلبي ومنحني غرفة.

في الصباح ذهبت وزميلي إلى مطعم الفندق لتناول الفطور، كانت كميات كبيرة من الناس تدخل، الفندق أشبه بمجمع التحرير في «القاهرة»، كان هناك رجل ضخم الجثة يقف عند الباب،

لاحظت أنهم يدخلون الناس ليجلسوا عنوة بجانب بعضهم البعض على طريقة الجيش أو السجون، فلما حاول زميلي المترجم الطلب من هذا الرجل أن نجلس إلى طاولة مستقلة نَهَره بشدة وأشار إليه أن يستجيب للأوامر. غير أن الحال تغير كثيرًا وبطريقة أفضل بعد أن زرتها ومعي فريق التصوير بعد عدة سنوات وذلك تزامنًا مع أحداث سبتمبر الشهيرة التي تابعتها من هناك.

ضخمة هي «كازاخستان»، فهي تحتل المرتبة التاسعة على قائمة أكبر بلاد العالم مساحة، وهناك فروق توقيت بين مناطقها ومدنها، حيث تتمتع بثلاثة أزمنة، ويقال إن المساحة المزروعة بها كانت تمثل نسبة عالية من مساحات الأراضي المزروعة في كل «الاتحاد السوفياتي» السابق.

«ألما آتا» هي العاصمة التي أعترف أنا بها، لم تعجبني «أستانة» التي باتت العاصمة الآن، الأولى عريقة، والأخرى تشعرك أنها مصطنعة، شوارع حديثة وبنايات لا تحمل عبق الماضي، ذلك الذي كان أهل البلاد الكازاخ يكتبون فيه بالحروف العربية، قبل أن تأتي ثورة عام ١٩١٧ وما تلاها لتجرِّم الحرف العربي.

السفر هو الذي ينقلك من التاريخ الذي كنت تدرسه في كتابك المدرسي إلى الحياة والواقع، فتشعر به وتفهمه، وتكاد تشم رائحته، حتى ولو كان هذا الحدث قد ولى ومرت عليه عقود. أنا هنا إذن في البلاد التي كانت ضمن الإمبراطورية السوفياتية، ولكن ما جدوى أي إمبراطورية عظمى وأي حضارة عظمى إذا ما حقرت ولو شخصًا واحدًا من أبنائها؟

الحادثة الفاجعة لم تُطل آثارها شخصًا وإنما أصابت ضمن ما أصابت مئتي ألف مواطن في دولة «كازاخستان»، منهم من مات

ومنهم من أصيب بعاهات دائمة، ومنهم من ولد لاحقًا بعاهات إثر هذه الحادثة الأليمة، وذلك بعد أن قررت القيادة الحكيمة أن تجري تجارب نووية في هذه المنطقة، وعلى مدى أربعين عامًا، وبأكثر من أربعمئة وخمسين تجربة.

قال أحدهم: «قل لي لو سمحت، لماذا اختاروا «سيمي بلاتينسيك»؟»، سوف أسألكم أنا هذا السؤال: لماذا اختارت «أمريكا» «نيفادا» حيث تعيش قبائل هندية؟ لماذا اختارت «إنجلترا» جنوب «أستراليا»، حيث يعيش السكان الأصليون وليس البيض؟ لماذا اختارت «الصين» الأماكن التي يعيش فيها «الإيغور» لتجاربها، ولم تختر مكانًا آخر؟ لأن الأمم والتي نسميها أممًا عظيمة تحافظ على شعوبها، وتجري الاختبارات في أماكن قهرت شعوبها وتخضع لها.

شهادات أهل منطقة «سيمي بلاتينسيك» أذهلتني، براءتهم وسذاجتهم وهم يرون ما جرى تصدمك، قيل لي: «كنا نشاهد هذا الفِطر ونقول آه ما أجمله! كنا نتأمله دومًا، ما أجمله، ما أجمل الغروب، ما أجمل الشمس».

كان أهل المنطقة، كل بحسب قربه أو بعده من مكان التفجيرات يحكي تجربته، بعضهم شاهد وبعضهم شعر وبعضهم سمع، ولكن كلهم تضرر بشكل أو بآخر من تلك التجارب النووية التي أجرتها قيادة «الاتحاد السوفياتي» على هذه الشعب في هذه المنطقة بدءًا من يوم تسعة وعشرين من الشهر الثامن لعام تسعة وأربعين، «وفي هذا العام لم ينجب البقر والماعز، وحتى الحيوانات المتوحشة توفيت».

كم من دهشة تصيبك وأنت هناك، تستمع مثلًا إلى ما ذكره مجند سابق في رسالة مطولة أرسلها بعد سنوات من الحادثة: «في شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٩٥٦ وصلت وحدتنا إلى موقع التفجير النووي،

وتمركزت في خنادق على بعد حوالي ثلاثين كيلومترًا من هذا المركز. في الساعة العاشرة صباحًا تم إسقاط القنبلة النووية من الطائرة، وتم إنزال قوات مظلية من طائرات مروحية مباشرة إلى موقع التفجير، حيث كنا نقدم لهم الدعم الناري، وبعد ساعة تقريبًا غادرنا الموقع ووصلنا إلى مدينة «سيمي بلاتينسيك» ومنها إلى مواقع المغادرة في مدينة «كاسترما»، لا أستطيع أن أتذكر الأحداث التي تلت الانفجار دون أن أرتعش: موجة الصدمة، الموجة الحرارية، ظلام دامس غطى الشمس. في هذا الظلام، الغبار الهائل، نفذ الجنود المهمة الموكلة إليهم، نفذوها ولكن بثمن باهظ فقد ماتوا كلهم».

شخص آخر قال لنا: «عندما كنت في مدينة «سانت بطرسبرغ» نقلت بعض المقتطفات من كتاب وقع بين يدي وقد ورد فيه الآتي: تطلب البحث عن المظليين الذين شاركوا في ذلك الانفجار عام ١٩٥٦ حوالي السنة، كان عددهم ٢٦٧ جنديًا، أول قائمة وصلت من أصل ١٦ تقول إنه لم يتبقَ ولا واحد منهم على قيد الحياة للأسف، وحتى القرار الصادر من قبل وزير الدفاع والخاص بتحديد القوات المشاركة ولمن ستُعطى الموافقة بالاشتراك المباشر في التجارب النووية، لم يأتِ على ذكر تلك التدريبات، فقط بشكل عام ذَكر أن حوالي ٤٥٠٠٠ مقاتل شاركوا فيها، من هؤلاء بقي على قيد الحياة حوالي ألف فقط لحظة نشر هذه المعلومات في عام ١٩٩١. ما يزعجني هو وحشية هؤلاء الناس الذين أرسلوا أولئك الجنود إلى موت محتم مع معرفتهم ما الذي يمكن أن يحدث للإنسان في أثناء تواجده في موقع التفجير الممتلئ بالإشعاعات».

يقال جَنَّ الليل، أي دخل وأظلم، تمامًا مثلما وقع لهذه البلاد حين أطبق عليها من سلبها وأحال «الوطن» و«المواطن» إلى فئران تجارب.

الخامسة والأربعون

أيام زمان!

هل جربتها مرة؟ أنا فعلت، ركبت آلة الزمان وعدت إلى الوراء عشرات السنين، وعندما وصلت إلى الزمن المطلوب وجدتني أحمل حقائبي كلها وأزاحم الجموع إلى صالة الوصول: هي بمثابة حجرة متواضعة ومعتمة. كانت الساعة حوالي الثالثة صباحًا، ثمة امتياز هنا، لن ترهق نفسك بالتفكير، لا خيار لك، فقط سلّم نفسك للجموع التي تتحدث بلغة غير لغتك، ولن تفهم معنى السباب الذي وجهه إليك أحدهم، بعد أن دهست قدمه أو زاحمته بأي صورة، وستدفعك هذه الجموع إلى الجهة المقصودة، ثم ستجد نفسك وحقائبك ماثلًا أمام ضابط الجوازات، سينظر إليك باشمئزاز فلا تهتم، سوف يسألك بالروسية: «أتتكلم الروسية؟» فتجيبه بالإنجليزية «نو»، يشمئز أكثر، يحاول قراءة جواز سفرك، يقلبه يمينًا ويسارًا ليعرف من أين يمكن أن يؤتى، تعلّم في هذه المواقف أن تلتزم الصمت، سوف يراجع تأشيرتك باهتمام، ويضع بقرف الخاتم الرسمي، وأنت سوف تتنهد وتكمل المسيرة.

حملت حقائبي وتوجهت إلى باب الخروج المفضي إلى غرفة أصغر، الجلبة تزداد، الناس الذين ينتظرون ذويهم وسائقو التاكسيات يراقبوننا، وأمام العلن يأمرني ضابط الجمارك بفتح

حقائبي، يفتش، تبدو عليه الطيبة، كل عيون الحاضرين حاضرة، يقفز رئيسه أمامي، يطلب مني أن أظهر له كل ما لدي من مال، خفت، ثم كيف لي أن أفعل ذلك أمام هذه الجماهير التي معدل راتب الفرد فيها ثلاثة دولارات في الشهر؟ بل كيف سأخرج من بينهم وإلى الشارع في هذا الوقت المتأخر قبيل الفجر وآمن أنني لن أتعرض للسرقة والاعتداء؟ أذعنت بالطبع لأوامره، أخرجت عشرين ألف دولار هي مصاريف فريق مكون من سبعة أشخاص ومعداتهم لحوالي شهر، اختراع البطاقة الائتمانية في هذه البلاد ليس موجودًا بعد، لم أفهم من صراخ الرجل غير أن ذلك مخالف للقانون، لاحقًا كانت ورقة خضراء بمئة دولار كفيلة أن يصبح ذلك موافقًا للقانون.

خرجت وأنا لا أعلم ماذا بوسعي أن أفعل وبصحبتي نصف فريقي الذي معي، في انتظارنا فتاة طاجيكية، من أوصلني بها قال إنها لا تتكلم إلا بعض الكلمات الإنجليزية، ما من حل آخر في بلد لا بنية إعلامية تحتية له، ومن المستحيل إيجاد شخص محترف، قادتنا الفتاة إلى الخارج، سألتها: «هل شوارع العاصمة «دوشِنْبِه» في مثل هذا الوقت آمنة؟»، أوحت برأسها بالإيجاب، وافترضت أنها فهمت حتى أطمئن نفسي.

فتح الحارس بوابة الفندق وهو ضَجِر لأننا أيقظناه، الضجر نفسه الذي أشعرنا به موظف الاستقبال الذي استلم جوازات السفر، بقينا حوالي الساعة في بهو الفندق لإتمام إجراءات غير مفهومة منها تسديد قيمة الإقامة مقدمًا، ثم صعدنا إلى طابقنا التاسع، لنبدأ إجراءات التسكين مع السيدة المسؤولة عن الطابق.

في ظهر اليوم التالي سألنا مترجمتنا التي لا تتكلم إلا لغتها،

نود لو ننتقل إلى فندق آخر يكون في مركز المدينة، فقد شعرنا أن المنطقة هادئة تمامًا وتبدو الشوارع نصف مهجورة، فضحكت وفهمنا منها أننا في مركز المدينة، لعن الله الحرب الأهلية، الرجال إما قتلى وإما فارون.

في شارع «روداكي» تذكرت المظاهرات العارمة التي شهدتها العاصمة في فبراير من عام ألف وتسعمئة وتسعين ضد الشيوعية، ثم حملات العنف التي طاردت الروس الذين أرسلوا في زمن الشيوعية للاستيطان في البلاد، وما أن هدأ الحال بعد سقوط الشيوعية حتى دخلت البلاد في حرب أهلية بين عامي اثنين وتسعين وسبعة وتسعين، كان العلمانيون في جهة والإسلاميون والديمقراطيون في الجهة الأخرى، ويا عجبي!

في هذه الحرب الأهلية بسنواتها الخمس شهدت البلاد محطات عنف مذهلة، أُحرقت فيها قرى بأكملها، ونُكل بالناس سرقة ونهبًا واغتصابًا، وشُنق بعض رجال الدين وعُلقوا على مآذن المساجد، وقدرت الخسائر بحوالي مئة وخمسين ألف قتيل، غير عشرات الآلاف الذين أُصيبوا، وهُجّر قرابة مليون إنسان، فيما قدرت الخسارة المادية بعشرات المليارات من الدولارات.

لم ينجح أي طرف في تحقيق نصر حاسم، فاضطرا إلى توقيع اتفاق للسلام في موسكو، انتشر الجيش الروسي على إثره في البلاد تحت اسم قوات حفظ السلام، وسُمح للمعارضة التي تضم أحزابًا إسلامية بأن تحظى بثلاثين بالمئة من المناصب الحكومية.

المترجمة التي لا تترجم أسدت إلينا معروفًا، وعرفتنا على «محمد جوباني»، شاب يمني يعمل في القسم العربي لإذاعة طاجيكستان، لعله يساعدنا في الترجمة وترتيب أمورنا، وقد كانت

باكورة أعماله تعريفنا بالسوبر ماركت الوحيد الموجود في العاصمة، يقف عليه رجال أشداء غلاظ القلوب، منتشرون في نواحيه المختلفة لدحر أي محاولة للسرقة من مشترٍ، إنه شعب مثلنا، المواطن فيه متهم حتى تثبت براءته، وقد كنا نشتري أحيانًا بعض الأطعمة التي ندفع بها إلى طباخ مطعم الفندق وتسهم زميلتانا اللبنانيتان في شرح طريقة الطهي.

في كل مدينة كبرى من مدن «الاتحاد السوفياتي» المتوفَّى كان هناك فندق رئيسي وحيد، عالي البناية، وهو وحده المسموح به دون غيره بأن يسكنه الغرباء، لتسهل مراقبتهم، ويوجد فيه مطعم ضخم وإن لم يرتده أحد، قررنا مرة أن نتناول وجبتنا فيه، بدقة أكبر كانت هذه نيتنا، إلى أن شاهدنا أحدهم يخرج من مخبئه، نادى «محمد» النادلة، أبلغها بأننا رصدنا تحركات مريبة، ونرجو التأكد، تخيلنا أنها ستصرخ في وجهه باعتبار أن ذلك إهانة ما بعدها إهانة للمطعم وللفندق كله، ردت بثقة نفس بالغة: «نعم أعرف، جحره يوجد في هذا العمود»، وأشارت وراءها، «لكن اطمئن، لن يهاجمك الفأر»، وضحكتُ وصمتنا، ثم انفجرنا في الضحك، فيما كنت أطمئن نفسي أن هذا الفأر وإخوانه لن تكون لديهم الجرأة ولا المقدرة على الصعود إلى طابقي التاسع.

ما أن تغرب الشمس حتى نتوجه مباشرة إلى الفندق، ما من شيء تفعله أبدًا في هذه المدينة، نتناول عشاءنا مع الفأر أو من دونه، ثم نشاهد ما قمنا بتصويره صباحًا، نستغرق في مناقشات طويلة حول خطتنا لليوم التالي، ثم نتسامر، «أحمد» حكى لنا أنه قبل أن يقرر العمل كمصور، كان يريد أن يعمل (بودي جارد)، ونفسه حدثته أيضًا أن يقوم بمغامرات في الصحراء، وحكى لنا بعضًا منها. عندما توجهت إلى غرفتي اكتشفتُ وجود فأر في دورة

مياهها، فحدثتني نفسي أنا الآخر أن ألجأ إلى «أحمد».

أتى «أحمد» مرتديًا حذاءه العسكري الثقيل وألقى نظرة يشوبها قلق شديد، ثم نصح بأن أغلق باب دورة المياه وأنام، «لكن يا «أحمد» تخيلت أنك ستخلصني منه»، «ده حياخد وقت يا أستاذ»، «شكلك خايف يا «أحمد»»، «أبدًا والله بس إحنا لازم ننام بدري وعندنا شغل بدري بكرة زي ما أنت عارف»، بعد أن تخلى «أحمد» عني اتصلنا بإدارة الفندق التي عللت الموقف بأن العرس القائم في مطعم الفندق بالدور الأرضي ربما أزعج الفئران فهربت إلى الأعلى.

دق أحدهم بابي، فتحت، فدخل رجل بشوش وانطلق يحدثني بلغته الطاجيكية، عبثًا حاولت أن أشرح له أنني لا أفهم ما يقول، في الحقيقة فهمت أنه يدعي أنه عربي الأصل، ولما قرأ ردي على وجهي، أخرج بطاقته الشخصية، فاستعنت بمحمد الذي كان قد وصل لتوه، فقال: «نعم موجود بأسفل البطاقة أنه من أصول عربية». في السابعة صباحًا من كل يوم كان هذا الرجل يدق بابي ليفتح حوارًا من طرف واحد، في كل رحلة من رحلاتي هناك شخص ما يتولى مهمة إزعاجي اليومية، هذا الرجل كان يقوم بهذه المهمة في دولة «طاجيكستان» العظمى، ولم يكف إلا عندما وعدناه أن نزور منطقته التي يسكنها مثله طاجيك من أصل عربي.

في اليوم الموعود ركبنا حافلتنا واتجهنا إلى أقصى جنوب البلاد. راجعت رحلتي من بدايتها، عندما قررت عام ألفين واثنين أن أتوجه إلى «طاجيكستان» لم أجد حينها سفارة في دولة عربية، ثم اكتشفت أن هناك سفارة في «تركيا»، تتبعت سلسلة من الأصدقاء والمعارف حتى استطاع أحدهم على علاقة بالقنصل أن

يأخذ وعدًا منه بتسهيل حصولنا على التأشيرة، تقدمت للحصول على تأشيرة إلى «تركيا»، ثم سافرت إلى «إسطنبول»، ومنها إلى «أنقرة»، استقبلنا الرجل بترحاب واحترام، حصلنا على التأشيرة، عدنا من «أنقرة» إلى «إسطنبول»، انتظرنا الطائرة الوحيدة التي تسافر إلى العاصمة «دوشنبه» مرة واحدة في الأسبوع، هل يتخيل المشاهدون هذا الجهد كله فقط للوصول إلى البلد الهدف؟

وصلت حافلتنا الآن إلى «شارتوز»، آلة الزمان دارت مرة أخرى فيما يبدو إلى الوراء أكثر، توقفنا عند مسجد عتيق، خرج مجموعة من الرجال العجائز، وجوه آسيوية بشوشة، ولحى طويلة جدًّا، وترحاب ما بعده ترحاب، فنحن عرب مثلهم، أو هم مثلنا، لم يكن الحديث يدور إلا حول معنى واحد، نحن عرب وقد اعترفت حكومتنا بنا، وأراد أحدهم أن يستطرد معنا في الحديث بلغته العربية المتواضعة، فسألنا عن أحوال الطقس في «الجزيرة»، فشرحنا له أن «الجزيرة» قناة فضائية وليست دولة.

لاحقًا ذهبنا إلى مدرسة، ما زالت صور «لينين» تزينها، استُقبلنا بالخبز والملح والأزهار، تحيتهم للضيوف الغرباء، فما بالكم بالضيوف العرب؟ وانتهى اليوم بدعوة إلى الغداء في بيت للضيافة، حيث لا يوجد كهرباء ولا ماء، وحين هممنا بالانصراف انتابتهم دهشة شديدة، «أنتم باقون معنا ثلاثة أيام هي فترة الضيافة ألستم عربًا؟» وظلوا يلاحقوننا وأحاطوا بالسيارة، لقد قاتلت في هذا اليوم قتالًا مجيدًا حتى استطعت تأمين الفريق وركوب حافلتنا والمغادرة.

«أود أن أعرف رأيك يا أستاذ «أسعد»»، أجبته «في أي شأن يا «محمد»؟»، «أريد أن أتزوج هذه الفتاة التي تعرفت إليها

مؤخرًا»، قلت له: «تريث فأنت لا تعرفها حق المعرفة بعد»، غير أنه أصرَّ، وكان رمضان قد حلَّ، قال إن بعد الإفطار سيأتي الشيخ ويجري المراسم الشرعية، قلنا له: «وبعدها نحتفي بكما في طابقنا التاسع بالفندق».

بعد أن تناولنا إفطارنا وصل الشيخ، ومن اللحظة الأولى شعرت أنني أعرفه، يرتدي جلبابًا وعمامة كزيٍّ رجال الدين، ثم بدأ يتكلم فسألت «محمد» ماذا يقول؟ فاستغرب وقال إنه يقرأ بعض الأدعية بالعربية، فشككت في عربيتي وظل شعور يلازمني بأنني أعرف الرجل، الذي أتمم مناسك الزواج ونال أجره واحتفلنا نحن. ثم سألت «محمد»، فأجاب بأن رجل الدين هنا يتقاضى مبلغًا كبيرًا لقاء إجراء عقود الزواج، قلت له: «كم تحصَّل منك هذا الرجل؟» فقال: «هو في الحقيقة ليس رجل دين، وإنما السائق الذي يعمل معنا أحيانًا، ويبدو أنك لم تتعرف عليه لأن هيئته في العمل غير هيئته الآن»، سألت: «وهل لديه صلاحية توثيق عقود الزواج؟»، قال: «لا؛ ولذلك هو رخيص»!

أردت أن أسجل مع هؤلاء العجائز الذين ظلوا مستمسكين بدينهم، أدرت عجلة الزمان مرة أخرى وعدت إلى الوراء أكثر فأكثر، بلدة صغيرة، للأسف نسيت اسمها تمامًا الآن، تضاريسها عجيبة، مرتفعات ومنخفضات، وجبال تحميها، قيل لنا إنها من أكثر المناطق في «طاجيكستان» تمسكًا بالدين، وإنها كانت آخر منطقة يدخلها الجيش الأحمر، ذهبنا إلى بيت فيها دلنا عليه أولاد الحلال، قيل لنا إنه إذا تكلم معكم أصحابه سيتكلم معكم كل الناس، طرقنا الباب، خرج رجل، حدثه «محمد» عمن أرسلنا إليه وعن موضوع عملنا، دخلنا ولم يكن معي إلا الذكور من فريقي.

بيت قديم، ولمبة إضاءة تمامًا كتلك التي كان الفلاحون في بلدي يستخدمونها قبل أن تدخل الكهرباء، وأثاث بسيط للغاية، أظن أن عجلة الزمان قد توقفت عن العمل، ثم خرج إلينا ثلاثة رجال، رحبوا بنا بشدة، جلسنا على الأرض، وكعادتهم وضعوا «الطبلية» في منتصف الغرفة ورفضوا الحديث إلا بعد أن يقوموا بواجب الضيافة، وبعد أن شربنا الشاي، شرح لهم «محمد» الأمر، وافقوا بشرط ألا نقوم بالتصوير، استغربنا، سألنا، أجابوا بأن التصوير حرام.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها «محمد» وقد فقد كل أعصابه، هدأت من روعه، وطلبت أن يكتفي بترجمة ما أقول وأن يترك لي إدارة الأمر، شرحت لهم أننا نريد أن نبلغ أهلنا في بلادنا كيف أنتم قاومتم الشيوعية، وحافظتم على دينكم. استأذن أحدهم، دخل إلى غرفة ثم خرج ومعه كتاب صغير مطبوع في «السعودية»، وفتح على صفحة حرمة التصوير، قلت له: «أتقرأ العربية؟»، أدار رأسه إلى «محمد» وقال له: «لا أتكلم العربية، ولكن أعرف أن هذه الصفحة تتحدث عن حرمة التصوير».

خرجنا من البيت منكسي الرؤوس، فالبيت في حد ذاته قصة فريدة، اكتمل فريقنا وأردنا تكرار المحاولة مع بيت آخر، فوجئنا برجال يوقفوننا ويطلبون أن نصحبهم إلى إدارة المدينة، طالعوا الأوراق الرسمية لكن استمروا في احتجازنا، فوجئنا أن عمدة هذه البلدة الذكورية المتدينة إنما هي سيدة، قالت إنها راجعت الأوراق الرسمية وتأكدت من صحتها، لكنها تطلب منا الانصراف في الحال؛ لأن لديها شكوكًا بأننا نحمل الفكر الوهابي ونبشر به، نظرت إلى زميلتي اللبنانيتين وإحداهن غير مسلمة، وإلى زملائي الذين جلسوا يدخنون في انتظار حسم أمورنا، ثم قلت: «ربما»!

وفي التفسير أن الدولة الشيوعية العميقة ما زالت تحكم البلاد.

كلما تذكرت «طاجيكستان» تذكرت «محمد جوباني»، ارتبط الإثنان في ذهني ببعضهما، رغم أنه عمل معي لاحقًا في دول أخرى من آسيا الوسطى. بعد أن غادرنا البلاد قامت السلطات باستدعائه واحتجازه لعدة أيام والتحقيق معه.

ثمة جانب غامض في حياته لا أعرفه ولم أشأ أن أسأله عنه: إنه لا يستطيع أن يعود إلى بلاده. بعد سنوات أبلغني أنه سافر إلى «موسكو»، والتقى في السفارة اليمنية بالرئيس السابق «علي عبد الله صالح»، وأنه قد ساعده في تسوية أموره، وذهب «محمد» لاحقًا في زيارة إلى بلده بعد غياب طويل، لكنه آثر العودة إلى «طاجيكبستان»، والبقاء فيها.

محمد كان مريضًا دائمًا، ما أن يخرج من المستشفى حتى يعود إليه، أرسل لي مرة رسالة قصيرة أن أحواله المادية تحسنت، وأنه ينوي زيارة «دبي» ولقائي، سعدت بالخبر. عاتب عليه أنه لم يأتِ، عاتب عليه أنه فجأة رحل.

السادسة والأربعون

لماذا يفعل الأموات بنا ذلك؟

قرر «إبراهيم» أن يضحي بعامه الدراسي بكلية الهندسة بالإسكندرية، ليواصل العمل الذي التحق به في عطلته الصيفية، كان سعيدًا بالفرصة التي أتيحت له دون الكثير من أقرانه الذين لطالما تمنوا السفر إلى «الولايات المتحدة الأمريكية»، العمل صعب لكن عطلة نهاية الأسبوع مع الأصدقاء الجدد بوسعها أن تنسيه المشقة. رنَّ جرس الهاتف في أحد الأيام، استبشر «إبراهيم» خيرًا وتأمَّل أن يكون الاتصال من «مصر»، على رغم صعوبة ذلك في ذاك الوقت من أواخر السبعينيات من القرن الماضي.

ردَّ «إبراهيم» على الهاتف، جاءه صوت قريبه من بعيد جافًا خشنًا مفاجئًا دون أي تمهيد، «اسمع يا «إبراهيم». . أمك ماتت»، انقبض صدره، شك في أن المتصل قريبه الذي يعرفه، ولم يصدق الخبر، ظنَّ أنه ليس هو المقصود بالاتصال، أو أن قريبه إنما يقصد أمرًا آخر، لعلها مريضة مثلًا، كل الاحتمالات واردة إلا أن تكون قد رحلت وهي في الخمسينيات من عمرها، إنه متأكد أنها ما كانت لتفعل ذلك وهو في غربته، لكن قريبه أجاب بحمق أكثر: «لا، لقد ماتت أمك»، ظل «إبراهيم» ممسكًا بالهاتف للحظات ثم سقط على الأرض مغشيًا عليه، ليُنقل إلى المستشفى، ثم لاحقًا

يخرج منها ويبقى أسير الصدمة شهورًا طويلة، صائمًا عن الكلام، لا يحدث أحدًا.

«نوّار» كان رجلًا غريبًا للغاية، كان يسكن فوقنا وهو صاحب هذه البناية ذات الطابقين في مدينة «طنطا»، وكان يرانا أيضًا غرباء ككل أهل القناة الذين هُجّروا إلى مدن الداخل، لكن أظن أنه كان أكثر منا غرابة، وقد تعودنا صباح كل يوم باستثناء يوم العطلة، أن ينزل من بيته ثم ينادي ابنه: «يا «نادر» نزل الجرنان في السَّبَت»، وعادة ما يتمرد الابن فيبقى الأستاذ «نوّار» مُصرًا على الصياح حتى يستجيب أحد من عائلته، ولا أنسى أنه في إحدى المرات نزل من شقته وطرق باب بيتنا بعنف، فتح له والدي فقال له الأستاذ «نوّار» بحدة شديدة: «أنتم مش بني آدمين»، تسمَّر والدي قبل أن يكمل «نوّار» حديثه: «أنتم ملائكة».

كنت جالسًا مع زوجتي في غرفتنا التي نعيش فيها في الطابق السابع بأحد أحياء «فرانكفورت»، وقد مضى على عرسنا حوالي ثلاثة شهور، كنت أنتظر بفارغ الصبر عيد الأم لأتصل بأمي وأهنئها، لكن لسبب لا أعرفه، قررت أن أهاتفها في مساء هذا اليوم المسمى بالسابع عشر من مارس لعام ثمانية وثمانين، في زمن لم تكن الهواتف النقالة قد اختُرعت، ولا خطوط الهواتف قد امتدت إلى كل البيوت في مصر، أدرت قرص الهاتف لأتصل بالأستاذ «نوّار»، وكانت الساعة تشير إلى ما قبل العاشرة مساء بتوقيت القاهرة.

«مساء الخير يا أستاذ «نوّار» إزاي حضرتك؟»، لكن الأستاذ «نوّار» ردَّ بتجهم شديد: «نعم»، «أنا آسف إذا كنت قد أزعجتك، لكن هل يمكن أن تنادي والدتي؟ أريد أن أتحدث معها»، لكن

«نوّار» قرر أن يوجه ضربة قاضية: «أمك ماتت»، «يمكن باتصل متأخر أنا آسف بس إذا ممكن أكلمها»، «أمك ماتت»، «هي مريضة ولا حاجة؟»، «أمك ماتت»، «طيب ممكن أكلم أي حد من البيت عندنا؟».

سمعت خربشات تنم عن أن اليد الممسكة بالهاتف تهتز، «أيوه يا «أسعد»» قالها زوج أختي بصوت مرتعش وهو يبكي، غير أني كنت مصرًّا «طيب انقلوها المستشفى»، «خلاص يا «أسعد» خلاص»، بهدوء أعطيت لزوجتي الهاتف لتكمل الحديث مع «نعيم»، ونزلت أنا على الأرض كما الساجد، وبقيت أحفر برأسي السجادة التي تغطي أرضية الحجرة، تملكتني رغبة شديدة في أن أختبئ، وددت لو تنشق الأرض فتخفيني تمامًا عن الوجود.

ما أن أفقت حتى أدركت لماذا ظلت في ذهني صورة «إبراهيم» وهو يتلقى الصدمة، لماذا بقيت قصته حاضرة في ذاكرتي لأسباب لم أكن أعلمها حتى تكررت معي. ولسنوات ظللت في حاجة إلى تصديق الخبر، إلى أن وصلت يومًا إلى «طنطا»، مررت وأنا في الطريق إلى أمي بأعز صديقاتها، قالت لي: «لم تكن لتترك فرصة أو مناسبة إلا وتوصينا بك، كنت أقول لها ما زال العمر أمامك يا «أنيسة» وأنت ما زلت في الخمسينيات».

ما أن مررت ببوابة المقابر حتى كدت ألتفت إلى أختي ألومها؛ لماذا تركتموها هنا في هذا المكان المقفر وحدها؟ لكن عند باب مرقدها أدركت أنها فعلًا رحلت، غير أنني كنت في النزع الأخير من الأمل، تخيلت أنها ستقوم من رقدتها إذا ما سمعت صوتي كما كانت تفعل دائمًا، لم أشعر بحاجة يومًا إليها إلا وكانت حاضرة، تؤدي دورها دون ملل ولا كلل، هي رهن إشارة كل من بحاجة إليها، قريبًا كان أو جارًا.

صديقي الأعز «أحمد يونس»، سويسي يسكن مثلي «الإسكندرية»، يكبرني عمرًا لكن الودّ والفكر يجمعنا، كان موجودًا بالسويس عندما وصلتها لقضاء يوم واحد، فكرت أنه لا داعي لزيارته وساعات بقائي في المدينة قليلة وأمامي طريق طويل للعودة إلى «الإسكندرية»، لكني قررت المرور به سريعًا.

تحدثنا طويلًا كعادتنا، لاحظت أنه كان جادًّا بعض الشيء، وعندما قررت المغادرة، قام على الفور لتوديعي بحرارة، ثم عناق وقبلات، وظل واقفًا أمام شقته وعلى سلم البناية يراقبني وأنا أنزل طابقًا بعد طابق حتى غادرتها وأنا مندهش، لماذا يفعل «أحمد» ذلك؟ إن علاقتنا لا تحتمل هذه المجاملات وهو في كل الأحوال سيأتي بعد عدة أيام إلى «الإسكندرية»، هل أخطأت في حقه في أمر ما وأراد أن يقول لي إن علاقتنا باتت رسمية؟

طُرق الباب بشدة قبيل الفجر، قمت منزعجًا فوجدت رجلًا عجوزًا يعمل موظفًا عند «أحمد» يقف عند الباب، سألته: «ما بك؟»، فأجابني: ««أحمد» مات يا «أسعد» بيه»، خرجت عن أدبي بعد أن ظل يكرر العبارة، وسألته: «هل أنت مخمور؟»، فعاد ليكرر العبارة نفسها: ««أحمد» مات. . «أحمد» مات».

لم أتحمل أن أدخل إلى مستشفى «كفر الدوار» كما فعل الإخوة لمشاهدة جسده مسجًّى فيما كان سائقه راقدًا في المستشفى بعد أن نجا من الحادثة التي أودت بحياة صديقي، ومن هناك قدت سيارتي إلى «السويس» ضمن موكب مهيب لدفن أعز الأصدقاء، كانت الدقائق تمر بقسوة شديدة، منذ أن وصلت لأرى السرادق مقامًا في شارع «الشهداء»، إلى أن احتضنني أخوه الأكبر ما أن رآني صائحًا: ««أحمد» فين يا «أسعد»؟ «أحمد» فين؟»، إلى أن

صلينا عليه في مسجد «الشهداء»، إلى أن انتهت مراسم الدفن. كان الأصدقاء يعزونني كأهل الفقيد تمامًا، غير أنني قضيت ساعات العودة في الطريق إلى «الإسكندرية» وأنا أرتب أفكاري، كيف سأحكي له في الغد الحكاية عندما أراه، كيف سأصف له ما جرى.. وكأنه ما جرى.

هل تصرف «أحمد» بعفوية عندما ودعني وداعًا حارًّا؟ وهل تصرفت أمي بعفوية عندما أعدت لي فنجان القهوة وودعتني بحرارة عند الباب، ورفضت أن تخرج إلى الشرفة لتلقي نظرتها الأخيرة عليّ واكتفت بالاحتفاظ بفنجان القهوة الذي احتسيته في مكان بارز بالمطبخ كآخر أثر لابنها في البيت؟ أم كان كلاهما يريدان عقابنا بطريقتين مختلفتين بلوعة الوداع الأخير؟

السابعة والأربعون

المذبحة إذ تمنحك بعض الأمل

تقريبًا كنتُ آخر من دخل الطائرة؛ لأجد زميلي التونسي وزميلتي الفرنسية وقد استبد بهما القلق خوفًا أن تفوتني الرحلة المنطلقة من «باريس». «كيغالي» كانت وجهة الطائرة، أما ثلاثتنا فكنا نقصد مناطق الحرب في «الكونغو الديمقراطية»، علينا إذن أن نهبط أولًا في العاصمة الرواندية ثم نتجه عبر الطريق البري إلى مدينة «جوما» في شرق الجارة «الكونغو»، حيث تسيطر قوات المعارضة.

في ذلك الحين من شهر يونيو عام سبعة وتسعين، لم تكن لي أي علاقات مع هذه المنطقة، ولم أقم بأي استعدادات أو ترتيبات سوى تشكيل فريقي وشراء بطاقات السفر وركوب الطائرة، وقبل ذلك بالطبع دراسة البحث الذي أُعد على عجل بخصوص هذا الشأن، أما المهمة فهي المراسلات الإخبارية المعتادة من مناطق الحرب، فضلًا عن إعداد الحلقة الثالثة من البرنامج الجديد على شاشة «الجزيرة»: «نقطة ساخنة».

بعد عدة ساعات من إقلاع الطائرة تقدم راكب مني ليصافحني بحرارة، «سمعت صوتك فعرفتك، اعتدت مشاهدة تقاريرك الإخبارية على شاشة «أم بي سي» وقت الحرب في «البوسنة»»،

سألني عن المهمة فشرحتُ له، وأبدى دهشته عندما علم أننا سوف نمر برواندا، ونزور «الكونغو» ـ التي كان اسمها حينئذٍ «زائير» ـ لأول مرة، وأننا في كل الأحوال لم نتخذ الترتيبات الكافية، وربما لم نتخذ أي ترتيبات بالمرة، بما فيها تأمين مبيتنا في العاصمة الرواندية «كيغالي».

حطت الطائرة مساء، ولم يتركنا الرجل حتى وجد لنا فندقًا مناسبًا، وفي الصباح مرَّ علينا ليدلنا على الجهة الحكومية التي يجب أن نقصدها لاستخراج الأوراق الرسمية، تلك التي تسمح لنا بالسفر إلى مناطق المعارضة في «الكونغو».

«كيغالي» في الصباح غير تلك في المساء، وفي كل حيزٍ جمالٌ إفريقيٌ مميز وخاص، لا يعكره سوى الشعور بأنك تسير على الأرض التي شهدت ذبح حوالي مليون مواطن على مدى مئة يوم، مذبحة بشعة ووصمة عار في جبين الإنسانية، صحيح أنها وقعت قبل ثلاث سنوات إلا أنني صدقًا أكاد أشعر بأرواح الضحايا تحوم في المكان.

خمسة وثمانون بالمئة من شعب «رواندا» ينتمي إلى إثنية «الهوتو» غير أن أقلية «التوتسي» هي التي هيمنت على حكم البلاد، إلى أن أطاح «الهوتو» عام تسعة وخمسين بالحكم الملكي التوتسي ففرَّ عشرات الآلاف من التوتسيين إلى «أوغندا»، وهناك شكلوا ما أطلق عليه «الجبهة الوطنية الرواندية»، تلك التي كبرت حتى بادرت عام تسعين إلى مهاجمة القوات الحكومية الرواندية. واستمر القتال بين الطرفين إلى أن وُقِّع اتفاق سلام عام ثلاثة وتسعين.

الحكاية لم تنتهِ هنا، ففي ليلة السادس من إبريل عام أربعة وتسعين أُسقطت طائرة كانت تقل الرئيس الرواندي آنذاك «جوفينال

هابياريمانا» ونظيره البوروندي «سيبريان نتارياميرا» وقُتل جميع من كانوا على متنها، فاعتبر متشددو «الهوتو» أن جماعة الجبهة الوطنية التوتسية المتمردة هي المسؤولة، وشرعوا في حملة منظمة لإبادة كل من ينتمي إلى قبائل «التوتسي».

قتل الجيران جيرانهم، والأزواج زوجاتهم، واحتُجزت الآلاف من النساء واغتُصبن، وساعد على ذلك أن بطاقات الهوية الشخصية في ذلك الوقت كانت تتضمن الانتماء العرقي، فكان من السهل تحديد هوية المواطن التوتسي. واستمرت المذابح، لكن «الجبهة الوطنية الرواندية» (التوتسية) تمكنت لاحقًا من السيطرة على البلاد ففرَّ ما يقرب من مليوني شخص من «الهوتو» بعد أن قُتل الآلاف منهم إلى داخل «جمهورية الكونغو الديمقراطية» التي تأثرت هي الأخرى بما يجري، واندلعت بها الحرب بين المعارضة والحكومة والتي كنت بصدد تغطيتها.

المطار صغير جدًّا، وإجراءات الدخول تسير ببعض البطء وبكثير من الابتسامات المرسومة على وجوه ضباط الجوازات، حملت حقائبي استعدادًا للخروج من منطقة الجمارك والدخول في صالة الوصول ومنها إلى الخارج، غير أنني وجدت نفسي فجأة في الشارع في مواجهة الصديق العزيز «معاوية» ومساعديه، المسافة جدّ قصيرة بين الطائرة والشارع.

البهجة تملأ المكان في سبتمبر عام ألفين وخمسة عشر، شتان بين زيارتي الأولى وزيارتي الأخيرة هذه، سألت صديقي عن الأمن، قال: «بوسعك الخروج في أي ساعة من الليل أو النهار دون أي مخاطرة»، الشرطة تتواجد في كل النواحي، لكن وجودها لا يثير الشعور بالفزع، هي حاضرة لفرض القانون الذي يتساوى فيه الجميع.

انتهزت الفرصة لأحكي لصديقي السوداني ومترجمته «حبيبة» الرواندية عن الفزع الذي تملكني وفريقي عندما كنت قبل أقل من عشرين عامًا أقطع الطريق من العاصمة الرواندية «كيغالي» إلى «جوما» في شرق «الكونغو»، كانت المذبحة قد مضت، لكن الناس حذرونا من السير على الطرق خارج المدينة، قالوا لنا: «قد تخرج عليكم عصابات مسلحة من المزارع على جانبي الطريق، وعليكم أن تحمدوا ربكم إذا اكتفت بسرقتكم».

في مقهى «بريوج» ومع أكواب الشاي بالنعناع استمر الحديث، نسبة الفساد تكاد تكون منعدمة، لا رشاوى مطلقًا، معدلات النمو مرتفعة، مستوى الخدمات الصحية رائعة إذا ما قورنت بالدول الإفريقية الأخرى، اهتمام مميز بالتعليم، مدارس مجانية، وأولاد الفقراء والأغنياء تضمهم في تساوٍ الأرائك المدرسية، الطرق أينما ذهبت معبدة وتشغل النساء نصف عدد الوظائف في الأجهزة التنفيذية، فيما تزيد نسبتهن في البرلمان على ستين بالمئة من عدد أعضائه، وهي أعلى نسبة في برلمانات العالم. ووفق القانون أصبح ممنوعًا الحديث عن العرقية، ليتحول الوطن إلى بلد مسالم، لا مكان فيه لوطن المذابح والعنصرية.

في الطريق أشار معاوية إلى بناية قائلًا: «هنا يمكنك التقدم بأوراقك لتأسيس شركة، لتحصل على كل تصاريح العمل خلال مدة لا تزيد على ست ساعات»، أما أنا فقد سرحت في عالم آخر، تثيرني فكرة كيف تنهض الأمم، كيف تحول هزائمها إلى انتصارات.

«بول كاغامي» هو رئيس البلاد في ولاية ثانية، لقد حوّل دولته الصغيرة بعد عشرين عامًا من المذبحة إلى ما يطلق عليها الآن

«سنغافورة إفريقيا»، ولتصبح واحدة من أهم عشر دول إفريقية جاذبة للاستثمارات الأجنبية. من السهل أن تراه في أحد الأسواق بين الناس بصحبة حارسين، أولاده يذهبون إلى المدارس الحكومية، ويرفض منح قبيلته أو عائلته أي امتياز خاص. ولدى هذا الرجل ـ الذي يصغرني بعام ـ اجتماع سنوي مع أعضاء حكومته يقضيه في الغابة، بعيدًا عن كل الرسميات والأضواء، يجلسون على الأرض، ويقيمون ما جرى، ويحاسب كل واحد فيهم على ما أنجزه في ولايته أو قصّر فيه، أو هكذا حكى لي «محمد الحاج»، السوداني الطيب الذي يقيم في البلاد منذ عام تسعين، باستثناء فترة قصيرة عاد فيها إلى السودان.

«محمد» منبهر بهذا الرجلِ الذي لا يحابي قبيلته أو أصدقاءه، صاحبِ الرؤية الشاملة لمستقبل بلاده، ذي القبضة الحديدية التي يطيح بها بمن تسول له نفسه ولو بعض الفساد، أو ربما بمن يخالفه على حد قول معارضيه.

أكثر من مئة وعشرين ألف شخص كانوا يقفون بدءًا من عام ستة وتسعين أمام قاعات المحاكم المحلية، متهمين بالمشاركة في المذبحة، فيما مثل كبار المجرمين أمام محاكمات شكلتها الأمم المتحدة في بعض الدول الإفريقية والأوروبية.

ولأن عدد المتهمين المتورطين في المذبحة ضخم للغاية، لجأت الحكومة عام ألفين وواحد إلى تنفيذ نظام العدالة التشاركية، المعروف باسم «غاتشاتشا»، حيث تنتخب المجتمعات المحلية قضاة لإجراء المحاكمات للمشتبه فيهم بالمشاركة في المذبحة، وهكذا بدأت المصالحة المذهلة في بلاد الألف تل.

المدهش ليس في الإجراءات الحكومية، وإنما في روح العفو

والتسامح التي سادت الناس أو غالبيتهم على الأقل، وكأنهم جميعًا قد تعبوا من الدم، ويرغبون في المصالحة مهما كان الثمن، يرغبون في نسيان الماضي وإيقاف عجلة الذبح الدائرة.

يقول الذين شهدوا الأمر: «تجتمع القرية بأكملها، وتبدأ المواجهة ومن ثمَّ المصالحة بين القتلة والناجين من خلال الاعترافات والصفح، ويتفق أحيانًا على بعض التعويضات مثل المساعدة في حراثة حقل الضحية لفترة من الوقت».

بالتأكيد لم ينجح الأمر في كل الحالات، «كما أن العديد من الضحايا لم يكن بإمكانهم تحمل صدمة الاستماع إلى الطريقة التي قُتل بها أحباؤهم»، غير أنها محاولة حتى لا ينتقل الحقد من جيل إلى آخر.

يومي كان طويلًا، أعود إلى فندقي، ما ذهبت إلى بلد إلا وقارنته ببلدي، أتمنى أن يحل به ما حل في هذه الأوطان من حُسنٍ، أسأل نفسي: كم يحتاج الوطن إلى دم ينزف حتى يدرك أن ليس أمامه سوى المصالحة، وأن أحدًا ليس بوسعه أن يقصي أحدًا، وأن القصاص والغفران خطان متوازيان يلزم أن يسيرا بحذر حتى تكون النهضة بعد الكبوة؟

لا بأس، فلْأَنَم الليلة بعد عناء النهار قرير العين في غرفتي المطلة على سهل واسع تزينه الخضرة، ولم لا؟ وأنا على ارتفاع ألف وخمسمئة متر من البحر، وعند منبع نهر النيل.

الثامنة والأربعون

عفاريت الجنوب

هي المرة الأولى التي ألتقي فيها عفريتًا، كان ذلك مساء اليوم الذي ذهبتُ فيه مع «نجيب» إلى حيث يعيش الوثنيون في إحدى المناطق بجنوب «السودان»، صحراء قاحلة، وخيام بالية، ومجموعة من الرجال والنسوة والأطفال يرتدون أسمالًا وتصدر من خيامهم روائح من الصعب تحملها.

كان الوثنيون ورقة في حرب جنوب «السودان»، يستميلهم المعارضون بالمال فيهاجمون القوات الحكومية، وتستميلهم الحكومة ببعض الامتيازات فيهاجمون قوات المعارضة. عندما كنا عندهم، شرح لهم مرافقنا بلغتهم الغرض من مهمتنا كصحفيَيْن يقومان بتغطية الحرب في جنوب «السودان»، في ذاك الحين من عام سبعة وتسعين، ودفع لهم ما يدفعهم للحديث، فانطلقوا يمارسون صلواتهم ويطلقون البخور ويتمتمون بالعبارات.

«نجيب» المهذب وعلى غير عادته تمامًا لم يتمكن وهو يسجل هذه الطقوس من كتم ضحكاته الساخرة، بالنسبة إليّ كان الأمر مخيفًا، مستوعب أنا لاختلاف الناس وتناقض معتقداتهم، لكن ما كان يجري أمام عينيّ كان خارج هذا الإطار، لقد بدا لي مزيجًا من السحر والشعوذة، فضلًا عن الكفر البواح؛ لذا رحت أتمتم

بالشهادتين، وكأني أقول «أنا مش معاهم والله العظيم».

مشهد الشمس وهي تغرب حيث كنا كان كفيلًا بإدخال الطمأنينة إلى نفوسنا، لا أعرف لماذا تبدو هنا كبيرة إلى هذا الحد؟ كانت كأنها أكبر من كل هذه الصحراء. بعد لقائنا معهم كان علينا أن نعود إلى الثكنة التي استضافنا الجيش فيها؛ ضمن الجنود الذين يعملون على حماية بئر للبترول.

تحلقنا مع الجنود نتحدث ونحتسي الشاي قتلًا للوقت، وفي انتظار أن تخرج علينا الشمس مرة أخرى لنعود للعمل، فلما بلغ التعب منا مداه توجهنا إلى حيث مُنحنا سريرين في «الكارافان»، الذي كانوا يعتبرونه بين هذه الخيام العسكرية بمثابة فندق خمسة نجوم.

سرحت قليلًا في الرحلة الطويلة التي قطعناها لنصل إلى هنا في يومين، ركبنا الطائرة، ثم سيارة قطعت طريقها طويلًا، إلى أن توقفنا عند بلدة لا أذكر اسمها: عندما وصلنا ليلًا، كان يتعين علينا أن نذهب إلى الأمن لنقول لهم من نحن وماذا نفعل، فعل مرافقنا المبتعث من الوزارة ذلك، انتظرناه طويلًا ونحن ننام على مقاعدنا حتى أنهى الإجراءات، سألته: «ما هي المشكلة؟ نحن لن نصور هنا»، أجاب: «عليك أن تتوقع دائمًا أن يخرج لك من كل زاوية رجل أمن يسأل ويدقق ويستجوب ويمنع إذا لزم الأمر، إنهم مثل العفاريت يخرجون لك من كل مكان»، ضحكنا وتوجهنا إلى ما قالوا لنا إنه فندق لنقضي ليلتنا فيه.

في الصباح أرسلوا معنا مرافقًا إضافيًا كشرط لاستكمال الرحلة، حُشرنا في سيارتنا التي انطلقت ساعات طويلة حتى انتهى من تحتها الطريق المرصوف، ثم مضينا في قلب الصحراء، لم يكن

الطريق الذي يسلكه السائق مدكوكًا، ولم يكن هناك أي مَعْلم يمكن أن يستدل به، سألت السائق، فضحك وقال: «إذا مُتُّ الآن فسوف تموتون بعدي جوعًا وعطشًا في هذه الصحراء القاحلة»، مزاحه أدخل الرعب إلى قلوبنا لأنه حقيقة.

حدثنا عن السائقين الذين يعتمدون على حدسهم ودرايتهم بالطرق الصحراوية، فإذا ما خذلتهم هلكوا، ثم اختتم بذكر قصة سائق الشاحنة الذي عُثر عليه في مقطورته ميتًا، وقد كتب رسالة إلى أهله يقول فيها إنه ضل الطريق وإنه هالك لا محالة، وسجل وصيته.

صمتنا تقريبًا بعدها لساعات، وكان كلٌ منا يفكر ماذا يجب أن يكتب لأهله. قبيل الغروب بشرنا السائق أننا أوشكنا على الوصول، نظرت إلى السماء فإذا مجموعة ضخمة من الطيور تسبح حرة طليقة دون مرافقين رسميين، إنها تكاد تكون ملتصقة ببعضها، وكأنها طائر واحد، تحوم يمنة ويسرة في إيقاع ساحر، «سبحان الله» هو ما قلناه كلنا.

ببطء شديد بدأ السائق يقود سيارتنا ونحن نقترب من المعسكر، تجنبًا لإطلاق النار علينا، فإذا ما وصلنا إلى مشارفه أوقف سيارتنا ونزل منها مرافقانا إلى داخل المعسكر، ليعودا بعد قليل وتفتح البوابات لنا، ويستقبلنا قائد الوحدة، الذي أصرَّ على أن يجتمع بنا جميعًا في إحدى الخيام، ثم ألقى خطبة عظيمة فينا، شكرته، وعلمت لاحقًا أنه غضب أنني لم أرد الخطبة بخطبة.

على رغم ذلك كان الجميع لطيفًا باستثناء ضابط الأمن الذي بادلنا العداء من اللحظة الأولى، وقد تقدمنا إليه في صباح اليوم التالي بقائمة طلباتنا، أي الأمور التي نريد تصويرها، غير أنه أصرَّ

في عناد شديد على رفض كل ما ورد فيها، ولم تنفع معه كل الأوراق الثبوتية والتصريحات الصادرة من الخرطوم، ومرافقنا القادم من العاصمة، ولا مرافقنا الجديد، وبدت الأمور وكأن رحلة اليومين في الصحراء لا طائل منها، إلى أن منحنا متكرمًا الإذن بالتوجه إلى حيث يعيش الوثنيون لتصويرهم.

إذن خلعنا أحذيتنا واستلقينا بكامل ملابسنا على سريرين يطلقان موسيقى نشاز عند كل حركة، فيما بدت جيوش البعوض تحوم في فضاء الغرفة الضيق على رغم أننا أطفأنا الكهرباء التي تُقطع تلقائيًا في المساء، وقد بدأت تتردد في أذهاننا كلمات ضابط الأمن إياه عن ضرورة التوجه إلى قلب المعسكر إذا ما شعرنا بأي حركة غريبة أو سمعنا صفارة الإنذار التي تعني أن الوثنيين انقلبوا على الحكومة وقرروا الإغارة على المعسكر، طاب مساؤنا إذن!

استغرقت في النوم ساعة تحت تأثير إرهاق اليوم، لكن أزيز البعوض تكفل بإيقاظي، وكأنه يغيظني بعد أن فشل في الوصول إلى أي مساحة مكشوفة مني، فقام بالتركيز على فتحتي الأنف، وكنت من حين لآخر أكشف عن أذنيّ عملًا بنصيحة الضابط واستراقًا للسمع لأي حركة غريبة.

لكن فجأة سمعت صوتًا غريبًا وكأنه يحاول القول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، خفتُ فليس في المكان إلا أنا و«نجيب»، كان الصوت يرتفع رويدًا رويدًا، فخلعت كل غطاءاتي وقمت جالسًا على السرير، فإذا هو «نجيب» يحاول أن يجلس فلا يتمكن، ويحاول أن يُتِمّ استعاذته فلا يستطيع، الصوت يرتفع، وهو خارج من «نجيب»، لكنه ليس بصوت «نجيب» مطلقًا.

قمت إليه أحاول مساعدته، وبالأحرى مساعدتي أيضًا، إلى أن

جلس وأتم استعاذته، كان وجهه مخيفًا، لقد بدا متعبًا للغاية، عيناه جاحظتان، خفت، لجأت إلى مصحفي وبدأت القراءة، ثم خرجنا لنجلس أمام «الكارفان» على رغم التحذيرات، ثم عاد «نجيب» ليستلقي على السرير مستيقظًا لكن عادت إليه الحالة نفسها، لا يستطيع أن يتنفس، ولا أن يكمل استعاذته، فإذا كانت المرة الأولى كابوسًا فما تفسير المرة الثانية؟ ولذلك كان رعبي أكبر.

ظللنا على هذه الحالة حتى بدت الشمس في الخروج، استرحنا قليلًا ونمنا، وفي الصباح أخبرني «نجيب»؛ المصور والمخرج التونسي المتعلم والساكن في «باريس»، أنه شعر بمن يقبض على عنقه وكأنه يريد أن يخنقه، لكنني طمأنته، وذكرت له المثل المصري «ما عفريت إلا البني آدم»، رآنا ضابط الأمن الذي بادر «نجيب» بالقول: «ماذا بك؟ يبدو وجهك مختلفًا ومرهقًا للغاية»، حكينا له الحكاية، ضحك وقال: «تَلَبّسَك عفريت إذن»، قلت في سري: «أنت عفريتنا الوحيد».

قررنا المغادرة في الحال، فلا جدوى بين كل هذه العفاريت، أتتنا نصيحة مسربة بأن نتوجه إلى مكان كذا فهناك وحدة عسكرية أخرى قد تسمح لنا بما لم تسمح به لنا هذه الوحدة، توجهنا إليها، استُقبلنا استقبالًا رائعًا، شكونا لهم ما جرى معنا، اندهشوا، وعبّر القادة عن غضبهم الشديد، وأن ذلك يعطي انطباعًا سلبيًا عنهم أمام الإعلام، ووعدوا بالسماح لنا بكل ما نريد.

جلسنا ننتظر، مرت ساعة وساعة، ولم يأتنا أحد، تبخر القادة، قال مراسلنا: «يبدو أنهم اتصلوا بضابط الأمن في الوحدة العسكرية التي كنا بها، وأتوقع أن يكون قد حذرهم منا»، خاصةً وأن «الجزيرة» كانت حينها لا تزال قناة غير معروفة.

قررنا العودة إلى «الخرطوم» لنشتكي إلى مكتب الإعلام ونطلب تصريحًا آخر، عناء لا يدركه المشاهد الذي يتابع التقارير وهو يحتسي قهوته، أو يهاتف صديقه، وبعد انتهاء مهمتنا في «السودان»، عدنا إلى ديارنا، وظللت أحمل همّ «نجيب»؛ ماذا جرى له؟ اتصلت به في «باريس»، سألته، أجاب: «يبدو أن عفريتي لم يتمكن من دخول «فرنسا»».

التاسعة والأربعون

أيام «القرم»

المشهدان في المنتجع الأوكراني المطل على البحر الأسود متناقضان تمامًا: ناس عنوانهم الشباب وقبلتهم البحر، وناس فاتهم الزمان وسكنوا أطراف القرى وسفوح الجبال، تركت الأولين وذهبت للآخرين، سألتهم عما جرى، صمتوا، تحججوا بالذاكرة التي وهنت، وعندما حاولوا فشل أي منهم في أن يحكي الحكاية كاملة، مشهد أو مشهدان ثم يمضي الحاكي عميقًا.

«دارنا ما زالت كما كانت هنا، لكن سكنها الآخرون، عندما عدنا من مهجرنا وجدنا الحال هكذا، فلجأنا إلى أطراف المدن، هنا كانت لنا حياة قديمة، وباتت لنا الآن حياة جديدة، وما بينهما كان الممات، تخيل أنك جالس في بيتك، ثم فجأة يطرقون بابك ويبلغونك بالقرار، أنتم خونة وعقوبتكم الإبعاد، كنا في حاجة إلى زمن حتى نفهم، لكنهم لم يسمحوا لنا إلا بنحو ربع ساعة لنلملم أشلاءنا، كيف يمكن لحكم أن يصدر دون دفاع؟ كيف لثورة ترفع شعارات الحرية والمساواة والعدل أن تقر مبدأ العقاب الجماعي لشعب بأكمله؟».

عندما توجهتُ إلى «القرم» للقاء تتارها، اختلط الأمر عليّ في البداية، إلى أن عرفت أنهم غير تتار «الفولغا»، هم العرق نفسه،

ولكن لهم تاريخ مختلف، والمؤكد أنهم سكان شبه جزيرة «القرم» الأصليون، وأن «القرم» تعني بلغتهم القلعة، وأن الجغرافيا تشهد لشبه الجزيرة بأهمية موقعها الجغرافي المتميز المطل على البحر الأسود، وأن التاريخ يذكر بكل خير دولة تتار «القرم» القوية، وأن الزمن تغير وتمكنت الإمبراطورية الروسية عام ١٧٨٣ من السيطرة عليها بعد حروب طويلة مع العثمانيين الذين كانت شبه الجزيرة تخضع لهم، وانتقل العديد من أبناء الإمبراطورية الروسية للعيش هناك.

والتاريخ نفسه يذكر أيضًا أنه في الثامن عشر من مايو عام ١٩٤٤ اتهم «ستالين» أهل «القرم» بالخيانة والتعاون مع الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، وقرر تهجيرهم بالكامل إلى «سيبيريا» وآسيا الوسطى، وحُمل الناس في عربات القطارات المخصصة لنقل الحيوانات والبضائع، تسير لشهر متصل ليل نهار، لا تتوقف إلا طلبًا لوقود.

يكمل محدثي: «تكدسنا مثل النعاج في عربات قطار صدئة، كدنا نختنق، البعض يمسك بالبعض، والكل في دهشة، الصغار والعجائز والمرضى كانوا أول الضحايا، أسوأ أنواع المصائب تلك التي لا تفهمها، صرير باب القطار وهم يغلقونه علينا مشابه لصوت باب المقبرة عندما تغلق عليك، نعم لم أمت من قبل حتى أجرّب، لكن مت فعلًا في هذه الرحلة».

«نحو أربعة أسابيع في هذا القطار اللعين، تكفي لاستحضار التاريخ، كم بذل القياصرة الروس من جهد لاحتلال «القرم»، حتى نجحت الإمبراطورة «كاترين الثانية» في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في هزيمة العثمانيين، لتبدأ سياسة إبادتنا وإبعادنا، حتى

تناقص عددنا من نحو ستة ملايين نسمة في زمانها، إلى أقل من ثلاثمئة ألف نسمة حين اندلعت الثورة البلشفية».

«أنت تلح علينا في الحديث وقد هرمنا، تلاشت تفاصيل الجريمة واستقرت آلامها، حين كان يموت أحد منا في قطار الموت، كانوا يفتحون الأبواب ويرمون جثته على الطريق، أو في أي ممر مائي كنا نمر فوقه، دون أن تدفن ودون أن يتوقف القطار، لقد شردنا «ستالين» في الحياة وفي الممات».

«ذلك الديكتاتور الذي اتهمنا بالخيانة إبان الحرب العالمية الثانية، حين اكتسح الألمان ديارنا في شبه جزيرة «القرم»، نسي أن قليلًا منا ربما انضموا بالفعل إلى خصومه أملًا بالخلاص من الشيوعية، لكن أعدادًا كبيرة جدًّا منا انخرطت في صفوف جيشه، وبعد أن انتصر أداننا جميعًا وقرر تهجيرنا».

«أصابنا الجوع وعطشنا ومرضنا، شبابًا وشيوخًا ومعاقين وصغارًا وأطفالًا رضعًا، ترفع رأسك إلى السماء فلا تجد إلا سقفًا صدئًا، وبعضًا من الذكريات تطير إلى «بخش سرايا»، تلك التي كانت يومًا عاصمتنا نحن تتار «القرم»، بيت الوالي وديوانه ومسجده، النقوش والأزهار والحدائق والماء المنساب، وحضارة مشعة، ودولة عظيمة وصل جيشها إلى أسوار «موسكو»».

«نصل نحن إلى المهجر، متسخين، جلودنا مشققة، ومَعِدُنا خاوية، أسكنوا كل عائلة في ركن من حظيرة للخيول، العذاب أنواع أشدها شتاء حين تنخفض درجة الحرارة إلى ثلاثين درجة تحت الصفر، لا طعام ولا عمل، إلا من سيق إلى مزارع القطن، والباقون يبحثون عن قوت يومهم بين القمامة، ثم يعودون بها إلى الحظيرة على نار الحطب يحاولون أن يعيدوا لها شيئًا من سماتها،

ثم يلتهمونها كي لا يموتوا جوعًا، لكن منا من مات بردًا أو مرضًا، ثم توفي كبار السن ولم يعد بين الأحياء من يجيد قراءة الفاتحة على أرواح موتانا».

كل حكاياتهم شوق وشجن، أنظر إلى اللوحة، وجوه باكية تطل من كل مكان، قال لي الرسام: «إنني أعمل بها منذ خمسة عشر عامًا مع لوحاتي الأخرى التي تراها، ولدت في المهجر، ولم أجد وثيقة مصورة عن جريمة الإبعاد، فلجأت إلى حكايات الناس، ومنها أطلقت لريشتي أن تتصور ما جرى وتنقشه كما ترى رسومًا توثق لهذه الجريمة، أطلقت على لوحاتي اسم «كي لا ننسى»».

في عام ١٩٥٤، أهدى الزعيم السوفياتي الأوكراني الأصل «نيكيتا خروتشوف» «القرم» إلى موطنه الأصلي، وبعد انهيار «الاتحاد السوفياتي» عام ١٩٩١، أصبحت «القرم» جزءًا من «أوكرانيا» المستقلة التي منحت الإقليم حكمًا ذاتيًا، وبدأ أهلها يعودون من منفاهم؛ ولذلك سافرت أنا إليهم في أغسطس من عام ألفين وخمسة لأسمع حكاياتهم.

واحدة منهم كدت أن أتحدث معها بالعربية، أشعرتني بأنني أعرفها جيدًا، نفس ملامح الجدة المصرية العجوز الطيبة، قالت لي: «سأخبرك شيئًا، حين رحَّلونا لم نتمكن من جلب أشيائنا الخاصة، لكن بعضنا نجح في أن يأتي بصكوك البيت، والأهم المصحف الشريف، اصطحبته معي هناك أكثر من ستين عامًا وهأنذا أعود به».

قال شاب من الحضور: «كان أبي يكرر دومًا (عائدون عائدون)، كان يصلي من أجل ذلك ليل نهار، توفي في شهر رمضان، وعدت أنا». التفتُّ مرة أخرى إلى الرسام وقلت له:

«رائعة لوحاتك يا فنان، لقد عبرت بعناية فائقة عما تعرض له شعبك، وللسبب نفسه أنا هنا، لتوثيق ما يراد له النسيان».

في دكانة صغيرة مظلمة، كان يجلس عجوز يحفر وينقش الحلي، «كان عمري ستة عشر عامًا حين وقعت الواقعة عام ١٩٤٤، وعندما عدت مؤخرًا ذهبت إلى متحف «قصر الخان» لأرى بعض الأعمال القديمة من المسبوكات التي تحفظ تراثنا، الحلي التتارية فريدة من نوعها، ولعل لديكم في مصر مثلها، وأنا أريد الحفاظ على ذلك من أجل إعادة إحيائها، يجب ألا تغيب تقاليدنا، ما أقوم به في هذا المكان الفقير ليس سوى التوثيق لتاريخ قومي حتى لا يندثر». أدرك في عينيَّ سؤالي، قال: «حين تفكر في وطنك وفي دورك فإن من العبث أن تضيع وقتك بحثًا عن عمل كبير ضخم يمكن أن يغير العالم، افعل مثلي ما تستطيع فعله، الآن وحالًا، فكل كبير يبدأ بصغير».

أنهيت عملي، فيلم وثائقي عن مأساة تتار «القرم»، اختتمت فيه حكايتي هكذا: «اليوم الأخير لي في «القرم» كان يومًا جميلًا، غير أنني سرحت بعيدًا عن «القرم» وأهله، رحت أفكر في آخرين أحبهم، وددت لو رحت إليهم في مخيماتهم، وقلت لهم واحدًا واحدًا سوف تعودون، والله كما عاد هؤلاء ستعودون، لا تضيعوا المفاتيح ولا الصكوك، صحيح قد يطول زمن الطغاة، لكنهم دومًا يسقطون، اسألوا أهل «القرم»، هم يعرفون أنكم مثلهم لن تنتهي حكايتكم إلا عندما تعودون».

الخمسون

سائق ووزير وملك

كان الوقت قد تأخر حين صحتُ في السائق: «احترس الإشارة حمراء»، توقف على جانب الطريق وأتى الشرطي غاضبًا ليسجل مخالفة، خرج سائقنا من السيارة واصطحبه بعيدًا، تهامسا، ثم أدى الشرطي التحية للسائق، وانصرف دون تسجيل المخالفة، اندهشت كما اندهشتم، تكرر الأمر مرات في شوارع المدينة على الشاكلة نفسها، أدركت سريعًا أن السائق إنما هو مخبر وُظِّف ليكون سائقنا مع السيارة التي استأجرناها، المسألة متوقعة وعليك أن تلجأ في مثل هذه الحالات إلى الدعابة، كنت أقول له عندما يسير محطمًا كل قواعد المرور وإشاراته: «ولا يهمك، مش لازم نخسر بعض علشان شوية ألوان أحمر وأخضر وأصفر».

أشهد للرجل أنه كان مُجدًّا في عمله، وهو الذي كان سائقنا ورفيقنا ومخبرنا خلال زيارتي الثانية للمغرب عام ألفين وثلاثة. في مرة، غادرنا «الدار البيضاء» في جولة على عدة مدن، ثم عدنا بعد بضعة أيام في وقت متأخر متعبين، في الصباح الباكر كان لا بدَّ أن نتجه لتصوير لقاء مهم، استيقظنا جميعًا وتوجهنا على عجل إلى سيارتنا وسائقنا فيها، تأخر تقني الصوت وكان آخرنا، سلم مفتاح غرفته إلى استقبال الفندق، فقالت له الموظفة لقد ترك السائق لك

هذه الرسالة، اندهش من الأمر، ورقة مكتوب فيها بالفرنسية، توجه إلى سيارتنا حيث ننتظره، وأعطى الرسالة إلى زميلنا «منصف» ليترجم إلى العربية، فإذا هي تقرير يشمل تحركاتنا خلال أيام السفر، إلى أين ذهبنا ومن قابلنا، فُزع السائق عندما أدرك الأمر وخطف الرسالة، لاحقًا اكتشفنا أن موظفًا أنيط به مراقبتنا وكان يبيت في فندقنا، وأن موظفة الاستقبال أخطأت وأعطت إلى زميلنا الرسالة التي هي التقرير وليس إلى السيد المخبر الذي لم يستيقظ مبكرًا.

لوَّن الحدث صباحنا، ضحكنا حتى الثمالة، عندي قاعدة تقول لا بأس من أن تراقبونا، لكن فقط دعونا نعمل، وزير الداخلية المغربي السابق «إدريس البصري» قرر في زيارتنا السابقة والأولى للمغرب عام ثمانية وتسعين أن يراقبنا وألا يدعنا نعمل، لقد عُرف عهد الرجل بالاعتقالات والتعذيب والاغتيالات والقهر، كلفت زميلة لي بالسفر إلى مدينة «العيون» لدراسة إمكانية سفرنا من هناك مع المنظمات الدولية إلى «تندوف» بالصحراء الغربية، في فندق مهم بالرباط أعطيت موظفة الاستقبال رسالة لترسلها بالفاكس إلى زميلتي، أخذت مني الرسالة ونسيت أن تغلق باب الغرفة التي ترسل منها الفاكس وشاهدتها وهي تصور نسخة استعدادًا لإرسالها إلى المعنيين، وأدركت أن كل صغيرة وكبيرة لدينا تحت المراقبة.

لاحقًا استدعيت إلى وزارة الداخلية، دخلت وزميلي «رشيد» إلى هناك ونحن في قلق شديد، لوزارات الداخلية العربية هيبة لا تضاهيها هيبة، في غرفة واسعة وجدتنا في ضيافة ثلاثة رجال أحدهم والي مدينة العيون، بعد الشاي والترحيب انطلقوا فجأة في الهجوم على ما تبثه «الجزيرة» بشأن «المغرب»، أوضحت لهم أنني لست موظفًا في القناة، وقد جئت إلى «المغرب» بناء على موافقة

مسبقة، لم يمنع ما قلت من صخب الجلسة حتى شعرت كما لو أنني قيد الاعتقال، فقلت بوضوح إما أن تدعونا نعمل بحرية تامة على قضية الصحراء الغربية ونلتقي كافة الأطراف، وإما أن نحزم حقائبنا ونغادر فورًا، بعد قليل تحول الحديث فجأة إلى ودٍّ مبالغ فيه، وقالوا لي إنهم مهتمون بأمري إلى حد أنهم سيخصصون لي أشخاصًا يكونون برفقتي.

واصلت العملَ والتصوير في «الرباط»، ثم سافرنا إلى مدينة «العيون»، توجهت زميلتنا بجوازها البريطاني وصفتها الصحفية إلى المطار لتسبقنا إلى مخيمات «تندوف» بالصحراء الغربية، منعتها السلطات المغربية، استُدعينا مجددًا ولكن هذه المرة إلى بناية المحافظة، وصلنا وقالوا انتظروا الوالي، سمعنا صوت صفارات موكبه الضخم قبل أن يصل، استقبلنا بتجهم شديد، دار بيني وبينه حديث ناري، قلت له إنه لم يتم الإيفاء بالوعود في أن نلتقي بمن نشاء، وأن نذهب إلى ما نريد، قال: «لا تتحركوا إلا بإذن منا وبصحبة أحدنا وبما نسمح به»، أبلغته أنني للتو سأغادر البلاد.

كانت حصيلة أيام التصوير التي أنجزتها سابقًا في «الرباط» لا بأس بها لتعبر عن رأي السلطات المغربية في قضية الصحراء الغربية، لكن كان لا بدَّ من التصوير في الصحراء نفسها ومقابلة المسؤولين في جبهة «البوليساريو» لنضع أمام الناس الصورة كاملة، لا حل إذن إلا بالسفر إلى «الجزائر» والوصول من هناك إلى «تندوف»، غير أن السلطات الجزائرية لن تسمح لي بذلك بعد حلقة «نقطة ساخنة» التي أعددتها من هناك.

كلفت زميلي «ولد محمدي» أن يذهب برفقة فريق تصوير من «موريتانيا» إلى «تندوف» وأبلغته بالمواد المصورة المطلوبة، لاحقًا

نقل له سائقه أن زميله السائق الجزائري أبلغه أنه في «تندوف» أيضًا بصحبة رجل أمن للقبض على شخص يدعى «أسعد طه» حال وصوله إلى المنطقة.

أتم زميلي العمل وأرسل لي المواد المطلوبة، دخلت إلى غرفة المونتاج وأنا في تحدٍ لنفسي، ألا أجعل الحادثة تؤثر في مهنيتي وأندفع إلى الانتقام، قلت في حلقتي ما رأيته وذكرت رأيي، وبُثت الحلقة وكانت سببًا في خلاف قَطَرِي مغربي أشارت إليه جريدة «الحياة» الصادرة بتاريخ ستة أغسطس عام ثمانية وتسعين.

تبدل الحال تمامًا عندما وصلت «المغرب» مرة أخرى عام ألفين وثلاثة، حتى إنني سألت عن إمكانية لقاء الملك، قيل لنا إنه لا يجري لقاءات تلفزيونية، ولكن بالإمكان أن يستقبلكم في قصره كتحية منه، قبلنا التحية، وذهبنا إلى هناك وكان لقاءً وديًا، غير أنه في نهاية الأمر رسمي تقليدي.

الذي لم يكن تقليديًا هو الصورة التي بدأت تُرسَم حينها عن الرجل، إنه ملك للفقراء، يدافع عنهم ويتبنى مطالبهم، ملك يقود سيارته بنفسه في شوارع «الرباط» ويتوقف عند إشارات المرور، ويناهض عادة تقبيل يده، كان الأمر مدهشًا بالنسبة إليّ، وتخيلت فيلمًا وثائقيًا عن الملك في حياته اليومية الخاصة.

غادرت «المغرب» التي أذهلتني، إنها بلاد ثرية بالثقافة والتاريخ والقيم، ومواطنوها بسطاء طيبون، ونحن ما زلنا في الشرق لا نعلم عنها أو عنهم إلا القليل. بعد مرور فترة قصيرة، أُبلغت بأن الملك رحَّب بالفكرة، وعدتُ إلى «المغرب»، هذه المرة لأعد فيلمي الوثائقي المتخيل عن الملك.

ما أن وصلت حتى كان بوسعي بسهولة أن أشم رائحة صراع

بين فريقين؛ حرس قديم يرفض الفكرة مطلقًا، يريد للملك أن يحتفظ بالصورة التقليدية التي كانت ربما لوالده، ويظن أن فيلمي يهدد هيبته، وحرس جديد يريد أن تدخل «المغرب» في مرحلة جديدة وتواكب عصرها، ويرغب بشدة في أن تخرج صورة الملك إلى الناس على هذه الشاكلة. اقتربت وأنا قلق، لا أريد أن أتورط في مديح لأحد، ولا في خلاف بين فريقين قد أدفع ثمنه، اتفقت مع نفسي أنني سأعالج الأمر على شاكلة يوميات ملك.

حضرتُ اجتماعًا ضم الملك مع حكومته مرة في القصر، ومرة مع رئيس حكومته في سيارة الملك المخصصة لذلك وهي تسافر من «الدار البيضاء» إلى «الرباط»، ويوم عمل آخر في القصر، ويومًا أيضًا مع ولي عهده، ويومًا ثالثًا مع أخيه (مولاي) «رشيد»، وفي ذلك كله أقر أنها كانت تجربة جديدة لي.

الشغف كاد يقتلني، كنت أود إكمال الأمر بأي ثمن، أدهشني تواضع الرجل الجم، لطفه في التعامل مع فريق العمل، أدبه في الحوار مع موظفي القصر، بساطته، في المساء حدثت زملائي بذلك، قال أحدهم إذن أنت تتفق مع سياساته، أجبته: «لماذا التعميم دائمًا؟ أنا أتحدث عن سلوك شخصي يعجبني ويدهشني، لكن قد أتفق أو أختلف معه في سياساته، الحد الأدنى من الإنصاف أن تذكر للمرء محاسنه كما تذكر عيوبه».

في أحد الأيام كنت أنتظر في الفندق تعليمات الخطوة المقبلة، انتظرت طويلًا، انتهى اليوم دون تحقيق أي إنجاز. مرَّ يوم آخر، ثم يوم ثالث، فيوم رابع، ثم كان عليّ أن أعترف أن الحرس القديم قد انتصر، وأن عليّ أن أحمل حقائبي وأرحل، وأن المشروع قد أُجهض. وفي الطائرة حدثتني نفسي وأنا حزين على ما جرى: «عليك أن تهيم بالمغرب حتى تدرك سرَّه».

الحادية والخمسون

كم «مانديلا» لديهم.. كم «مانديلا» لدينا

«يا أخ «أسعد» في الحقيقة سمعنا أنك تعمل مع «الموساد»»، قالها «عدنان» وهو يتصبب عرقًا، ظننت أنه يمزح، الطريق من «سكوبيا» عاصمة «مقدونيا» إلى الحدود الألبانية طويل ممل، لكنه كان جادًّا، قال: «يبدو أن شخصًا عربيًا أزعجته زياراتك المتكررة إلى المنطقة في الآونة الأخيرة، وأراد أن يخيف الشباب منك فقال كلمته»، ضحك وواصل: «لكنك حققت نصرًا، فقد لجأنا إلى تجميع ما تكتب من مقالات وقمنا بترجمتها إلى لغتنا وجلسنا نقرأها ونحللها، فزاد جمهورك وزاد محبوك»، ضحكت وأنا ما زلت مندهشًا لمطلِق الشائعة وكنا قد وصلنا إلى بلدة «ستروجا» السياحية، عشرة كيلومترات بعدها ونصل إلى النقطة الحدودية «كافاسانا»، قبلها بقليل أوقف «عدنان» سيارته واعتذر لأنه لا يستطيع توصيلي إلى نقطة التفتيش الحدودية خوفًا من الشرطة الألبانية التي تُطلِق النار على أي سيارة قادمة، وكان عليّ أن أذهب إلى هناك مترجلًا.

شكرته باسمي وباسم «الموساد» وحملت حقيبتي وتوجهت مشيًا إلى الحدود حيث أمسك الجندي الألباني بجواز سفري يقلب في صفحاته وهو لا يجيد لا العربية ولا الإنجليزية، بين صفوف

المزدحمين على الحدود، الراغبين في الفرار من «ألبانيا» إلى «مقدونيا» ومن ثمَّ إلى العالم الحر. قفز «زهير» إلى حيث أقف مستقبلًا ومترجمًا.

دخلنا إلى الاستراحة لنحتسي قهوتنا، فيما لحق بنا شاب ألباني مرافق له. «زهير» فلسطيني أوفد من منظمته طالبًا إلى «ألبانيا»، أحب واحدة من فتياتها وتزوجها، وبعد مرور عدة سنوات رغب في زيارة أهله لكن السلطات أبلغته أنها ستمنحه استثناء وتسمح له بالسفر على ألا يعود، فرفض ومكث هناك حوالي ستة عشر عامًا، مع الشعب الممنوع من السفر.

فارق عظيم بين أن تقرأ المعلومة مجردة في كتاب وبين أن تسمعها في محيطها ومن شخص عاشها، الطريق الطويل من الحدود الألبانية المقدونية وحتى العاصمة الألبانية «تيرانا» يمر بجبال، ما أن تصعد واحدًا حتى تهبط لتجد آخر. رفيقي «زهير» ـ الذي أوصلني به صديقي «عدنان» ـ يسهب في الحديث عن نظام «أنور خوجة» الذي حوَّل «ألبانيا» من الدولة المسلمة الوحيدة في أوروبا ـ آنذاك ـ إلى الدولة الملحدة الوحيدة في العالم، وأوهم شعبه أن بلادهم مستهدفة من كل أنحاء العالم حتى تلك التي تشاركهم انتماءهم الشيوعي، وقطع علاقاته مع الدنيا، وحرّم دخول الأجانب بلاده، ومنع شعبه من السفر إلى بلادهم.

أدر وجهك حيث شئت ستجد تلك الدشم العسكرية التي بُنيت في أنحاء البلاد ووصل عددها إلى حوالي ربع مليون دشمة خرسانية، حتى أصبحت أشهر معلم دولي تُعرف به ألبانيا اليوم، بالفعل فكرة مجنونة من وحي أن العالم كله سيهاجم ألبانيا بملايينها الثلاثة من السكان، الذين عليهم أن يلجؤوا إلى هذه الدشم ويخوضوا حرب مقاومة ضد العالم الغازي.

وصلت أخيرًا إلى «تيرانا»، تشق سيارتنا الطريق بصعوبة بالغة بين الناس الذين يسيرون في الشوارع وليس على الأرصفة، ناظرين إلينا كما لو أننا هبطنا من السماء، في العاصمة كلها ربما هناك إشارتان للمرور، قال «زهير»: «وما حاجتنا إليها؟ ليست هناك سيارات لمواطنين، وإنما هي إذا توافرت ملك للحكومة»، كل شيء هنا قطاع عام، ليس هناك أي نوع من الملكية الفردية، ليس من حق المواطن الألباني شراء دراجة فما بالك بسيارة؟ بل لا يستطيع الفلاح أن يقتني دجاجة في أرضه، التي هي ليست أرضه في الحقيقة، هو وكل ما يملك ملك للدولة.

المشهد من نافذة الفندق الرئيسي في الميدان الرئيسي مدهش، الناس كالنمل يسيرون في كل اتجاه وطبعًا في غياب أي حركة للسيارات. بعد قليل، قادني رفيقاي إلى حجرة استؤجرت لتكون أشبه بمقر للمفتي الذي أطيح به وبكل ما يرمز إلى دينه طوال السنوات الماضية، رجل طيب هو الشيخ «صبري كوتشي»، يحدثك في أمر الدين وأحلامه في تمكين الإسلام مرة أخرى في بلاده وكأنه شاب عشريني وليس عجوزًا سبعينيًا قضى ما يزيد على عشرين عامًا في سجون الشيوعية.

بتُّ ليلتي هناك، وفي الصباح مرَّ عليّ «زهير» وصاحبه لنتجول في الشوارع، كنت أُعامل معاملة السائح الأوروبي في خمسينيات القرن الماضي إذا ما هبط ريف «مصر»، كنت ألحظ أن بعض الجالسين على الطريق يقفون لمشاهدة هذا الغريب.

أنا لست في مكان آخر من العالم، أنا في زمن آخر، كل شيء بسيط للغاية، بدائي للغاية، علبة العصير بداخلها شفاط تجذب انتباه الناس إلى هذا الاختراع، ذاك الرجل يرتدي نظارة

شمسية يفتخر بها وبورقتها المتدلية المكتوب عليها السعر، هذا الشاب يعلق صليبًا أسأله إذا كان قد أصاب الكنائس ما أصاب المساجد، فيقول إنه مسلم وهذا الصليب ليس إلا زينة لمجاراة الموضة كما أشاعها فريق غنائي وصل «تيرانا» والتف حوله أهلها في ليلة لم تشهدها البلاد ربما طيلة حياته.

لا يؤذيك إلا مشهد مرائب السيارات وحظائر الحيوانات ودور السينما التي كانت يومًا مساجد يؤمها مؤمنون إلى أن أطاح بها «خوجة» ضمن حملته ضد الرجعية، وحتى يستطيع أن ينجز مهمته التي صفق له الناس حينها، ومن أجلها صادر حريتهم وحقوقهم الشخصية وكرامتهم، فحلَّ على البلاد الظلام كما حلَّ علينا حين هبط المساء، فلا محلات عامة مزينة بلافتات ضوئية، ولا أعمدة إضاءة في الشوارع إلا ما رحم ربي، وما من ميزة في هذا العصر المظلم المنصرف إلا الأمان والتعليم، حيث لا أمي واحدًا في طول البلاد وعرضها.

لا تجهد نفسك بالبحث عن قصص صحافية، فقط سِر في الشارع واسمع حكايات الناس عن زمن الشيوعية التي سقطت لتوها، ليس هناك وصف ملائم يرسم صورة كاملة لما كانت عليه «ألبانيا» حينما وصلت أنا عام تسعين؛ بعد حوالي خمس سنوات من وفاة «أنور خوجة» وبعد شهور قليلة من تصدع الشيوعية في البلاد.

أردت أن أحتسي قهوة، رافقني «زهير» إلى مقهى ـ كسائر المقاهي ـ هو وخدماته السيئة تابعون للحكومة، إلا أن «زهيرًا» قال إنه يتميز بأن رواده من المعتقلين السياسيين السابقين، فرحت بالقهوة وبالمعتقلين الذين التفوا حول الصحفي الذي جمع

الحسنيين: أجنبي ومسلم، قال أولهم إنه قضى في السجن حوالي ثلاثين عامًا، نظرت إلى «زهير» بمعنى هل هو صادق؟ أومأ برأسه إيجابًا، فرحت بهذا السبق، أردت أن أعزله عن باقي الرفاق لأتفرد بهذه القصة، ضحك الجميع، فكل الحضور قضى ما بين عشرين إلى أربعين عامًا في المعتقلات الشيوعية، حتى إن بعضهم رفض الخروج من المعتقل حين أُفرج عنه، فلا مأوى له، ولا مصدر للرزق، ولا دراية بحياة الناس وأساليب معيشتهم.

أيام وكنت في إستاد «تيرانا» الرياضي حيث تجمع المعتقلون السياسيون السابقون معلنين الإضراب العام حتى تستجيب الدولة لمطالبهم، قال لي «فيكتور مرتيني» عبارة أدهشتني: «نحن هنا نعلن إضرابنا عن الطعام تعبيرًا عن الآلام المبرحة التي تعرضنا لها طيلة سنين طويلة، نطالب بتضميد جراحنا التي ما زالت مفتوحة، نحن نواصل نداء أجدادنا الذين ماتوا في السجون! لقد جئنا إلى هنا يدفعنا الجوع والفقر والمرض التي فرضوها علينا منذ فتحت السجون لنا أبوابها عام أربعة وأربعين، ونطالب باسترداد الهياكل العظمية لموتانا الذين قضوا نحبهم في السجون تحت التعذيب».

قال السبعيني «رشدي تشوبا» إنه سجن عدة مرات وأفرج عنه إلى أن اعتُقل عام ثمانين بتهمة ضبطه متلبسًا بالصلاة، أضاف: «كان معي من الشيوخ والعلماء الحافظ «موسى درقوتي» الذي مات في السجن بعد عشر سنوات من اعتقاله، والحافظ «علي تاري» الذي حكم عليه بالإعدام ثم أفرج عنه لمرضه الشديد على أمل أن يموت خارج السجن، والشيخ «علي بوقداني» الذي مكث في السجن ثلاثين عامًا». تعبت وأنا أكتب وراء المترجم قائمة بأسماء من اعتُقلوا لعشرات السنين من أصدقاء الرجل.

تهت بين لفظ المعتقل والسجن، تطوع أحدهم للشرح؛ السجن هو ذلك المكان المعروف بزنازينه ونظامه المعهود حيث تنقل إليه عقب الحكم عليك لتنفيذه، وبعد انقضاء المدة تُنقل إلى معسكر الاعتقال، وهو في أماكن نائية، والغرض المعلن عنه هو تأهيلك للحياة المدنية وفق مفهوم الحزب، وفي نهاية المدة عادة ما يصدر حكم في حقك بأنك ما زلت على غيك ومن ثمَّ يعيدونك إلى السجن مرة أخرى، وميزة معسكرات المعتقلات الوحيدة أنك تعيش مع أهلك الذين اعتقلوهم وزجوا بهم هناك بعد أن تم القبض عليك باعتبار أنهم عناصر فاسدة يجب عزلها عن حياة الناس.

قال «توفيق هيسي»: «أذكر أنني رأيت يومًا فيلمًا عربيًا عن ظهور الإسلام، وكان الكفار فيه يدفنون المسلمين في الصحراء القاحلة بحيث لا يبدو منهم إلا رؤوسهم، هل تصدق أنهم كانوا يفعلون ذلك معنا؟ لا تسأل عن التهم، أبسط الأمور تودي بك إلى السجن، مثلًا إذا تذمرت من نقص نوع معين من الخضروات يبلغ عنك أحد جواسيسهم وتتهم بالدعاية ضد الحزب».

«جاهيد» قال لي: دخلتُ السجن وعمري سبعة عشر عامًا وخرجت منه وعمري ثمانية وخمسون عامًا، لقد سُرق عمري وشبابي. يواصل: «لقد بدأت الحملة الرسمية ضد الإسلام عام سبعة وستين بإغلاق المساجد، لكن معاناة الدين في بلادنا بدأت منذ عام واحد وأربعين، أي منذ تأسيس الحزب الشيوعي الألباني، حيث كان يزج برجال الدين في السجون بتهم مخزية كالسرقة وغيره».

«بيرم حسين» مكث في السجن ستة وعشرين عامًا بتهمة التجسس، قال: «بعملية حسابية قضيت أنا وزوجتي وأخي وابني

وابنتي حوالي مئة وخمسة وخمسين عامًا في السجن، وكانت تهمتي هي التخابر مع العدو، حيث تقول الأوراق إنني ضبطت متلبسًا بالتواصل مع غواصة للعدو جاءت لمدّي بالعون، وذلك في مكان لا يزيد عمق النهر فيه على متر ونصف».

غادرتُ الاستاد، وهأنذا الآن في بيت «عثمان كزازية» شيخ المعتقلين بعمره السبعيني وبموقفه الرافض لدعوة أمريكية بقضاء ما تبقى من العمر في بلاد العم سام، صيدلي ولد عام سبعة عشر من القرن الماضي واعتُقل لاثنين وأربعين عامًا، نعم الرقم صحيح! غرفة متواضعة للغاية، وراديو يعود زمنه لعهود اختراعه، يتحدث الرجل بهدوء وألم، يدخل شاب ضخم البنيان، يخرج. يقطع «عثمان» حديثه ويقول للمترجم إنه لم ينجح بعد في تصحيح علاقته المضطربة بهذا الشاب، هو فعلًا لا يدرك كيف ولا بأي طريقة عليه أن يتعامل معه، سألْنَا «عثمان» عن السبب، قال إنه بعد اعتقاله أتوا بأهله إلى السجن، وفيه اغتُصِبت أخته، وولدت لاحقًا هذا الشاب. كان يتحدث كما لو أن الجريمة وقعت بالأمس.

يتذكر من الرجال رفقاء المحنة الشيخ «إبراهيم دالية» الذي لم يشفع له عمره بأعوامه الثمانين في أن يُعذَّب بطريقة وحشية، والشيخ «شريف لانجو» الذي كان مفتيًا عامًا لألبانيا عام أربعة وأربعين، كرر «عثمان» ما قاله السابقون: «لقد كان الشيوعيون عندما يعتقلون أحدنا يأتون بأبنائه وزوجته وإخوانه ويبعدونهم إلى أماكن نائية في معسكرات اعتقال يحرَمون فيها من حق العمل والدراسة، لم يكن الأمر يمتد إلى الابن أو الزوجة أو الأخ بل إلى أطراف العائلة».

انصرفت من بيت «عثمان» محملًا بجرعة ألم كالتي تحملونها

الآن، خطر ببالي لو كان «مانديلا» حاضرًا الحكاية، تخيلت أنه سيتنازل عما لحق به من شهرة وصيت لصالح هؤلاء، الذين كانوا مثله مواطنين بسطاء، غير أن معظمهم لم يعمل حتى بالسياسة، وجلهم قضى في السجن أكثر مما قضى «مانديلا» نفسه، غير أنهم لم يحظوا بفيلم أو رواية تخلد في الذاكرة ما جرى لهم.

الثانية والخمسون

في صحة الإسلام

المدرج هو مكعبات إسمنتية متراصة صبت في مرعى؛ ولذلك تهتز الطائرة اهتزازات شديدة حال الهبوط والإقلاع، مجموعة من الماعز كادت تصطدم بالطائرة التي ما زالت محتفظة بسرعة عالية بعد أن لامست عجلاتها المدرج، إذا اتفقنا أنه مدرج، الراعي كان حريصًا على أن تكون بقراته بعيدة عن مسار الطائرة، ولم تنل الطائرة نفسها منه إلا نظرات عابرة، ونال هو وبقراته كل نظرات الركاب.

كنت أصبو إلى إنهاء إجراءات مطار «تيرانا» في ذلك الوقت من منتصف التسعينيات، والتوجه إلى الفندق والفوز بحمام ساخن والنوم بعد يوم مرهق، تقريبًا كانت المرة الأولى لي التي أصل «تيرانا» فيها بالطائرة بعد أن وصلتها من قبل برًّا، مبنى شيوعي صغير قديم معتم، ضابط الجوازات لا يتكلم إلا الألبانية، أخرجوني أنا وزميلي التونسي من الطابور حتى لا نعطله، وانهمك الضابط في ختم جوازات المواطنين الألبان والزائرين المحترمين بجوازاتهم الأوروبية والأمريكية.

قال صديقي مازحًا وهو نادرًا ما يكون كذلك: «أنتم يا مصريين دايمًا عاملين مشاكل في المطارات، طيب حنعمل إيه

دلوقتي لما يسمحوا لي بالدخول بجواز سفري التونسي ويمنعونك؟»، انصرف كل الركاب برعاية الله وحفظه وبصحبة حقائبهم، وبقيت أنا وزميلي أسرى في أحد الأركان.

خرج السيد الضابط من معقله، ذلك الكشك الصغير، وقد أتى زميله ودخلا في حوار طويل وهما يمسكان بجواز سفر كل منا، بعد نقطة الجوازات هناك صالة صغيرة لا تختلف كثيرًا عن صالة بيتنا، وسير للحقائب، ثم جموع السائقين والحمالين الذين يعرضون مساعدتهم، والذين انصرف معظمهم بعد أن انصرف الركاب، ولم يتبقَ منهم إلا من يأمل بالفوز بآخر عميلين محتملين وحقائبهما المكتظة بمعدات التصوير، ويبدو أن أحدهم سأل الضابطين عن سبب توقيفنا فدخل الجميع في حوار طويل، السائقون والحمالون والضابطان، وراحت جوازات سفرنا تتداولها الأيدي كلها، كل ينظر فيها ثم يعبر عن رأيه فيما يجب أن يجري، أما نحن فنرقب الموقف من المكان الذي طُلب منا ألا نتجاوزه.

انصرف الضابطان ليعود أحدهما بعد قليل وهو يستجمع كل ما لديه من إلمام بحروف عربية أو إنجليزية ليبلغنا السماح لحامل الجواز المصري بالدخول، والتحفظ على الزميل التونسي وإحالة أوراقه إلى مأمور المطار الذي لن يصل قبل العاشرة صباح اليوم التالي لإصدار قراره الأخير.

ودعت شامتًا زميلي الذي سخر من «الباسبور» المصري (بحجمه الكبير حينها) وإمكانياته الفذة، ووعدته أن أجري كل اتصالاتي الممكنة لإطلاق سراحه، لكن في الصباح بالطبع؛ بعد حمامي الدافئ وفنجان القهوة المعتبر.

صديقي حكى لي لاحقًا أنه بعد أن انصرفتُ وأغلقوا المطار وأطفؤوا الأنوار، لم يبقَ في البناية إلا عامل للحراسة، وظل زميلي ساهرًا إلى أن أتى إليه هذا العامل وتبادل معه بعض الكلمات، فلما أدرك أن صديقي مسلم هلل وكبر وتأثر كثيرًا، وانصرف ليعود سريعًا وبيده زجاجة من النبيذ المصنوع محليًا ليفتحها إكرامًا وترحيبًا بالأخ المسلم!

وهو أمر شبيه بما جرى لنا لاحقًا في زيارة رابعة أو خامسة لألبانيا، كنت في بلدة صغيرة لا أذكر اسمها الآن، وكان معي فريق كبير من الزملاء والزميلات من جنسيات عربية مختلفة، بقينا في فندق متواضع، رحَّب بنا عمدة البلدة أيما ترحيب، وبعد يومين من العمل الشاق أصرَّ أن يقيم حفلة مسائية على شرفنا. في الموعد، وفي بهو الفندق نُصبت الطاولة الضخمة ووضع عليها ما لذَّ وطاب من الطعام، وصدحت الموسيقى الألبانية، والتفَّ حولنا الشباب والفتيات وما من لغة مشتركة سوى الابتسامات، إلى أن استهل العمدة العجوز الحفل وبيده المشروب المحلي إياه صائحًا: «في صحة الضيوف، في صحة العرب، في صحة المسلمين، في صحة الإسلام»!

هذا العجوز كان واحدًا من الشعب الألباني الذي حكمه الزعيم الشيوعي «أنور خوجة» منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى مماته عام خمسة وثمانين، واحد وأربعون عامًا من العزلة والقهر والتطرف في الأيديولوجية إلى حد معاداة الرفاق الشيوعيين لأنهم انحرفوا عن الطريق، وإلى مدى جعل فيه «خوجة» «ألبانيا» الدولة الوحيدة في العالم الملحدة رسميًا، قرأت كثيرًا عما فعله هذا الرجل ببلده، عن المساجد التي أُغلقت أو هُدمت أو حُولت إلى حظائر للحيوانات، عن الزج بالأئمة والعلماء في السجون، عن

تجريم الدين ومن يؤمن به ومن يفكر فيه، إلى أن استوقفتني يومًا معلومة غريبة تفيد أن «خوجة» لم يصدر قرارات مباشرة هكذا بإقصاء الإسلام، وإنما عبأ النفوس وجيّشها، لتنفجر مظاهرات عارمة طالب الشعب فيها بإسقاط الدين، مظاهرات اجتاحت المساجد والرموز الإسلامية لتنهي مرحلة الرجعية كما وُصفت.

كان أهل البيت في «شكودرا» يقومون ببعض الإصلاحات في دارهم، عندما اكتشفوا أن كتبًا خُطَّت بالعربية قد خبأها الكبار في السقف قبل أن يتوفاهم الله، بحثوا أكثر فوجدوا كتبًا أكثر. انتشر الخبر، وبدأ ناس كثر يفعلون الأمر نفسه فوجد بعضهم مصاحف وكتبًا دينية بل وبعض المجلات العربية مخبأة؛ ظنًا من الأجداد أن كل عربي مقدس، لقد خبؤوا دينهم في الأسقف والأقبية، وأعلنوا ولاءهم للزعيم الشيوعي الملحد، وظل إيمانهم في قلوبهم يقر بأنه لا إله إلا الله، ولما مات «خوجة»، ولما سقط كل شيء عاد كل شيء، حتى وإن كان مظهره باهتًا إلا أنه راسخ في النفوس؛ لذلك لم أندهش كثيرًا عندما صاح العجوز: «في صحة الإسلام».

لكن لي أن أغضب بسبب ما جرى لهذا الرجل الذي خذلناه، كان محسوبًا على «الولايات المتحدة الأمريكية» باعتبار ثقافته، برز اسمه خلال المظاهرات الطلابية الحاشدة عام تسعين من القرن الماضي والتي أرغمت النظام الشمولي على التنازل والقبول بالتعددية السياسية، فأسس الطبيب «صالح بريشا» أول حزب غير شيوعي، وشارك في أول انتخابات ديمقراطية عام اثنين وتسعين وفاز فيها ليكون أول رئيس لألبانيا الديمقراطية.

الرجل قرر أن يقوم بجولة لزيارة بعض الدول العربية، عاد منها شخصًا مختلفًا تمامًا، لقد استقبله الزعماء العرب استقبالًا

حافلًا باعتباره رئيسًا لدولة أوروبية مسلمة، وترك ذلك أثرًا في نفسه شديدًا، عيب «بريشا» أنه صدق وعود الزعماء العرب السخية بدعم «ألبانيا» سياسيًا واقتصاديًا وعاد ليعلن أنه سيتقدم بطلب انضمام إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، وهو الأمر الذي هاجمته المعارضة الاشتراكية (وريثة الحزب الشيوعي) باعتباره يهدف الى «أسلمة» «ألبانيا» وإبعادها عن «الأوربة»، وانتظر «بريشا» وعود العرب، لعله يشرب نخبها لكنها كالعادة تبخرت. ولاحقًا دفع هو ثمن رغبته في الالتحاق بالعالم الإسلامي غاليًا.

كأن ذلك جرى أمس، أتذكره وأنا أعود إلى «تيرانا» في منتصف شهر أغسطس لعام ألفين وخمسة عشر، مطار أنيق، وإجراءات سهلة، ونظام سلس، ومقاهٍ لطيفة. وضعت حقائبي في الفندق وتوجهت إلى الساحة المركزية، تحديدًا بجوار البلدية ومقابل المكتبة الوطنية، حيث جامع «أدهم» العتيق الذي بني في القرن الثامن عشر، ولم يشأ «أنور خوجة» هدمه وفضل أن يحتفظ به مغلقًا كأثر لزمن الرجعية الدينية.

أول مرة زرته كان أواخر عام ألف وتسعمئة وتسعين، معتمٌ وروائح نفاذة ورطوبة عالية، لكنه مبني بعناية، ومزركش بجمال، كان موعدًا للقاء الشيخ «صبري كوتشا» مفتي ألبانيا وضحية «خوجة» لثلاثة وعشرين عامًا في سجونه، في المسجد مجموعة من الرجال لا يزيد عددها عن خمسة، يستعدون للصلاة إثر إعادة فتح المسجد، والشيخ «صبري» يكاد لا يصدق اللحظة، أما الأهالي ـ الذين أغلبهم مسلمون ـ فكانوا يحتشدون عند النوافذ الخارجية يرقبون ما يجري داخل هذا المبنى العتيق باندهاش شديد، مشهد لم يعتَدُوه في حياتهم.

في زيارتي الأولى كانت نسبة المسلمين تقريبًا تزيد على خمسة وسبعين بالمئة من السكان، وفي زيارتي الأخيرة يقال إن النسبة انخفضت إلى أقل من سبعة وخمسين بالمئة، ألم تبذل المؤسسات التنصيرية جهودًا منظمة تفوق كثيرًا جهود المنظمات الدعوية الإسلامية المبعثرة؟ ألم يقل البابا عندما زار البلاد إن «ألبانيا» دولة أوروبية وليست دولة مسلمة؟!

أحد الخبثاء الطيبين قال لي إن أوروبا لن تسمح لألبانيا باستكمال إجراءات دخولها إلى المجموعة الأوروبية لتصبح عضوًا كاملًا قبل أن تقل نسبة المسلمين فيها عن خمسين بالمئة من عدد السكان، حتى لا تكون هناك دولة في أوروبا الموحدة بأغلبية مسلمة، طمأنته أنه ليس بوسع المجموعة الأوروبية أن تفعل أكثر مما فعله «خوجة».

المسجد اليوم لؤلؤة الساحة المركزية لتيرانا، صوت المؤذن بعربية فصحى يملأ المكان ويصل غرفتي في الطابق الحادي عشر من فندق «تيرانا» المطل على هذه الساحة، الفندق نفسه بل الطابق نفسه الذي نزلت فيه لأول مرة قبل ربع قرن، وكان «خوجة» قد رحل، واكتشف الرفاق حينها أن الإسلام هنا باقٍ لا يرحل.

الثالثة والخمسون

ما نجا من نجا

عثرنا أخيرًا على طفلتين مناسبتين، أخبرتني زميلتي وكأنها تزف لي بشرى سارة، غدًا في الصباح ستكونان جاهزتين، فرك «زهير» يديه، إذن نحن على موعد مع وجبة تصوير معتبرة، اكتفى زميله «أحمد» برسم ابتسامة رضا على شفتيه، هو الذي لا ينتظر أوامر للتصوير، إنه متيم بالمكان، ينزل في أوقات الفراغ ليصور كل ما يمر به.

المدن مثل البشر تمامًا، تتبدل عليها الأزمنة، يعلو شأنها أحيانًا ويخبو أحيانًا، يقصدها الناس مرات، ويهربون منها أخرى، وصديقتنا كانت تعد عروس البحر الأدرياتيكي، بعد أن احتلت مكانها في جنوب غرب «ألبانيا» كثاني أكبر ميناء بعد «دوريس».

عندما كنت أجمع المعلومات عن «فلورا»، قيل لي إنها وُلدت في القرن السادس قبل الميلاد، واشتهرت بالخمر والزيتون والملح، تناوب عليها المستعمرون، حتى رضخت للعثمانيين عام ألف وأربعمئة وسبعة عشر ميلادية، ولاحقًا كانت أول عاصمة لألبانيا المستقلة.

عُرف عنها الشقاوة والتمرد، فقلتُ في حقها إن أيامها ولياليها كانت دومًا مترعة بالعشق وبالثورة، تتفرس في ملامحها فتلحظ

بسهولة وأنت في عام ألفين واثنين أنها تحمل أثر عزٍّ قد زال، لكنها بقيت شامخة.

كنت أقول لزملائي: تخيلوا أن هذا البلد كان يذيق المحتل كل أنواع المرارة ليدفعه لمغادرة أراضيه، وها هو اليوم يدفع بنحو خمسة عشر بالمئة من سكانه ليركبوا البحر في مغامرة تحفها الأخطار من كل جانب حتى يصلوا إلى أبواب من كان عدوهم، يتسولون عملًا وأوراقًا وأختامًا رسمية.

ثمة صراع دائم لدى صانع الفيلم الوثائقي: بين الرغبة في إجادة العمل، وبين التقيد بالميزانية المرصودة، ورغم تلك الميزانية المرصودة فإنني قررت البحث عن أحد المهربين الذين يرتكبون هذه المهمة، نقل الناس من هنا إلى الضفة الأخرى في مراكب مهترئة، وبعيدًا عن عيون الشرطة وحراس الحدود.

نجحنا في التوصل إلى أحدهم، لكنه كما كان متوقعًا طلب مبلغًا كبيرًا لقاء السماح لنا فقط بتصوير لحظة انطلاق المراكب حاملة الفائزين إذا وصلوا، الموتى إذا غرقوا، وبقينا لأجل هذه اللحظة عدة أيام في انتظار إبلاغنا بالموعد، ولأن المدينة صغيرة، فقد شاع خبرنا، وجاءنا تحذير من الشرطة المحلية، وأنذرونا بأننا بذلك نرتكب مخالفة، وهددونا بأن رصاصهم الذي يطلق على المهربين قد يصيبنا.

في الحقيقة لم أكن متأكدًا من ذلك، فالدولة كانت حينها تترنح، وسنوات الحكم الشيوعي الطويلة أفسدت الضمائر والنفوس، والأمر الذي يعرفه كل السكان أن هناك تواطئًا بين مافيا التهريب وبين الشرطة، ورغم ذلك بتنا في تردد شديد بين أن نذهب إلى هناك في الثالثة صباحًا كما أُبلغنا لنسجل اللحظة، أو أن نبقى

بمأمن في فنادقنا، وانتابتنا مشاعر مختلطة بين الارتياح والحزن حين أبلغنا الوسيط أن المهرب سحب موافقته.

«كانت حياتي عادية إلى أن تغير كل شيء، فقد اندلعت حرب أهلية ببلادنا، فقررت أن أهاجر من أجل ابني، ولم أكن أعلم أنني سأتركه في قاع البحر وعلى عمق ثمانمئة متر»، كانت كلمات الرجل تؤذيني وأنا أسمعها فما بالكم بحاله وهو صاحبها؟

جلسنا فريق «يحكى أن» نستمع للرجل وهو يحكي كيف فقد زوجته وابنه في أثناء محاولاتهم الهروب عبر البحر إلى «إيطاليا»، ضمن مئة وثلاثين من الألبان الذين غرقوا فجر الثامن والعشرين من الشهر الثالث لعام سبعة وتسعين، «بعد أن غادرنا جزيرة «سازان» شاهدنا السفينة الحربية الإيطالية ٥٧٧، وقد أجبرتنا على التوقف في عرض البحر ما بين ساعتين إلى ثلاث ساعات، حتى تمنعنا من التوجه إلى «إيطاليا»، ثم ظهرت سفينة أخرى أكبر منها، وكان اسمها «كورفيتا سيبيلا»، وقع ذلك في منتصف الليل، وبدت تلك السفينة أكثر إصرارًا على منعنا من التوجه إلى إيطاليا، فلجأنا إلى حيلة، حملنا أطفالنا حتى يشاهدوهم لعلهم يطمئنون ويمتنعون عن إيقاع الأذى بنا».

يواصل الرجل فيقول: «فوجئنا بالسفينة الإيطالية تعمد إلى الاصطدام بنا ثم تواصل سيرها، وفي لحظات أدركت أنني في عرض البحر أغرق، أما «سيبيلا» فقد ذهبت بعيدًا بعد أن ضربتنا مرتين، حاولت الوصول إليها، لكن الرياح كانت تدفعني بعيدًا، وعندما بلغتها كنت في إعياء شديد، ولم أتأكد من أنني ما زلت حيًا إلا عندما شربت بعض الماء الدافئ، صعدنا على السطح،

وخلعوا عنا ملابسنا وأعطونا بطاطين، وهم يصرخون فينا إلى أن وصل إلينا حرس السواحل، ثم نزعوا عنا البطانيات، وتركونا عراة وسط وعيدهم».

أربعة وثلاثون شخصًا هم من نجوا، من مئة وثلاثين فردًا كانت تحملهم السفينة، أعادوهم إلى الشاطئ بعد أن تركوا ذويهم في قاع البحر على عمق ثمانمئة متر، الآن فهمت مقولة الشاب الذي قال لي: «إن طموحي الوحيد هو أن تقودني حياتي لأن أصبح إنسانًا عاديًا».

عند الموعد وصلت الفتاتان الصغيرتان، كانتا ترتعشان، بذلنا كل جهد لإدخال الطمأنينة إلى نفوسهما دون جدوى، كانتا تتهيبان الموقف كثيرًا، الكاميرات ومعدات الصوت والإضاءة وفريق مكون من ثمانية أشخاص، خمسة منهم من الأجانب.

قرر زميلنا «رشيد» المخرج أن نؤجل التصوير بضع ساعات، واصطحبتهما «زينة» لشراء بعض الحلوى، ثم اجتمعنا عند الشاطئ دون معدات التصوير، قضينا بعض الوقت نمازحهما ونلعب معهما، حتى هدأت نفساهما كثيرًا وبدآ حديثًا كله ألم عن: «الوالد الذي هاجرنا إلى «إيطاليا» ليؤمن لنا حياة كريمة»، «الحذاء الجديد والمعطف الذي وعدني والدي أن يشتريه لي حتى أكون مثل الأخريات»، مثلًا: «عندما تبدأ السنة الدراسية لن يكون لدينا المال اللازم لشراء الكتب والأحذية والحقائب، رغم أننا مجتهدتان في الدراسة، فأنا جيدة في علم الأحياء والجغرافيا، بينما أختي مجتهدة في الرياضيات».

علينا معشر الصحفيين أن نكون شاكرين لله كثيرًا، نحن نسمع شكاوى الناس ونسجلها ونتعامل معها مادة مهنية للعرض، ويصيبنا

بعض الرزق بسببها، وننسى أنه كان من الممكن أن نكون محل هؤلاء، نشتكي الجرح، ونبكي عزيزًا، ولا نطيق الحياة.

شواطئ «فلورا» جميلة، ها هو البحر إذن الذي بات مقبرة للكثير من الهاربين من الوطن، ولكن ماذا عن الذين نجوا؟ إنهم بدأوا حياتهم هناك في الغربة، أكلوا كثيرًا وشربوا، اشتروا المعطف والحذاء، وبنوا البيت، لكنهم عاشوا حياتهم كلها غرباء وإن أحسنوا لغة المهجر، ثم عادوا، فاكتشفوا أنهم ما عادوا؛ ولذا كان يحق لي أنني قلت:

هأنذا عدت..

ولكن ما عاد الذي راح..

لحية الجد..

دفاتر المدرسة..

ورسائل بنت الجيران..

وجه أمي الصبوح..

وصوت أبي عند الفجر..

يقرأ سورة الإخلاص..

وليلة يلتقي فيها الأصدقاء..

أحلم لو أنها عادت..

وأني أحكي لهم قصتي..

وأني أبكي وأبكي..

ثم أقول لهم:

يا أحبتي هذه حكمتي..

قبر في الوطن..

ولا قصر في الغربة..

الرابعة والخمسون

شهادتي أمام محكمة العدل الدولية

الوقت بعد الظهر، والمكان غرفة بفندق «هيلتون الخرطوم»، جرس الهاتف يرن، صوتها يأتي من بعيد، حيتني بلباقة عالية، ثم باغتتني: «أنا من محكمة العدل الدولية، وأنت مطلوب للشهادة»، أصابني القلق ـ وأنا القادم لتغطية الحرب في الجنوب ـ من استدعاء نيابة العالم لي، قلت لها مازحًا: «تفضلي أنتِ إلى هنا لأدلي بشهادتي أمامك»، ردت ضاحكة: «وماذا سيفعل بي رجال «حسن الترابي»؟»، كان الزمن يشير إلى الشهر الأول من عام سبعة وتسعين، وكان التاريخ يفيد بعلو شأن الرجل، وارتفاع ضجيج الإعلام الدولي عن خطر الإسلاميين.

اطمأننت لحسن كلامها، وذكّرت نفسي بسجون محكمة العدل الدولية التي مكثتْ فيها لاحقًا «بيليانا بلافسيتش»، رئيسة جمهورية «صرب البوسنة»: غرفة دافئة، وأدوات لممارسة الرياضة، وحمام فاخر، وجاكوزي، وتلفاز، وقنوات فضائية.

عقب المكالمة هاتفت عائلتي التي كانت مقيمة حينذاك في «لندن»، ثم اتصلت بالقناة التي أعمل فيها، الطرفان أكدا لي أن أحدًا لم يتصل بهما بشأني، فكيف توصلوا إلى عنواني في فندق بالخرطوم وأنا في يومي الثالث فيها؟ أمر لم أعرفه حتى الآن.

«بعد دقائق وصلنا إلى المكان وهو في الأصل ثكنة عسكرية وقعت في أيدي المسلمين، فُتحت البوابة الضخمة ومررنا، وتجول بنا سريعًا قائد المعسكر قبل أن ندلف إلى أحد العنابر لنشاهد صورة حيَّة ووجهًا آخر من المأساة تفرزه هذه الحرب اللعينة»، هذا ما كتبته في الرابع والعشرين من شهر يوليو لعام اثنين وتسعين بجريدة «الشرق الأوسط» واصفًا المعسكر الذي يضم حوالي أربعمئة معتقل صربي في منطقة «كونيتس» البعيدة حوالي خمسين كيلومترًا عن العاصمة المحاصرة حينها «سراييفو».

في مطار «هيثرو» بلندن، التقيت السيدة القادمة من «لاهاي» ممثلة للنيابة، وفي غرفة رسمية بالبناية جرى اجتماعنا، شرحت لي الأمر، تعجبت لتصاريف القدر، أمضي سنوات الحرب في «البوسنة والهرسك»، فإذا ما انقضت أستدعى للشهادة على قائد مسلم مدان.

استقبلنا الرجل بالأحضان الدافئة، بادرته بالسؤال: «ما الذي يدفع ثريًا مثلك عاش حياته في أوروبا وكوَّن ثروات طائلة أن يترك ذلك كله ويأتي إلى خطوط القتال متطوعًا بنفسه وماله؟»، سجلت ردَّه في مقالتي: «نحن لم نبدأ هذه الحرب وإنما فُرضت علينا، وليس لنا بديل سوى الفناء، العدو الصربي يأخذ «إسرائيل» مثله الأعلى، وإمكانية الحوار معه مفقودة تمامًا».

ستمر الأيام طويلًا حتى يتعين عليّ أن أدلي بشهادتي على الزيارة التي قمت بها لمعسكر الاعتقال «تشاليبيتش» الذي كان تحت إمرة هذا القائد المسلم «زين الدين دلاليتش»، والذي اتهمه الأسرى الصرب بأنه قتل بعضهم. قبل المحاكمة سألتني السيدة: «هل ستذكر كل شيء؟»، فهمتُ المعنى، قلت: «سأذكر كل ما زلت

أذكره»، شكرتني فاندهشت، وماذا يفعل الصحفي سوى الشهادة؟

رهبة أصابتني حين دخلت إلى قاعة المحكمة، حارسان وقفا على يساري ويميني حتى أقعداني، هو المشهد نفسه الذي رأيته من قبل مرارًا على شاشات التلفزيون: القضاة، والمحامون، والمدعي العام، إلى آخر هذه الجحافل المشاركة، فضلًا عن ثلاثة مترجمين، إلى الإنجليزية والفرنسية والصربوكرواتية.

ست ساعات كاملة قضيتها في هذا الجو المخيف، تناولتْ أسئلتهم كل صغيرة وكبيرة في رحلتي إلى هذا المعسكر، مقالاتي الست المنشورة في «الشرق الأوسط» أراها أمامهم مترجمة إلى لغاتهم الأم، بدأت حدَّة الكلام تزداد نحوي، كنت محافظًا على هدوئي، أتحدث ببطء على أمل ألا يخطئ أحد المترجمين.

سُئلت: «ذكرت في مقالك أن كل وسائل التغذية والرعاية الصحية كانت متوافرة، كيف تثبت صحة ذلك؟»، أجبتهم: «عودوا إلى النص، لقد قلت إن هذا ما شاهدته، ما كان يحدث في الحقيقة لا أستطيع أن أجزم به، قلت كل الحقيقة التي أعرفها».
«معهد الحرب والسلام» ذكر لاحقًا في تقرير له أن شهادة الصحفي المصري أربكت المحكمة.

واصل المحامي الصربي في مرافعته الصارخة التشكيك فيَّ وفي شهادتي، مستدلًا بلفظ جاء في مقالاتي عن «المجاهدين البوسنيين»، كانت المرة الوحيدة التي ثرتُ فيها، قلت لهم إن المجاهدين في فهمي هم الذين يدافعون عن حياة وشرف نسائهم وأطفالهم، بعد أن امتنع العالم عن ذلك وتركهم فريسة للقتل والاغتصاب.

أوقفني القاضي عن الحديث في هذه النقطة، واصلت سرد

الحكاية، حكيت لهم عن «أسعد» الذي التقيته في المعسكر، قاطعني الصربي صارخًا: «هذا دليل على أن المتهم الآخر الذي نقصده ـ واسمه «أسعد» أيضًا ـ كان هناك»، تدخلت المدعية العامة، سألتني: «هل تقصد «أسعد لانجو»؟».

كان الحديث قد وصل إلى أقصاه حدَّة، وأنا أجهدت بما فيه الكفاية، والقاعة محتدة جدًّا ومتجهمة، وعلى رغم أن الرجل حصل في فبراير عام ألفين وواحد على البراءة من التهم الصربية له، إلا أنني ما زلت أذكر كيف انفجرت القاعة فجأة في ضحك هستيري، وراح هذا الوقار فيما القاضي يصيح في الجميع مطالبًا الصمت.

وذلك لأنني قلت للنيابة: «تسألونني عما إذا كان من التقيته هناك هو المتهم الآخر «أسعد لانجو»، في الحقيقة لا أذكر اسم عائلته، ولا أستطيع أن أنفي أو أؤكد، وأود أن أضيف أنه كان هناك شخصان اسم كل منهما «أسعد»، أي أصبحنا في هذا المعسكر ثلاثة اسم كل منا «أسعد»، وأذكر جيدًا أنهم قالوا لي حينها، إن من عادتنا في «البوسنة» إذا اجتمع ثلاثة أشخاص بالاسم نفسه أن نوزع الحلوى».

«إذن» ـ أكملت بنبرة صوت عالية ـ «كان هناك شخصان اسمهما «أسعد» وأنا ثالثهما»، ثم توقفت فجأة وقلت بصوت جاد وحاد: «وأنا أريد سيادة القاضي أن أثبت أمامك اليوم أنني لم أنل نصيبي يومها من تلك الحلوى».

الخامسة والخمسون

أَويلعب الأمير البلياردو؟

كان الإثنان منهمكين في الحديث عن شؤون الصفقة المطروحة، مستثمر عربي زائر وفتاة شقراء من أهل البلاد، احتدم الحديث في المقهى العام، حولهما الموسيقى والقهوة والابتسامات التي تمنح الوجوه نضارتها، فجأة أطفأت الفتاة سيجارتها، واستأذنت أن تغيب لبرهة، أذان المغرب أتى كعادته عربيًا في هذا الوطن الأوروبي، لكن صاحبنا لم يكن يتخيل أن الفتاة إنما استأذنت لتهرول نحو «بيغوفا»، راقبها وهي تلملم شعرها الطويل، وتخرج من حقيبتها شالًا لتضعه على رأسها استعدادًا للصلاة في هذا المسجد العتيق.

في المرة الأولى التي زرتها قيل لي إن هنا في العاصمة وحولها زهاء ثمانين مسجدًا، اكتفى «تيتو» بإغلاق غالبيتها، ولم يفعل مثل الجارات الشيوعية الأخرى اللاتي حولْنَها إلى إصطبلات وحظائر للحيوانات، كنت مبهورًا بطرازها المعماري، مندهشًا بوجودها هنا كرمز أصيل، وليس وافدًا كالمراكز الإسلامية في أوروبا، لكنها كلها كانت خاوية على عروشها.

في رمضان عام أربعة وتسعين من القرن الماضي كانت «سراييفو» ما زالت محاصرة، محرومة من الماء والكهرباء والتدفئة،

لكنها باتت تصلي، مساجدها كلها مفتوحة، بل هي تشهد لأول مرة في حياتها غرفًا تُعَدُّ للصلاة في البنايات الحكومية، والغريب أن لا مكان لموضع قدم في صلوات التراويح، في البرد الشديد والظلام ونور الإيمان.

كان الأب يمسك بيد طفله الصغير بقوة، يلتفت يمنة ويسرة ثم يعبر الشارع بحرص شديد، البرد قارس، والهلع بادٍ على وجهه، رصاصات القناصة الصرب لا ترحم، تنفس الصعداء عندما وصل إلى المسجد في الموعد الأسبوعي وانتظر حتى اطمأن لدخول ابنه الكتّاب، سمع صوت الأطفال يأتيه من الداخل، قليل من العربية وكثير من البهاء، توجه هو على الفور إلى حانة صغيرة ليحتسي مشروبًا روحيًا محليًا، ريثما ينتهي ابنه من درس القرآن، ولما سُئل رد بإجابة خاطئة: «لا أمل فينا، ولكن الأمل في أبنائنا أن يكونوا مسلمين صالحين».

مكثت طويلًا حتى فهمت هؤلاء، المظهر لا يعكس ما في القلب، يمر عليهم الغزاة والطغاة والإسلام راسخ في النفوس، متملك للقلوب، البعض يمارسه عبادات يومية، والبعض يدرسه ثقافة وفكرًا، والبعض يعرف منه الفاتحة ورمضان و«البيرم»، والكل يعتقد أنه مكون أساسي في شخصيته.

بعد الاحتلال النمساوي المجري للبلاد عام ثمانية وسبعين من القرن التاسع عشر، خرجت «البوسنة» من دولة الخلافة، لكنها لم تخرج من الإسلام بل تجذر فيها، وإن حمل خصوصية دعت البعض لأن يسميه الإسلام البوسنيّ، وهي تسمية تُغضِب العلماء الذين يرون أن الإسلام واحد، لكن في الحقيقة المسلمون مختلفون.

في زمن «يوغسلافيا» كانوا يوصفون بأنهم أكثر شعوبها تسامحًا، ربما لأن أكبر نسبة زواج مختلط في جمهوريات «يوغسلافيا» الفيدرالية كانت هنا في «البوسنة والهرسك»، تلك التي خرج منها «علي عزت بيغوفيتش» رئيسًا وزعيمًا ومتهمًا بالأصولية الإسلامية ومعاقبًا بالسجن، وهو الذي عبر في كتابه الشهير «الإسلام بين الشرق والغرب» عن احترامه الشديد للمسيحية باعتبارها «شبه اتحاد بين السمو الديني والسمو الأخلاقي»، وعبر عن تقديره للفلسفة والثقافة الأنغلوساكسونية وللتقاليد الاجتماعية الديمقراطية في الغرب.

هي «البوسنة» إذن بخصوصية فريدة، بساطة في تدين متجذر في النفوس، وتسامح مع الآخر حتى بعد تجربة الحرب المريرة، يقول الدكتور «أنس كاريتش»، عميد كلية الدراسات الإسلامية في «سرايیفو»، في كتابه «دراسات في تاريخ الفكر الإسلامي في البوسنة والهرسك»: إنّ التفكير في الإسلام أو الفكر الإسلامي لم يعد ينحصر في العلماء الذين كانوا يحتكرون فهم الإسلام وتفسيره بل أصبح لدينا الآن نتيجة للتغيرات السياسية والثقافية كُتَّابٌ ومثقفون، مؤرخون وباحثون، ينخرطون ويؤلفون عن الإسلام ويفسرونه بالاعتماد على مصادر تكوينهم العلمي والثقافي.

جلست أرتعد في البرد الشديد خارج المسجد المزدحم، خطيب الجمعة يعظ الناس عن أخلاق المسلمين حتى في زمن الحرب، لكنني للأسف سرحت منه إلى زمن آخر، وصل فيه الإسلام إلى البلاد حتى قبل فتحها عام ثلاثة وستين من القرن الخامس عشر، سرحت في «عهد نامه» الذي يتعهد فيه الفاتحون بالحفاظ على مقدسات المسيحيين وحرية تأدية الشعائر الدينية، سرحت في المدارس الإسلامية والتكايا والمكتبات، في هذه الكوكبة من العلماء المسلمين الذين شهدتهم البلاد.

أنهى الإمام خطبته لكنه بدأ في قراءة بيان موجه من المشيخة الإسلامية إلى جمهور المسلمين: «ما يفعله أشقاؤنا القادمون من العالم الإسلامي نثمنه ونقدره، لكننا مسلمون أحناف لا نغير مذهبنا»، كان البيان ردًّا على بعض الجهود الشيعية، ودليلًا ليس فقط على التمسك بالإسلام ولكن حتى بالمذهب.

يومًا قررت والحرب في أوجها أن أزور معسكرًا للمجاهدين البوسنيين، كان قريبًا من معسكر آخر للمجاهدين العرب، لكنه منفصل عنه تمامًا، كانوا بمثابة قوات إسلامية خاصة ضمن الجيش البوسنيّ الذي كان في طور التكوين. اقتربت سيارتنا من المعسكر، نساء يقفن عند البوابة يودعن أقاربهن ورفاقهن، أما في الداخل فإن الشباب يجلسون في مجموعات صغيرة، بعض المجاهدين يتسلى بلعب الكوتشينة، والبعض الآخر يستمع للموسيقى ويدندن معها، الحقائب والأسلحة الخفيفة هنا وهناك.

أُذن للصلاة، فيتركون ما بأيديهم، يتجمعون في الساحة الكبيرة، يتيممون، يلفون على رؤوسهم عصبة مكتوبًا عليها لا إله إلا الله، أقرؤها وكأنني أقرؤها للمرة الأولى في حياتي، أردد نعم لا إله إلا الله، يقيمون الصلاة، يختمونها، يتمازحون، يتصافحون بحرارة، ينطلقون في مجموعات إلى الجبهة، يستعدون لأن يحمل بعضهم صفة شهيد.

نسيت أن أحكي لكم، عندما وصلت عند مدخل المعسكر سألت عن قائده، غاب الجندي المكلف بالحراسة عند البوابة ثم عاد ليخبرني أن أمير الكتيبة يستأذنك أن تنتظره لبعض الوقت، فهو في راحته، يلعب البلياردو!

السادسة والخمسون

إلى القطب الشمالي إذن..!

على غير عادتي فتحت كل ستائر الغرفة وقفزت إلى السرير لأنام، وتركت ضوء الشمس الساطع يملأ غرفتي، وكلما استيقظت جلست لأملأ عينيَّ بهذا المشهد الأبيض الجميل، الواحدة صباحًا، الثالثة صباحًا، قبل ذلك، بعد ذلك، هو هو، المشهد نفسه، وكما رأيت في حياتي من قبل «النجوم في عز الضهر» أصبح بوسعي الآن أن أرى «الشمس في عز الليل».

هذا مكان عجيب، غير أن البعض حذرني منه، قال لي صديقي ضاحكًا قبل أن أتوجه إلى الطائرة: «ربما تختفي فيه كما اختفى الفايكنج حوالي عام ألف وأربعمئة»، هؤلاء الذين وصفهم الباحثون وعلماء الأنثروبولوجيا بأنهم قوم شديدو القسوة والعنف، وقد سيطروا على «جرين لاند» لما يقرب من أربعمئة وخمسين عامًا، وبعض التفسيرات لاختفائهم تتبنى فكرة التغيير المناخي وصعوبة الطقس، حيث انخفضت درجات الحرارة بشدة منذ القرن الرابع عشر، وأصبح أكثر من ثمانين بالمئة من أراضيها مغطاة بالجليد، وهي التي تعد ثاني أكبر جزيرة في العالم بعد «أستراليا»، وذلك بعد أن كانت «جرين لاند» خضراء ذات مراعٍ كبيرة وأشجار ضخمة، وهو سبب تسميتها بهذا الاسم.

لكنَّ هناك تفسيرًا آخر لاختفاء الفايكنج يقول إن الإسكيمو وصلوا الجزيرة واستوطنوا شمالها الغربي، فلما انخفضت درجات الحرارة فيما يعرف باسم العصر الجليدي الصغير، هاجر الإسكيمو إلى الجنوب الذي يسيطر عليه الفايكنج، فنشب صراع بين الشعبين كانت الغلبة فيه للإسكيمو، وبالمناسبة هم لا يفضلون لفظ «الإسكيمو» ولكن لفظ «الإنويت» والذي يعني الناس.

في نهايات القرن السادس عشر بدأ الرحالة والمستكشفون الأوروبيون يصلون إلى الجزيرة وتبعتهم البعثات التبشيرية وانتشرت المسيحية، ثم بدأ التمركز الأوروبي في الجزيرة بسبب المكاسب الضخمة التي حققتها تجارة صيد الحيتان المنتشرة هنا، وكالعادة شهدت «جرين لاند» صراعًا أوروبيًا انتهى بضم «الدنمارك» لها عام ألف وتسعمئة وثلاثة وخمسين، ثم لاحقًا، وبعد أكثر من عشرين عامًا، منحتها «الدنمارك» حق الحكم الذاتي.

لكن ما شأني أنا وذلك كله؟ في الحقيقة هو شأن المناخ والاحتباس الحراري والتغيرات المناخية التي كانت محل اهتمام حلقتين من برنامج «نقطة ساخنة» بعنوان «في انتظار القيامة»، وفي إطارهما كان عليّ الوصول إلى القطب الشمالي، أو على الأقل إلى دائرته الشمالية لرصد ذوبان الجليد وانهيار جبال الثلج.

بذلت جهدًا غير عادي لاستيعاب الأمر، كانت تجربة جديدة بالنسبة إليّ بعيدًا عن السياسة والحروب، إنه موضوع علمي شائك، غرقت في تفاصيله، واستعنت بأصدقاء وعلماء، وفهمت أخيرًا معنى «الاحتباس الحراري».

يقال ـ والعهدة على الراوي ـ إن الشمس ترسل أشعتها إلى الأرض على شكل موجات ضوئية، ثم ترتد مجددًا إلى الفضاء،

لكن لو ارتدت كلها لأصبحت درجة حرارة الأرض ثماني عشرة درجة مئوية تحت الصفر، مما تستحيل معه الحياة، لكن ما يحدث في الحقيقة هو أن بعض هذه الإشعاعات يحتجز ولا يرتد، فتصبح درجة حرارة الأرض حوالي خمس عشرة درجة مئوية، وهو ما يلائم الحياة. الذي يقوم بهذه المهمة هي «الغازات الدَفيئة» المكونة من ثاني أكسيد الكربون والميثان وأكسيد النيتروز، والمشكلة الآن أن هذه الغازات الدفيئة أصبحت أكثر سمكًا، فباتت تحبس كمية أكبر من الإشعاعات وتمنعها عن الارتداد إلى الفضاء، ما يؤدي لارتفاع درجة حرارة الأرض عما هو معتاد؛ فيسبب ذلك تباعًا خللًا في كوكبنا كله.

في رحلتي للقاء العلماء وزيارة مراكز الأبحاث قررت أن أبدأ من «لندن» التي قرأت أنها مهددة بالغرق عام ألفين ومئة، ومنها إلى «باريس» حيث المقر الرئيسي لوكالة الفضاء الأوروبية، ثم إلى «إيطاليا» حيث البيتزا والإسبرسو جديران بالاحترام وبالطبع العلماء، وهناك حدثوني عن أكبر قمر صناعي: طوله ستة وعشرون مترًا، يدور على ارتفاع ثمانمئة كيلومتر عن الأرض، ليغطي القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي بمعدل أربع عشرة مرة في اليوم، وهو يرصد الأرض بأجهزة مختلفة.

قال لي أحد الباحثين هناك إن مقياس الحرارة المثبت على القمر الصناعي التابع لوَكالة الفضاء الأوروبية، والذي تولى قياس درجات الحرارة على مدى الخمسة عشر عامًا الماضية سجل ارتفاعًا مطَّردًا في درجة حرارة الأرض، وإن أول وأكثر مناطق الأرض تأثرًا بهذه الكارثة التي ستحل على الإنسان هي المنطقة صفر، أي القطب الشمالي، باعتبار أنه يمثل أكبر مستوعب للمياه العذبة على أرضنا، وإن ذوبان الجليد يعني فقدان هذا الغطاء

الأبيض الواسع، ومن ثمَّ فإن أشعة الشمس لن تنعكس إلى الفضاء مرة أخرى، ولكن ستبقى في الأرض ليزيد ذلك من ارتفاع درجة الحرارة. لذلك كان عليّ التوجه إلى دائرة القطب الشمالي، إلى «جرين لاند».

كان ذلك تقريبًا منتصف عام ألفين وتسعة حين وصلت العاصمة الدنماركية «كوبنهاجن» وأنا قلق، فحينها كانت أصداء الرسوم المسيئة لرسولي ما زالت حيَّة، وقبل أن نسيء نحن لاحقًا إليه بأفعالنا، ﷺ. استقبلتني ضابطة الجوازات بابتسامة واسعة، كان الوقت مساء، ورحلتنا التالية إلى «جرين لاند» صباحًا، وعليّ أن أفوز بقسط كافٍ من الراحة.

طائرة ضخمة يؤمها سياح كثر أفسدوا عليّ الشعور بالمغامرة؛ ما دام الأمر هكذا سهلًا هينًا إلى حد أنهم يصطحبون أطفالهم إلى حيث هذا الصقيع الذي يصيبني بالقشعريرة لمجرد تذكره، أحب البرد والجليد ليوم أو يومين أو ثلاثة وليس أكثر، ذاكرتي غير ممتنة له، في أحد جبال «البوسنة» قضيت بصحبته أسوأ الليالي، مرة كان زميلي وصديقي «نجيب قويعة» شريكي في إحدى الرحلات، آلى على نفسه أن يهزني ليوقظني كل ساعة، كان يقول لي إذا لم تحرك قدميك لتجمدتا، والتجمد بالمعنى الحرفي للكلمة الذي يضطر المرء على إثره إلى عملية جراحية لبتر القدم المجمدة، وأضحك وأنا أتذكر ربما المرة الأولى لي في «موسكو» ودرجات الحرارة كانت اثنتين وثلاثين تحت الصفر، خرجت من الفندق ولم أسر سوى أمتار قليلة إلا وقررت العودة والبقاء في الفندق مهما كانت تبعات ذلك.

ذاكرة طويلة ربما أنجح في استعادة بعضها خلال ساعات

الطيران السبع التي أوصلتني إلى «كانغرلو سواك»، التي هي ليست سوى مطار صغير بناه الأمريكيون باعتبار أن المنطقة كانت قاعدة لهم، ثم بعض البيوت المتناثرة لصيادين، عدة ساعات أخرى في الانتظار لأستقل طائرة أخرى إلى «إيلوليسات»، بلدة يسكنها أربعة آلاف وخمسمئة من السكان، ويعني اسمها جبل الجليد. أمام فندقي ترقد كلاب الهاسكي عاطلة عن العمل، فذوبان الجليد خصوصًا في الصيف، لا يدعها تؤدي عملها المعتاد في جر المركبات.

من المطار إذن إلى غرفتي، إلى سريري الذي حدثتكم عنه، والشمس ساطعة على مدار اليوم، بل على مدار فصل الصيف بأكمله، فالشتاء هنا يبدأ من أول ديسمبر ويستمر حوالي شهرين، حينها تغيب الشمس، وينتصر الليل لكنه انتصار ليس كاملًا، فليست تلك الظلمة الحالكة، وإنما تكون السماء مضيئة بمثل ما تكون عليه وقت غروب الشمس.

تمرنتُ قليلًا على الارتجاف في الفندق إلى أن خرجت في أولى جولاتي في اليوم التالي، فعلًا «الصيت ولا الغنى»، فقد كنت أتوقع طقسًا أسوأ من ذلك كثيرًا، بالطبع إنه بارد لكنه محتمل.

هنا صمت مطبق ورهبة مخيفة وجمال مبهر، فزت براحة نفسية، وبهدوء أعصاب، فأنا في صحراء، رمالها جليد، وجبالها جليد، مشهدها مدهش، لكنه مخيف أحيانًا، خصوصًا عندما تكون بينها تستحضر مشاهد انهيارها من الأرشيف نتيجة ارتفاع درجات الحرارة. المستشارة الألمانية «ميركل» قالت عندما زارت هذه المدينة إنها لم تعد منطقة سياحية جذابة، بل تحولت إلى المنطقة صفر التي تهدد الحياة الإنسانية بأكملها على كوكب الأرض.

عزمت على القيام بجولة بالسفينة، وقفت على شاطئ المحيط الأطلنطي، رأيت عن بعد سطح البحر وهو جليد، سألت زميلي «مجدي» كيف سنبحر وسط الجليد؟ أجابني ضاحكًا لا علم لي، لكن قبطان السفينة يفعل، وهو من خرجت معه من قبل كل الوفود الإعلامية من شبكات التلفزيون الشهيرة.

دقائق قليلة في المحيط، ثم أنت بين جليد على سطح البحر، وبين جبال، نعم جبال من الجليد، والسفينة تسير بينها، تشق الطريق بين الجليد وتمضي، وعندما أوقف القبطان المهيب المحرك، بدأت أسمع أصواتًا غريبة، وكأنها تأتي من قلب البحر، فعلًا خفت، تشعر أن هناك كائنات حيَّة تتفاوض بشأن أمر ما، المهم ألا يكون أمرنا.

بعد أن أنهيت عملي في هذه البلدة أو المدينة توجهت إلى «نوك»، وهي عاصمة «جرين لاند» وأكبر مدنها، يبلغ عدد سكانها خمسة عشر ألف نسمة، وهي بذلك تعد من أصغر عواصم العالم، ومنها توجهت إلى جزيرة تبعد عنها أربعة كيلومترات، لا يسكنها أحد، لكن تقيم بها الآن فتاتان، نعم فتاتان نذرتا نفسيهما للعلم، فتجريان تجارب لقياس تغيرات البيئة.

«كيف تقضيان يومكما؟»، سألتهما، «في العمل طبعًا»، أجابتا. «وفي الليل؟»، «ننام!»، «كيف تنامان في هذه الخيمة على هذه الجزيرة غير المسكونة سوى من الثعلب القطبي والأرانب الوحشية؟»، قالتا: «من الصعب أن نراها لأنها تخاف الناس»، أضافتا: «نحن مجموعة باحثين من ستة أشخاص نتناوب على هذه الجزيرة على مدار العام، نعد أبحاثًا خاصة بعلوم الأحياء والمياه والمناخ والنبات، بغرض دراسة آثار التغيرات المناخية الجارية، للمساهمة في حماية كوكب الأرض».

أنهيت رحلتي إلى هذه المنطقة التي أتمنى أن أعود إليها مرة أخرى على رغم تكاليفها الباهظة، وهي التكاليف التي جعلتني أختصر فريق العمل إلى شخصين، أنا وزميلي «مجدي» لنتناوب على الأعمال كلها. في المطار التقينا فريق عمل من إحدى القنوات الأوروبية الشهيرة، قالوا إنهم تسعة أشخاص، وإن قناتهم أرسلت ست فرق على الشاكلة نفسها لينتشروا في أنحاء المنطقة ويبقوا على مدار ستة أشهر مصوبين كاميراتهم نحو جبال الجليد لتعمل على مدار الساعة أملًا في اصطياد لحظة انهيار هذا الجبل من الجليد أو ذاك.

من نافذة الطائرة ودعت الجليد بلونه الأبيض الجميل، متمنيًا أن أعود إليه مرة أخرى، راجيًا أن يبقى متماسكًا حتى لا يصيب أرضنا الضرر.

السابعة والخمسون

درس الأستاذ «فيليب»

لن يملك أحدكم إلا أن يضحك إذا ما شاهد هذا الرجل في هذا الموقف، وجهه يتصبب عرقًا بغزارة شديدة في يوم من أيام شتاء «الإسكندرية»، كلتا يديه تمسكان بمقود سيارته «رينو» البيضاء وبقبضة حديدية وكأنه يمنعها من الفرار، يجلس منحنيًا قليلًا إلى الأمام، مقطب الحاجبين، يتطلع بصعوبة إلى الطريق الذي يبدو معتمًا من خلال الزجاج الذي غطته مياه الأمطار، وقد امتنعت المسّاحتان الأماميتان عن العمل، وهو لا يملك إلا أن يردد «منك لله يا «سعيد». . منك لله يا «سعيد»». أما الرجل فهو أنا، وأما «سعيد» فقد قال لي: «شوف يا مستر، معك الآن سيارتك وقد حصلت للتو على رخصتك وأنا لدي التزامات ومضطر لأن أتركك الآن لتقود سيارتك بنفسك، وإن احتجت لشيء أبلغني». وكأن «سعيدًا» لا يعلم كيف حصلت للتو أمامه على رخصة قيادتي.

في الاختبار النظري كان الممتحن يوجه لي السؤال على هذه الشاكلة: «العلامة دي معناها إيه؟»، وقبل أن أهمّ بالإجابة كان يقول: «تمام. . طيب ودي؟»، وهكذا حتى أنهيت الشطر النظري من اختبار قيادة السيارات بنجاح باهر لأتجه إلى الشطر العملي، ركبتُ السيارة وقدت أمام جماهير الممتحنين في منحنى ذهابًا

وإيابًا، وأعلم أن نجاحي مرتبط بألا أصطدم بأي علامات بلاستيكية وضعت على حدود هذا المنحنى، والذي حدث أنني أطحت بها كلها، في الحقيقة إلا واحدة، غير أنني حصلت على رخصة القيادة لأسباب معروفة بالطبع.

والغريب أن قيادة السيارات استهوتني تمامًا، وأنا الذي كنت أعتقد أنها مسألة مستحيلة، آخر ما تصورت أن بمقدوري فعله هو أن أقود سيارة: كيف للمرء أن يمسك بالمقود ويحرك مغير السرعات ويستخدم قدميه لدفع الوقود أو المكبح (الفرامل) ويراقب الطريق الخلفي بواسطة المرآة الأمامية، والطريق الجانبي بواسطة المرآتين الجانبيتين، كل ذلك في وقت واحد؟ والأدهى أن يتحدث مع مرافقيه ركاب السيارة، تلك بالفعل هي المهمة المستحيلة، لكني قررت خوضها عندما تذكرت درس الأستاذ «فيليب».

في مقهى المحطة الرئيسية لمدينة «فرانكفورت»، كنت أجلس كل يوم أحتسي الشاي واضعًا أمامي كومة من الجرائد العربية الرئيسية وقد استنفدت قروشي القليلة، أقرأ الخبر ذاته هنا وهناك، وأقارن الصياغات المتعددة، ثم أرصد تطور الخبر بين ما نشر أمس والمنشور اليوم، أحاول أن أتعلم كيف يصاغ الخبر عن قضية ما، ثم كيف تتطور صياغته كل يوم، لقد قررت أن أعلم نفسي بنفسي مهنة الصحافة، وأنا الذي لم أدرسها لا من قريب ولا من بعيد.

كان المشهد للأصدقاء هزليًا، من أنت وماذا تفعل وكيف لك أن تضع نفسك رهن حلم عظيم المنال؟ لكنني خضت التحدي، وعلى صعيدين: الأول أن أعلم نفسي بنفسي، والآخر أن أجد موطئ قدم لي في أي مؤسسة إعلامية، ما تركت صحيفة ولا مجلة إلا وراسلتها، كنت أشتغل في مهن مختلفة حتى أصرف ما أجنيه

منها على معيشتي اليومية وعلى تعليم نفسي ثم على إعداد مقالات لا أعرف إذا كنت سأنجح في إقناع أحد بنشرها، كنت أدرك أن ثمة موهبة قد منحني الله إياها، لكنها ليست كافية لتلحقني بهذا الدرب، كنت مؤمنًا بأنه يجب أن أبذل جهدًا جبارًا لأتمكن من صقل هذه الموهبة المفترضة، ومن أن أضع قدميَّ على أول الطريق، كانت فكرة الدأب والسهر والحمى والإصرار والتجربة تلو التجربة هي التي تدفعني إلى العمل بعد أن تذكرت درس الأستاذ «فيليب».

أنا نفسي كنت مندهشًا من عدم قدرتي على رسم أبسط الأشياء، كانت درجاتي هي الأدنى في مادة الرسم ضمن طلاب فصلي كلهم، ولأني كنت في الشهادة الإعدادية، ولأن درجات هذه المادة تضاف إلى مجموع الدرجات النهائية، ولأن والدي يرحمه الله كان حريصًا أن أحافظ على تفوقي في المواد كلها فقد اقترح عليّ اقتراحًا غريبًا، ربما تحدثت عنه مدرسة «طنطا» الإعدادية، واعتبره تلاميذها أنه من سخافات أهل «السويس» ـ وأنا منهم ـ الذين قدر الله أن تكون هجرتهم إلى بلدهم «طنطا» عقب نكسة سبعة وستين.

حدثت على خجلٍ صديقي «ناجي» عن رغبتي في الحصول على درس خاص من والده المدرس بالمدرسة نفسها، وبعد التعبير عن الاندهاش الشديد ذهبتُ إلى الحصة الأولى، أستطيع أن أدعي أنني حينها كنت التلميذ الوحيد في بر مصر الذي يتردد على درس خاص للرسم.

حدثني الأستاذ عن الإرادة، وقال حازمًا: «دونها لن تتمكن من صنع أي شيء أو تحقيق أي إنجاز»، تكلم عن الثقة بالنفس

كعامل أساسي لضمان النجاح، وحدثني عن سحر المران، ثم أتى برسومات لمشاهير الرسامين ووضعها أمامي وقال اختر واحدة وارسم مثلها، غضبت وقلت له: «أتستهزأ بي يا أستاذ، أنا لا أجيد رسم أبسط الأشياء، فكيف يمكنني مضاهاة رسومات المشاهير؟»، فذكرني بالإرادة، وجدد الحديث عن المران، وأن الصبر والدأب عليه سيضعني في مركز أقرب لمن رُزق الموهبة، وبدأ يشرح لي كيف أن الأمر ليس في الحقيقة مستحيلًا ولا صعبًا كما أتخيل، «خذ عندك مثلًا وجه الرجل، يمكن أن يكون هكذا كبيضة، ثم نعدل هذا قليلًا وذاك أيضًا وهذا بعض الشيء فيصبح هكذا رسمًا جميلًا لوجه».

كل ليلة وبعد أن أنهي مذاكرتي أبدأ في المران، كنت سعيدًا بالتحدي، وكنت أحقق تقدمًا باطّراد أدهشني أنا نفسي، إلى أن جاءت نتيجة آخر العام لأتحصل على ثماني عشرة درجة من أصل عشرين، فيما حصل أصدقائي الموهوبون على عشرين، أي بفارق درجتين. وتذكرت نتيجة أول اختبار للرسم لي قبل درسي الخاص والتي كانت ثلاث درجات برتبة راسب.

لقد سعد والدي رَحِمَهُ اللَّهُ بالنتيجة أيما سعادة، شعر أن فكرته أثمرت، وأنه أصاب في قراره، لكن ما لم يعرفه أن نتيجة الدرس الخاص تجاوزت الرسم إلى حياتي كلها، ذلك أنه ما من تحدٍ خضته إلا وتذكرت.. درس الأستاذ «فيليب».

الثامنة والخمسون

إذا مرت بك حكاية لا تدعها تمر

تعرف شاب عربي إلى فتاة روسية، دعاها إلى الإسلام فأسلمت، تغيرت حياتها كلية بعد إيمانها الجديد، أنجبا خمس فتيات، تمر السنون، الشاب الذي كبر أقنع زوجته أن تبيع شقتها باهظة الثمن في «موسكو» ليشتريا بثمنها بيتًا في بلده العربي ليعيشا هناك، تجاوبت المرأة معه، باعت ما تملك، حصل الرجل على المال وسافر إلى بلده ليعد الأمر، لكنه غاب واختفى، صدمت المرأة صدمة عمرها، أصيبت بالمرض الخبيث.

في محيطها رجل عربي عرف بقصتها، شكت إليه حالها، هو مصاب أيضًا بهذا المرض، يعاني أزمة مالية خانقة، أرسل له صديق مبلغًا متواضعًا من المال لعله يسهم في سد بعض نفقات العلاج ومصاريف العائلة التي يعولها، حكت السيدة للرجل أن كل حلمها أن تذهب إلى مكة للعمرة، أن تتكحل عيناها بالكعبة، ثم تموت وتُدفن هناك، قرر الرجل النبيل الذي لا يجد ما يكفيه من مال للعلاج أن يقتطع من المبلغ الذي أُرسل إليه ليساعد السيدة المريضة في تحقيق حلمها، دعت المرأة له كثيرًا، سافرت إلى مكة، حققت حلمها، أدت العمرة، وتوفيت هناك.

كم حكاية تمر بك، أو تسمعها من آخرين؟ كم واحدة منهم

لامست قلبك، وأثارت شغفك، وتركت أثرًا في حياتك؟ ولماذا حكاية دون حكاية؟ وهل الأمر يعود إلى الحكاية أم إلى الشخص الذي تمر به الحكاية؟ من منا يُعمل عقله وفكره في الحكاية ومن منا يجعلها تمر مرور الكرام؟

وصل «علي» إلى «فرانكفورت» بحثًا عن عمل، في رحلاته المكوكية اليومية، وقعت عيناه يومًا على راهبة من أهل البلد كانت تدعو الناس إلى دينها في مكان عام فأحبها، عاد إلينا مساء يحكي لنا، قصفناه ليلتها بكل النكات الممكنة، يا أيها الصعيدي الطيب وصلت لتوك من مصر وليس في جيبك قوت يومك ولست ملمًا بلغة البلاد ولا تحمل تأشيرة تخولك العمل أو الإقامة الدائمة، وعندما تلبي نداء الحب تقع في غرام راهبة.

صاحبنا لم يكترث لنكاتنا، صاحبنا ظل يحوم حولها حتى تعرف إليها، صحيح: الحب يصنع المعجزات، كان يوزع يومه بين البحث عن العمل، وتعلم اللغة الألمانية حتى يستطيع مجاراتها في الحديث، ثم كل بضعة أيام يختلق مناسبة ليقابلها «صدفة»، فيحدثها بما تعلّم، يسألها أحيانًا، ويعرض عليها الإسلام حينًا، كانت ملحمة بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ، فيها كل التناقضات واللامعقول، العناد الصعيدي تجلى إلى أن بدأت الفتاة بالفعل تنتبه له، كان يتردد على المركز الإسلامي، يجلب منه ما استطاع من كتب تتحدث عن الإسلام باللغة الألمانية، يحملها إليها وهي المهذبة تقبلها منه في صمت، وأحيانًا يأتي بأصدقائه العارفين باللغة والدين ليدخلوا معها في حوار ويردوا على أسئلتها التي لا تنتهي.

كنا جميعنا نرى أن الحكاية إلى فشل لا محالة، وكان هو يتبع قلبه، يواصل طرق الباب، وهي تفتح مرة وتغلق ألف مرة،

تقابله مرة وتتهرب منه مرات، وما أن يأتي أحد مشاهير الدعاة إلى المركز الإسلامي حتى يبذل جهده مع إدارة المركز ليؤمن لقاء بينها وبين الداعية، ثم يبذل جهده مرة أخرى معها حتى يقنعها أن تأتي، ظلت الأمور تتأرجح صعودًا وهبوطًا، وانصرفنا نحن بهمومنا اليومية عنه وقد أيقنّا أن الحكاية إلى فشل مؤكد.

أظن أن الملائكة كانت هناك، وأظن أن ما من أحد حضر يومها فسمع وشاهد إلا وبكى، في قاعة المركز الإسلامي بمدينة «ميونخ» الألمانية، جلس الجميع على المنصة، العروس والعريس والشيخ والشهود، كانت الإجراءات والشعائر تجري بهدوء، والفرح يعم المكان، الحضور كثر، صخب الأطفال وهرولتهم تكمل مشهد العرس، كاميرات الأصدقاء تغمر الجميع بالنور، رويدًا رويدًا تتسلل الهيبة إلى المكان، يكتم الجميع أنفاسه ويتابعون العروس وهي تتحدث بالألمانية، إلى أن قالت فجأة وبعربية ركيكة: اللهم إني أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك ورسلك وجميع خلقك، أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك.

بكى الجميع، شخصيًا شعرت أني أدخل معها في الإسلام من جديد، في اللحظة تقفز إلى ذاكرتي صورة ذلك البروفيسور الألماني الذي أردت إجراء حديث معه، فقال لي: لماذا؟ أجبته: «لأسألك لماذا تحولت إلى الإسلام؟» تعجب ورفض، وقال: «تصرفي طبيعي، وجدت الحق فاتبعته، عد أنت إلى قومك واسألهم لماذا يتركون الإسلام؟!».

ما الذي يجلسني الآن أمام هذا الجهاز لأسترد بعض الذكريات وأسجلها؟ لماذا تهرب مني واحدة قريبة، وتأتيني واحدة

بعيدة من الزمن السحيق؟ لماذا أحيانًا تدمع عيناي ويرتعش قلبي؟ لماذا فجأة يأتي بعض أبطال الحكايات، فيجلسون معي، يشاركونني طاولتي؟ لماذا يبدو أنهم يتحدثون لغتي، على رغم أنهم لا يتحدثون لغتي؟

«نكيبة» الألبانية المحامية الشهيرة قالت لي: «لقد أتوا، أخذوا ولديّ وزوجي، وعلى بعد عدة كيلومترات من «بريشتينا» قتلوهم، أطلقوا عليهم الرصاص بدم بارد وتركوا جثثهم لتنهشها الكلاب، بقيت وحدي، أسدلت الستائر حتى لا يعرف أحد أنني هنا، نزلت إلى القبو، وظللت محاصرة في بيتي ثلاثة وثلاثين يومًا، لولا أني كنت أقرأ القرآن الكريم لهلكت، لقد منحني وحده القوة لأن أتحمل وإلا لجننت». «عفوًا»، قلتها وأنا أتردد، «أوتقرأين القرآن سيدتي؟»، «وفيمَ الدهشة؟» هكذا أجابت، خجلت أن أخبرها أن قناني الخمر العتيقة المنتشرة في أنحاء فيلتها الكائنة في «بريشتينا» عاصمة «كوسوفو» توحي بأمر آخر.

قلت لنفسي يبدو أن أحكامنا في حق الناس ما زالت جائرة، أو قل لا يمكن أن تطبق القانون نفسه أو المقياس نفسه على الجميع، فتساوي بين الذين يجيدون اللغة ومساجدهم مفتوحة الأبواب، وبين الذين لا يتكلمون اللغة ويُدان منهم من يحتفظ بمسبحة.

«آفديا» قال لي: «كما تعرف يا «أسعد» كنت سفيرًا لبلدي في مصر وقت الحرب، وكانت سفارتنا في «القاهرة» مجرد شقة في إحدى البنايات، ولم يكن يعمل معي إلا شخص أو شخصان، بعد أن انتهى دوام العمل في أحد الأيام وأغلقت باب السفارة، دق الجرس، فتحت الباب وجدت في وجهي متسولًا، قال لي خذ،

فهذا كل ما جنيته اليوم من التسول، وهذا ما أملك أن أساعد به أهل «البوسنة» في حربهم، وانصرف». بكى الحاكي وبكى المحكي إليه.

من عليه الدور الآن للحديث؟ ذاك الأوزبكي، أم هذه الفنزويلية، ربما تلك السيدة من السكان الأصليين، أو هذا البوذي، أو.. أو..

وأنت تتذكر الحكايات، تأتيك الصورة، تشعر كما لو أنك تشاهد فيلمًا من حكايات متعددة على شاشة ضخمة، بعض هذه الحكايات قريبة منك، تلامسك، إلى حد أنك تشعر كما لو أنك أحد أبطالها.

«عايزين نعمل معاك حديث يا أستاذ»، وعبثًا حاولت أن أتهرب منه، في الموعد التقينا وليس بيديه ما يمكن أن يستعين به لتسجيل الحوار، لفتُّ نظره، أجابني: «لا تقلق»، كيف لا وبعض الذين يحاورونك تود لو تمسك بالكرسي الذي تجلس عليه وتضربهم به؟! أسئلة تقليدية محفوظة، وأحيانًا يدفعك المحاور لأن تطير معه فتجوب ذاكرتك، تتذكر وتحلم وربما تعيد حساباتك، ينتهي الحوار وأنت لم تنتهِ.

كتب «أحمد» نصًا بليغًا ملامسًا للقلب، وكان من الطبيعي بعد فترة أن يكون معنا في الشركة باحثًا لا نستغني عنه. كنت أمزح معه دائمًا: «لقد رشوتني»، لا يمر يوم إلا ونتشاجر فيه، تلك المشاجرات اللذيذة، يفقدني صوابي أحيانًا وأُغضبه أحيانًا أخرى.

عندما اندلعت الثورة في «مصر» طلب مني التصريح له بالسفر، فهمت، ووافقت على مضض، بعد عدة أسابيع اتصل ليبلغني أنه لن يستطيع العودة إلى «دبي»، التاريخ لا ينام الآن.

غضبت لأنه لم يمهلني، وتفهمت بيني وبين نفسي عذره، هو يريد أن يشارك في صنع التاريخ الجديد.

للقدر حكمته، يتعرض لحادثة يفقد فيها وعيه، ويبقى هكذا شهورًا طويلة، ثم يبدأ في التحسن قليلًا قليلًا دون العودة إلى وضعه الطبيعي، «أحمد» العزيز ليس هو حكايتنا الآن، وإنما هي التي كتبت يومًا ما معناه: «يا رب كلما صبرت على محنة أصابتني محنة أشد، لكن لن أستسلم».

«حنان» زوجته تخلت عن عملها في «دبي»، وتحملت عبء الزوج المريض وإعالة العائلة، وهي في ذلك كله في وسط الحدث المصري بحلوِه ومرّه، قبل أن يصبح كله مرًّا، إلى أن تصاب بهذا المرض اللعين، كثيرون الذين يهزمهم المرض، لكن «حنان» كتبت بعد شهور طويلة من معاناتها:

«غيرتني تجربتي مع المرض، فما عدت قادرة على الكراهية، هذا ما حدث لي رغمًا عني، ولم أختره، أعترف بأنني أتصور نفسي في هذه الروح الجديدة وكأنني في قطاع ورديٍّ معزول عن خشونة الحياة وحقيقتها المرَّة، أريد أن أعود لأكره وأصارع وأحقد وأغير، أريد أن أعود للمرأة التي كنتها، فأجد روحي غير قادرة إلا على المحبة، كشجرة مزهرة هي المحبة، معطاءة وسخية، تفرد ظلالها على الحياة فتحمينا من جدب الكراهية».

تواصل «حنان»: «كانت منحة المرض هي هذه التحولات التي تجري في روحي، أدركت الحياة من جوانب أخرى، أتصور أن لربنا تدابير لا يدركها إلا هو، أقبل بها تمامًا، وأقبلها كما كان يقبل آباؤنا رغيف الخبز الساخن، إنه رزق لا يدرك قيمته إلا قليلون».

ثم تقول «أنا فقط أبحث صادقة عن الطريق إلى الله، أراني كذَرّةٍ فردانية في محيط الكون، وسط مخلوقاته أسبح بمحبته في الفضاء الواسع، فردانية العبد هي طريق الحرية، بينما ذكر الله هو طريق المحبة، اقتربت من حافة الإلحاد، في الملكوت الواسع كنت لأيام قليلة كجرم تائه في الفضاء، كنت صادقة في معرفة الحقيقة الخالصة حتى رأيت وجه الله فآمنت حقًا، استسلمت وسلمت، أليس هذا هو الإسلام حقًا؟ توقفت عن الذكر، حتى أدركت أن ذكره يطلب لذاته لا لغرض ولا لهدف، لا للتيسير ولا للشفاء، ولا للرزق ولا حتى للمغفرة، ثمة شيء أجمل من هذه الاشياء حقًا، لا يتحقق إلا لقلب ذاكر، تخيل أن نوره يحتل أنفاسك صاعدة وهابطة، أن اسمه يتجلى مع كل تمتماتك، ثمة جنة على الأرض لا يدركها إلا قلب ذاكر».

كيف تمر بك مثل هذه الحكاية وتدعها تمر؟ كيف لا تمسك بالحكمة؟ لو لم تمر حنان بالتجربة لما خرجت بالدرس العظيم، ليس كل ما يبدو شرًا هو شر، آلاف الناس يمرضون كل يوم، آلاف يصابون بأمراض خطيرة، البعض ينهار ويعتقد أنها نهاية الحياة، والبعض يقاوم، يا عزيزي أنت لا تعلم شيئًا، أنت لا تعلم أين تحين الساعة، ليس عليك إلا المقاومة والذكر، وفي المقاومة والذكر سيجد المرء ما لم يكن ليجده لو لم تمر به المحنة.

اشتد المرض مرة على الطفل، ظل ينزف دمًا بشدة، أتى الطبيب إلى المنزل وخرج يائسًا، ثم أتى الآخر، فعل معه كل ما يمكن أن يفعله طبيب في هذا الوقت وفي هذا المكان، ثم مال الطبيب على الوالد وقال له: «هذه هي النهاية، أعانك الله»، قال الوالد: «عليّ أن أؤدي واجبي حتى النهاية، سأنقله إلى المستشفى»، قال الطبيب: «لا فائدة، لن يفعلوا معه أبدًا أفضل مما

فعلت أنا، بضع ساعات وسيموت، فإذا حدث ذلك هناك فإنهم سوف يشرّحون الجثة ضمن الإجراءات المتبعة، فلا داعي لأن تعرض جثة ابنك لذلك».

انهارت الأم، وقعت على الأرض، حملها الجيران، شعر الطفل بأن أمرًا غريبًا يجري هذه المرة غير المرات التي سبقت، في انتظار السيارة التي ستنقل الطفل إلى المستشفى، لمح الوالد ابنه يريد أن يقول له شيئًا وهو لا يستطيع أن يحرك رأسه. مال الوالد عليه يحاول أن يفهم، ربما تكون هي أمنية الطفل الأخيرة قبل الرحيل، سحب الطفل القلم الذي يضعه الوالد في الجيب الخارجي لجاكيت بدلته، ثم كتب على كف يده «إلى اللقاء».

مرَّ أكثر من خمسين عامًا على هذا الحدث، نعم مرَّ أكثر من نصف قرن.. وما زلت أعيش!

التاسعة والخمسون

كم سيكون عمرك عندما تبلغ الستين؟

في شقة بسيطة بالدور الرابع في بناية بشارع «إيواز بك»، كانت الأم ترقد في سريرها تعاني آلام الولادة وبجانبها الخالة «عيدة»، وقد تم استدعاء الداية «رئيفة» على عجل لتسهم في استقبال المولود الجديد. في الصالون المجاور لمدخل الشقة يجلس الأب يقرأ القرآن بصوت مرتفع، وكأنه يحتمي به من القلق الذي ألمَّ به من صراخ زوجته، وفي صالة الشقة الابنة والابن يلعبان بالكرة التي سقطت في حلة «المُغات»؛ هذا المشروب المصري الذي يُمنح للسيدة التي تلد لتعويض ما نقص منها، وذلك بعد أن تعمدت الخالة إشعال (بابور الجاز) ووضعه في وسط الصالة لعل لهيبه يهزم ولو بعضًا من البرد الشديد السائد في السويس، في هذه الفترة من الزمن القديم.

يصل الطفل، يفرح الجميع، تستقبل الأم في غرفتها ابنها وابنتها، تطلب من الأخيرة ذات العشر سنوات أن تجلس على السرير بجانبها، ثم تضع في حضنها المولود الجديد قائلة: «أنت أمه الصغيرة»، لتتشبث بهذا اللقب طيلة حياتها، ولأنقل عنها وصفها لميلادي في الأول من فبراير عام ستة وخمسين.

خمسون عامًا بعد هذه الواقعة، أقف بين الزميلات والزملاء

في إحدى غرف مكتبي بدبي، يحتفون بي كما جرت العادة في مكتبنا لمن تمر أعياد ميلادهم خلال أيام العمل الأسبوعي. عادةً ما أكون حزينًا ومكتئبًا يوم عيد ميلادي، أتمنى أن يمر اليوم سريعًا، في الحقيقة لا أعلم لماذا.

بعد الاحتفال جلست مع نفسي وحيدًا، غرقت في شريط طويل من الذكريات، وكأني فجأة اكتشفت أن عمري أصبح خمسين عامًا، كنت أقدر أن ما مرَّ من عمري لا يزيد عن عشرين عامًا، أين ذهبت إذن الثلاثون الباقية؟ أين انقضت؟ وماذا فعلتُ؟ كنت أفكر بعمق، بالأحرى كنت أطرح على نفسي سؤالًا جادًا أبحث عن إجابة مقنعة له.

في الحافلة التي تنقل الركاب من بناية المطار في «إسطنبول» إلى الطائرة، أمسكت بأحد أعمدة الحافلة خشية الوقوع كما يفعل كافة الركاب، وقف شاب صغير ودعاني للجلوس مكانه، للحظات لم أفهم سبب فعلته، لكن على قدر امتناني له على قدر غيظي منه، إنه يريد أن يقول إنني عجوز أحقُّ منه بالجلوس.

في جريدة صباحية أقرأ خبرًا أن مسنًا في الخمسين من عمره فعل كذا وكذا، أتذكر نفسي وأنا صغير عندما كنت أقرأ مثل هذه الأخبار أو العبارات أو أسمعها، كانت صورة المسن أو العجوز في ذهني هو ذاك الرجل الذي انحنى ظهره، وتكسرت أسنانه، يسير بمساعدة «العكاز» في حين أنظر إلى نفسي فلا أراني كذلك، تبًا لهذه الصحيفة التي لا تحسن الوصف!

صديقي اللدود «عمرو عبد الحميد»، لم يكن ليمر أسبوع إلا ويذكّرني أنني قد كبرت في السن ولم تعد ثمة فائدة من ورائي، وكأنه كان بلاغًا أسبوعيًا، أو تذكيرًا لازمًا، نضحك ونتبادل

النكات عبر الهاتف، ثم يعود لمزحته في المكالمة التالية في إصرار غريب.

في مطار «بيروت» الدولي، وفي إحدى محلات بيع الحلويات احتد الخلاف بين البائع والمشتري، فانصرف المشتري، فوجدت البائع ينظر لي - ويبدو أنه لم يسمع بما قاله «عمرو» لي - ليصيح: «الراجل كبر وخرف»، فوجدتني أرد عليه سريعًا وأنا أنصرف: «احرص على ألا تكبر إذن»، فنظر لي بدهشة شديدة دون أن ينطق بحرف.

بعد الثورة ومؤمنًا بها عدت بمكتبي من «دبي» إلى «القاهرة»، هناك أجرت معي زميلتنا «صباح حمامو» حوارًا لجريدة «الأهرام»، سألتني بعد الحوار: «كيف تقول إنك تشعر أنك لم تفعل شيئًا بعد يستحق أن تستريح بعده؟ كيف وقد فعلت ما فعلت؟»، سواء صدقتني «صباح» أم لم تصدق فإن ذلك كان حقيقة شعوري.

الأمر أكبر من ذلك، وهو كالتالي: أنظر ورائي فأستغرب لسنوات عمري وما فعلته بها، وكيف فعلته، وهل لو عندي فرصة أخرى هل أفعل ما فعلته ذاته؟ وهل هو يستحق؟ الحياة معقدة للغاية وصعبة جدًّا لكنها هبة من الله، فهل فعلت ما يستحق مقابل هذه الهبة؟

المشكلة الأهم، أنني بيني وبين نفسي لا أريد أن أعترف بسنوات عمري، أقمع نفسي كثيرًا حتى أقنعها بأني في هذا العمر وقد زادت الخمسون عشرًا أخرى، على غفلة أضبط نفسي أحيانًا أفكر بطريقة شاب في العشرين من عمره.

تطربني كلمات أولاد العشرين حين يعملون معي، ويتعبون من السفر أو المشي أو الوقوف طوال اليوم للتصوير والعمل، «يا أستاذ

أنت متعبتش»، أخفي إرهاقي وأقاوم، تفضحني ملامح وجهي في الأغلب. تقرأ من الدين ما تقرأ، وتبقى بعض العبارات منقوشة في ذهنك، إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، إنها قيمة العمل حتى النفس الأخير، لا أخشى الموت خشيتي من المرض الذي قد يقعدني فلا أغرس الفسيلة.

علي عزت بيغوفيتش خرج من السجن وقد زاد عمره على الستين ليخوض معركة شعبه، غير مكترث بسنوات النضال والسجن وما تركته من بصمات على جسده وصحته، يعايش الواقع وكأنه في عنفوان شبابه، تختلف الناس حوله لكنهم يجمعون على أن لولاه ما ظلت «البوسنة» دولة واحدة.

أما «ونستون تشرشل» فكلنا نعرف قصته، وقد رسب في اختبارات الفصل السادس الابتدائي، وانهزم في كل الانتخابات التي ترشح فيها، إلى أن أصبح رئيسًا للوزراء وعمره اثنان وستون عامًا، وليكون صاحب معجزة التصدي للجيش الألماني بقيادة «أدولف هتلر» في الحرب العالمية الثانية تحت شعار «لن نستسلم أبدًا»، فيما بعد كتب عن تلك الحرب ستة مجلدات كبيرة الحجم حاز عليها جائزة نوبل في الآداب.

أقرأ في موقع «أراجيك» أن الكولونيل «ساندرز» صاحب سلسلة مطاعم «كنتاكي» الشهيرة عمل في مزرعة بدولارين في اليوم، وخدم بالجيش، ثم كان عاملًا لتلقيم الفحم على قطار بخاري، فسائق مركب نهري، ثم بائعًا لبوالص التأمين، ثم درس القانون عن بعد، ومارس المحاماة لبعض الوقت، ثم باع إطارات السيارات وتولى إدارة محطات الوقود، وقام ببيع الدجاج الذي

يطهوه على المارة والعمال في الشوارع، وفي سن الخامسة والستين تقاعد من وظيفته، لكنه لم يرضَ بمعاشه الحكومي الشهري البالغ مئة دولار، وانطلق ليؤسس سلسلة مطاعم دجاج «كنتاكي» الشهير.

وبعيدًا عن السياسة والتجارة، فإن «جوزيه ساراماغو» هو روائي قدير، وهو أول كاتب باللغة البرتغالية يفوز بجائزة نوبل في الآداب، أبواه أميَّان لا يعرفان القراءة ولا الكتابة، بلغ به الفقر أنه كان يمشي حافيًا في قريته حتى بلغ الرابعة عشرة، عمل كحداد وصانع أقفال وميكانيكي، ولم يجلس على مكتب للأعمال الورقية إلا بعد أربعين عامًا من المعاناة.

طرد بعدها من عمله كمحرر صحافي بسبب مواقفه الثورية واليسارية، وهو يقول عن ذلك: «كانت أكثر حادثة حظ سعيد في حياتي»، وبسببها تفرغ للكتابة، ولم ينل الشهرة إلا بعد الستين بروايته «بالتزار وبليموندا»، وحاز عام ألف وتسعمئة وثمانية وتسعين على جائزة نوبل في الآداب التي أشادت بروايته «العمى»، ليقول عن نفسه: «إذا كنت قد توفيت قبل الستين، لم يكن ليعرفني أحد»!

وبعيدًا عن مشاهير الناس، كم من عجوز كنت ألتقيه خلال سفري فيخجلني من نفسي، وهو أو هي مصمم على المضي في حياته حتى لحظته الأخيرة، عملًا واستمتاعًا، أو نضالًا من أجل قيم عليا، فيما شبابنا ما زالوا يترددون في المغامرة أو مغادرة الدار التي ولدوا فيها، ورجالنا ما أن يبلغوا الستين وربما الخمسين إلا والمقاهي مقرهم ومستقرهم.

الموت يعرف طريقي، أنا لا أعرف طريقه، ذهبت إليه مرات عدة لكنه أعرض عني؛ لأن الأجل لم يحن، فلماذا أضيع وقتي في انتظاره؟ حري بي أن أكون في أفضل حال عندما يصل.

على كل حال، في عام اثنين وسبعين أعلنت «منظمة الصحة العالمية» أن سن الخامسة والستين هي بداية سن الشيخوخة، حتى هذا التصريح لا أعترف به، وإنما أعترف بما قاله «هنري فورد»، مؤسس شركة فورد الشهيرة، حين قال إن أي شخص يتوقف عن التعلم هو عجوز سواء في العشرين أو الثمانين.

إذن هل ما زلت تتعلم؟ هل ما زلت تجيد البداية من الصفر؟ هل ما زال لديك مشاريع بحجم الكون؟ هل ما زالت أحلامك حيَّة؟ هل ما زلت تتغزل بالقمر؟ هل ما زلت مجنونًا؟ هل ما زلت تتحرى الصدق؟ هل ما زلت تعادي الخونة والفاسدين؟ هل ما زلت تجيد العشق والثورة؟ هل ما زال الولد الشقي بداخلك شقيًا؟ ردودك تحدد الإجابة: كم سيكون عمرك عندما تبلغ الستين.

الستون

«آية»

قرر والدي رَحِمَهُ اللهُ أن يعجل بإجراءات زفاف أختي الكبرى، أمر رآه مستحبًا قبل هجرة أُرغمنا عليها بعد أن وصلت قوات العدو الصهيوني إلى حدود قناة «السويس»، وطائراته إلى أحيائنا وبيوتنا وغرف نومنا. دعا إلى حفل عائلي بسيط يراعي مشاعر الهزيمة الجاثمة على صدورنا تحت اسم «نكسة» في ذلك الوقت من عام سبعة وستين. انقضى الحفل، وانصرف الجميع، وفرغت دارنا من زينة العائلة، لكن مفاجأة كانت في انتظاري.

والدي يجلس في غرفته يبكي بكاء مرًّا، المنديل المحلاوي الكبير المشهور لا يقاوم فيضان الدموع، مشهد لم يمر بي في حياتي الصغيرة التي بلغت حينها حوالي أحد عشر عامًا، كنت وما زلت أنظر إلى والدي كما ينظر الناس مثلًا إلى تماثيل العظماء، عملاق شامخ، ظل صامدًا في أسوأ الأحوال حتى تلك التي مرت بي شخصيًا، والتي بكى فيها الجميع فيما كان وحده قادرًا على بث الأمل في نفوسهم، فماله هذه المرة هكذا؟ وكيف أفهم وأنا الطفل الصغير حزن الوالد في يوم عرس ابنته؟ كيف يكون البكاء في مناسبة سعيدة كهذه؟ استعانت أمي بجارتنا رحمهما الله، فقالت الحاجة «فريدة» مواسية: «يا «طه» أفندي، إنت لو حبيت تشوفها

بس اخبط الأرض برجلك تجيلك حالًا»، لم يكن في الأمر أي مبالغة، فقد تزوجت أختي في الشقة الكائنة أسفل شقتنا تمامًا.

في مطار «دبي»، وبعد ذلك بسنوات طويلة، كان المشهد يتكرر بصورة ما، حين ودعت صغيرتي إلى «لندن» للدراسة، لم أستطع أن أستوعب وأنا المسافر دومًا، كيف يمكن أن أعود إلى بيتنا في غيابها؟ كيف تجتمع العائلة حول مائدة العشاء دونها؟ كيف سأنام وهي لا تجاورني في الغرفة التالية؟ كيف لن أدخل مساء غرفتها وأغمرها بالغطاء والحب؟ كيف وكيف وكيف، بكيت وبكيت علانية وخفية، وحينها فقط بدأت أدرك وأفهم سرَّ بكاء الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ.

كنت عائدًا من «البوسنة»، وقد قررت أن أمنح نفسي عطلة قصيرة مع عائلتي، أمسكتُ ابنتي بيدي وتشبثت بمشاركتي لها في تلك اللعبة الجهنمية، هذا القطار الذي يصعد ويهبط فجأة في دائرة حلزونية مخيفة، تحججت بالتعب وأصرت صغيرتي على المشاركة وأنا أرى في عينيها سؤالًا واضحًا: «إنت متأكد أنك راجع من «البوسنة» وإنك بتشتغل مراسل حربي؟»، كنت وما زلت أعتقد في المغامرة المحسوبة والتي تستحق التضحية، ومن ثمَّ لم أجد أي معنى لمشاركتي في هذه اللعبة السخيفة، لكنني أُرغمت وتظاهرت بالشجاعة وفرحت كثيرًا عندما لامست قدماي الأرض، وفرحت أكثر عندما شاهدت على التلفزيون لاحقًا مشهدًا لهذا القطار الحلزوني في مدينة الألعاب بفرنسا وقد توقف التيار الكهربائي عنه وهرعت سيارات الشرطة والإسعاف لنجدة اللاعبين، ذكريات أستحضرها لتواسيني في غيابها.

اتصلت بي فسمعت ضجيجًا وهتافات ثم قالت إنها «مظاهرات طلبة كليتنا ضد زيارة السفير الصهيوني لها»، ثم اتصلت مرة أخرى

وقالت: «أريدك في أمر مهم»، ثم راحت تسألني عن اليسار العربي واليمين العربي، وحزب البعث، و«جمال عبد الناصر» و«السادات»، وربيع «براغ». كدت أن أناديها خلال المكالمة بحضرتك قبل أن أستوعب أن الصغيرة قد كبرت فجأة، وأن العلوم السياسية التي تدرسها، لا تتوافق أبدًا مع أغنية «محمد منير» «يا بنت يا اللي أم المريلة كحلي»، التي كانت دائمًا تذكرني بها وإن لم ترتدِها يومًا.

مرت السنوات وحين اندلعت الثورة عادت فاتصلت بي، قالت إنها ألغت رحلتها إلى «كردستان العراق»، وألحت عليّ أن أسمح لها بالسفر إلى «مصر»، فجأة تثور فيها كل مشاعر الوطنية والانتماء للبلد الذي لم تنشأ فيه ولم تتعلم فيه ولم تحفر فيه ذكرياتها، نشب الصراع التقليدي بين القلب والعقل، بين خوفي عليها وفرحي بشغفها بالثورة وحرصها على أن تعيش الحدث، إنها إذن تريد أن تنضم لمواكب الشباب، آخر ما تبقى لنا من أمل، ماطلت إلى أن أخذت قراري بالموافقة فيما كان المخلوع يعلن تنحيه، سافرتْ لكنها حتى هذه اللحظة تحاسبني على هذا التباطؤ.

حشرت نفسي بين الجالسين، وجلست أتابع فقرات الحفل، وحينما صعدتْ إلى المسرح ضمن مراسم التخرج أردت أن أقف وأن أصرخ «هذه الصغيرة لي»، الناس هنا مختلفون ومتحابون في جامعة «سواس» اللندنية العريقة، وهي أيضًا مختلفة، ولطالما قالت لهم إن الحجاب هو غطاء للرأس لا للعقل، وهي التي قضت سنواتها الجامعية تقرأ وتكتب وتصادق من كل لون ومن كل معتقد، مؤمنة بأن مصير البشر موكول إلى الله وحده. وفي لحظات مرَّ شريط الذكريات سريعًا، من بكاء والدي إلى بكائي، نحن أيها الوالد العظيم متشابهان غير أنني أخاف القطارات الحلزونية.

الحادية والستون

عن الحاجة «زينات»

ما أن أنجبتني أمي بدقائق حتى نادت أختي الكبرى إلى سريرها وأجلستها القرفصاء، أخبرتها بأنها أتت لها بهدية، وضعتني بصراخي في «حِجْرِها»، وقالت لها أنت من الآن أمه الصغرى. كانت والدتي رحمها الله تنشد أن تجنب ابنتها ذات السنوات العشر الغيرة من قدوم جديد يستأثر بالاهتمام، غير أن أختي لم تعترف بذلك. مضت في حياتها كلها تؤدي بإصرار مهمة الأم الصغرى، حتى بعد أن بلغت السبعين من العمر.

هناك بعض الروايات تنقلك إلى عالم آخر، تهزك بشدة، تثير أفكارك وأشجانك، تمتعك في كل لحظة، لكن المشكلة تقع عندما تشعر بأن الرواية تقترب من النهاية، إذ يسيطر الخوف عليك، أنت لا تريد لهذه المتعة أن تنتهي، لا ترغب لهذه الرحلة في أن تتوقف، وقد قضيت معها وقتًا جميلًا.

لكن ما شأننا بذلك الآن؟

حسنًا.. لقد راودتني الخاطرة!

انبرت إذن تمارس مهمتها بجدية شديدة، هي تكبر وأنا أكبر، تعتني بي، تناقشني، تنصت باهتمام شديد لحكاياتي وآرائي

السخيفة، تختلف معي، تعبر عن ذلك بصراحة، لكنها لا تمل، ولا تغير رأيها أو موقفها، تزودني بالقروش لأشتري كتبًا لا تؤمن بها، وتقنع والدي بالاستجابة لطلباتي حتى وإن لم ترق لها، إنها معي دائمًا. الأمر هكذا ببساطة، إنها الأم الصغرى، ولا يحق لها سوى ذلك.

ما يجري مع الرواية المكتوبة، يجري مع الفيلم المشاهَد، إذا ما راق لك وحرك سواكنك، عشته بكل جوارحك، فإذا ما جاءت نذر النهاية انتابك القلق، خذ مثلًا فيلم «عمر المختار»، فعندما أعدم البطل الذي قال: «نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت»، كنا ندرك نحن معشر المشاهدين أن الفيلم الذي هزنا هزًّا يوشك أن ينتهي، وأن دقائق معدودة تفصلنا عن نهاية متعتنا، لتسكن معها سواكننا التي حركها الفيلم، فنتمنى لو يطول قليلًا.

بالمناسبة، كانت أختي في ليبيا حين أتى «أنطوني كوين» لتصوير الفيلم العظيم، تحكي لي أن الرجل كان يرتدي اللباس الليبي التقليدي، وينزل إلى الشارع، يختلط مع الناس ويتكلم معهم، ويعيش تفاصيل حياتهم، رغبة في محاكاتهم، حتى يتقن الدور تمامًا.

في الصيف كانت تعود في عطلتها إلى بيتها، أكاد كل مساء أترك بيتنا وأذهب إليها، حول أطباق أصابع البطاطس المحمرة، وأكواب الشاي بالنعناع، والتلفزيون الذي لا ينتبه له أحد تكون أمسياتنا، زوجها وأولادها يدركون قواعد اللعبة جيدًا، ويتعاملون مع حضورنا وكأنهم هم الغياب، فإذا ما شعروا بأن حديثنا بات هامسًا انسحبوا حتى لا تُفشى الأسرار.

لم أكن حاضرًا في هذا المشهد، لكنني أضحك بشدة عندما

كانت تقصه لي، فقد دخلَتْ يومًا على والدي الرجل المتدين وهو جالس على الشرفة مع والدتي، لتقول له «أين الله، من قال إن الله موجود، لماذا نحن مسلمون، من زعم أننا على حق...؟». احمرَّ وجه أمي واعتقدت أن الوالد سيخرج عن طوره على رغم ما عرف عنه من هدوء الطباع، التفت إلى أختي وقال لها ببساطة شديدة: «طيب اقعدي بس نتكلم»، ثم استدار إلى أمي قائلًا: «ما تعملي لنا قهوة يا «أنيسة»!».

لاحقًا، كانت أختي أول محجبة في كليتها القاهرية، في وقت لم يكن يضع فيه غطاء الرأس إلا العجائز أو الخادمات، جلسات الشرفة في طابقنا التاسع بالسويس أثمرت نتائج عقائدية وإنسانية، وبات ارتباطها بأبي غير ارتباطها بأمي، نفس قوة الشعور مع اختلاف في الزاوية والمذاق، وفي كلٍّ خير.

مرة وعندما حان موعد عودتها من عطلتها رشحتني العائلة لمهمة مؤلمة باعتبار قربي منها، وهي إبلاغها بوفاة والدي بعد أن أخفينا الخبر عنها لشهرين، انهارت تمامًا، أبلغتها بأنه ضرب لنا موعدًا في الجنة.

نحن نبكي ونحن نقرأ نهاية الرواية أو نشاهد نهاية الفيلم، نبكي للفرح ونبكي للحزن، السبب الأخير هو الأغلب، نبكي على رغم أننا لسنا معنيين بالأمر، بل زد على ذلك أننا موقنون بأن هذه الشخصيات والأحداث وهمية، لكنها تلامس شيئًا داخلنا، ظاهرنا أننا نبكي لها، والحقيقة أننا نبكي لأنفسنا.

عندما ألجأ إليها فإن الحد الأدنى المتحقق هو «الفضفضة»، هذا إن اختلفنا في كل الاستشارات التي تقدمها لي. كانت حاضرة دائمًا هي وأخي صاحب الأفضال في كل أحداثي التعيسة

والسعيدة، في المشافي والمعتقلات والكليات، وفي كل الأفكار الجنونية التي عادة ما أتبناها.

بعد أن تمر السنون تنظر إلى ما كان يمر بك وكنت حينها تعتبره أمرًا عاديًا، فترى أنه كان أمرًا عظيمًا، ليته يعود مرة أخرى: لمة العائلة، أفراحها، أتراحها، حتى مشاجراتها، وتنتابك رغبة جارفة في أن تعيد الشريط من أوله بعد أن أدركت قيمة ما جرى، لكن هيهات هيهات؛ لذا يتلبسك القلق من أن ينتهي الشريط الدائر الآن فجأة.

كنت في القاهرة حين أُبلغْتُ بخبر تعرضها لوعكة صحية قاسية، أصابني الجنون، خفت أن يكون ذلك نذير النهاية، يا رب كيف تستقيم الحياة إذا ما وقعت الواقعة؟ أنا خبير بهذا النوع من الوجع، إنه لا ينتهي، ولا يلتئم، إنه يكبر، تظن للحظة أنك تجاوزته، ثم تنفجر باكيًا كما كنت ذلك الصغير في «حجرها». هي تعافت وأنا اطمأننت.

يرحم الله أمي، كانت تنظر في عيني فتفهم حالي وكل ما يدور بداخلي، أختي ورثت ذلك وأكثر، فهي ترسل لي ـ وأنا بعيد عنها آلاف الأميال ـ رسالة هاتفية في الصباح، «إظن أنك لست على ما يرام اليوم، ما بك؟» أحار في أمري، هل أكون صادقًا وأحدثها عن السبب فتحزن، أم أخفي عنها الأمر؟ لكن قبل هذا وذاك كيف عرفت بحالي؟

لكن فلأعترف بأنها لطالما أوقعتني في حرج، حين تزورنا يلتف حولها أولادي، تحكي لهم ما كنت أرتكبه صغيرًا، أمور نسيتها تمامًا واندثرت من الذاكرة، أدهش كيف هي تتذكرها وتحفظ تفاصيلها، وصغاري الشياطين يلتفون حولها ويطالبونها بالمزيد، إنها

أوراق رابحة في أي مجادلات بيني وبينهم، يظلون يذكرونني بها مرارًا وتكرارًا.

كأمر القميص الذي رفضت ارتداءه صباحًا لأنه «بايت»، وتشاجرت مع أمي وطالبت بقميص «طازج»، وكشأن الرسائل التي كنت أبعث بها وأنا ابن الرابعة أو الخامسة إلى الكلب الصغير الذي كان يقتنيه صاحب محل أمام بيتنا عندما سكنا «بور سعيد»، كنت أمسك بالقلم وأرسم خطوطًا وأرمي بالقصاصات إليه، مرة كدت أقفز من الشرفة في الطابق الأول لمعاقبة ذلك الكلب الذي لا يرد على رسائلي، هي تحكي وأولادي يطالبونها بالمزيد.

آه، ليس أجمل من أن تكون لك صديقة وأخت وأم في آن واحد، تسبقك بخطوة، وتمسك بيدك حتى تعبر ما تمر به، والحياة عاصفة تهدأ أحيانًا وتثور كثيرًا، وهي في ذلك كله تحملك على الصبر، وتبشرك بالخير القادم، تؤكد لك بكل جوارحها أن فرج الله آتٍ لا محالة، كأنها نظرت فرأته، تتحدث بيقين عجيب، تحسن الظن بالله، وتستشهد بالآية والحديث، وفي كل الأحوال لا تتخلى عنك أبدًا.

لكن فجأة يبدو أنها فعلت، كان ذلك قبل يومين، الأربعاء الرابع من يناير عام ٢٠١٧، حين جاءني اتصال يبلغني بصورة قاطعة أنني بتُّ وحدي في العراء، لا حائط يحميني، ولا ظل يقيني، ولا قلب أتكئ عليه، ثم أُبلغت بصورة حاسمة.. «لقد تركت مهمتها ولم تكلف بها أحدًا».

أعرف منذ زمن بعيد أن البقاء لله، لكن هأنذا أعرف من جديد أن «السند» لا بقاء له.

يا ويلي!

الثانية والستون

الرحلة.. من أول مرة

كنت مندهشًا وخائفًا، ما أن استرحت في جلستي، حتى ربّت أحدهم عليه فانطلق لا يلوي على شيء. حين أتذكر ذلك اليوم الآن، أشعر كما لو أنني كنت فارسًا يمتطي حصانه ويمضي بين الناس، الذين ما أن يمر بهم الفارس حتى يتركوا كل شيء في أيديهم ليتمعنوا في هذا الغريب؛ الذي هو في الحقيقة يمتطي حمارًا.

قلت لأبي يرحمه الله: «كيف ذلك وأنا لا أعرف الطريق؟» قال: «ولكن الحمار يعرفه، لا تلق بالًا، سيمضي بك إلى بيت عمك»، قالها ومضى هو مع نخبة من الرجال، ومضيت أنا مع الحمار، وقد أصابني الرعب وعمري آنذاك لم يتجاوز تسع سنوات بعد، فيما الحمار يجري بين بيوت القرية وأزقتها واثقًا من نفسه، ينحرف يمنة ثم يسرة، يصعد ثم يهبط دون أي إرشادات من خرائط «جوجل»، إلى أن وصلت إلى بيت عمي رحمه الله.

كيف لهذا المخلوق أن يعرف الطريق وحده؟ وكيف فهم أساسًا عندما لامسه أحدهم أن المطلوب أن يحمل هذا الصغير ليقوده إلى هذا البيت تحديدًا؟ لماذا نظلم الحمار عندما نشبه شخصًا محدود الذكاء به؟

لم أنم طيلة الليلة التي سبقت سفرنا، كانت الأسود تزأر، والفيلة كما لو أنها تئن، فيما الحيوانات الأخرى تشاركهم تلك السيمفونية العجيبة، ترى كيف سيقدمون عرضهم الأول ليلة الغد وهم على هذا الحال؟ كنت أتسلل من بيتنا في شارع «النهضة» لأرى الاستعدادات التي كانت تجري على قدم وساق في ميدان «الساحة» القريب من بيتنا لبناء هذا السيرك المؤقت، كنت شغوفًا جدًّا به، حزينًا أنني لن أستطيع مشاهدة هذا العرض الذي استعدت له «السويس» كلها.

في الصباح الباكر بدأت قافلتنا تشق طريقها، والداي وأنا وأخي وأختي، إلى محطة القطار لنصل بعد حوالي ثلاث ساعات إلى «القاهرة»، ثم نستقل قطارًا آخر إلى «المنصورة»، ومنها بسيارة أجرة إلى «فارسكور»، ومنها بحنطور إلى «العطوي»، حيث ولد والدي عام ألف وتسعمئة وثلاثة عشر، قولوا يرحمه الله.

أنتَ أو أنتِ.. هل تتذكر أو تتذكرين أول رحلة لكَ أو لكِ في حياتك؟ هذه هي كانت أول رحلة لي، ويبدو أنني من حينها وقعت في حب الرحلة من أول مرة، من «السويس» إلى «العطوي»، وهناك قضيت أيامًا من أمتع ما عشت في طفولتي، لقد خرجت القرية عن بكرة أبيها لتستقبلنا، تدفق الناس على بيت عمي، والجميع يلاطف الصغير ابن المدينة، كان الإعياء قد وصل بي مداه، لكن تخيلت أن هذه الوفود لن تنقطع إلا بحلول الظلام، فلما حلَّ وأشعلت المصابيح حل ضيوف آخرون أرادوا أن يتذوقوا دمًا جديدًا طازجًا ومختلفًا عما تعودوا عليه، وفي الصباح كانت آثار الناموس ماثلة في أنحاء جسدي.

الغيط والساقية والترعة والحمار والحصان والطيور والعمدة وقلوب الناس العامرة بالحب، الذاكرة ليست فقط صورة، الذاكرة أيضًا رائحة، رائحة الخبز الرائع ما زلت أشمها، النسوة وهن حول الفرن، أريد الآن ولو كسرة من هذا الخبز. كل ما في الريف جميل، إلا الناموس!

بعد عقود طويلة جبت فيها العالم وبعد أن عدت إلى «مصر» عقب الثورة لأقوم بالتصوير لأول مرة لي في بلدي، دخلت في منطقة بالصعيد في نقاش حاد مع زملائي، كان مطلبي التصوير في قرية، قرية خالصة بعيدة عن العمران، وكلما ذهبنا إلى واحدة وجدت أثرًا من آثار المدينة، ورائحة ليست برائحة القرية، هل كنت أبحث عن صورة مناسبة لبرنامجي الذي كنت أقوم بإعداده حينذاك أم كنت أسترد الذاكرة؟

صديقي «سمير» أسدى لي نصيحتين: إذا وصلت طائرتك مساء فابقَ في المطار حتى الصباح، وإذا تهتَ في أي طريق فاسأل فتاة ولا تسأل شابًا، حرصت أن أعمل بالنصيحة الأخيرة حتى ولو لم أضيّع الطريق!

مطار «فرانكفورت» أول منفذ لي إلى ثاني أهم رحلة لي في حياتي، إلى أوروبا، مطار ضخم وأنيق، كل ما فيه كما توقعت تمامًا، سوى محل لمشاهدة بيع الأفلام إياها، كلنا يعرف أوروبا لكن لم أفهم الحاجة الملحة لوجوده في المطار بجانب الصيدلية ومحلات الأطعمة.

ماثلة أمام عينيّ اللحظة الأولى لخروج القطار من نفق المطار إلى الفضاء الواسع، السلام عليكم يا «ألمانيا»، السلام عليكم يا

أوروبا، لم تمضِ أربع وعشرون ساعة حتى كنت أسأل نفسي كيف للمرء أن يموت ولا يغادر مكان مولده؟

قروي ساذج بهرته أضواء المدينة، هكذا كنت أمزح مع نفسي، في الحقيقة كنت أتوقع أضواء المدينة هذه، لكن ما لفت نظري أمور أخرى، هذا الرجل الأنيق الذي يقف ليشتري إصبعين من الموز، في بلادنا هذا عار، عليك على الأقل في زماننا ذاك أن تشتري عدة كيلوجرامات وإن كنت في غير حاجة لها، وإلا سخر منك الجيران، هذه الابتسامات العالقة على الوجوه، هذا النظام الحازم في كل شيء، هذه الحافلة التي تصل بالضبط في موعدها، السابعة ودقيقتان كما هو مكتوب، يا ربي ليتها تتأخر ولو دقيقة واحدة!

هذا العجوز الذي كان منهمكًا في حديث مع حفيده وهما جالسان في الترام خلفي، بالطبع لم أفهم كلمة، لكنهما كانا يتبادلان الكلام كرجلين راشدين ندَّيْن، في بلادنا ستنزل الصفعة مدوية، أو في أحسن الأحوال «بس اسكت شوية يا حبيبي»، هذا الطفل الذي يلعق الآيس كريم مرة، ثم يمد يده إلى كلبه ليفعل مثله مرة، الأهم من ذلك كله أنك هنا ستشعر أنك إنسان، ومهما كان الموقف منك إلا أنك إنسان، على غير ما كنت عليه في بلادك.

ما زلت أذكر كل شيء، لحظة وصولي إلى محطة القطار الرئيسية في «فرانكفورت» قادمًا من مطارها، كوب الشاي الذي ردَّ لي عافيتي بعد ليلة مجهدة، «محمد» الذي استضافني في حجرته قبل أن تطردنا صاحبة البيت لأننا نستخدم الماء بكثرة في دورة المياه، «عصمت» الأردني المفتوح قلبه وداره لأي عربي غريب،

ليالي العمل في المطاعم، ونهارات توزيع الإعلانات والجرائد، ودروس اللغة، ومدرس علم الاجتماع العراقي الذي شرح لنا في جامعة «ماينز» كيف تضع في حياتك معْلَمًا تعود إليه إذا تهت لتنطلق من جديد، تمامًا كما تفعل إذا وصلت مدينة لأول مرة، فتتخذ معلمًا تعود إليه كلما تاه بك الطريق، ولا يمكن أن أنسى أول يوم في رمضان حين صليت الفجر قبل الثالثة صباحًا لأنتظر المغرب في العاشرة مساء.

ستمضي بعض الشهور الطويلة، لأدرك أن عرب أوروبا ومسلميها يتمتعون بالإمكانيات المالية والحريات السياسية التي يتجاهلونها ليسقطوا في مستنقع الخلافات العرقية والجنسية والدينية والمذهبية، وهو الأمر الذي يدفعني للهيام بالسفر إلى مناطق «الاتحاد السوفياتي» حين كان يتهاوى، وإلى مناطق أوروبا الشرقية، لعل هناك ما يستحق، ومن ثمَّ إلى العالم كله.

لكن الرحلة الأهم كانت عجيبة ومدهشة بحق، انطلقت بصحبة من يعرف الطريق جيدًا، خرجنا من المنطقة التي كنا بها، كل حينٍ كنت ألتفت فأنظر إليها فأجدها تصغر وتصغر، بعد فترة قصيرة وجدت آخرين وقد انطلقوا من مناطق مختلفة وجمعتنا وحدة الهدف، كنت خائفًا جدًّا، لكني كنت أتذكر أنني سألتقي أحبة أتوق إليهم.

سألت لمَ لا أشعر بالبرد؟ قيل لي إن المعايير هنا تختلف، صمتُّ، سرحتُ، مرَّ شريط حياتي أمامي سريعًا، فكرت في كل ما فعلت، قلت لنفسي لقد ارتكبت أخطاء فادحة، لكن لم أقصد ضررًا بأحد، ولم أكره أحدًا، وفي عملي لم أكذب ولم أغش، لكنني قلت لمن كان يشاهدني أو يسمعني أو يقرأ لي، قلت لهم جميعًا الحقيقة التي رأيتها.

الغريب اللذيذ أنني كنت أستمتع في رحلتي هذه بالحرية التي لم أذقها من قبل، وابتسمت حين قفزت فجأة إلى ذهني كل صور الشهداء الذين مررت بهم أو تحدثت عنهم، وتخيلت ويا لجنوني أنهم سيكونون هناك يدافعون عني كما دافعت عنهم.

كنت أرتعد، لكنني تذكرت ما جرى بيني وبين والدي يومًا، سألته: «لماذا يعد الله المؤمنين بالغيب خيرًا؟»، أجابني: «لأنه عالم غير محسوس، أنت تؤمن بما لم تره، وبرسول قال إنه مرسل منه»، حينها لم أفهم جيدًا، ومع مرور العمر بدأت أدرك معنى الإيمان بالغيب، كبر عالم الغيب عندي حتى كنت أعتقد أنني لو كذبت على الناس فسوف يعرفون، كنت أؤمن أن شيئًا ما في الغيب، في العالم غير المرئي يجعل الناس تصدق هذا وتكذب ذاك، تحب واحدًا وتكره آخر، أشعرني ذلك بالطمأنينة أنني كنت ممن يؤمنون بالغيب.

وفي هذا الطريق الطويل حدثتني نفسي أيضًا، ربما لم أحفظ الكثير من القرآن، ربما لم أكن مثل الصالحين أقوم الليل وأصوم النهار، واقترفت الذنوب، لكني كنت مؤمنًا بالله، حتى في أزمان الفتنة والإلحاد بقيت مؤمنًا به، أحب رسوله، أتخيله ﷺ إنسانًا ورسولًا، هل تعلمون أنني أظن أن الرسول كذلك يحبني؟!

اقتربت من الهدف وكان العدد قد أصبح ضخمًا، بتنا وكأننا على مفترق طريق، من بعيد بدا لنا ضباب شديد، صاح أحدهم مشيرًا إلى جهة ما: «يبدو أن هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت»، سمعت صراخًا وعويلًا ففهمت أن بعضنا نظر إلى الاتجاه المقابل، خفت أن أنظر.

قيل لنا سوف تنتظرون هنا إلى أن توجه إليكم الأسئلة، يا إلهي هكذا أمام الملأ! نسيت حينها أمورًا كثيرة وحاولت أن أتذكر عملًا صالحًا واحدًا قمت به أدافع به عن نفسي، فلم أتذكر غير أنني كنت أحب الفقراء والشهداء، رعبي زاد، فجأة سمعت من يقول لي: «اطمئن لا ظلم اليوم»، أو هكذا تخيلت رحلتي الأخيرة.

أخيرًا

ماذا يفعل المرء عند «العزال»؟

(١)

وصلت زوجة صديقي «عصام» إلى «فرانكفورت» للمرة الأولى، أراد أن يصطحبها في جولة لتعريفها بالمدينة، يحكي لي ضاحكًا: قضينا يومًا كاملًا في شوارعها، وكلما مررنا بواحد كنت تسكن فيه قلت لها: ««أسعد» كان يسكن هنا»، وما أن تمضي ساعة حتى نكون في شارع آخر فأقول لها: ««أسعد» كان يسكن هنا» وهكذا، حتى سألتني كم بيتًا سكن فيه «أسعد» في أعوامه الثلاثة؟

«العزال» كما نقول في «مصر»، أو الانتقال من بيت إلى بيت هو نوع من العذاب بلا شك، ففضلًا عن الجهد المبذول، فإن المطلوب أن تهدم عالمك الذي كنت تعيش فيه وأن تحشر أركانه بكل هيبتها في مجموعة من الصناديق، لتكتشف أن ذكرياتك في المكان ليس بوسعك أن تفعل بها ما تفعله بأشيائك، وبرغم ذلك فإن «العزال» يمنحك مكانًا جديدًا، بتجربة جديدة، بذكريات جديدة، بروح جديدة، فإما أن تتواءم معه وتنسجم فيصبح المكان الجديد صديقًا لك، أو يقع النفور فتتعامل مع الواقع على مضض على أمل في «عزال» جديد، وربما من الغريب أن أفكر هكذا وأنا

المسافر دومًا، لكن أليس من حق المسافر أن يجد صديقًا عند العودة؟

(٢)

في مخيمنا التدريبي الأخير برواندا طلبت من الأصدقاء ـ الذين كانوا متدربين حال وصولهم قبل أن يصبحوا أصدقاء حال رحيلهم ـ أن يكتبوا لي على صفحتنا التي جمعتنا على «فيسبوك» بخبر وصولهم إلى بلادهم فأطمئن، ثم اتفقت مع نفسي على أن أفعل ذلك أيضًا، أن أبلغهم حال وصولي إلى السكن الأخير، لكنني اكتشفت أنني لا أصل، إنه السفر والانتقال والترحال.

(٣)

«منجية» تختار بدقة اقتباساتها، قرأت على تويتر ما نقلته عن أن «سهل بن عبد الله المروزي» عوتب في كثرة الصدقة فقال: «لو أن رجلًا أراد أن ينتقل من دار إلى دار أكان يُبقي في الأولى شيئًا؟»، لم يلفت نظري من المقولة أمر الصدقة والإحسان وصلاح الأوائل، بل هذا اليقين الذي امتلكه «سهل».

كثيرون منا يعربون عن إيمانهم العميق بأمر ما، لكنهم يعيشون في انفصال تام عنه في حياتهم اليومية، وكأنهم في تناقض مع ما يؤمنون به، أما سهل فعاش أمر القيامة والخلود كحقيقة يراها رأي العين ويستعد لها، وتصرف كأنه في حال «العزال»، ينتقل من بيت إلى بيت، ومن ثَمَّ فإن ظاهر الحال أنه يُخرج ما لديه من مال كصدقات، لكن الواقع بالنسبة إليه أنه بيقين يعد بيته الجديد الذي سينتقل إليه.

مثل يقين أحدنا عندما يشتري أرضًا جديدة، فيجلب المختصين ليرسموا له شكل داره المأمولة، ويدخل في حوار طويل بشأن تفاصيلها مع هؤلاء الرسامين والمهندسين، يجادلهم في كل صغيرة وكبيرة، ولم لا وهذه داره الجديدة التي سيقضي فيها عمره؟ وهذا ما كان يفعله سهل باليقين ذاته وهو يصرف أمواله في الصدقات ليزين بها بيته الأخير.

(٤)

عندما بلغت الستين اكتشفت أنني زرت أكثر من سبعين دولة، وأنني مررت بالأمازون، وبمنطقة القطب الشمالي وأنني شهدت حروبًا عديدة، بعضها يخصني مباشرة، وأنني مررت بتجربتيْ المرض والاعتقال، وأنني التقيت مسيحيين يختلفون عن جيراني في «مصر»، ومسلمين غير المسلمين الذين أنا منهم، وبوذيين ويهودًا وسيخًا وهندوسًا وملاحدة، وأنني حاورت قادة وصعاليك، ساسة ومقاتلين، وصادفت أناسًا تفوقوا على الشياطين، وآخرين كالملائكة، وأن حياتي شهدت صعودًا وهبوطًا وصعودًا وهبوطًا، وأنني عرفت الحب وتجنبت الكراهية، وذقت طعم الندم، وأنني في ذلك كله انتقلت بين عشرات البيوت وغرف الفنادق، وأنني أحببت الحقائب وأكنّ لها امتنانًا لدورها في كل «عزال»، ومرافقتي رحلتي، وأنني دائم الدهشة والتساؤل، وأنني كنت أفرح بالجديد، وأحنّ إلى القديم، وتلك ما يسمونها حياة صاخبة.

عندما وصلت إلى هذا العمر قلت لنفسي: قد بلغت سنَّ الرحيل، ربما تغادر الآن أو بعد عشر سنوات، الله وحده يعلم بالأجل، وتصورت نفسي شخصًا صدر بحقه حكم بالإعدام ثم سئل عن أمنيته الأخيرة، ماذا تريد؟ وبدأت أفكر فيما سميته مشروع العشر الأواخر.

(٥)

غريب أمر الإنسان؛ تنتابه في هذا العمر مشاعر متناقضة، هل يستمتع بما حرم منه في حياته، ويطلق لنفسه العنان، قبل أن تحين ساعة الرحيل، أم يقضي ما تبقى من عمره متصوفًا ناسكًا؟ هل يصرف ما تبقى من حياته في راحة ودعة، أم يصر على مواصلة هذه الحياة المضنية المجهدة حتى اللحظة الأخيرة؟

(٦)

في هذه السن تجد طريقك إلى «مخزن العمر»، تدخل على أطراف أصابعك، تحاول أن تقوم بجرد مخزونك وقد غطته الأتربة، تزيلها بحرص وتحاول أن تتذكر كل شيء، وتقيّم كل شيء، تضحك أحيانًا وتبكي أخرى، وتسأل نفسك ألف سؤال وسؤال: عن جدوى ما قضيت من حياة فوق ظهر الأرض، عن الإخفاقات والنجاحات، عن الناس، الجيران والأصدقاء والخصوم والأعداء، عن «الآخرين» إجمالًا، لكن السؤال الأعظم يمكن صياغته كالآتي: إنك لم تُخلق عبثًا، لقد أتيت إلى هذه الدنيا لغاية وهدف وحكمة ومهمة، الآن وأنت في نهاية المهلة التي منحت لك، وأنت في نهاية الرحلة، هل تشعر بأنك حققت الهدف منها، هل أنجزت ما كان عليك أن تنجزه؟

(٧)

وأنت في «مخزن العمر» ستجد تجارب رائعة ودروسًا عظيمة، لكن الزمان للأسف لن يسمح لك بالاستفادة منها، لكنه سيكون كريمًا معك بمنحك فرصة التعبير عنها، سوف تتقمص دور الحكيم وتقول للشباب: اسمعوا مني، فأنا أعرف حق المعرفة حياة الشباب

لأنني مررت بها، لكنكم لا تعرفون حياة الشيوخ لأنكم لم تمروا بها بعد، تعالوا أقل لكم ما خفي عنكم، وربما تردد في نفسك ما قاله الروائي البرتغالي «جوزيه ساراماغو»: «لا الشباب يعرف ما يستطيع، ولا الشيخوخة تستطيع ما تعرف».

لكنك ستتحمس وتخبرهم عما قاله «فيكتور هوغو» من أن سرَّ العبقرية هو أن تحمل روح الطفولة إلى الشيخوخة، ما يعني ألا تفقد حماستك أبدًا، أو ربما ستقرأ عليهم ما قالته «لطيفة الزيات» في «الشيخوخة وقصص أخرى»: «قد يطعن الإنسان في السن ويضطر إلى تغيير عدسات القراءة المرة بعد المرة، قد لا تحمله ساقاه ويضطر إلى الاستناد إلى عكاز أو إلى ذراع بشرية، ولكنه لن يستشعر أبدًا برد الشيخوخة، ولا الإحساس بانعدام الوزن إذا ما ظل يناطح، يبدأ عملًا وينهيه، يقبل تحديًا فكريًا أو ماديًا ويتجاوزه، يتبين منتشيًا ومحتضنًا للذات المزيد من القدرة على المناطحة.. على المعرفة والتوصل إلى الهدف. لا يشيخ الإنسان طالما ظل عقله يضفي على وجوده معنى، يغنيه بهذا الوهج المتواصل الذي لا يشتعل فجأة ويخمد، الذي يدفئ ولا يحرق، هذا الوهج الأزرق زرقة غاز البوتاجاز النقي، الهادئ هدوء اليقين».

(٨)

أسافر إلى المناطق الرمادية في التاريخ والجغرافيا ثم أعود فأحكيها حكايات، هكذا كتبت يومًا أصف ما أفعله في سفري، إنني أتوجه إلى المجهول ثم أرجع إلى الناس فأقص عليهم ما رأيت. الموت مجهول، مهما أخبرتنا عنه الكتب فإنه مجهول لا نعرف عالمه ولا مفرداته، ولا ما يمكن أن نراه هناك، أحقُّ ما

يقال من أنك ستجد نفسك فجأة تعلو وتعلو وتنظر فترى جسدك مسجى وقد أحاط به محبوك يبكونك وأنت لا تستطيع الحراك؟ هل ستلتقي حقًا بمن تحب فيستقبلك استقبال العائد من السفر ثم تجلس فتحكي لهم آخر أخبار الدنيا؟ لا أحد يعلم، ولا أنا، وعندما أعلم لن أستطيع هذه المرة أنا أعود «فأحكيها حكايات».

(٩)

يغيظني هؤلاء الذين يتحدثون عن شخص مات فيقولون في رتابة: الله يرحمه، جملة اعتراضية سريعة، مثلما تقول لشخص صباح الخير وأنت في قرارة نفسك لم تستحضر روح التمني أن يكون يومه بحق خيرًا، «الله يرحمه»، كلمتان ينطق بهما الناس بلا روح ولا حياة، ليت الذين يحبونني يتمهلون قليلًا عندما يتذكرونني، يستحضرون روح الصلاة بين يدي العلي القدير ثم يقولون ـ أو بالأحرى يدعون ـ «الله يرحمه»، ليتهم يأتون حيث أرقد فيحكون لي حكايات حتى ولو لم أسمعها.

(١٠)

ترى هل أسأت إلى حد؟ هل من غاضب؟ هل من غير مسامح؟ هل من مظلوم؟... ترى هل ما لدي من «عزال» ثقيل أم خفيف؟ يا ويلي!

(١١)

قبل عدة سنوات رأيت في المنام جنازتي، بالتحديد «كادرًا» منها كما نقول بلغتنا المهنية، النعش مائل يحمله كثيرون برغم أنني أينما حللت غريب، فمن أين أتى هؤلاء المشيعون؟!

(١٢)

كل شيء في «البوسنة» جميل حتى مقابرها، تجاور الناس وليست في مكان معزول مظلم مخيف كما في بلادنا، جميل أن ترقد فلا تشعر بوحدة! يمر عليك الناس فيقرأ بعضهم عليك الفاتحة حتى وإن كان لا يعرفك، مقابر «شيك» نظيفة تغسلها الأمطار وتكسوها الثلوج ثم تزينها الخضرة والأزهار، رأيت بعضها على مرتفعات تطل على «سراييفو»، سألت عن هذه الأرقام التي تحملها بعض العصي المزروعة هنا وهناك، فقالوا إنها تدل على أن المقبرة محجوزة لمن اشترى، معذورون هؤلاء المشترون، فالمكان «يشرح القلب» وربما «يرد الروح»! ناهيك عن أنه يطل على أحلى ما رأيت في هذا العالم، تمنيت لو أن لي واحدة.

(١٣)

أمنيتي الأخيرة أن أفعل فعل النسر، فإنه إذا ما شعر بدنو أجله حلَّق عاليًا إلى أن يأتيه الأجل محلقًا.





عن الذات والحرب والثورة

أسعد طه:

كاتب صحفي وصانع أفلام وثائقية، مصري من مواليد مدينة السويس عام 1956، بدأ حياته المهنية في الصحافة المكتوبة، ثم عمل بالإذاعة، وبعدها بالتلفزيون كمراسل في مناطق الحروب والأزمات ثم تخصص في صناعة الأفلام الوثائقية.

كتب لصحف عربية أبرزها الحياة والشرق الأوسط والأهرام، والعديد من المجلات الأسبوعية والشهرية، وعمل مع إذاعة الشرق العربية من باريس، ومع التلفزيون المصري، والتلفزيون السعودي، وقنوات MBC، والجزيرة، والعربي. وكتب لعدة مواقع أبرزها هافينغتون بوست عربي.

شارك في تغطية الحروب في يوغسلافيا، والشيشان، وجنوب السودان، والصومال، وألبانيا، والكونغو، وتنقل في مناطق الأزمات الدولية.

هنا حصيلة ذكرياته لثلاثين عاما في أكثر من سبعين دولة، بعناوينها الرئيسية: الذات والحرب والثورة.

الثمن: ١٤ دولاراً

أو ما يعادلها


ISBN 978-614-431-163-9

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

المكتب الرئيسي - بيروت

هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ - ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧

E-mail: info@arabiyanetwork.com